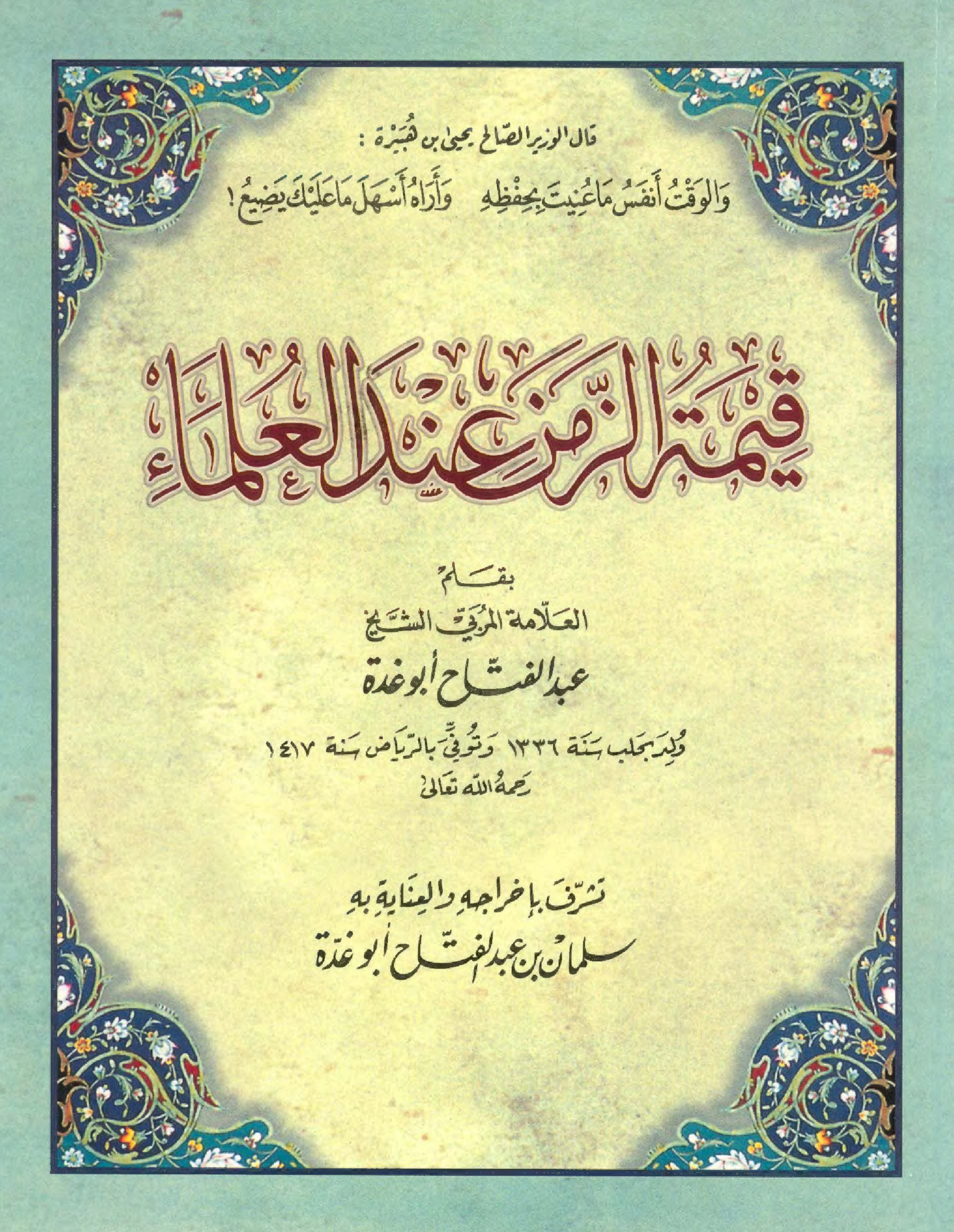


مكتب المطبوعات الإسلامية   دار البشائر الإسلامية

قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى :

المَـرْءُ عنـوانُ أمره : عُنْـفُوَانُ عمـره .



قال الوزير الصالح يحيى بن هُبَيْرة :

وَالوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظِهِ ... وأراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضيعُ !

قيمة الزمن عند العلماء

بقلم

العلامة المربي الشيخ

عبد الفتاح أبو غدة

وُلد بحلب سنة ١٣٣٦ وتوفي بالرياض سنة ١٤١٧

رحمه الله تعالى

تشرف بإخراجه والعناية به

سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

مكتب المطبوعات الإسلامية

دار البشائر الإسلامية

الطبعة الأولى في لبنان ــ بيروت ١٤٠٤ = ١٩٨٤
الطبعة الثانية في باكستان ــ لاهور ١٤٠٥ = ١٩٨٥
الطبعة الثالثة في مصر ــ القاهرة ١٤٠٦ = ١٩٨٦
الطبعة الرابعة في لبنان ــ بيروت ١٤٠٧ = ١٩٨٧
الطبعة الخامسة في لبنان ــ بيروت ١٤١٠ = ١٩٩٠
وهذه مَزِيدة كثيراً على الطبعة الرابعة وأتمُّ منها
الطبعة السادسة في لبنان ــ بيروت ١٤١٥ = ١٩٩٥
الطبعة السابعة في لبنان ــ بيروت ١٤١٧ = ١٩٩٧
الطبعة الثامنة في لبنان ــ بيروت ١٤١٩ = ١٩٩٨
الطبعة التاسعة في لبنان ــ بيروت ١٤٢٠ = ١٩٩٩
الطبعة العاشرة في لبنان ــ بيروت ١٤٢٢ = ٢٠٠٢
الطبعة الحادية عشرة في لبنان ــ بيروت ١٤٢٤ = ٢٠٠٣
الطبعة الثانية عشرة في لبنان ــ بيروت ١٤٢٦ = ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة عشر في لبنان ــ بيروت ١٤٣٠ = ٢٠٠٩
الطبعة الرابعة عشر في لبنان ــ بيروت ١٤٣١ = ٢٠١٠
الطبعة الخامسة عشر في لبنان ــ بيروت ١٤٣٣ = ٢٠١٢

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م

بيروت ــ لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb
website: www. dar-albashaer.com

قال الشيخ ابـن عطاء الله الإسكندري
رحمه الله تعالى : **الأنفـاسُ جواهـر .**





٥

أشجان محبّ

فاضت عواطف أخي محمد زاهد عندما قرأ هذا الكتاب، وتذكّر الوالد رحمه الله فكتب هذه المقطوعة النثرية الجميلة:

رحمك الله يا أبتاه! يا وارثَ الأنبياء، وإمامَ العلماء، رأيتَ العلم أفضل ما اكتُسب، وخير ما طُلِب، فأقبلتَ عليه، وحَلَلت حَبْوَتَك لديهِ، فكان لكَ ذُخراً لا يُخاف كَسَادُهُ، وكنزاً لا يُخشى نَفَادُه، وإن كثُر مُرْتَادُهُ.

رحمك الله يا أبتاه! كنتَ عالِمَ العلماء، وتقيَّ الأتقياء، وصالحَ الصلحاء، وبليغَ البلغاء، إذا ذكرتَ الله اخضلَّت عيناكَ بالدموع، وتجافت بك عن المضاجعِ الضلوع، عرفتَ الدنيا معبراً لدار المقام، فتأسَّيتَ بسنةِ خيرِ الأنام، داعياً إلى هَدْي الإسلام، يزينُك من الله نور الإيمان، وفصيح البيان، تَحِنُّ المحافل والمنابر لكَلِمِك الجواهر، في حكمةِ اللبيب، وأناةِ الأريب.

لله دَرُّك يا أبتاه! أعدْتَ إلى الإسلام نشراً ذبلت رياحينه، وقيل اندثر وقضى حِيْنُه، ما كانت حَيَاتُك إلاّ عبراً وعِظات، في حفاظك على الأوقات، واغتنام الدقائق واللحظات.

ما رأتك عيناي إلاّ وأنت تتلو آيَ القرآن، أو تطمئِنُّ بذكر الرحمن، أو تخدُمُ سنةَ سيد ولد عدنان، وما وَعيتُك إلاّ مُكبّاً على قراءة كتاب، أو تحرير جواب، تقتَنصُ الفرائد، وتُذخِر الفوائد، لا يعروك الفتور والوهن، فأنت ــ وايم الله ــ خيرُ مخبرٍ عن «قيمة الزمن»!

كانت حياتك «خِطَّة عَمَل»، لا كَلَل فيها ولا مَلَل، مَرَامُك أن ترفع للدين أعلامَه، وأن تنصب للعلم خيامَه، نشَرتَ من الكتب ما ناهز الستين، وفي الجَعبة منها المئون، ولو كان في العمر سَعَة، لبقيتَ تَطَّرِح الراحَةَ والدَّعَة، وأبرزت منها اللآلىءَ والدُّرَر، في أبهى الصور، فكنت الرائد الأوَّل، ومَنْ عليه في المعضلات المُعَوَّل.

كم تزاحمت عليكَ الهُموم، وادْلَهَمَّت في سمائِك الغيوم، وطَحَنَتْكَ الأسقام، وبجسمك حَلَّ السَّقَام، وَتَغَشَّى ناظِرِيك الغَمَام، فما زاوَلَك الخُلُق الرضيُّ والقلب السليم، وفوضت الأمر إلى السميع العليم، لا يفتُرُ لسانُكَ عن آي الذكر الحكيم، وما ثناك ذلك عن مطالعة الأسفار، في المقام والأسفار، أطرافَ الليل وآناءَ النهار، ما قرأتُ خبراً في هذا الكتاب، إلاَّ رأيت طَرَفاً منه في سيرتك العُجاب، وبحرك الزاخر العُبَاب، جمعت الفضائل، وأعدت سيرة السلف الأوائل.

كان يومك يبتدأ بصلاة الفجر وما قبل الفجر، ثم بتلاوة ما تيسَّر من الآيات والذكر، ثم تغتنم صفاءَ الفكر، فتنصرف إلى المطالعة والمراجعة، وعيون أهل الدار هاجعة، حتى إذا حانت الثامنة أو التاسعة، أُعد لك الإفطار، فأخذت منه ما يقيم الصُلب ويغذي اللُّب، ثم صليت الضحى، اقتداء بالحبيب المصطفى صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله ومَنْ له اقتفى، وسألت الله بعدها وهو خير مسؤول، أن يمنحك التوفيقَ والقَبول، ثم عدت إلى المسوَّدات الآتية من المطابع، تراجع عوارها، وتُجلي نُوارها، وتضمُّ إليها ما استجدَّ عندك من فوائد، وقلائد فرائد، فإذا حانت الظهر، تركت لها ما في يديك، وأقبلت عليها بأصغريك، تفيء نفسك إلى مناجاة الرحمن الرحيم، وتستمد العون من الحكيم العليم.

ثم أخذت ساعة تريح جسمكَ المهدود، وفكركَ المكدود، تعود بعدها إلى الكتب والدفاتر والقُصاصات، أو الإجابة على المراسلات. نعم، هكذا كنت، تأنس بالكتاب، وتعيش مع السلف الأحباب، تَزَوَّر من إضاعة الوقت في الزيارات، حتى إلى منازل البنين والبنات، إلاَّ ما كان من الواجبات اللازِبَات، ومع ذاك فلا تأتي إلاَّ والخُوان منضود، وتعجّل بالطعام لتعود، كأنك في سباق مع الزمنِ انطائر، لنشرِ ما دُثر من المآثر، وتنويرِ العَمِيِّ من البصائر.

ولئنْ كُنتَ ــ لأمرٍ طارىء ــ بعيداً عن القراءة والأسفار، لهَجَتْ شَفَتَاكَ بالذكر والاستغفار، ومناجاة الواحد القهَّار، وفي جيبك القلم والورق، تقيِّدُ بها ما في ذهنك الساعةَ بَرَق، فهي خَاطرةٌ ليشارَ إليها في «أدب الإسلام»، أو حلُّ معضلة استعصت على الأفهام، أو بيتُ شعرٍ على ظهر كتاب، أو مسألة من طالب علم تحتاج إلى بحث وجواب.

رحمك الله يا أبتاه! عرف مقدارَكِ الكرام، وجفاك الهَمَلُ واللئام، أَمّا أنت فأعرضت عن الطَّغَام، وألقمتهم حَجَر «سلام»، ألهمك الله إلى الخيرِ السداد، وألقى محبَّتَكَ في قلوبِ العباد، فحَبَوك المحبَّةَ والوداد، على القرب والبِعاد.

رحمك الله يا أبتاه! كنت للإسلام ثِمَالاً، وللدهر جَمَالاً، في المحافل بدراً، وفي المواهب بحراً، تَرَكَ مُصَابُكَ في الإسلام ثَلْمَة، وفقدنا من كان يدعى لكلِّ مُلِمَّة، ولم يبق بعدك إلاَّ من يُدعى للحَيْس، وكان فقدك أشد من فقد قيس:

وما كانَ قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنّه بُنيَانُ قومٍ تهدَّمَا

محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة



تقدمة المعتني بالكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القَهَّار، العزيز الغفَّار، مُقَدِّرِ الأقدار، مصرِّفِ الأمورِ، مكوِّرِ الليلِ على النهار، تبصرةً لأُولي القلوبِ والأبصارِ، الذي أيقظ من خلقِه مَنْ اصطفاه فأدخلَهُ في جملةِ الأخيار، ووفَّق مَنْ اجتباه مِنْ عَبيدِهِ فجعلَهُ من الأبرارِ، وبَصَّرَ من أحبَّه فزهَّدَهم في هذه الدار، فاجتهدوا في مرضاتِهِ والتأهُّبِ لدار القرار، واجتناب ما يُسْخِطُهُ والحذرِ من عذاب النار، وأخذوا أنفسهم بالجِدِّ في طاعته وملازمة ذكره بالعشيِّ والإبكار، وعند تغايُرِ الأحوال وجميع آناءِ الليلِ والنهار، فاستنارتْ قلوبهم بلوامع الأنوار.

أحمَدُهُ أبلغَ الحمدِ على جميعِ نعمِهِ، وأسألُه المزيدَ من فضلِهِ وكرمِهِ، وأشهدُ أن لا إلـه إلاَّ اللهُ العظيمُ، الواحد الصمد العزيز الحكيمُ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيُّه وحبيبُه وخليلُه، أفضلُ المخلوقين، وأكرمُ السابقين واللاَّحِقين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، وآلِ كُلٍّ وسائِرِ الصالحينَ[1].

أما بعد:

فهذه هي الطبعة المزيدة المستوفية لهذا الكتاب الثمين، والعِلْق النفيس، المؤنس الأنيس، المحفِّز لذوي التأسيسِ والترئيسِ، أُزجيها إلى طلبةِ العلم

(١) استهلالة مقتبسة من مقدمة الإمام الرباني النووي لكتابه المبارك «الأذكار».

وأهلـه، ومحبِّيه وراجي فضلِـهِ، بعد أن اجتهدتُ في خدمته، وأثبتُّ فيه ما أثبته الوالد الكريم، عليه رحمات الرحمن الرحيم، أو أشارَ وأمَرَ بإدراجِهِ وإلحاقِهِ.

وقد أضاف العبد الفقير والابن الصغير إلى ما جمعه والده رحمه الله وطيَّب ثـراه نُتَفـاً مـن النصـوص والأشعـار، ومُلَحـاً مـن القَصـص والأخبـار، مما وقف عليها في مطالعاته ورأى أن لها تعلقاً بالموضوع، أو أن فيها تمامَ أو إتمامَ الفائدة، سائلاً المولى الكريم أن يكون وفَّقه وسدده في سَيْرِه كُلِّه.

وقد ميَّزها بختمه لهـا بـ س، أو سلمـان، أو بوضعها بيـن معقوفيـن، أو بالتنصيص على أنها من إضافته، والله يتقبَّلها مِنْهُ بمَنِّه وكرمه، ويتجاوز عنه بإحسانه وعِظَمِه.

وقـد حَرَص حِرصاً مُملاًّ عـلى عزو الفضل لأهلـه، وإحالـة العلم إلى صاحب نَظْمِه أو نَقْلِه، سيراً على سَنن وأدب السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

وسترى في مقدمة الوالد كرّم الله مثواه، أسفه من المتشبِّعين بما لم يُعْطَوْا، الذين لا يعزون الفضل لأهله والعلم لكاتبه أو جامعه، ممن أخذوا رَقْمَه وجَمْعَه وعزوه لأنفسهم، وتشبّعوا بما لم يعطَوا!

وربما ظنّ بعضهم ألا حرَج في ذلك إذا عزا للمصدر الأصل الذي اقتبس منه الوالد رحمه الله، بعد أن يطوي ذكره، وكأنه ما سمع به ولا رآه!

وذلـك تـوهُّـمٌ شيطـانـي، وتلبيس نفسـانـي شهـوانـي، قـال الله تعـالـى: ﴿**ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم**﴾، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يشكر اللهَ من لا يشكُر الناس»، وقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه».

قال العالم اللغوي الضليع أبو نصر الفَارَقي في خاتمة كتابه «الإفصاح في

شرح أبيات مشكلة الإعراب»[١]: «وقد جعلنا ما أوضحناهُ من ذلك، وقَرَّبنا من طريقته لكلِّ سالك، زكاةَ ما رزقنا الله من نَبَاهةِ العلم ورياسةِ الفضلِ، فمن أخذَ منه فائدةً فليروِها عَنَّا ولِيَنْسِبها إلينا، ولا يحمِلْهُ العجزُ والحسدُ على جَحْدها والإضرابِ عَنَّا فيها، فالفضيلةُ لنا في جَمْعها وحَصْرِها، والسبقُ لنا في تَسْهيلِ وَعْرِها. وما أولى ذوي الفَضْلِ بالإنصافِ، والمَيْل عند الحقائق إلى الاعترافِ، فهذهِ أخلاق العلماء وما سواها فمُطَّرَحٌ مرذول يقول به الجهال، ونحن نستعيذُ بالله من هذه الحال»[٢].

وبعدُ، فها هو ذا **«قيمة الزمن عند العلماء»** قد استوفى حقَّه، ونال مستحقَّه، داعياً متذلِّلاً، وراجياً متبتِّلاً إلى الله أن يباركَ فيه ويكتبَ له النفعَ والقَبول كما كتبه للطبعات السابقة، وأن يُسبغ على والدِي الرحمات الطيِّبَات الصيِّبَات، وعليَّ وعلى أحبابنا والمسلمين، وأن يسخِّرنا لخدمة العلم والدين، وأن يستعملنا في طاعته ومرضاته، وأن يختم لنا بالحُسنى وزيادة.

مُسْدِياً الشكر لشقيقيَّ الكريمين الأستاذ القدير المهندس الأديب الأريب محمد زاهد والدكتور الطبيب الحصين الألمعي النزيه أيمن لجهدهما ومساعيهما ومساعدتهما ومساندتهما في إخراج الكتاب والعناية به، وعلى التصدير الجميل الذي جادت به يراعة أخي محمد زاهد، فقد جَلَّى فيه غَيْضاً من نسمات سيدي العلامة الوالد أعلى الله مقامه في علِّيين، وكيف أن هذا الكتاب كان روحَ وخُلق سيدي الوالد رحمه الله وطيب ثراه.

---

(١) ص ٣٨٧.

(٢) وكم سألت نفسي وأنا أعمل في هذا الكتاب ـ مستعيذاً بالله ـ: هل ستصبح طبعات السارقين لهذا الكتاب بعد صدور هذه الطبعة المزيدة، مزيدة! وهل سأرى زيادات هذه الطبعة ملحقة في طبعات كتبهم القادمة! ارقب وتأمل! والمسلم التقي خيرَ حَكَم عَدْل.

اللَّهم خَلِّقنا بأخلاق هذا الكتاب، واجعلنا به من المقبولين، وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه

العبد الفقير إليه تعالى

سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة

جدة ١٥/ ٢/ ١٤٢٩

تقدمة الطبعة الثامنة للمؤلف رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ كل عون وتيسير، والصلاةُ والسلامُ الأتمَّانِ الأكمَلاَنِ على سيدنا محمد النَّبـي البشير النذير، وعلى آله وصحبه ومن سار على صِرَاطِهِ المستقيم المنير، إلى يوم الدين.

وجَزَى الله عنا خيرَ الجزاء علماءَ هذه الأمة المحمدية، الذين كانت سِيَرُهم الطيبة، وأعمالُهم الصالحة، وعلومُهم النافعة، وأوقاتُهم الرابحة: خيرَ قدوةٍ وحافزٍ للمستفيدين والطالبين، في حياتِهم وبعدَ مماتِهم، فاللهُ المسؤولُ أن يُغْدِقَ عليهم شآبيبَ الرحمةِ والرضوان، ويُسكِنَهم رفيعَ غُرَفِ الجنان، ويُحبِّبَ إلينا الاقتداءَ بهم في صالحِ القولِ والعَمَلِ والعِلمِ والسُّلُوك.

وبعدُ؛ فهذه الطبعةُ الثامنة من كتابي (قيمة الزمن عند العلماء)[١]، وقد أضفتُ إليه زياداتٍ كثيرةً هامَّةً جداً تربو على الثلث، وقد كنتُ أضفتُ إليه في الطبعة الخامسة زياداتٍ كثيرةً هامَّةً أيضاً، وعناوِينَ لمَقاطِعِه، وفِهرساً للأعلام فيه، لم تكن في الطبعةِ الرابعةِ وما قبلَها، راجياً أن يكون بذلك قد تكامَلَ مجموعُه، واستُوفِيَ موضوعُه، فيَزِيدَ النفعُ به والاستفادةُ منه إن شاء الله تعالى.

---

(١) كان الوالد رحمه الله يأمل أن تكون الطبعة الثامنة هي المزيدةُ الزيادة الثانية، لكنها لأمر يريده الله كانت الثالثة عشرة. س.

وأبقيتُ ترتيبَ الأخبار فيه على تسلسل سِنِيْ الوَفَيَات، ولم أرتبه على الموضوعات، ليتجلّى فيه تعاقُبُ الخالِفِ للسالِفِ على رعايةِ هذه الصِّفَةِ الرفيعةِ: (حِفظِ الوقتِ) عند العلماء.

وأسألُهُ عزَّ وجل أن يتقبَّلَهُ عَمَلاً صالحاً، ويَرزُقَنِي الإخلاصَ فيه وفي غيره مما كتبتُه أو خَدمتُه، ويَجعَلَني من الذين يَسْعَى نورُهم بين أيْدِيهم وبأيْمانِهم يومَ العَرْض عليه، بفضلِهِ وإحسانِهِ، وهو أرحَمُ الراحمين.

هذا، وإن كتابـي هذا: (**قيمةُ الزمن عند العلماء**)، حين صَدَر في طبعته الأُولى سنة ١٤٠٤، والطبعاتِ التي بعدَها، نَفَع الله تعالى به، وآتَى أفضلَ الثمرات الطيبة، ولقِيَ القبولَ والرواجَ الحسن، في محيطِ طلبة العلم والعلماء والمثقفين عامة، وحرَّك هِمَمَ كثير من الأساتذة الفضلاء، إلى الكتابة في موضوعِهِ والاستفادةِ منه والاقتباسِ من أخبارِهِ ونصوصِه.

فكتب فيه الأستاذ الدكتور عبد الستار نُوَير في سنة ١٤٠٦، كتابَه الذي تناوَلَ فيه الوقت من جوانب شتى ونواحي متعددة، وسمّاه بعنوان: (الوقت هو الحياة).

وكتب بعـد ذلك الأستاذ خلدون الأحدب في أول سنة ١٤٠٧، كتابه الذي أعطاه اسمَ (تأملات وسـوانح في قيمة الزمن)، وهو في جُلِّ أخباره ومُعظمِ نصوصه من كتابـي سابِق الذكر. ويبدو أن السيد خلدوناً قد أحبَّ كتابـي هذا حُبّاً جمًّا، حتى اقتبسه في كتابه بمضمونه ومصادره، ومَنَحه زيادة في العنوان.

وإنه ليسرني أن ينتفعَ هذا المحبُّ ــ أحدُ أبنائي في الطلب والتحصيل ــ بكتابـي، ويقتبسَه بجملته وجمهرته، وكنت أوَدُّ أن يَذكُرَ من أين اقتبَس هذه

النصوص التي أَلَّفَ كتابَه منها، أداءً للأمانة، فقد قال العلماء: من الأمانة في العلم عَزْوُهُ إلى قائِلِهِ أو ناقِله[1].

---

(١) قال الإمام أبو عُبَيْد القاسمُ بنُ سَلاَّم الهَرَوِي، ثم البغدادي، المتوفى سنة ٢٢٤ رحمه الله تعالى: «مِن شُكرِ العلمِ أن تستفيدَ الشيءَ، فإذا ذُكِرَ لك قلتَ: خَفِيَ عليَّ كذا وكذا، ولم يكن لي بهِ علم، حتى أفادَني فيه فلانٌ كذا وكذا، فهذا شُكْرُ العلم».

قال الحافظُ عبدُ الغني بنُ سعيد الأزديُّ المِصري، المتوفى سنة ٤٠٩ رحمه الله تعالى: «علَّقتُ هذه الحكايةَ مُستفِيداً لها ومُستحسِناً، وجعلتُها حيث أَراها في كلِّ وقت، لأقتدِيَ بأبـي عُبَيْدٍ وأتأدَّبَ بأدَبِه». انتهى من كتاب «التعريف بالقاضي عياض» لولده محمد ص ٨٢ و ٨٣، و «المزهر» للسيوطي ٢ : ٣١٩.

[وقال الحافظ عبد الغني أيضاً (وكان ألَّف كتاباً تعقَّب فيه الحاكم أبا عبد الله في كتابه «المدخل إلى الصحيح»): لمَّا وصلَ كتابـي إلى أبـي عبد الله الحاكم أجابني بالشكر عليه، وذكَرَ أنه أملاه على الناس، وضمّن كتابه إليَّ الاعترافَ بالفائدة، وأنه لا يذكرها إلاَّ عَنِّي».

انتهى من «المزهر» ٢ : ٣١٩.

وقال الحافظ السخاوي في «الجواهر والدرر» ١ : ١٨١ : «وصحّ عن سفيان الثوري أنه قال ما معناه: نسبة الفائدة إلى مفيدها من الصدق في العلم وشُكره. وأنَّ السُّكوتَ عن ذلك من الكذبِ في العلمِ وكُفره». اهـ.

وقال الإمام السيوطي في «عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد» ١ : ١١. في سياق كلامه: «لأن بركة العلم عزو الأقوال إلى قائلها، ولأن ذلك من أداء الأمانة وتجنّب الخيانة، ومن أكبر أسباب الانتفاع بالتصنيف». اهـ].

وجاء في كتاب: «تنزيه الأنبياء عما نَسَب إليهم حُثالةُ الأغبياء»، لأبـي الحسن علي بن أحمد السَّبْتي الأموي الأندلسي المعروف بابن الحُمَيِّر، في ص ٥٩، قولُه رحمه الله تعالى ــ وهو يشرح قصة النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم مع مولاه زيد وزينب، وما ورد فيها من آيات ــ :

«قال الله تعالى: ﴿فلمَّا قَضَى زَيْدٌ منها وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾، الوَطَرُ هنا: النكاح.

واعلم ــ رحمك الله ــ أنّ في هذه الآية فوائدَ جَمَّة، منها أنّ الله تعالى جعل فيها لزيدٍ =

وكتب بعد ذلك الأستاذ جاسم بن محمد بن بدر المطوِّع في أواخر سنة ١٤٠٧، كتابه الذي سمّاه: (الوقتُ عَمَارٌ أو دَمَارٌ)، وأكثَرَ فيه من النصوص التي نقلها من كتابـي، وبَنَى عليها نصائحَهُ وإرشاداتِه، ناسياً أو متناسياً عَزْوَها إلى مصدرها الذي التقطها منه، مجموعةً منسَّقةً محقَّقَة، وقد حَرَص كلَّ الحرص على أن لا يَذكر كتابـي أو يُحيل إليه، نعم عَزَا بعضَ النصوص إلى كتاب الأستاذ خلدون الأحدب، الذي قَبَس من كتابـي قبلَهُ، ولله في خلقه شؤون، ولله دَرُّ الإمام الشافعيّ إذ يقول: الحُرُّ من راعَى وِدَادَ لحظة، وانتَمَى لمن أفاده لفظة.

هذا الموضوع (قيمة الزمن) أو (الوقت هو الحياة) أو (الوقت في حياة المرء) أو (الوقت عمار أو دمار) أولُ من حَرَقه بالعناية والتأليف وغَصَّه بالكتابة

= صِيْتاً وشَرَفاً، خَصَّه به عن جملةِ الصَّحابة رضي الله عنهم، وذلك أنه لم يَذكُر في الكتاب منهم أحداً باسمه العَلَم إلاّ زيداً، وسبَبُ ذلك ــ والله أعلم ــ أن النبـي صلّى الله عليه وسلَّم كان قد تبنّاه قبلَ ذلك، فكان يُدعَى بابنِ رسول الله، حتى نزل عليه: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبائهم هو أَقْسَطُ عِنْدَ الله**﴾، فَسُمِّيَ بعدَ ذلك زيدَ بن حَارِثَة، فعوَّضه الله تعالى بأنْ سَمَّاه في كتابه باسمه العَلَم.

وهذه القولة ليست لي، ولا يَبلُغُ نَظَري إلى هذا القَدْر، وإنما ذكرها الإمامُ أبو بكر بن العربـي في بعض تواليفه، ولا أعلم هل هي له أو لغيره، وإنّ من غاص عليها لَغَوَّاص». انتهى.

قال عبد الفتاح: فانظر ــ وفقك الله ــ إلى تواضع هذا العالم الفاضل الجليل، كيف صَرَّح بأنّ هذا الفهم الدقيق الذي استُنْبِطَ من الآية ليس له ولا من عندِه، وأنَّ نظره لا يَبلغ إلى هذا القَدْر، وإنما هو للإمام أبـي بكر بن العربـي أو غيره.

فهذا ــ والله ــ التواضع الرفيع الذي زاد به سُمُوًّا وعُلُوًّا في نفس كل من يقرأ كلامَه، فرحمة الله تعالى عليه.

العبد الضعيف، فقد كتبتُ فيه صفحات طويلة وألقيته محاضرة عامة في سنة ١٣٩١، ثم انتشر من بعده فأخذ هذه الأسماء المتقدمة والعناوين المختلفة التي ذكرتها من استفاد مَنْ موضوعي وتنبَّه إليه مِن كتابتي فيه[1].

وكثيرٌ مِن المُتَعَالِمينَ في هذا الزمان يتساهلُ في النقل عن الكتب دونَ عزوٍ، موهماً القارىء أنَّ ما يوردُهُ هو مِن بناتِ أفكارِهِ وسهَرِ أسحاره، ومنهم

---

(١) للحافظ الكبير أبـي موسى المديني (محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني) المولود سنة ٥٠١، والمتوفى سنة ٥٨١ رحمه الله تعالى، كتابُ «تضييع العمر والأيام»، ذكره له صاحب «كشف الظنون» في حرف التاء، ولم يزد على اسمه شيئاً، وذكره الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» ٢: ٤١، في آخر الباب الثاني من أبواب كتاب آداب النكاح، ونَقَل عنه حديثاً عن ابن عمر مرفوعاً: «انظر في أي نِصاب تضعُ ولدك، فإنَّ العِرْق دَسَّاس». وقال العراقي: حديث ضعيف.

وعنوان الكتاب واضح أنه يتصل بحفظ الزمن والتحذير من (تضييع العمر والأيام)، أمَّا مضمونه على الحقيقة فلم أقف عليه بعد، وهذا العنوان في دلالته الظاهرة يُعَرِّفُنا أن السالفين رحمهم الله تعالى طَرَقوا بتآليفهم كلَّ ما يخطر للخالفيْن، وأجادوا فيه كعادتهم التي نشهدها من آثارهم، وما تركوا إلاَّ فُتَاتاً يسيراً، وقد صدق قول القائل: ما ترك الأوَّلُ للآخِر، ولكن عدَمُ وقوفنا على كتبهم وعدَمُ وصولها إلينا، جَهَّلنا بها، فظننا أننا فَطِنا إلى ما لم يفطنوا، وكنا نحن الغالطين!

وبعد كتابة ما تقدم رجعتُ إلى ترجمة الحافظ ابن المديني في «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبـي ٢١: ١٥٤، فرأيته ذَكَر في مصنفاته كتابه المذكور بعنوان أتمَّ، يتبيَّنُ منه ما كُسِرَ وبُنِيَ الكتاب عليه، فسمَّاه: «تضييع العمر والأيام في اصطناع المعروف إلى اللئام»، فعُرِفَ بهذا مضمون الكتاب، وأنه بعيدٌ تماماً عن موضوع حفظ الوقت والزمان، فهو في موضوع آخر كما رأيت، وأبقيت التعليقة لمعرفة ذلك، ويَبقَى كلامي في سَبْقِ السالفين إلى التأليف بكل ما يخطر للخالفين.

وكتبه عبد الفتاح أبو غدة

يوم السبت يوم العيد ١٠/ ١٢/ ١٤١١ بالرياض

مَنْ بلغتْ به الجرأة أَنْ ينتحل الكتبَ والمواضيعَ بزعم أَنَّ العلمَ مُشَاعٌ، فخالف بذلك أمانة العلم والدين، إذ الكتاب حقٌّ لمؤلفه لا ينبغي أن يعتدي عليه أحد.

وقد أصدر مجمع الفقه الإسلامي قراره رقم (٥) في دورته الخامسة في شهر جمادى الأولى من عام **١٤٠٩** مبيِّناً أن «التأليف والاختراع أو الابتكار هي حقوق خاصة لأصحابها، أصبحَ لها في العُرف المعاصر قيمةٌ ماليةٌ معتبرةٌ لتموِّل الناس بها، وهذه الحقوق مَصُونة شرعاً، ولأصحابها حقُّ التصرف فيها، ولا يجوز الاعتداء عليها».

وكتابي (قيمة الزمن عند العلماء) ــ على ما فيه من قصور ــ حَصِيلةُ نحوِ عشرين سنة، من مطالعاتي ومراجعاتي في كتب العلم: التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، والرجال، والتراجم، والبُلدان، واللغة، والنحو، والأدب، والأخلاق، وسواها، في جَمْعِ مادَّتِه، وانتخابِها، وضبطِها، وعَزْوِها إلى مصادرها ومراجعها، والمقابلةِ بينها، وتمحيصِها، وسبكِها، وتحقيقِها، وإخراجِها بأبهى حُلَّة[1].

---

(١) **قلت**: بل ــ والله ــ كلُّ كتب والدي كذلك ولا سيما المؤلفات، وذلك جَلِيٌّ لمن تأملها وتَنَزَّهَ فيها، يشهد بذلك الموافق والمخالف. فما كان رحمه الله يبخل بنقطة أو حركة فضلاً عن كلمة أو فائدة، أو تنقيح أو تحرير أفنى فيه عمره واستفرغ فيه جهده، وما ذاك منه رحمه الله إلاَّ رغبة في نفع طلبة العلم والنهوض بهم، وهُياماً واحتراقاً منه بالعلم، ورغبة وأملاً منه في ثواب الكريم، وتَرَحُّم الأحباب والمستفيدين عليه، فحاله كما قال العلامة الفاضل الأديب ياقوت الحموي رحمه الله تعالى في مقدمته لكتابه العجيب «معجم الأدباء» ١ :٥٧، أو ١ :١٢ من أنه لم يؤلِّفه لسلطانٍ يَجْتَدِيه، ولا لِصَدْرٍ يَرْتَجِيه، وإنما أَلَّفَهُ لشَغَفِه بما حواه من العلم، ورغبةً في التَّرَحُّم عليه من قارئه، قال: =

وليس هذا مني ــ عَلِمَ اللهُ ــ حرصاً على الشهرة أو الفخفخة، ولكن هي الأمانَةُ والأدبُ الذي عَلَّمناهُ الإسلام، وصاغَهُ الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه بأدبِهِ وبيانِهِ الرفيع، الذي أوردتُهُ آنفاً.

وإنّي قد التزمتُ في كتبي صغُرت أو كبُرت، عَزْوَ كلِّ خبرٍ أو جملةٍ، بل كُلِّ كلمةٍ، إلى قائلها مع تسميةِ المصدر وتعيينِ الجزء والصفحة فيه، أداءً للأمانة العلميةِ، وتَمْتِيناً للثقة بالمنقول.

والذي لاحظته أن (بعض الناس) يستفيدون من هذه الطريقة أنهم ينقلون من كتبي، ويعزون إلى المصادر التي عزوتُ إليها بالجزء والصفحة، كأنهم أخذوا منها استقلالاً ومباشرة، دون أن يكونوا قد استفادوا ذلك من كتابي وعزوي... ووقفوا عليه من طريق نقلي له... ويتجاهلون كل هذا... ويتعالمون بغيره!

ولهذا كان بعضُ عَبيدِ الله الوهّاب يذكرُ ما ينقله من كلام العلماء في كتبه

= «وإنَّما تَصَدَّيتُ لجمع هذا الكتاب لفَرْطِ الشَّغَفِ والغَرَامِ، والوَجْدِ بما حَوَى والهُيَام، لا لسلطانٍ أجتديه، ولا لِصَدْرٍ أرتجيه، غيرَ أني أرغبُ إلى الناظرِ فيه أن يترحَّم عليَّ، ويَعطِفَ جِيْدَ دُعائِه إليّ، فذلك ما لا كُلفةَ فيه عليه، ولا ضَرَرَ يَرجعُ بِهِ إليهِ، فَرُبَّمَا انتفَعتُ بدعوتِهِ، وفُزتُ بما قَدْ أمِنَ هو من مَعَرَّتِهِ». اهـ.

ونَصُّ العلامة ياقوت أخذته من إحدى أوراق الوالد وأدرجته هنا بناء على رغبته، فقد كتب رحمه الله على الورقة التي كتبه فيها: «تحفظ فإنها مهمة جداً لتُدرج في مكان مناسب من كتبي إن شاء الله تعالى». وأسأل الله أن أكونَ قد وُفِّقت لذلك، ولله درُّ القائل:

لقَدْ بَذَلْتُ لكم نُصْحِي بلا دَخَلٍ فاستَيْقظوا إنّ خيرَ العلمِ ما نَفَعا

سلمان.

أو في مقدّماته لبعضِ كُتبه دون عزوٍ إلى مصدر، فضلاً عن تعيين الجزء والصفحة، حتى يَسْتَجِرَّ المستفيدَ منهُ إلى النقل عنه مباشرة، وليقطع على المتشبِّعين بما لم يُعطوا هذه الطريقة التي يسلُكونها.

ومع هذا فإنّي على ما التزمتُ، ذلك لأن سلوك أولئك هذه الطريقة لا ينتفي مَعْهُ حصولُ الثوابِ الدائمِ الموعودِ به في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَوْ عِلمٌ يُنْتَفَعُ به»، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمدُ لله رب العالمين.

وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

في الرياض ٧ من محرم سنة ١٤١٦

تقدمة الطبعة الرابعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأرسل إلينا رسوله النبيَّ المكرَّم، سيِّدَنا محمداً صلَّى الله عليه وسلَّم، ورضي الله عن أصحابه وتابعيهم بإحسانٍ ومن سار على سَنَنِهم فعَلِمَ وعَلَّم أو تعلَّم.

أما بعد، فقد أرشدنا الله تعالى في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيِّه العظيم، إلى أهمية الوقتِ والتوقيتِ في حياتِنا وأعمالِنا، فرَسَمَ لنا الأحكام الشرعية، وحدَّد لنا أوقاتَها ومواعيدَ أدائها، وحذَّرَنا من التساهل والتجاوز بها عن توقيتها. وفي ذلك منه سبحانه تعليمٌ وتربيةٌ لنا على تنظيم الأعمال والقيام بها في مواقيتها المحدَّدة، قال عزَّ وجل: ﴿**إنَّ الصَّلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً مَوْقُوتاً**﴾[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى الله؟ قال: الصلاةُ على وَقْتِها». رواه البخاريُّ ومسلمُ والتِّرْمِذيُّ والنَّسَائيّ[2].

---

(١) من سورة النساء، الآية ١٠٣. ومعنى (كتاباً): فَرْضاً مكتوباً. و (موقوتاً): في أوقاتٍ محدَّدة.

(٢) البخاري في «صحيحه» ٢: ٩ من «فتح الباري»، في كتاب المواقيت (باب فضل الصلاة لِوَقْتِها)، و ٦: ٣، في أول كتاب الجهاد (باب فضل الجهاد والسِّيَر)، و ١٠: ٤٠٠، في أول كتاب الأدب (باب البِرِّ والصِّلَة)، و ١٣: ٥١٠، في كتاب التوحيد (بابٌ وسَمَّى =

والصلاةُ تتكرَّرُ من المسلمِ والمسلمةِ في اليوم والليلة خمسَ مرات، فإذا أدَّاها المسلمُ في أوَّلِ وقتها كما طُلِبَتْ منه، غَرَسَتْ في سلوكه خُلُقَ الحِفاظِ على الوقت، والدِّقةِ في المواعيد، والانتباهِ لتوقيتِ كل عملٍ بوقتِهِ المناسبِ له، المُوْصِلِ إلى الغايةِ منه على الوجهِ الأتمِّ الأكمل.

ومن هذا تبدو لنـا الحكمةُ البالغـةُ: لماذا خَـصَّ الله تعـالى ثـم النبـيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الصلاةَ بالذكرِ من بين سائر التكاليف الكثيرة المُوَقَّتَة، لأنها تتكرَّر كلَّ يوم خمسَ مرات، ففي زمنٍ يسيرٍ ينطبعُ سلوكُ فاعِلِها بخُلُقِ ضَبْطِ الوقت، ودقَّةِ الوَعْد، وأداءِ كل عملٍ في ميقاتِهِ المخصَّصِ له على الوجهِ الأمثل، وَيصيرُ ذلك له عادةً وطبيعةً مُتَّبَعَةً في سلوكِهِ وحياتِهِ.

وقد رسم الشرعُ الحنيف: التوقيتَ في تكاليفَ كثيرةٍ غيرِ الصلاة، فوقَّتَ في أحكام الحج، والزكاة، والصوم، وزكاة الفطر، والأضحية، والسفر، والتيمم، والمسح على الخفين، والرَّضاع، والطلاق، والعِدَّة، والرَّجْعَة، والنفقـة، والـدَّيـن، والـرَّهْـن، والضيـافـة، والعَقِيقـة، والحيـض، والنفـاس، وغيرِها. وما ذلك إلاَّ لمعنًى هامٍّ رتَّبَ الشرعُ التوقيتَ عليه، وَلَحَظَ المصلحةَ والنفع به.

= النبـيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصلاةَ عَمَلاً). ومسلم في «صحيحه» ٢: ٧٣ ــ ٧٤، في كتاب الإيمان (باب بيانِ كونِ الإيمان بالله تعالى أفضَلَ الأعمال). والترمذي في «جامعه» ١: ٣٢٦، في كتاب أبواب الصلاة (باب ما جاء في الوقتِ الأول من الفضل). والنسائي في «سننه» ١: ٢٩٢، في كتاب المواقيت (باب فضل الصلاة لمواقيتها).

قال المُنَاوي في «فيض القدير» ١: ١٦٤ «أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ، أي أكثَرُها ثواباً عند اللهِ تعالى: الصلاةُ على وقتِها، وأفاد الحديثُ أن تعجيلَ الصلاة أوَّلَ وقتِها أفضَلُ». انتهى. والمؤمنُ مدعوٌّ إلى الأخذِ بالأفضلِ دائماً، فتصيرُ فيه صِفَةُ المحافظةِ على أوَّلِ الوقتِ خُلُقاً وطَبْعاً.

وقد غَفَلَ كثير من المسلمين اليوم عن هذا التوجيه الإسلامي الدقيق لهم من جانب الشرع الأغرِّ، فجعلوا يأخذون ويتعلَّمون أهميَّةَ ربطِ الأعمال بالتوقيتِ المناسب، من غيرهم! وكأنهم لم يُمرَّنوا أو يُرَبَّوْا على ذلك من أول يومٍ كُلِّفوا فيه بأحكام الشريعة الغرَّاء، وفي أوَّلِها الصلاة.

فيجب على المسلم أن ينتبه إلى الوقت في حياته، وإلى تنفيذِ كل عمل من أعماله في توقيتِهِ المناسب، فالوقتُ من حيث هو معيارٌ زمني: من أغلى ما وَهَبَ الله تعالى للإنسان، وهو في حياة العالِم وطالبِ العلم رأسُ المالِ والرِّبحُ جميعاً، فلا يَسوغُ للعاقل أن يُضيعَه سُدًى، ويعيشَ فيه هَمَلاً سَبَهْلَلاً، ومن أجل هذا دوَّنتُ هذه الصفحاتِ حافِزاً لنفسي ولأبناءِ جنسي، رجاءَ الانتفاع بما فيها من أخبار آبائنا وسلفنا الماضين، والله ولي التوفيق.

وبعدُ، فهذه الطبعةُ الرابعةُ من كتابي «قيمة الزمن عند العلماء»، وقد قدَّر الله تعالى له قبولاً ورواجاً غيرَ متوقع، فأقبل عليه القراء والطلبة والعلماء، واستحسنه من وقف عليه، وانتفع به خلق كثير، فللَّهِ الحمد على ذلك، وهو وليُّ السداد والرشاد.

وقد أضفتُ إلى الطبعة بعضَ الأخبار الحافزة على حفظ الوقت وكسبه، آملاً أن يستفيدَ من ذلك طلابُ العلم وسواهم، من الذين يَقْدِرون للوقتِ والزمنِ في حياتِهم قَدْرَهُ، فتنالَني دعوتُهم الصالحة، وأكونَ معهم من الذين تعاونوا على البر والتقوى، والله ولي المحسنين.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

في الرياض ١٣ من شعبان سنة ١٤٠٦

تقدمة الطبعة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وَكَفَى، وصلاةٌ وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطَفَى، وفي مقدِّمتهم سيدُنا ورسولُنا محمَّدٌ المصطفى، وعلى آله وصحبه وتابعيه ومن بهم اهتدَى واقتَفَى.

وبعد، فهذه صفحات وجيزة، كتبتُها في بيان (قيمة الزمن عند العلماء)، وأردتُ بها التعريفَ بقيمة هذه النعمة العظيمة التي هي ميدان الحياة، في محيط العلم وأهلِهِ، وكيف يمكن أن تأتي بالعجائب المدهشات، إذا أحسَنَ المرءُ الاستفَادَةَ منها، ونظَّمَ حياتَه وأوقاتَه بنظام، وبَعُدَ عن الوقوعِ في الفضولِ في الكلامِ والطعامِ والمجالسِ والاجتماعاتِ واللقاءات. . . ، فتكونُ له أوفرُ الآثارِ الزاكيات، وأطيَبُ الحسناتِ الباقيات، وَيخلُدُ ذكرُه ـ بنفعِهِ ومآثِره ـ مع الخالدينَ المحسنينَ[1].

وجزَى الله عنا خيرَ الجزاء سَلَفَنا الصالح وعلماءَنا السابقين الأبرار، فقد كانوا لنا قُدوةً في كل خير، ونموذجاً لكل فضيلة.

---

(١) وكانت نَواةُ هذه الصفحات كلمةً قصيرة، ألقيتُها لمدة عشر دقائق في ضمن محاضرة عامة مشتركة قام بها لفيفٌ من الأساتذة، ودَعَتْ إليها إدارة كلية الشريعة بالرياض في ليلة يوم الاثنين ٢٨ من شعبان عام ١٣٩١، ثم نُشِرَتْ تلك الكلمةُ في مجلة الكلية: «أضواء الشريعة» في العدد الخامس لعام ١٣٩٤.

فاللَّهمَّ ارزُقْنَا انتهاجَ سبيلهم في جميع الشؤون، ووفِّقنا للاستفادة من أعمارنا وأوقاتنا، واجْعَلْنَا نَشْغَلُها بما يُرضيكَ عنا، وجَنِّبنا الفضولَ في كلِّ شيء، إنَّك على كل شيء قدير.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله ربّ العالمين[١].

وكتبه

في الرياض ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٢ — عبد الفتاح أبو غدة

---

(١) قال الأستاذ الأديب الحكيم المربي السيد أحمد الهاشمي رحمه الله تعالى في كتابه «ديوان الإنشاء»: «قد يَظُنُّ الإنسانُ أحياناً أنه ليس في مقدوره إدراكُ منازلِ العظماءِ، والتَّرقي في مراتبِ الشُّرَفَاءِ، ولكنَّه لو علِم أنَّ العزيمةَ الصادقةَ والهمَّةَ العاليةَ تُبوِّىءُ صاحبَها عرشَ المجدِ وتُجلِسُهُ على أريكَةِ العِزِّ، لقلَّدَ أولئكَ الأشرافَ في صفاتِهم وحاكاهم في أعمالهم، فإنَّه إنْ فعل ذلك أدركَ غايتَهُ ونال طِلْبتَه، لأنَّ القدوةَ الصالحةَ تكوِّنُ عظماءَ الرجال، فما اختصَّ قومٌ بالمجدِ ولا استأثروا بالشرفِ، ولا تحسبنَّ المكارم مقصورةً على أفراد من الناس لا تتجاوزهم إلى غيرهم، فإنّ اللهَ تعالى قد جعلَها سهماً شائعاً وغَرَضاً منصوباً لكُلِّ طالب، فمَنْ أمَّها وسلك سبيلها، فهو لا ريب مدركٌ أملَه، ونائلٌ غَرَضُه، فما اتَّخَذتْ الفضائل حُجَّاباً أو مَنَعتْ طُلَّاباً، والسعيد من جعلَ المجدَ غايتَه والشرفَ حِلْيَتَه، فنِعْم زينةُ الرجال كرائمُ الخلال. قال طاهر بن الحسين:

إذا أعجبتــكَ خصــالُ امــرىءٍ ... فكُنْــهُ يكُــنْ منــكَ مــا يُعجِبُــكْ
فليــسَ علــى المجــدِ والمكــرُمــاتِ ... إذا جئتَهــا حــاجــبٌ يَحْجُبُــكْ

فذلِّل بهمَّتِكَ ما يعترضُ طريقَك من المصاعب، واركبْ متنَ الأخطار، ووَطِّنْ نفسك على الصبر، واقفُ آثارَ من سبَقَك إلى العُلا غيرَ هيَّابٍ ولا وانٍ، فإنَّكَ لا محالةَ موفٍ على غايتِكَ وواصلٌ إلى أُمنيَتِكَ.

وقَــلَّ مــن جَــدَّ فــي أمــرٍ يحــاولــه ... واستعمـل الصبـرَ إلاَّ فــازَ بــالظَّفَـرِ».

انتهى كلامه رحمه الله بتصرف يسير من مقالتين له ص ٩٢ و ١٠٨. سلمان.

قـيـمـة الـزمـن

لهذا العنوان الصغير أطراف كثيرة وكبيرة من المعاني والمواضيع، تَتَجَاذَبُ الكلامَ فيها، فللزمن قيمةٌ عند الفلاسفة غيرُ قيمته عند التجار، وغيرُها عند الزرَّاع، وغيرُها عند الصُّنَّاع، وغيرُها عند العسكريين، وغيرُها عند السياسيين، وغيرُها عند الشباب، وغيرها عند الشيوخ، وغيرها عند طلبةِ العلم وأهلِ العلم.

وأخصُّ بحديثي (قيمة الزمن) عند طلبةِ العلم وأهل العلم فحَسْب، رجاءَ أن يكون ذلك حافزاً لهِمَم أصحاب العزائم من شبابنا طلاب العلم، في هذه الأيام التي فَتَرَت فيها هِمَمُ الطالبين، وتقاعست غاياتُ المُجِدِّين، ونَدَرَ فيها وجود الطلبة المحترقين بالعلم، فمات النبوغُ وساد الكسلُ والخمول، وبَرَزَ من جَرَّاء ذلك الضعفُ والتأَخُّرُ في صفوف أهل العلم وآثارِهم، فأقول:

إنَّ نعم الله تعالى على عِبادِهِ كثيرة لا تُحصَى، ولا يمكن للبشر أن يُحصوها أو يُدركوها على حقيقتها، وذلك لكثرتها، واستمرارِها، ويُسرِها، وتتابُعِ إنعام الله بها، وتفاوُتِ مدارك الناس لها، وصَدَقَ الله العظيم إذ يقول: **﴿وإن تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها إنَّ الإنسانَ لَظَلُوم كفَّار﴾**[1].

---

(١) من سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

للنِّعَم أصولٌ وفُرُوع

وإنَّ للنعم أصولاً وفروعاً، فمن فروع النعم مثلاً: البَسْطَةُ في العلم والجسم والمال، والمُحافَظَةُ على نوافِلِ العبادات، مِثلُ قيامِ الليل والإكثارِ من تِلاوةِ القرآن، وذكرِ الله تعالى، والمُحافَظَةُ على سُنَنِ الفِطرةِ في الوجه واليدين والأطراف، وسُنَنِ الأعمال مثلِ التطيُّب للرجال عند الاجتماع، والمُصافحةِ عند اللقاء، ودخولِ المسجد باليُمْنَى، والخروجِ منه باليُسْرَى، وإماطةِ الأذى عن الطريق، وما إلى ذلك من الآداب والسنن والمستحبات وبعضِ الواجبات، فكل أولئك من فروع النعم، وما أجلَّها من فروع عندَ عارفيها.

أصولُ النِّعَم

وأما أصولُ النِّعَم فكثيرة أيضاً لا تُحْصَى، وأوَّلُ أصول النعم: الإيمانُ بالله تعالى وبما جاء من عنده، والعَمَلُ بمقتَضى ذلك على ما أوجَبَهُ الله تعالى وأمرَ سبحانه.

ومن أصولِ النعم أيضاً: نِعْمةُ الصحةِ والعافية، التي منها سلامةُ السمع والبصر والفؤادِ والجوارح، وهي مِحْوَرُ حركةِ الإنسان وقِوامُ استفادته من وجودِهِ.

ومن أصول النعم أيضاً: نِعمةُ العلم، فهي نعمةٌ كبرى يَتوقَّفُ عليها رقيُّ الإنسانية وسعادتُها الدنيويةُ والأخروية جميعاً، فالعلمُ نعمةٌ جُلَّى، كيفما كان، فتحصيلُهُ نِعمة، والانتفاع به نِعمة، والنفعُ به نعمة، وتخليدُهُ ونقلُه للأجيال المقبلةِ نِعمة، ونشرُه في الناس نعمة، وهكذا.

وهناك أمثـلـة كـثيرة لأصولِ النعم، لا أُطِيلُ بذكرِها مراعاةً لقيمة الزمن.

من أجلّ أُصولِ النِّعَم

ومن أصول النعم أيضاً، بل من أجلِّ أصولها وأغلاها: نعمةُ (الزمن)، الذي جَمَعْتُ هذه الصفحاتِ للحديثِ عن قيمته، في جَنْب طلبةِ العلم وأهلِ العلم خاصة[١].

---

(١) جاء في «لسان العرب» لابن منظور ١٣: ١٩٩، في رسم (زمن): «الزَّمَنُ والزَّمَانُ: اسمٌ لقليل الوقتِ وكثيره، وفي «المُحْكَم»: الزَّمَنُ والزَّمانُ: العَصْرُ، والجمعُ أَزْمُنٌ وأزمان وأَزْمِنَة. وزَمَنٌ زامِنٌ: شديد. وأزمَن الشيءُ: طال عليه الزمانُ، والاسمُ من ذلك: الزَّمَنُ والزُّمْنَة، وأزمَنَ بالمكان: أقام به زماناً. وعاملتُه واستأجرتُه مُزَامَنَةً، من الزَّمَن، كما يقال: مُشاهَرةً، من الشَّهْر.

وما لقيتُه منذُ زَمَنَةٍ، أي: زمان، والزَّمَنَةُ: البُرْهَة، ولقِيتُهُ ذاتَ الزُّمَيْنِ، أي: في ساعةٍ لها أعداد، يُريد بذلك تراخِيَ الوقت، كما يقال: لقيتُه ذاتَ العُوَيْم، أي: بين الأعوام.

وقال شِمْرٌ: الدهرُ والزمانُ واحد. قال أبو الهيثم: أخطأ شِمْر، الزمانُ: زمانُ الرُّطَبِ والفاكهة، وزمانُ الحر والبرد، ويكونُ الزمانُ شهرين إلى ستة أشهر، والدهرُ لا ينقطع.

قال أبو منصور الأزهري: الدهرُ عند العرب يقعُ على وقتِ الزمانِ من الأزمنة، وعلى مُدَّةِ الدنيا كلِّها، وسَمِعتُ غيرَ واحد من العرب يقول: أقمنا بموضع كذا وعلى ماءِ كذا دهراً. والزمانُ يقَعُ على الفصل من فصولِ السنة، وعلى مُدَّةِ ولايةِ الرجل وما أشبه». اهـ.

وقال الأستاذ عبد الإله الصائغ في كتابه «الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام»: «الوقتُ مقدار من الزمن، وكلُّ شيء قدَّرتَ له حِيْناً فهو مُؤَقَّت، ويتضمن الوقت كلاًّ من الماضي والحاضر والمستقبل، وربما استُعْمِلَ الوقت في قياس المَسَافَة بين نقطتين، فيقال: سِرنا ليلتين.

وإحساسُ الإنسان بالوقت إحساسٌ فِطري، وفي داخل كل مخلوق زَمَنٌ باطن. فالدودة المدفونة في الطين ـ وهي لا تَرى أو تَسمع ـ تقوم في وقتٍ مضبوطٍ إن تعدَّتْهُ هلكت. ويمكن أن نلاحظ الجنين، لماذا يلبَثُ في بطن أمه تسعة أشهر، إن خرج قبلها أو بعدها حَصَل له ما لا يُحْمَدُ عقباه، فكأنَّ هناك تقويماً للأشياء، مما حدا بالعلماء أن =

فالزمنُ هو عُمرُ الحياة[١]، ومَيْدانُ وجود الإنسان، وساحةُ ظِلِّه وبقائِه ونفعِه وانتفاعِه. وقد أشار القرآن الكريم إلى عِظَمِ هذا الأصل في أصول النعم، وألَمَعَ إلى علو مقدارِه على غيرِه، فجاءت آيات كثيرة ترشد إلى قيمة الزمن، ورفيعِ قَدْرِه وكبيرِ أثَرِه.

بعضُ الآياتِ المذكِّرة بنعمة الزمن

وأجتزىء هنا ببعض الآيات الكريمة في هذا المقام، قال تعالى ممتنّاً على عباده بهذه النعمة الكبرى: **﴿اللهُ الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ، وأنزلَ من السماءِ ماءً فَأَخْرَجَ به من الثمرات رزقاً لكم، وسَخَّرَ لكم الفُلْكَ لِتَجْريَ في البحر بأمرِهِ وسَخَّرَ لكم الأنهار. وسَخَّرَ لكم الشمسَ والقمرَ دائِبَيْنِ، وسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ. وآتاكُم من كلِّ ما سألتموه، وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحصوها إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كفَّار﴾**[٢].

فامتَنَّ سبحانه في جلائل نِعَمِه بنعمةِ الليل والنهار، وهما الزمنُ الذي نَتحدَّثُ عنه ونتحدَّث فيه، ويَمُرُّ به هذا العالَمُ الكبيرُ من بدايةِ بدايتِه، إلى نهايةِ نهايتِه.

وقال تعالى مؤكِّداً هذه المِنَّةَ العليا في آية ثانية: **﴿وَسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ، والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بأمرِهِ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾**[٣]. فأشار في ختـام الآيـة إلى أن تلك النعم فيها آياتٌ بالغة عند

= يطلقوا عليه (الساعة البيولوجية)، وهذه الساعة تكمُنُ في داخل الأشياء محدَّدة لها الولادة وفترات الحياة والشَّبَاب والموت».

(١) يقال: عُمْر، وعُمُر، وعَمْر: جمعه أعمار. «المعجم الوسيط». س.

(٢) من سورة إبراهيم، الآيات ٣٢ ــ ٣٤.

(٣) من سورة النحل، الآية ١٢.

الذين يعقلون ويتدبرون.

وقال سبحانه: **﴿وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتينِ، فَمَحَوْنَا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهار مُبْصِرة، لتبتغوا فضلاً من ربكم، ولِتَعلمُوا عدَدَ السِّنِينَ والحِسابَ، وكلَّ شيءٍ فَصَّلناهُ تفصيلاً﴾**(١).

وقال سبحانه: **﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجُدُوا لله الذي خَلَقَهُنَّ إن كنتم إياه تعبدون﴾**(٢).

وتمدَّح سبحانه بأنه مالكُ الزمانِ والمكان وما يَحُلُّ فيهما من زمانياتٍ ومكانياتٍ، فقال: **﴿وله ما سَكَنَ في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾**(٣).

تأنيبُ اللهِ للكُفَّارِ إذْ أضاعوا أعمارَهم

وقال تعالى مخاطباً الكفار ومؤنِّباً لهم، إذْ أضاعوا أعمارَهم، واستبقَوْا أنفسَهم فيها على الكفر! ولم يَخرجوا ــ مع امتداد العمر ــ من الكفر إلى الإيمان، وقد آتاهم الله الزمانَ المديد، والعمرَ العريض، فقال سبحانه: **﴿أوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يَتَذَكَّرُ فيه من تذكَّرَ، وجاءكم النذيرُ، فذُوقُوا فما للظالمين مِنْ نَصِير﴾**(٤).

فجعَلَ سبحانه (التعمير) مُوجِباً للتذكر والاستبصار، ومَيْداناً للإيمان والاستذكار، وأقام (العُمر) الذي هو الزمَنُ يحياه الإنسان: حُجَّةً على الإنسان، كما أقام وجودَ الرسالةِ والنِّذارةِ حُجَّةً عليه أيضاً.

---

(١) من سورة الإسراء، الآية ١٢.

(٢) من سورة فُصِّلَتْ، الآية ٣٧.

(٣) من سورة الأنعام، الآية ١٣.

(٤) من سورة فاطر، الآية ٣٧.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»[(١)] في تفسير هذه الآية الكريمة: «أي أوَ ما عِشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن يَنْتَفع بالحق لانتفعتم به في مُدَّةِ عُمُرِكُم! قال قتادة: اعْلَمُوا أنَّ طُولَ العُمُرِ حُجَّة، فنعوذُ بالله أن نُعَيَّر بطول العمر».

إعذارُ الله لمن بلَّغَه من العُمُر ستين سنة

وَرَوى البخاري في «صحيحه»[(٢)]، عن أبـي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَعذَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى امرىء أخَّر عُمْرَه حتى بَلَّغَهُ ستين سَنَةً»، ورَوى الإمام أحمد في «مسنده»[(٣)]، عن أبـي هريرة أيضاً: قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «من عَمَّرَه اللهُ تعالى ستين سَنَةً، فقد أعذَر إليه في العُمُر»، أي أزال عُذْرَهُ ولم يُبْقِ له موضعاً للاعتذار، إذْ أمهَلَهُ طُولَ هذه المُدَّةِ المديدةِ من العُمُرِ.

وإنَّ امرءاً قد سار سِتّين حِجَّةً　　إلــى مَنْهَــلٍ مــن وِرْدِهِ لقــريــبُ

قَسَمُ الله تعالى بالزمنِ لبيان عِظَمِهِ وأهميتِه

وهناك آياتٌ كثيرةٌ فيها التنبيهُ إلى عِظَمِ هذا الأصل من النِّعَمِ غيرُ التي أَسْلَفْتُها، وحسبُكَ أن تَعلمَ أنَّ الله سبحانه قد أَقسمَ بالزمن في مختلِفِ أطوارِهِ، في كتابه الكريم، في آياتٍ جَمَّة، إشعاراً منه بقيمةِ الزَّمنِ، وتنبيهاً إلى أهميتِهِ، فأَقسَمَ جَلَّ شأنُهُ باللَّيلِ، والنَّهارِ، والفَجْرِ، والصُّبْحِ، والشَّفَقِ، والضُّحَى، والعَصْرِ، فمن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿واللَّيلِ إذا يَغْشَى، والنَّهارِ إذا تَجَلَّى﴾[(٤)]،

---

(١) ٥: ٥٨٩ _ ٥٩٠.

(٢) ١١: ٢٣٨، في كتاب الرقاق، (باب من بَلَغَ ستين سَنَةً فقد أعذرَ اللهُ إليه في العُمُر).

(٣) ٢: ٤١٧.

(٤) من سورة الليل، الآيتان ١، ٢.

وقولُهُ تعالى: ﴿واللَّيلِ إذْ أَدْبَرَ، والصُّبْحِ إذا أَسْفَرَ﴾[١]، وقولُهُ تعالى: ﴿واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ، والصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ﴾[٢]، وقولُهُ تعالى: ﴿فلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ، واللَّيْلِ وما وَسَقَ﴾[٣]، وقولُهُ تعالى: ﴿والفَجْرِ، ولَيَالٍ عَشْرٍ﴾[٤]، وقولُهُ تعالى: ﴿والضُّحَى، واللَّيلِ إذا سَجَى﴾[٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿والعَصْرِ، إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[٦].

قال شيخنا العلامة المُعَمَّرُ الإمام حَسَنَيْن محمد مخلوف، أمتَعَ الله به[٧]، في مقدمة تفسيره العُجَاب: «صفوة البيان لمعاني القرآن»: «أَنزَل الله القرآنَ على أسلوبِ فُصَحاء العَرَب، في مُخاطباتهم ومُحاوَرَاتهم، فقد كانوا إذا أرادوا توكيدَ الأمر وتحقيقَه، أقسموا عليه بالعظيم الخطير، أو الكثيرِ النفع، أو الظاهرِ الفضل.

وتوكيدُ الكلام بالقَسَم إذا اقتضاه الحال أسلوبٌ بليغٌ رَصِين، ولله تعالى

---

(١) من سورة المُدَّثِر، الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٢) من سورة التكوير، الآيتان ١٧، ١٨.

(٣) من سورة الانشقاق، الآيتان ١٦، ١٧.

(٤) من سورة الفجر، الآيتان ١، ٢.

(٥) من سورة الضُّحَى، الآيتان ١، ٢.

(٦) من سورة العصر، الآيتان ١، ٢.

(٧) قال سلمان: كتب الوالد رحمه الله هذه الإضافة بالرياض في ١٠/٣/١٤٠٩، وقد توفي الشيخ حسنين في أواخر سنة ١٤١٠ رحمه الله وغفر له، وكان بينه وبين الوالد رحمه الله محبّة عامرة ومودة غامرة، وإجلالٌ كبير، وقد تكرّم فكتب تقريظاً (تكحيلاً) لـ «رسالة المسترشدين»، وكان الوالد رحمه الله يثني على كتابه «صفوة البيان» ويرجع إليه، ويُدْنيه ويُهْديه.

وكلام الإمام ابن القيم رحمه الله الذي سيرد منقول بتصرف من أول كتابه: «التبيان في أقسام القرآن». رحم الله الجميع ولقّاهم نضرةً وسروراً.

أن يُقسِمَ بما شاء، فأقسَمَ تعالى بنفسِهِ في القرآن: **﴿فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّهُ لَحَقٌّ﴾**(١)، وأقسَمَ بأفعالِهِ العجيبة، ومصنوعاتِهِ البديعة: **﴿والسَّمَاءِ وما بَنَاها، والأرضِ وما طَحَاها﴾**(٢)، وأقسَمَ بالزمنِ والوقت: **﴿والضُّحَى والليلِ إذا سَجَى﴾**، **﴿والفَجْرِ ولَيالٍ عَشْر﴾**، والقَسَمُ بها في معنى القَسَمِ به تعالى، إذ هو صانعُها ومُبْدِعُها.

قال ابنُ القَيِّم: إنه يُقسِمُ في القرآن بأمورٍ على أمور، فيُقسِمُ بذاتِهِ الموصوفةِ بصِفاتِه، وبآياتِهِ المستلزِمةِ لإثباتِ ذاتِهِ وصفاتِه، ويُقسِمُ ببعضِ مخلوقاتِه، للدلالةِ على أنها من عظيم آياتِه». انتهى.

ويُلاَحَظُ أنَّ كلَّ ما أقسم اللهُ عليه بالزَّمَن، كان هامّاً في أعلى دَرَجَاتِ الأهَمِّيَّة، وكان قَسَمُهُ بالزمنِ في أَمْرَيْنِ هامَّينِ جدّاً، أحدُهما تَبْرِئَةُ الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، من أن يكون هَجَرَهُ ربُّه كما زَعَمَ ذلك المشركون والأعداء. والمقامُ الآخَرُ في بيانِ أنَّ كلَّ إنسان خاسرٌ وهالكٌ إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فقال سبحانه مُقْسِماً بالزَّمَنِ: **﴿والضُّحَى؛ والليلِ إذا سَجَى؛ ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى﴾**(٣)، وقال أيضاً: **﴿والعَصْرِ؛ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ؛ إلاَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وتَواصَوْا بالحقِّ وَتَواصَوْا بالصبر﴾**(٤).

قال حَبْرُ الأمة وتَرْجُمانُ القرآن سيدُنا عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: العَصْرُ هو الزمن.

---

(١) من سورة الذاريات، الآية ٢٣.

(٢) من سورة الشمس، الآيتان ٥ و ٦.

(٣) من سورة الضُّحَى، الآيات ١ ــ ٣.

(٤) سورة العصْر.

بيانُ الفخر الرازي لقيمةِ الزمنِ وشَرَفِهِ

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى، في «تفسيره»[١]، في تفسير سورةِ (العَصْر)، ما ملخصُهُ ومعناه:

«أقسَمَ الله تعالى بالعصر ـ الذي هو الزمن[٢] ـ ، لِمَا فيه من الأعاجيب، لأنه يَحصُلُ فيه السرَّاءُ والضرَّاءُ، والصحةُ والسَّقَمُ، والغِنَى والفقر، ولأنَّ العُمُرَ لا يُقوَّمُ بشيءٍ نَفَاسَةً وغلاءً.

فلو ضَيَّعتَ ألفَ سَنَةٍ فيما لا يَعْنيَ، ثم تُبْتَ وثَبَتَتْ لك السعادة في اللَّمْحةِ الأخيرة من العمر، بَقِيتَ في الجنَّةِ أبدَ الآباد[٣]، فَعَلِمتَ أنَّ أشرَفَ الأشياءِ حَيَاتُك في تلك اللمحة، فكان الزمانُ من جملةِ أصولِ النِّعَم، فلذلك أقسمَ الله به، ونَبَّهَ سبحانه على أنَّ الليل والنهار فُرْصةٌ يُضِيعُها الإنسان! وأنَّ الزمان أشرفُ من المكان فأقسَمَ به، لكون الزمانِ نعمةً خالصةً لا عيبَ فيها، إنما الخاسِرُ المَعيبُ هو الإنسان». انتهى[٤].

---

(١) هو التفسير الكبيرُ المسمَّى: «مفاتيح الغيب» ٣٢: ٨٤.

(٢) في تفسير (العصر) عدةُ أقوال هذا أحدها، وثانيها: أنه العَشِي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، وثالثها: أنه صلاة العصر، ورابعها: الزمن المختص به صلَّى الله عليه وسلَّم أمته، وخامسها: الليل والنهار لأنهما يقال لهما العَصْران. س.

(٣) ورد في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «... وإن من السعادة أن يطول عُمُر العبدِ ويرزقَهُ الله الإنابة». رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣: ٣٣٢، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠: ٢٠٣ و ٣٣٤: «رواه أحمد والبزار وإسنادهما جيد».

(٤) وجاء في تفسير العلامة علي المهايمي المسمّى: «تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن» ٢: ٤١٢:

«(والعصر) أي الزمن الذي فيه عُمُر الإنسان الذي هو رأسُ ماله في تحصيل الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأحوال (إنَّ الإنسانَ) أي جميع أفراده (لَفِي خُسْرٍ) أي =

هذا طرف مما جاء في الكتاب الكريم مما أُشِيرَ فيه إلى قيمة الزمن، وأنه من أصول النعم وجلائلها.

بيانُ السُّنَّةِ المطهَّرة لقيمة الزمن

أما السنَّة المطهرة، فالبيان فيها أصرَحُ وأوضح، فقد روى البخاري، والترمذي، وابن ماجه[١]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «نِعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ»[٢].

= نوع من نقص رأس المال كليّ أو جزئي، وهو تضييعه العمر الذي يمكنُه فيه تحصيل القُرَب من الله ورضوانه وثوابه الأبدي بالمعاصي أو الشهوات الفانية المستعقبة للبعد من الله وغضبه وعقابه. . .». انتهى. س.

(١) البخاري في «صحيحه» ١١: ٢٢٩، في أول كتاب الرقاق، (باب ما جاء في الرقاق، وأنْ لا عيشَ إلاَّ عيشُ الآخرة). والترمذي في «جامعه» ٤: ٥٥٠، في كتاب الزهد، في (باب الصحة والفراغ نعمتان. . .). وابن ماجه في «سننه» ٢: ١٣٩٦، في كتاب الزهد، في (باب الحكمة).

(٢) مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: أي ذو خسرانٍ فيهما كثيرٌ من الناس. قال بعض العلماء: النعمةُ ما يَتَنَعَّمُ به الإنسان ويَستلذه، والغبنُ أن يشتريَ بأضعافِ الثمن، أو يَبيعَ بدونِ ثمنِ المِثل. فمن صَحَّ بَدَنُهُ، وتفرَّغَ من الأشغال العائقة، ولم يَسعَ لصلاح آخرتِهِ، فهو كالمغبون في البيع. **والمقصودُ أنَّ غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير محالِّهما، فيصيرُ كلُّ واحدٍ منهما في حقِّهم وبالاً!** ولو أنهم صرفوا كلَّ واحدٍ منهما في محلِّه لكان خيراً أيَّ خير.

قال الإمامُ ابنُ الجوزي: قد يكون الإنسانُ صحيحاً ولا يكون متفرغاً، لشَغْلِهِ بالمعاش، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا فغَلَب عليه الكسَلُ عن الطاعةِ فهو المغبون، وتمامُ ذلك أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرة، وفيها التجارةُ التي يَظهَرُ ربحُها في الآخرة، فمن استعمل فراغَهُ وصحتَهُ في طاعةِ الله فهو المغبوط، ومن استعمَلَهُما في معصيةِ الله فهو المغبون، لأن الفراغَ يَعْقُبُهُ الشُّغل، والصحةَ يَعْقُبُها السَّقَم، ولو لم يكن إلاَّ الهَرَمُ لكَفَى. =

فالزمَنُ نِعمـةٌ جُلَّى ومِنحـةٌ كُبْرى، لا يدريها ويستفيـدُ منهـا كلَّ الفائـدةِ إلاَّ المُوفَّقـونَ الأفـذاذ، كما أشـار إلى ذلك لفـظُ الحديـثِ الشـريف فقـال:

= قال المُحقِّقُ الطِّيبيُّ: ضَرَبَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم للمكلَّفِ مثلاً بالتاجر الذي له رأسُ مال، فهو يبتغي الرِّبحَ مع سلامةِ رأس المالِ، فطريقُهُ في ذلك أن يَتَحرَّى فيمن يُعامِلُه، ويَلزَمَ الصدقَ والحِذْقَ لئلا يُغْبَن، فالصحةُ والفَراغُ رأسُ المال. اهـ من «فتح الباري» ١١: ٢٣٠.

[وقال الإشبيلي، كما في «الشوارد» لعبد الله بن محمد بن خميس ٢: ٩:

إنَّ فـي المـوت والمعـادِ لشُغْـلاً ... وادِّكـاراً لـذي النهـى وبـلاغـا

فـاغتنـم خصلتيـن قبـل المنـايـا ... صحـةَ الجسـم يـا أخـي والفـراغـا

وجـاء فـي «كشـف الخفـاء» للعجلـونـي ٢: ٣١٨: «وكـان الحسـنُ البصـري يقـولُ: ابنَ آدمَ! نعمتان عظيمتان، المَغْبونُ فيهما كثيرٌ: الصحةُ والفراغُ، فمهلاً مهلاً، الثَّوَاءُ هنا قليل. أخرجه ابن عساكر. وقال: الصحة عند بعضهم الشباب، قال: والعربُ تجعلُ مكانَ الصحةِ الشباب، كما قالوا: بالقلبِ الفارغِ والشبابِ المُقْبِل تُكسب الآثام. وكان يُقال: إنْ لم يكن الشغلُ محمدةٌ كان الفراغ مفسدةٌ. ولا تُفْرِغ قلبكَ من فِكْرٍ، ولا ولدكَ من تأديبٍ، ولا عبدَك من مصلحةٍ، فإنَّ القلبَ الفارغَ يبحث عن السُّوءِ، واليدُ الفارغةُ تنازعُ إلى الآثامِ.

وقال أبو العتاهية:

علمـتَ يـا مجـاشـعَ بـن مَسْعَـدَهْ ... أَنَّ الشبـابَ والفـراغَ والجِـدَهْ

مـفـسـدةٌ لـلـمـرءِ أيُّ مَـفْـسَـدَهْ

وفي رواية: مفسدةٌ (للدين) بدلَ (للمرء). وأنشد البيهقي في «الشعب» لأبـي عصمة محمد السختياني:

أنـبـأنـا خـيـرُ بـنـي آدمِ ... ومـا علـى أحـمـدَ إلاَّ الـبـلاغْ

الـنـاسُ مغـبـونـونَ فـي نـعـمـتـي ... صـحـةِ أبـدَانـهـم والـفـراغ». اهـ.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: المَغْبُونُ من عَطَّل أيامه بالبِطَالات، وسَلَّط جوارحه على الهَلَكَات، وماتَ قبل إفاقته من الجنايات. انتهى من «المنتخب من الزهد والرقائق» للخطيب البغدادي ص ١٣١. سلمان].

«مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس»، فأفاد أنَّ المستفيدين من ذلك قِلَّة، وأنَّ الكثير مُفَرِّط مغبون.

الزمن مناط المساءلة يوم القيامة

كما روى الإمام الترمذي[١] عن أبـي بَرْزَة الأَسْلَمي قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا تزول قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن عُمره فيما أفناهُ، وعن علمه فيما فَعَلَ، وعن مالِهِ من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جِسْمِهِ فيما أبلاه». وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

وأخرج البزار والطبراني في «الكبير» عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَنْ تزولَ قدما عبدٍ يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربعِ خِصال: عن عُمرهِ فيما أفناهُ، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أينَ اكتسبه وفيما أنفقه، وعلمه ماذا عَمِل به»[٢].

وروى الحاكم في «المستدرك» في كتاب الرقاق[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لرجل وهو يعِظه: «اغتنمْ خمساً قبل خمس: شبابَك قبلَ هَرِمك، وصحتك قبلَ سقمك، وغناءَكَ قبلَ فقرك، وفراغكَ قبلَ شُغْلِك، وحياتَك قبلَ موتك». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقَدْ أَوْضحَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الأولِ أنَّ العمر ـ ونِصَابُه الزمنُ ـ هو مَنَاطُ المحاسبةِ والمساءلةِ يومَ القيامةِ، وهو تفسيرٌ

---

(١) ٤: ٦١٢، في أول كتاب صفة القيامة والرقائق.

(٢) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» ٦: ١٨٧ وقال: «رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح، واللفظ له».

(٣) ٤: ٣٠٦.

للآية الكريمة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[١]. وقد بيَّنَ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثين أَنَّ قَوَامَ العُمُرِ إنما هو: العلمُ والعملُ، والمالُ الحلال الطيب منبتاً ومَصْرِفاً، وصحةُ البدنِ، وقوةُ الجسم، وفتوةُ الشبابِ.

وقَدْ وَعَظَنَا الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم بألاَّ نَغْتَرَّ بالقوةِ والرخاء، ووجَّهَنا لنغتَنِمَ مواطنَ الغُنم في الحياة قبل أَنْ تعرِضَ لنا حالاتُ الضعفِ وعوادي الأيامِ وتقلبُ الزمان، فالغانمُ الفالحُ مَنْ بَادَرَ هذه العوارضَ بالعملِ الصالح المنتجِ والطاعةِ الخالصةِ، فكانَ مِن الأفذاذِ في الحياةِ، ومن المبرورينَ بعدَ المماتِ، ولو تأملتَ حياةَ الأنبياءِ والصالحينَ، والعلماءِ والمُصْلِحِين لوجدتَها تَبَعَ هذا التوجيهَ النبويَّ الرفيعَ، كما سيردُ ذلك في سِيَرِهم العطرةِ في هذا الكتابِ.

ولا يخفى على عاقلٍ أنَّ الحياةَ في أساسِها هي لمجموعُ هذهِ النعم الربانيةِ التي يُنعِم بِهَا المولى سبحانَه وتَعالى على مَنْ يشاءُ مِن عبادِه ثم يحاسبُهم في اليومِ الآخرِ على نمائِهم واستثمارِهم لها، فالسعيدُ السعيدُ مَنْ قدَّم للآخرَةِ الدائمةِ في دنياهُ الزائلةِ.

وممَّا يُستفاد مِنَ الحديثين الشريفين أنّ إعمارَ العُمُرِ قَدْ يكونُ بوجهٍ واحدٍ أو أكثرَ من هذه الوجوهِ، وهذا ملحوظٌ في حياةِ البشرِ، فمنهم مَنْ يتَّجهُ لطلبِ العلمِ واكتسابِ المعرفةِ، أو يتَّجهُ للتجارةِ وإنماءِ المالِ، أو للعنايةِ بالجسمِ وقوته، وقَدْ أَمَرَنا رسولُنَا صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ يقترنَ عِلْمُنَا بالعملِ لتكتملَ بهِ الفائدةُ ويحصُلَ بهِ النفعُ، فلا خيرَ في حياةٍ تُنْفَقُ في علمٍ لا يَنْبَنِي عليه أَوْ لا يتبَعُه عملٌ، ونبَّهَنا الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ المُسَاءَلَة حولَ المالِ تدورُ حولَ مصدرِهِ ومصرفِهِ، وذلك لنتقيَ اللهَ في مكسبِنَا وإنفاقِنَا، فلا ينبغي

---

(١) من سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

للمسلمِ أنْ تكونَ حياته تَكَالباً على جمعِ المالِ لا يبالي بحرامٍ أم حلالٍ، ولا يكونُ إنفاقُه لِمَا جمعَه في غيرِ طاعةِ اللهِ، إسرافاً في المنكرِ، وتقتيراً في الخيرِ، وحِرْمَاناً للحقوقِ.

أما البدنُ فهو مطيتُنَا في هذه الحياةِ، وهو ـ كما بَيَّنَ الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ أمانةٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، وسَنُسْأَلُ يومَ القيامةِ كيف عبرنَا بِهِ إلى ضَعْفِ الشيخُوخَةِ منْ يُفُوْعَةِ الشَّباب، وهَلْ عَمَرْنَاه بالطاعاتِ، ونَوَّرْنَاهُ بالقُرُبَاتِ، أَمْ أثقلنَاهُ بالمنكراتِ وأنهكناهُ بالموبقاتِ.

فاجتهد ـ رعاني الله وإياك ـ أن تعمرَ عُمُركَ بالعلمِ النافعِ والعملِ الصالح والمكسبِ الطيبِ والقرباتِ الزكية، واحرص أن تغذُو بدَنَك وأبدانَ من تعولُ بالحلالِ المباركِ، وأن تستعملَ بدنَكَ فيما يرضي اللهَ عزّ وجلّ، واحذَرْ ـ وقاني الله وإياك مواقفَ الخِزْي ـ أَنْ تكونَ ممن تَشْهَدُ عَلَيْهِم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يَعْملون.

أوقاتك عُمُرُك، وعُمُرُك رأسُ مَالِك، وكل نَفَس من أنفاسِكَ جَوْهرٌ

قال الإمامُ الغزالي في كتابه «بدايةُ الهدايةُ»[1]: «وأوقاتُكَ عُمُرُكَ، وعُمُرُك رأسُ مَالِك، وعليهِ تجارَتُكَ، وبِهِ وُصُولُكَ إلى نَعِيم الأبَدِ في جوارِ اللهِ تعالى، فكلُّ نَفَسٍ من أنفاسِكَ جَوْهرٌ لا قيمةَ لَهُ، إذْ لا بَدَل لهُ، فإذا فاتَ فلا عَوْدَةَ لَهُ.

فلا تَكُنْ كالحمقى الذينَ يفرحُون في كلِّ يومٍ بزيادةِ أموالهم مع نُقْصَانِ أعمارِهِمْ.

فَأَيُّ خيرٍ في مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقُصُ!؟

فلا تفرَحْ إلاَّ بزيادةِ علمٍ أو عملٍ، فإِنَّهُمَا رفيقاكَ يصحبَانِك في القبرِ،

---

(١) ص ١٢٠.

حيثُ يتخَلَّفُ عنكَ أهلُكَ ومالُكَ وولدُكَ وأصدقاؤُكَ». انتهى[١].

وفي ذلك يقول الأديب أبو الفتح أحمدُ بن مُطَرِّفٍ العسقلاني، المتوفى سنة ٤١٣ رحمه الله تعالى، موازناً بينَ حالِ الناس في هَدْرِ الوقتِ وإضاعته، والمحافظةِ على إنفاق المال بقَدَرٍ وميزانٍ، عائباً على الناس هذا المسلك:

إذْ يُنفَقُ العُمْرُ في الدنيا مجازفةً والمالُ يُنفَقُ فيها بالموازينِ[٢]

[وقال العارف ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في كتابه «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»[٣]: «لا تُنْفِقْ أنفاسَك في غيرِ طاعةِ اللهِ، ولا تَنْظُرْ إلى صِغَرِ النَّفَسِ بل انظُر إلى مقدارِهِ، وإلى ما يعطي اللهُ فيه للعبد، **فالأنفاسُ جواهر**، وهل رأيتَ أحداً يَرْمي جوهرةً على مزبلة!؟». وقال في «حِكَمه»: «ما مِنْ نَفَسٍ تُبْدِيه إلاَّ وله قَدَرٌ فيكَ يُمْضِيْه». انتهى[٤].

قال الأديب أبو الفتح البُسْتي:

أنفاسُنا أقواتُ أوقاتِنا والقوتُ لا بدَّ له من نَفادْ[٥]]

الوقتُ من منازل السائرين إلى ربِّ العالمين

قال الإمام أبو إسماعيل الهروي الحنبلي في كتابه «منازل السائرين»:

---

(١) وفي ذلك يقول السَّرِيُّ بن مُغَلِّس: «إن اغتَمَمتَ بما ينقص من مالِك، ابكِ على ما ينقص من عمرك». «صفة الصفوة» ٢: ٣٧٦. س.

(٢) «الوافي بالوفيات» للصفدي ٨: ١٨١.

(٣) ص ٥٠.

(٤) فاحرص أخي المسلم. وطالب العلم على الاستفادة من الوقت ولا سيما المُهْدَر، كالذي تقضيه في انتظار ما، أو قيادة سيارة، أو مشي إلى حاجة، فالليل والنهار يَعْمَلان فيك، والشمس تجري، والعمر يمضي، ولا وقت يعود! سلمان.

(٥) «ديوان أبي الفتح البستي» ص ٢٤٤.

«ومن منازلهم: الوقت، قال الله تعالى: **﴿ثم جئتَ على قَدَرٍ يا موسى﴾**[١].

والوقتُ اسمٌ لظرفِ الكون ـ أي وعاءِ الوجود ـ». قال العلامة ابن القيم في شرحه «مدارج السالكين»[٢]: «وجهُ استشهاده بالآية أن الله سبحانه قدَّر مجيءَ موسى أحوَجَ ما كان الوقتُ إليه، فإنَّ العربَ تقولُ: جاء فلانٌ على قَدَر، إذا جاء وقتَ الحاجة إليه، قال جرير:

نَـالَ الخلافةَ إذْ كانت لـه قَدَراً   كما أتى ربَّـه موسى على قَـدَرِ

واستشهادُه بهذِهِ الآيةِ يدلُّ على مَحَلِّهِ من العلم، لأنَّ الشيءَ إذا وقعَ في وقته، الذي هو أليَقُ الأوقاتِ بوقوعِهِ فيه: كان أحسنَ وأنفعَ وأجدى، كما إذا وقعَ الغيثُ في أحوجِ الأوقاتِ إليهِ، وكما إذا وقعَ الفَرَجُ في وقتِهِ الذي يليقُ به. ومَن تأمَّلَ أقدارَ الرب تعالى وجريانِها في الخلقِ عَلِمَ أنَّها واقعةٌ في أليقِ الأوقاتِ بها.

فبَعْثُ اللهِ سبحانَه موسى أحوجَ ما كان الناسُ إلى بعثتِه، وبَعْثُ عيسى كذلك، وبَعْثُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين أحوَجَ ما كان أهلُ الأرض إلى إرسالِه. فهكذا وقتُ العبدِ مع الله، يَعْمُرُه بأنفع الأشياء له: أحوجَ ما كان إلى عمارته.

قال الشافعي رضي الله عنه: **صحبت الصوفية فما انتفعتُ منهم إلاَّ بكلمتين: سمعتُهم يقولون: الوقتُ سيفٌ، فإن قطعتَهُ وإلاَّ قَطَعَك، ونفسُك إن لم تشغلها بالحقِّ وإلاَّ شغلَتْكَ بالباطل.**

قلتُ ـ القائل ابنُ القيم ـ: يا لهما من كلمتين ما أنفعَهما وأجمعَهما،

---

(١) من سورة طه، الآية ٤٠.

(٢) ٣: ١٢٧ ـ ١٣٠.

وأدلَّهما على عُلُوِّ هِمَّةِ قائلهما ويقظتِه، ويكفي في هذا ثناءُ الشافعيِّ على طائفةِ هذا قدر كلامهم.

وإذا أراد الله بالعبد خيراً أعانه بالوقت، وجَعَل وقتَهُ مساعداً له، وإذا أراد به شرًّا جَعَل وقته عَلَيْه، وناكَدَهُ وقته، فكلما أراد التأهُّبَ للمسير لم يُساعده الوقتُ، والأوَّلُ كلما همَّتْ نفسُه بالقعود أقامه الوقتُ وساعده».

ولمَّا عدَّد الشيخ أبو نصر الطُّوسي السرَّاج ــ عبدُ الله بنُ علي شيخُ الصوفية في عصره على طريقة السنة، المتوفى سنة ٣٧٨ رحمه الله تعالى ــ الآداب المميِّزةَ للصوفية، قال: «الناسُ في الأدب على ثلاثِ طبقات، . . . وأمَّا أهلُ الخُصُوصية ــ أي الصوفية ــ فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب، . . . وحفظِ الوقت»[١].

الغيرةُ القاتلةُ على الوقتِ عند العابد والعاقل

قال الإمام ابن القَيِّم رحمه الله تعالى، في كتابه «مدارج السالكين»[٢]، وهو يتحدَّث عن منزلةِ الغَيْرَةِ وشُمولِها لكثيرٍ من الأمور، فَذَكَرَ منها الغَيرةَ على الوقتِ بقوله:

«الغَيرةُ على وقتٍ فات! وهي غَيرةٌ قاتِلَة، فإنَّ الوقتَ وَحِيُّ التَّقَضِّي ــ أي سريع الانقضاء ــ، أَبِيُّ الجانب، بَطِيءُ الرجوع. والوقتُ عند العابد: هو وقتُ العبادةِ والأوراد، وعندَ المُريد: هو وقتُ الإقبال على الله، والجمعيَّةِ عليه، والعُكُوفِ عليه بالقلبِ كلِّه. والوقتُ أعزُّ شيء عليه، يغارُ عليه أن ينقضيَ بدون ذلك! فإذا فاتَهُ الوقتُ لا يُمكنه استدراكُه ٱلبتَّة، لأنَّ الوقتَ الثانيَ قد

---

(١) كما في «الرسالة القشيرية» ٢: ٥٦٢.

(٢) ٣: ٤٩.

استحقَّ واجبَهُ الخاصّ، فإذا فاتَهُ وقتٌ فلا سبيلَ له إلى تداركِهِ.

ومعنى أنها (غَيْرةٌ قاتلة) أي أنَّ أثرَها يُشبه القَتْلَ، لأنَّ حسرة الفَوْتِ قاتلة، ولا سيما إذا عَلِمَ المتحسِّرُ: أنه لا سبيل له إلى الاستدراك. وأيضاً فالغَيرةُ على التفويت تفويتٌ آخَر، كما يقال: الاشتغالُ بالندم على الوقتِ الفائتِ تضييعٌ للوقتِ الحاضر! ولذلك يقال: الوقتُ كالسيفِ إنْ لم تَقْطعْه قَطَعَكَ[1].

فالوقتُ مُنْقَضٍ بذاته، منصرِمٌ بنفسه، فمن غَفَلَ عن نَفسِهِ تَصَرَّمَتْ أوقاتُهُ، وعظُمَ فَوَاتُه، واشتدَّتْ حَسَراتُهُ، فكيف حالُه إذا عَلِمَ عند تحقُّقِ الفَوْتِ مقدارَ ما أضاع! وطَلَبَ الرُّجْعى فحِيلَ بينه وبين الاسترجاع! وطَلَبَ تناوُلَ الفائتِ، وكيف يُرَدُّ الأمسُ في اليوم الجديد؟! ﴿**وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مكانٍ بعيد**﴾؟![2] وَمُنِـعَ مما يُحِبُّهُ ويرتضيه، وعَلِمَ أنَّ ما اقتناهُ ليس مما ينبغي للعاقل أن يَقْتَنيه، وحِيلَ بينه وبين ما يشتهيه!

---

(١) قال ابن أبـي جَمرَة في كتابه «بهجة النفوس» ٣:٩٦: «معناه: اقطَعْ الوقت بالعمل، لئلا يقطعك بالتسويف». انتهى. ويمكن أن يقال معناه: أنك إذا لم تكن يقظاً للاستفادة من الوقت والانتفاع به، هلكتَ كما يهلِكُ من وُجِّهَتْ إليه الضربةُ بالسيف، فإن لم يكن يقظاً لردِّها والسلامةِ منها قَطعَتْهُ وأهلكته، فإن الوقت سيف قاطع، وبَرْق لامع. ولهذا قال القائل:

وكن صارماً كالوقتِ فالمَقْتُ في (عَسَى) وخَـلِّ (لَعَـلَّ) فهـي أكبـرُ عِلَّـةِ!

وقالوا: **من علامة المقت، إضاعةُ الوقت.**

(٢) من سورة سَبَأ، الآية ٥٢. والتَّناوُشُ: التناوُلُ. والآيةُ الكريمةُ تتحدَّثُ عن حَالِ الكفارِ في الآخرة، الذين فوَّتوا على أنفسهم في الدنيا: الإيمانَ بالله تعالى، أي: ومن أين لهم في الآخرة تناوُلُ الإيمانِ، والتوبةُ من الكفر؟ وقد كان ذلك قريباً منهم في الدنيا فضيَّعُوه! وكيف يَقْدِرُون على الظَّفَرِ به في الآخرة وهي بعيدةٌ من الدنيا؟!

فيا حَسَراتٌ، ما إلى رَدِّ مِثْلِها سَبيلٌ! ولو رُدَّتْ لَهَانَ التَّحَسُّرُ!

والوارِداتُ سريعةُ الزوال، تَمرُّ أسرَعَ من السَّحابِ، وينقضي الوقتُ بما فيه، فلا يعودُ عليك منه إلاَّ أثَرُه وحُكْمُه، فاخْتَرْ لنفسِكَ ما يعود عليك من وقتِكَ، فإنه عائدٌ عليك لا مَحالة، لهذا يُقالُ للسُّعداء في الجنة: **﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بما أَسْلَفْتُم في الأيام الخالِيَةِ﴾**[1]، ويقال للأشقياء المعذَّبين في النار: **﴿ذلكُمْ بما كنتم تَفْرَحُون في الأرضِ بغير الحقِّ، وبما كنتم تَمْرَحون﴾**[2]». انتهى بتصرف يسير.

جميعُ المصالح تَنشأُ من الوقتِ
فمن أضاعَهُ لم يَستدركه أبداً

وقال الإمامُ ابنُ القيم أيضاً، في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»[3]: «أعْلَى الفِكَرِ وأجَلُّها وأنفَعُها ما كان للهِ والدارِ الآخرة، فما كان للهِ فهو أنواعٌ، . . . ، النوعُ الخامسُ: الفِكْرَةُ في واجِبِ الوقتِ ووظيفتِهِ، وجَمْعِ الهَمِّ[4] كلِّهِ عليه، فالعارفُ ابنُ وقْتِه، فإن أضاعه ضاعَتْ عليه مصالِحُهُ كلُّها، فَجميعُ المصالِحِ إنما تَنشأُ من الوقت، فمتى أضاعَ الوقتَ لم يَستدْركه أبداً!

قال الشافعي رضي الله عنه: صَحِبتُ الصُّوفِيَّةَ، فلم أستفِد منهم سوى حرْفَيْن، أحدُهما قولُهم: الوقتُ سيف، فإن لم تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ، وذَكَرَ الكلمَةَ الأخرى: نَفْسُك اشغَلْها بالحقِّ وإلاَّ شَغَلَتْكَ بالباطل.

---

(١) من سورة الحاقَّة، الآية ٢٤.

(٢) من سورة غافر، الآية ٧٥.

(٣) ص ٢٢٨ و ٢٢٩. وهو يتكلم عن الخطرات.

(٤) أي: الهِمَّةِ والعَزْم.

فوقتُ الإنسان هو عمرُهُ في الحقيقة، وهو مادَّةُ حياتِهِ الأبَدِيَّةِ في النعيم المقيم، ومادَّةُ المعيشةِ الضنكِ في العذابِ الأليم. وهو يَمُرُّ أسرَعَ من السَّحَابِ، فما كان من وقتِهِ للهِ وبالله، فهو حياتُهُ وعُمرُه، وغيرُ ذلك ليس محسوباً من حياتِهِ وإن عاشَ فيه طويلاً، فهو يَعيشُ عيشَ البهائم، فإذا قَطَع وقْتَهُ في الغَفْلَةِ والشهوةِ والأمانيِّ الباطلة، وكان خَيْرُ ما قطَعَهُ بالنومِ والبطالةِ: فموتُ هذا خيرٌ لـه من حياتِهِ، وإذا كان العبدُ وهو في الصلاةِ: ليس لـه من الصلاةِ إلاَّ ما عَقَلَ منها، فليس له من عُمرِهِ إلاَّ ما كان فيه باللهِ وللهِ تعالى»[١].

حِرصُ السَّلَف على كسب الوقت وملئِهِ بالخير

وقد كان السَّلفُ الصالحُ ومن سار على نهجهم من الخَلَف أحرصَ الناس على كسب الوقتِ ومَلْئِهِ بالخير، سواءٌ في ذلك عالِمُهم وعابدُهُم، فقد كانوا يُسابقون الساعات، ويُبادرون اللحظات، ضَنّاً منهم بالوقت، وحرصاً على أن لا يَذهب منهم هَدَراً.

القوةُ في العمل أن لا يُؤخَّر عملُ اليوم إلى الغد

رَوَى أبو عبيدُ القاسمُ بنُ سَلاَّمٍ في كتابه «الخُطَب والمواعِظ»[٢]، عن الحسنِ البصريِّ قال: «كتبَ عمرُ إلى أَبـي موسى الأشعري: أمَّا بعد، فإنَّ القوةَ

---

(١) قال العارف ابن عطاء الله السكندري في «حِكَمه»: «ما فاتَ من عُمْرِك لا عوضَ له، وما حصل لكَ منه لا قيمة له». اهـ.

وقال في «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس» ص ٢٥: «والله ما عُمُركَ من أولِ وُلِدْتَ بَلْ عُمُركَ من أوَّلِ يوم عرفتَ الله تعالى». انتهى.

فكان ما صُرف من العمر في غير طاعة غير محسوب منه، ومِن أعظم الطاعات العلم تعلُّماً وتعليماً وتدريساً وتفهيماً وتأليفاً وتنظيماً. سلمان.

(٢) ص ٢٠٤.

في العَمَلِ أنْ لا تؤخِّرَ عملَ اليومِ إلى الغَدِ، فإنَّكُمْ إذا فعلتُمْ ذلك تَدَاركتْ عليكم الأعمالُ ــ أيْ تتابعتْ وتكاثرتْ ــ ، فلَمْ تَدْرُوا بأيِّهَا تأخذونَ، فأضعْتُم».

نَدَمُ ابن مسعود على اليوم يَمُرُّ من عُمره

وقال الصحابي الجليلُ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ على شيء ندمي على يومٍ غَرَبَتْ شمسُه، نَقَصَ فيه أجلي، ولم يَزِدْ فيه عملي».

مَنْ أمضى يومَه وَلم يُحصِّلْ خيراً فقد عَقَّ يومَه وظَلَم نفسَه

وما أحسن ما قاله بعضُ العلماء: «من أمضى يومَه في غير حقٍّ قَضَاهُ، أو فَرْضٍ أدَّاهُ، أو مَجْدٍ أثَّلَهُ ــ أي قَوَّاه ودَعَمه ــ ، أو حَمْدٍ حصَّله، أو خَيْرٍ أسَّسَهُ، أو عِلمٍ اقْتَبَسَهُ، فقد عَقَّ يومَه ــ أي أضاعَهُ ولم يَبَرَّهُ ــ وظَلَمَ نفسَه»[١].

إذا ما مضى يومٌ، ولم أصطنع يداً ... ولم أقتبِسْ علماً، فما هو من عُمْري[٢]

وقال الإمام سيدنا موسى الكاظم فيما يُنسب إليه: «**من استوى يوماه فهو مغبون**، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في النقصان»[٣].

الليلُ والنهارُ يَعملانِ فيك فاعمَل فيهما

وقال الخليفة الصالح عُمَرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إنَّ الليلَ والنهار يَعْمَلانِ فيك، فاعمَلْ فيهما».

---

(١) من كتاب «أدب الدنيا والدين»، للإمام أبي الحسن الماوردي رحمه الله تعالى، ص ٧٦.

(٢) البيت لأبي الفتح البستي، كما في «ديوانه» ص ٨٤. وهو من إضافتي. س.

(٣) «نثر الدر» للآبي ٢: ٢٢. نقلاً عن ملحق «كلام الليالي والأيام لابن آدم» لابن أبي الدنيا، لمحققه محمد خير رمضان يوسف، ص ٥٢.

وفي «الكلم النوابغ» للزمخشري: «**متى أُصبح وأُمسي، ويومي خيرٌ من أمسي**». سلمان.

أَمسِك الشمسَ حتى أُكلِّمَك

نُقل عن عامرِ بِنْ عَبْد قَيْس أحدِ التابعين الزهاد: أنَّ رجلاً قال له: كلِّمْني، فقال له عامرُ بن عبد قيس: «أمْسِك الشمسَ». يعني أوقِفْ لي الشمسَ واحبِسْها عن المسِيرِ حتى أُكلِّمَك، فإنَّ الزمنَ متحركٌ دائبُ المُضِيِّ، لا يَعُودُ بعدَ مُرورِهِ، فخسارتُهُ خسـارةٌ لا يُمكن تعويضُها واستدراكها، لأنَّ لكلِّ وقـتٍ ما يملأه من العمل(١).

يا ابنَ آدم إنما أنتَ أيَّام!

وقـال التـابعـي الجلـيـل الحسـن البصـري رضـي الله عنـه: «يـا ابـن آدم إنمـا أنـت أيـام، فـإذا ذهـب يـومٌ ذَهَـبَ بعضُـك»(٢).

---

(١) ويكفي تقويماً للوقت والزمن أن الفقهاء قد قرَّروا أنَّ الأجَلَ في البيع يُقَابَلُ بشيء من الثمن، وفي هذا تثمين للوقتِ وتقديرٌ للزَّمَنِ أيّما تقدير، فقد قوَّموا الزمنَ بالمال. [وقول عامرٍ رحمه الله سيأتي في (لزوم معرفة شرف الوقت وملئه...) ص ١٠٠].

(٢) «الزهد» للإمام أحمد ص ٢٧٨ أو ٣٩٢، و «الحلية» لأبي نعيم ٢: ١٤٨.

[وهذا النص روي نحوه عن سيدنا أبي الدرداء كما جاء في «الزهد» لأبي حاتم ص ٣٧، و «الزهد» للبيهقي ص ٥٠٧، كما أنه روي نحوه عن السيدة رابعة العدوية كما في «صفة الصفوة» ٤: ٢٩، ولا عجب أن يتوارد السلف على هذا المعنى.

وجاء في كتاب «الزهد» للإمام أحمد ص ٣٩٧، عن يونس بن عبيد قال: «كان الحسن إذا لم يجد أحداً، ولم يكن مشغولاً يقول: سبحان الله وبحمده». انتهى.

وقال بعض الصالحين: «يا ابن آدم، أنت في هدم عمرك منذ ولدتَ من بطن أمك. وقيل: **الإنسان إذا تنفَّسَ تَنَقَّص**». انتهى من «غرائب التفسير وعجائب التأويل» لتاج القراء الكرماني ٢: ١٣٨٥.

وفي ذلك يقول القائل:

ومـا كـذبَ الـذي قـد قـال قبلـي ... إذا مـا مَـرَّ يـومٌ مـرَّ بعضـي

من «المنتحل» المنسوب للثعالبي ص ١٨٨].

وقال أيضاً[١]: «ابنَ آدمَ إنَّكَ بَيْنَ مَطِيَّتَيْنِ يُوْضِعَانِك، الليلُ إلى النَّهارِ، والنَّهارُ إلى الليلِ، حتى يُسْلِمانِكَ إلى الآخرة، فمن أعظمُ مِنْكَ يا ابنَ آدمَ خَطراً»[٢].

وقال أيضاً: «أدركتُ أقواماً كانوا على أوقاتِهم أشدَّ منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم»[٣].

وإلى قول الحسن البصري رحمه الله نَظَرَ القائل:

ومـا نَفَـسٌ إلاَّ يُبـاعِـدُ مـوعِـداً ويُدني المنـايا للنفـوسِ فَتَقْـرُبُ

وقال حاتم الطائي[٤]:

هل الدهرُ إلاَّ اليومُ أو أمسِ أو غَدُ كـذاك الـزمـان بيننـا يتـردَّدُ
يَـرُدُّ علينـا ليلـةً بعـدَ يـومِهـا فلا نحنُ ما نَبْقَى ولا الدهرُ يَنفَدُ

وقال جسّاس بن بشر أو حارثة بن بدر الغُدَاني[٥]:

يا كعبُ ما راحَ من قومٍ ولا بَكَروا إلاَّ وللموتِ في آثـارِهم حَـادِي
يا كعبُ ما طلعت شمسٌ ولا غَرَبَتْ إلاَّ تُقَـرِّبُ آجـالاً لميعـادِ

---

(١) «الزهد» للبيهقي ص ٢٠٤. وهذا النص والتعليق عليه من إضافة العبد سلمان.

(٢) نعم!

ولَـنْ يَلْبَـثَ العَصْـرَانِ يـومٌ وليلـةٌ إذا طَلَبَـا أَنْ يُـدْرِكَـا مـا تَيَمَّمَـا

من «ديوان حُميد بن ثور الهِلاَلي» ص ٨، و «لسان العرب» مادة (عَصَر). سلمان.

(٣) قال سلمان: وهكذا كانت حال سيِّدي العلاَّمة الوالد طيّب الله ثراه فهو حريص على وقته أكثر من حرصه على ماله.

(٤) كما في «ديوانه» ص ٢٦٢.

(٥) «الوحشيات» أو «الحماسة الصغرى» لأبي تمام، ص ١١١. وهذان البيتان وما بعدهما من الشعر من إضافة العبد سلمان.

وجاء في «الديوان» المنسوب لسيدنا علي رضي الله عنه:

حيـاتُـكَ أنفـاسٌ تُعَـدُّ فَكُلَّمـا ... مَضَى نَفَسٌ منها انتُقِصتَ به جُزْءا

فتُصْبِـحُ في نَقْصٍ وتُمْسِي بِمِثْلِهِ ... فما لَكَ من عَقْلٍ تُحِسُّ به رُزْءَا

يُمِيْتُكَ ما يُحْيِيكَ في كلِّ ساعةٍ ... ويحدوكَ حادٍ لا يريدُ بكَ الهُزْءا[1]

وقال آخر:

كـلَّ يـومٍ يمـوت مِنِّـيَ جُـزْءٌ ... وحيـاتـي تَنَفُّـسٌ معـدودُ[2]

وقال أبو العتاهية:

غداً أنا مِنْ ذَا اليومِ أَدْنَى إلى الفَنَا ... وبَعْـدَ غـدٍ أدنـى إليـه وأقـربُ

وقال محمود بن الحسن الورّاق:

يُحِـبُّ الفتـى طـولَ البقـاء كـأنَّـهُ ... علـى ثِقَـةٍ أنَّ البقـاءَ بقـاءُ

إذا طَوَى يوماً طوى اليومُ بعضَهُ ... ويطـويـه إن جَـنَّ المسـاءُ مسـاءُ

زيادته في الجسمِ نقصُ حياتِهِ ... وأنّى على نقصِ الحياةِ نَمَاءُ[3]

حرص قتادة بن دِعَامة على التلقّي من سعيد بن المسيِّب
وهو في المحنة مخافة أن يفوته

وكان أحد أعلام التابعين الفضلاء قتادة بن دعامة السدوسي المولود سنة ٦٠ والمتوفى سنة ١١٨، حريصاً على طلب العلم والاستفادة من الوقت وقراءة القرآن، وهو الضرير الأكمه، وقد ترجم له الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[4]

---

(١) «الديـوان» ص ١٧، و «قصـر الأمل» لابن أبـي الدنيـا، ص ١٣٢. وقـد لَفَّقْتُ الأبيات منهما حسبما أُريته صواباً.

(٢) «قصر الأمل» لابن أبـي الدنيا، ص ١٣٥.

(٣) «زهر الآداب وثمر الألباب» للحُصْري ١ : ٢٧٠.

(٤) ٥ : ٢٦٩ ــ ٢٨٣. والنص من إضافة العبد سلمان.

فقال عنه: «حافظُ العصر، قدوةُ المفسرين والمحدثين... كان من أوعية العلم، وممن يُضربُ به المثلُ في قوة الحفظ.

قال سَلَّام بن أبـي مطيع: كان قتادةُ يختم القرآنَ في سبعٍ، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث، فإذا جاء العشر ختم كل ليلة.

قال مَعْمَر: أقام قتادةُ عند سعيد بن المسيِّب ثمانية أيام، فقال له في اليوم الثالث: ارتحلْ يا أعمى فقد أنزَفْتَني[1].

وقال الصَّعق بن حَزْن: حدثنا زيد أبو عبد الواحد، سمعت سعيد بن المسيب، يقول: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة.

وقال سَلَّام بن مِسْكِين، عن عمران بن عبد الله، قال سعيد بن المسيب لقتادة: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك».

وهذا الثناء من سعيد بن المسيب على تلميذه قتادة السدوسي رحمهما الله تعالى منشؤه حرصُ قتادةَ على تلقي العلم حتى في أحرج الظروف، فقد غضب عاملُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ على المدينة المنورة هشامُ بن إسماعيلَ على الإمامِ سعيدِ بن المسيب لتوقفه في مبايعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وضربه ستين سوطاً، وأمر به فأقيم في الشمس زيادة في النكاية، ونهى أن يجالسه أحدٌ، ولكن ذلك لم يمنع قتادة أن يقف مع التابعي الجليل ــ وهو على هذه الحال ــ ليتعلم من علمه ويستفيد من فرائده، رغم نهي الوالي عن مجالسته.

ذكر الذهبـي في «السير»[2] في ترجمة الإمام سعيد بن المسيب، عن يحيـى بن غيلان: حدثنا أبو عَوانة، عن قتادة، قال: «أتيت سعيد بن المسيب وقد

---

(١) يقال: نَزَفْتُ البئرَ نَزْفاً، استخرَجتُ ماءَها كلَّه. يريد: استخرجتَ واستفدتَ واستنفدتَ كلَّ ما لديّ من علم.

(٢) ٤ : ٢٣٢.

أُلبس تُبَّانَ شَعْر[١] وأُقيم في الشمسِ، فقلت لقائدي: أدْنِني منه فأدناني، فجعلت أسأله خوفاً من أن يفوتني، وهو يجيبني حِسْبةً والناس يتعجبون».

فانظر إلى نَهَم وحرص هؤلاء الأعلام على تلقي العلم وحفظه حتى لا تفوتهم شاردة ولا واردة، وقد قال مَطَرٌ عن قتادة: «كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافاً، يأخذه العَوِيْل والزَّوِيْل[٢]، حتى يحفظه»[٣].

قَوْلُ سفيان الثوري: النهارُ يَعمَلُ عملَهُ

قال الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[٤]، في ترجمة الإمام سفيان الثوري: «شيخُ الإسلام، إمامُ الحفاظ، سيدُ العلماء العاملين في زمانه، أبو عبدِ اللهِ سفيانُ بنُ سعيدِ الثوريُّ، الكوفيُّ، المجتهدُ، ولد سنة ٩٧ من الهجرة، ومات سنة ١٦١، قال عبدُ الرحمنِ بنُ مَهْديٍّ: كُنَّا مع الثوريِّ جلوساً بمكةَ، فوَثَبَ وقال: النهارُ يَعمَلُ عملَه».

الوقتُ كالنار، والأعمال فيه عصا   فبادروا الخيرَ إنَّ العمر يحترقُ[٥]

سفيان الثوري يقدم سماع الحديث على السلام والمعانقة

ومن أغرب ما جاء عن السلفِ المحدِّثين الفقهاء، في حفظِ الوقتِ والمبادرةِ إلى تلقي العلم وسماعِ الحديثِ فيه، خشيةَ انفلاتِ الزمن: ما وقع للإمام أبي عبد الله سفيان بن سعيد الثوري.

---

(١) سراويل قصيرة إلى الركبة أو ما فوقها تستر العورة، جمعها تَبَابِين. «المعجم الوسيط».

(٢) أي: القلق والاضطراب.

(٣) «السير» ٥: ٢٧٢.

(٤) ٧: ٢٤٣.

(٥) البيت من إضافتي، وهو منسوب إلى أبي العلاء المعري، كما جاء في «الأربعين الطائية» ص ٩١. س.

قال الحافظُ الخطيبُ البغدادي رحمه الله تعالى، في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»(١): «من أول ما ينبغي أن يستعمِلَهُ الطالب: شِدَّةُ الحِرصِ على السماع، والمبادَرَةُ إليه، والملازمةُ للشيوخ».

ثم رَوَى بسندِهِ إلى «محمد بن كَثِير العَبْدِي، قال: قَدِمَ سفيانُ الثوريُّ البصرة، فلما نَظَر حَمَّادَ بنَ سَلَمة، قال له: حَدِّثْني حديثَ أبـي العُشَراءِ، عن أبيه؛ فقال حمادٌ: حدَّثني أبو العشراء، عن أبيه، الحديث(٢).

فلما فَرَغ من الحديث أقبَلَ عليه سفيانُ، فسلَّم عليه واعتنَقَهُ، فقال ــ حَمَّاد بنُ سَلَمة ــ : مَنْ أنت؟ قال: أنا سفيان، قال: ابنُ سعيد؟ قال: نعم، قال: الثوري؟ قال: نعم، قال: أبو عبد الله؟ قال: نعم، قال: فما مَنَعَك أن تُسَلِّمَ عليَّ، ثم تسألَ عن الحديث؟ قال: خَشِيتُ أن تموتَ قبلَ أن أسمَعَ الحديثَ منك». انتهى.

قال عبد الفتاح: فانظر كيف بادَرَ سفيانُ الثوريُّ إلى سماعِ الحديثِ وتلقِّيهِ قبلَ السلامِ على الشيخ ومُعَانَقَتِهِ، خشيةَ حُلولِ قاطعٍ من قواطعِ الحياة، حِرصاً على الوقتِ والعلمِ والازديادِ منه، فَرَضِيَ اللهُ عنه ما أَشدَّ انتباهَهُ للوقت، وما أغلَى العلمَ عنده؟ ولله در هؤلاء الأئمة الأعلام، كيف احتراقهم بالعلم وتحرقهم على تحصيله.

---

(١) ٢: ١٨٣، في (باب القول في كَتْب الحديث على وجهِهِ وعمومِه...).

(٢) يعني به ما رواه أبو العُشَراءِ، عن أبيه قالَ: قلتُ: يا رسول الله، أما تكونُ الذَّكاةُ ــ أي الذبحُ للحيوانِ المأكول ــ إلاَّ في الحَلْقِ واللَّبَّة [اللَّبَّة للبعير موضِـعُ نحره]؟ قال: لو طَعَنْتَ في فَخْذِها لأجزَأَكَ». رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، كما في «نيل الأوطار» ٨: ١١٩، وهذا عند الضرورة فيما لم يُقْدَر عليه من الحيوان، كالمترديةِ في البِئر وأشباهِهِ، والنافرة، والمتوحشة. وفي سند الحديث كلامٌ ينظر في «نيل الأوطار» وغيره.

أبو بكر النهشلي يبادر طيّ الصحيفة

وهذا المحدث الثقة أبو بكر النهشلي المتوفى سنة ١٦٦ يجامل زوّاره قليلاً ثم يبادر العمل خوفاً مِن طيّ الصحيفة.

جاء في كتاب «الديباج» لأبي القاسم إسحاق بن إبراهيم الخُتَّلي[١]: «حدثنا محمد بن صبيح بن السَّمَّاك، قال: دخلنا على أبي بكر النهشلي فجعل يحدِّثنا ساعة ويصلي ساعة، وقال: يا إخواني، لا تلوموني، فإنِّي أبادر طيَّ الصحيفة».

حَمَّادُ بن سَلَمة إمَّا يُحدِّث أو يَقرأ أو يُسبِّح أو يُصلِّي

قال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢]، في ترجمة الإمام المحدِّث حَمَّادِ بنِ سَلَمَة البصري، البزَّاز الخِرَقي: «الإمامُ المحدِّثُ النَّحْوِيُّ الحافظُ القُدوةُ شيخُ الإسلام، ولد سنة ٩١ من الهجرة، ومات سنة ١٦٧. وهو أوَّلُ من صَنَّف التصانيف مع ابن أبي عَرُوبة، وكان بارعاً في العربية فقيهاً فصيحاً مفوَّهاً صاحبَ سُنَّة، وكان عابداً من العُبَّاد.

قال تلميذُهُ عبدُ الرحمنِ بنُ مَهْديٍّ: لو قيل لحمادِ بنِ سَلَمة: إنك تموتُ غداً، ما قَدَرَ أن يزيد في العمل شيئاً. وقال موسى بنُ إسماعيل التَّبُوْذَكِيُّ: لو قلتُ لكم: إني ما رأيتُ حمادَ بن سَلَمة ضاحكاً، لصَدَقتُ، كان مشغولاً: إمَّا أن يُحدِّث، أو يقرأ، أو يُسَبِّح، أو يصلِّي، وقد قسَّم النهارَ على ذلك[٣]. قال يُونُسُ المؤدِّب: مات حمادُ بن سَلَمَة وهو في الصلاة، رَحْمَةُ الله تعالى عليه».

---

(١) ص ٦٤. والنص مِن إضافتي. س.

(٢) ١: ٢٠٢ و «سِير أعلام النبلاء» ٧: ٤٤٧.

(٣) قال سلمان: وهكذا كان سيِّدي العلامة الوالد رحمه الله لا يدع جزءًا من وقته يمضي بغير فائدة.

حُزْنُ محمد بن النضْر على اليوم يمرّ من عمره دون فائدة

«قال المفضّل بن يونس الجعفي الثقة الفاضل: رأيت أخا بني الحارث محمد بن النضر (العابد الزاهد) كئيباً حزيناً، فقلت: ما شأنك؟ وما أمرك؟ قال: مضتِ الليلةُ من عمري ولم أكتسب فيها لنفسي شيئاً، ويمضي اليومُ أيضاً ولا أُراني أكتسبُ فيه شيئاً، فإنا لله وإنّا إليه راجعون!

وكان المفضل بن يونس إذا جاء الليل قال: ذهب من عمري يوم كامل، وإذا أصبح قال: ذهبت ليلة كاملة من عمري»[١].

وفي ذلك يقول الحسينُ بنُ علي بن حسين الوزير أبو القاسم بن أبي الحسن:

أقولُ لَهَا والعيسُ تُحْدَجُ للسُّرَى ... أعِدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبرِ

سأُنْفِقُ ريعانَ الشبيبة آنفاً ... على طلبِ العلياءِ أو طلب الأجرِ

أليسَ من الخسرانِ أنَّ لياليا ... تَمُرُّ بلا نَفْعٍ وتحسبُ من عمري[٢]

وفي ذلك قيل:

يقولون: كم تشقى بدرسٍ تديمُهُ ... وتمعن فيه دائباً كلَّ إمعانِ

فقلت: ذروني، إنما أنا كادحٌ ... لأكملَ ذاتي أو لأجبرَ نقصاني

إذا لم يكن نقصانُ عمري زيادةً ... لعلمي، فإنِّي والبهيمةِ سِيَّانِ[٣]

أثقَلُ الساعاتِ على الخليل بن أحمد ساعَةٌ يأكُلُ فيها

وقال أبو هلال العسكري في كتابه «الحث على طلب العلم والاجتهاد في

---

(١) من «كلام الليالي والأيام لابن آدم»، لابن أبي الدنيا، ص ٢٧ و ٢٨. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٢) الأبيات في «معجم الأدباء» ١٠ :٨٨، و «وفيات الأعيان» ٢ :١٧٣، و «تاريخ الإسلام» للذهبي ٢٨ : ٤٤٤. وهي من إضافة العبد سلمان.

(٣) «ديوان أبي الفتح البستي» ص ٣٠٦. وهي مِن إضافتي. س.

جَمْعِه»(١): «كان الخليلُ بن أحمد ـ الفَرَاهِيْدِي البصري، أَحَدُ أذكياء العالم، المولود سنة ١٠٠، والمتوفى سنة ١٧٠ رحمه الله تعالى ـ يقول: أثقَلُ الساعاتِ عليَّ: ساعةٌ آكُلُ فيها». فاللهُ أكبَرُ ما أشدَّ الفَنَاءَ في العلم عنده؟! وما أوْقَدَ الغَيرةَ على الوقتِ لديه؟!.

أبو يوسف ساعَةَ موتِهِ يُباحثُ في مسألة فقهية

وهذا الإمامُ أبو يوسف القاضي (يعقُوبُ بن إبراهيم الأنصاري الكوفي ثم البغدادي)، المولود سنة ١١٣، والمتوفى سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى، صاحبُ الإمام أبي حنيفة وتلميذُه وناشِرُ علمِهِ ومذهبِهِ، وقاضي الملوكِ الخلفاءِ العباسيين الثلاثة: المَهْدِي والهادي والرشيد، وأوَّلُ من دُعيَ: قاضيَ القُضَاةِ، وكان يُقالُ له: قاضِي قُضَاةِ الدنيا.

يُباحثُ ـ وهو في النَّزْعِ والذَّمَاءِ: النَّفَسِ الأخيرِ من الحياة ـ بعضَ عُوَّاده في مسألةٍ فقهية، رجاءَ النفع بها لمستفيدٍ أو متعلِّم، ولا يُخلي اللحظة الأخيرةَ من لحظاتِ حياتِهِ من كَسْبِها في مذاكرة علمٍ وإفادةٍ واستفادة.

«قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري: مَرِضَ أبو يوسف، فأتيتُه أعودُه، فوجدتُهُ مُغْمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقولُ في مسألةٍ؟ قلتُ: في مِثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأسَ بذلك، نَدْرُسُ لعلَّه يَنْجُو به ناجٍ؟

ثم قال: يا إبراهيمُ، أيُّما أفضَلُ في رَمْيِ الجِمَار ـ أي في مناسِكِ الحج ـ أن يَرميَها ماشياً أو راكباً؟ قلتُ: راكباً، قال: أخطأتَ، قلتُ: ماشياً، قال: أخطأتَ، قلتُ: قُلْ فيها، يَرْضَى اللهُ عنك.

---

(١) ص ٨٧.

قال: أمَّا مـا كان يُوقَفُ عنده للدعاء، فالأفضلُ أن يَرمِيَـهُ ماشياً، وأمَّـا ما كان لا يُوقَفُ عنده فالأفضلُ أن يَرميَه راكباً. ثم قُمْتُ من عنده، فما بلغت بابَ دارِه حتى سَمِعْتُ الصُّراخَ عليه، وإذا هو قد مات، رحمةُ الله عليه(١).

وهذه طريقةُ العلماء والمشايخ، فإنهم يقولون: ــ طَلَبُ العلم ــ مِنَ المَهْدِ إلى اللَّحْدِ»(٢).

---

(١) هكذا غلاءُ العلم عند السلف، يتذاكرون به ويبحثون في مسائله ومشكلاتِه حتى عند الموت ووَدَاع الحياة!! فلله دَرُّهم ما أحبَّ العلمَ إلى قلوبهم؟

وجاء في «توالي التأنيس بمعالي محمد بن إدريس» أي الإمام الشافعي، للحافظ ابن حجر، ص١٠٥، «قال ابنُ أبي حـاتم: سمعتُ المُزَنيَّ يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتُك للعلم؟ قال: أسمَعُ بالحَرْف ــ أي بالكلمة ــ مما لم أَسْمَعْهُ، فَتَوَدُّ أعضائي أنَّ لها أَسْماعاً تتنعَّمُ بـه مِثلَ ما تنعَّمَتْ بـه الأُذُنان. فقيل لـه: كيف حِرصُكَ عليه؟ قـال: حِرْصُ الجَمُوعِ المَنُوعِ في بلوغ لَذَّتِه للمال. فقيل له: فكيف طَلَبُك له؟ قال: طَلَبُ المرأةِ المُضِلَّةِ ولدَها ـ ليس لها غيرُه». وبمثل هذا الشَّغَفِ والعِشقِ للعلم يتكوَّن النبوغُ والإمامةُ فيه. [والنص المذكور غيرُ موجود في المطبوع من «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبـي حاتم. س].

(٢) هذا الكلامُ: (طَلَبُ العلمِ من المهد إلى اللحد)، ويُحْكَى أيضاً بصيغةِ (اطلُبوا العلمَ من المهد إلى اللحد): ليس بحديثٍ نبوي، وإنما هو من كلام الناس، فلا تجوز إضافتُه إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كما يتناقَلُهُ بعضُهم، إذ لا يُنْسَبُ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلاَّ ما قالَهُ أو فَعَلَهُ أو أقرَّهُ.

وكونُ هذا الكلامِ صحيحَ المعنى في ذاتِه وحقاً في دعوته: لا يُسوِّغُ نِسبتَهُ إلى النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، قال الحافظ أبو الحَجَّاج الحَلَبـي المِزِّي: «ليس لأحدٍ أن يَنْسُبَ حَرْفاً يَسْتَحْسِنُه من الكلام إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإن كان ذلك الكلامُ في نفسِه حقاً، فإنَّ كلَّ ما قاله الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم حقٌّ، وليس كلُّ ما هو حَقٌّ قاله الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم». انتهى من كتاب «ذيل الموضوعات» للحافظ السيوطي ص ٢٠٢، [وهو بنحوه في «لسان الميزان» ٧: ٣٨٤]. =

أبو يوسف يموتُ ابنُهُ
فيوكِّلُ بتجهيزِهِ ودفنِهِ ليَحضُر الدرس

وهذا الإمام الجليلُ الذكي، أبو يوسف القاضي الألمعي، كان شديدَ الملازمة لشيخه الإمام أبـي حنيفة، لازم مجلسه ١٧ سنة أو **٢٩** سنة، ما فاتَهُ صلاةُ الغداةِ معه، ولا فارقه في فِطْرٍ ولا أَضْحَى إلاَّ من مرض، «رَوَى محمد بن قُدَامة، قال: سمعتُ شُجاعَ بن مَخْلَد، قال: سمعتُ أبا يوسف يقول: مات ابنٌ لي، فلم أحْضُر جِهازَهُ ولا دَفْنَه، وتركتُهُ على جيراني وأقربائي، مخافة أن يفوتني من أبـي حنيفة شيءٌ لا تَذهَبُ حسْرَتُه عَنِّي»[1].

محمد بن الحسن يتوسخ لباسه
ولا يتفرغ لنزعه لشغله بالعلم

جاء في كتاب «مناقب أبـي حنيفة» للكَرْدَري[2]، في باب مناقب الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبـي حنيفة، المولود سنة **١٣٢**، والمتوفى سنة **١٨٩** رحمه الله تعالى: «عن محمد بن سَلَمة، قال: إنَّ محمد بن الحسن كان جزَّأ الليلَ ثلاثةَ أجزاء: جزءٌ ينامُ، وجزءٌ يصلي، وجزءٌ يَدْرُس،

= وهذا الحديثُ الموضوع: (اطلبوا العلمَ من المَهْد إلى اللَّحْد) مشتهِرٌ على الألسنة كثيراً، ومن العجب أن الكتب المؤلفة في (الأحاديث المنتشرة) لم تذكره.

وخبَرُ الإمام أبي يوسف المذكور: من كتاب «فضائل أبي حنيفة وأصحابه» لأبي العباس ابن أبـي العَوَّام (مخطوط) في الخبر ٧٣٠، ومن كتاب «مناقب أبـي حنيفة» للموفَّق المكي ١: ٤٨١، و «مناقب أبـي حنيفة» لحافظ الدين الكَرْدَري ٢: ٤٠٥، في (الفصل الثالث) في ترجمة الإمام أبـي يوسف، ومن «الجواهر المُضِيَّة» للحافظ القرشي ١: ٧٦، من ترجمة (إبراهيم بن الجراح). [وقد تكرر مثل ذلك من أئمة آخرين، كما ستقف عليه لاحقاً].

(١) من «مناقب أبـي حنيفة» للإمام الموفق المكي ١: ٤٧٢.

(٢) ٢: ٤٣٥.

وبَلَغ شُغلُهُ بالعلم أنه كان يتوسخ لباسُهُ ــ وهو اللَّبَّاسُ المُتَجَمِّل ــ ولا يتفرغُ لنزعه حتى يؤتى بثوب غيره، فيلبسُ ويَنزِعُ.

وكان لا ينام بالليل، فقيل له: لم لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عُيونُ المسلمين توكلاً علينا، ويقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه فيكشِفُهُ لنا، فإذا نمتُ ففيه تضييعٌ للدين».

وكان رحمه الله يُوكِّل غيره في حوائج أهله ليكون أفرغ لقلبه وأصفى لفكره في الاشتغال بطلب العلم وتحقيق مسائله، فقد جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[1] وغيره، في ترجمته:

«عن محمد بن سَمَاعة قال، قال محمد بن الحسن لأهله: لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا فَتَشْغَلُوا قلبـي، وخذوا ما تحتاجون إليه من وكيلي، فإنه أقلَّ لهَمِّي، وأفرغَ لقلبـي»[2].

محمدُ بن الحسن لا يَنامُ من الليل إلاَّ قليلاً

وقال العلامة طاشْكُبْرِي زَادَهْ في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»[3]:
«كان محمد بن الحسن الشيباني الكوفي البغدادي، الإمام الفقيه المجتهد المُحدِّث، تلميذُ الإمام أبـي حنيفة رحمهما الله تعالى، لا يَنامُ الليل، وكان يَضَعُ عنده دفاترَ ــ يعني كتباً ــ ، فإذا مَلَّ من نوعٍ نظرَ في آخر، وكان يُزيلُ نومَهُ بالماءِ ويقول: إنَّ النوم من الحرارة».

---

(١) ٢ : ٤٣٥.

(٢) وكأني به رحمه الله قد أُشرب نصيحة شيخه الآتية ص١٨٦، قال وكيع بن الجراح: «سمعت رجلاً يسأل أبا حنيفة: بم يستعان على الفقه حتى يُحفظ؟ قال: بجمع الهِمَّة، قال: قلت: وبِمَ يستعان على جمع الهِمَّة؟ قال: بحذفِ العلائق، قلت: وبم يستعان على حذفِ العلائق؟ قال: بأخذ الشيء عند الحاجة ولا تَزِدْ». انتهى.

(٣) ١ : ٢٣. [و «تعليم المتعلم طريق التعلُّم» للزرنوجي، ص ٨٥].

قال عبد الفتاح: لله دَرُّ هذا الإمام الزَكِن الفطن، واللبيب الأريب، كيف كان يُبدِّدُ المَلَل والفتور بتلوين القراءة والمطالعة عند ثقلِ علمٍ على الذهن بانتقاله إلى علم آخر، وهكذا ينبغي أن يفعل طالب العلم الحريص على وقته وعلمه.

وسَلَفُه في هذا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه فإنه كان إذا لحظ مَلَلاً وسأماً في سامعيه وحاضري مجلسه في التفسير، قال: حَمِّضونا حمضونا، فأخذوا وأخذ معهم في الشعر، فيتجدد النشاط فيهم[1].

تجزئةُ الإمام الشافعي الليل أثلاثاً

روى القاضي عياض في «الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع»[2] بسنده إلى الربيع بن سليمان المُرَادي تلميذ الإمام الشافعي المولود سنة ١٥٠ والمتوفى سنة ٢٠٤ رحمهم الله تعالى: «أن الشافعي كان يُجَزِّءُ الليلَ ثلاثة أجزاء: الثُّلث الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام».

تجزئة أبي عُبَيد الليل أثلاثاً أيضاً

ولم يكن هذا حال الإمام الشافعي وحده بل كان عليه كثير من علماء السلف استفادة من ساعات الليل، وهي ثلث العمر أو ربعه، واغتناماً لسكون الحركة في الليل وخلو الذهن من مشاغل النهار.

ولله در القائل:

ويَسْهَرُ في ذِكْرٍ وفِكْرٍ وفي عُلا ‏ ‏ ‏ ‏ ومَنْ باتَ صبّاً بالعُلا جانبَ الغَمْضَا

فقد ورد في «تاريخ بغداد» للخطيب[3]، في ترجمة الإمام أبي عُبَيد القاسم بن سَلَّام الهروي البغدادي، المولود سنة ١٥١، والمتوفى سنة ٢٢٤

---

(١) «النهاية» لابن الأثير ١: ٤٤١.

(٢) ص ٢٣٤.

(٣) ١٢: ٤٠٨.

رحمه الله تعالى، ما نصه: «كان يَقسِمُ الليلَ أثلاثاً، فيصلي ثُلثه، وينام ثلثه، ويَضَع ــ أي يُؤلِّف ــ الكتبَ ثلثه».

تجزئةُ الحافظ الحَصِيري الليل أثلاثاً أيضاً

وجاء في «تذكرة الحفاظ» للحافظ الذهبي[1] في ترجمة الحافظ الحَصِيري جعفر بن أحمد النيسابوري المتوفى سنة ٣٠٣ رحمه الله تعالى: «قال الحاكم: قال لي سبطه محمد بن أحمد السُّكَّري: كان جدّي قد جَزَّأ الليلَ، ثُلثاً يصلي، وثلثاً ينام، وثلثاً يُصَنِّف».

أبو زيد الأنصاري يُعلِّم في مرض موته

وهذا الإمام اللغوي الضليع أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس المتوفى سنة ٢١٥، يحكي عنه تلميذه أبو عثمان المازني قال: «دخلت على أبي زيد في مرضه الذي مات فيه، فقال: أشتكي صدري، فقلت: أَمْرِخْهُ (بكسر الراء) بشمع ودُهْن؟ فقال: ليس كذا، إنما هو أُمْرُخْهُ (بضم الراء)، فتعجبت منه في تلك الحال يعلمني». انتهى[2].

عِصَامٌ البلخي اشترى قلماً بدينار ليكتُبَ ما سَمِعَه فوراً

وقال العلامة طاشْكُبْرِي زادَه في «مفتاح السعادة»[3]: «واشترى عصامُ بن يوسف ــ البلخيُّ الفقيهُ الحنفيُّ ومُحدِّثُ بَلْخ، المتوفى سنة ٢١٥ رحمه الله

(١) ٢: ٧٠٢.

(٢) «نور القَبَس المختَصَر المُقْتَبَس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء العلماء» لليغموري، ص ١٠٨، نقلاً عن كتاب «النوادر» لأبي زيد، ص ٢٢ وص ٦٦١. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٣) ١: ٣٦. [و «تعليم المتعلم» للزرنوجي ص ٩١].

تعالى ـ قَلَماً بدينار ليكتُبَ ما سَمِعَ في الحال[1]. فالعُمرُ قَصير، والعِلمُ كثير، فينبغي للطَالب أن لا يُضيعَ الأوقاتَ والساعات، ويَغتنمَ الليالِيَ والخَلَوات، ويَغتنمَ الشيوخَ ويستفيدَ منهم، فليس كلُّ ما فات يُدْرك!.

ولستُ بمُدْرِكٍ ما فات مِنِّي   بِلَهْفَ ولا بِلَيْتَ ولا لَوَ أنِّي!»

محمد بن سَلاَم البِيْكَنْدي ينادي: قلَمٌ بدينار

وهذا محمدٌ بن سَلاَم البِيْكَندي شيخُ البخاري، المتوفى سنة ٢٢٧، كان في حال الطلب جالساً في مجلس الإملاء، والشيخُ يُحدِّثُ ويُمْلِي، فانكَسَرَ قَلَمُ محمد بن سَلاَم فأمَرَ أن يُنادَى: قَلَمٌ بِدِينار، فتطايَرَتْ إليه الأقلام. حكاه الحافظ العيني في «عمدة القاري»[2].

وما هذا البذلُ السخِيُّ في زمن الطلب من هؤلاء الأئمة الأعلام، إلاَّ لمعرفتهم بقيمة ذاك الوقتِ الغالي، وقيمةِ ما يُملأ به أيضاً، وحرصهم ألا تفوتهم من مجلس العلم فائدة، فبذَلوا الذهبَ والدينارَ في تحصيل قلم.

عُبَيْدُ بن يَعيش تُلقِّمُه أختُه العَشاءَ ثلاثين سنة ليَكتُبَ الحديثَ

وحكى الحافظ الذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء»[3]، في ترجمة المحدِّث الكبير عُبَيْد بن يعيشَ شيخ البخاري ومسلم، ما يلي: «هو الحافظُ الحُجَّةُ الأوحد، أبو محمد عُبَيد بن يعيشَ الكوفيُّ، المَحامِليُّ العطار.

---

(١) الدينار = ٤,٢٥غم من الذهب. كما في فهرست وحدات الوزن وما يعادلها في النظام المتري، الملحق بكتاب «الإيضاح والبيان في معرفة المكيال والميزان» لابن الرِّفْعَة، تحقيق د. محمد الخاروف، ص ٨٦. سلمان.

(٢) ١:١٦٥، في كتاب الإيمان، في (باب قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: أنا أعلمُكم بالله. . .).

(٣) ١١:٤٥٨.

حدَّث عنه البخاري في جزء «رفع اليدين»[١]، ومسلمٌ في «الصحيح»، والنسائي بواسطة، وأبو زرعة الرازي، ومحمد بن أيوب البَجَليُّ، . . . وخلقٌ. ومات في رمضان سنة ٢٢٩.

قال عَمَّار بن رجاء: سَمِعتُ عُبَيْدَ بن يعيش يقول: أقمتُ ثلاثين سنةً ما أكلتُ بيدي بالليل، كانت أختي تُلَقِّمُني وأنا أكتُبُ الحديث»[٢].

ابنُ معين يقول لشيخه:
أمْلِهِ عليَّ الآنَ أخافُ أن لا ألقاك

ورَوَى الإمام أحمد والإمام أبو عيسى الترمذي[٣]، ولفظُ الحديثِ وإسنادُهُ المسوقُ هنا هو للترمذي.

قال الترمذي: «حدثنا عبد بن حُمَيد، قال: حدثنا محمد بن الفَضْل، قال: حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَة، عن حَبيب بن الشهيد، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم خرج من بيته ــ وهو في مرض موته ــ يتَّكِيءُ على أسامة بن زيد، وعليه ثوب قِطْرِيّ قد توشَّحَ به فصلَّى بهم»[٤].

---

(١) الجزء هنا على عُرف الأقدمين، وهو ما يعادل في زماننا نحو ثلاثين صفحة من القطع الوسط المعتاد اليوم.

(٢) خَبَرُ تلقيمه بالليل رواه أيضاً الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢:١٧٨ في (ذكر بعض أخبار الموصوفين بالإكثار من كَتْب الحديث وسماعه).

(٣) الإمام أحمد في «المسند» ٣:٢٦٦، والترمذي في «الشمائل» المحمدية ص ٦٠، في (باب ما جاء في لباس رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم).

(٤) الثوبُ القِطْرِيُّ هو نوع من الثياب التي كانت تُحْمَلُ إلى الحجاز من قَطَر، البلدِ =

ثم قـال الترمذي بعـد رواية هـذا الحديث: «قال عبـدُ بن حميد ــ وهو شيـخ التـرمـذي ــ : قـال محمـدُ بـنُ الفضـل: سـألنـي يحيـى بـن معيـن عـن هذا الحديث أَوَّلَ ما جَلَسَ إليَّ، فقلتُ: حَدَّثنا حمادُ بن سَلَمَة، فقال: لو كان من كتابِك، فقُمتُ لأُخْرِجَ كتابي، فَقَبَضَ على ثَوْبِي ثم قال: أمْلِهِ عليَّ، فإنِّي أخـاف أن لا ألقاك، فأَمْلَيْتُـهُ عليه، ثم أخرجتُ كتابي فقرأتُـهُ عليـه». انتهى.

إمامةُ يحيى بن معين في الحديث

ولزيادة فهم هذا الخبر أرى أن أذكر طَرَفاً من ترجمة الإمام يحيـى بن معيـن، قال الحافـظ الذهبـي في «سِيَر أعلام النبلاء» و«تـذكرة الحفاظ»[1]، في ترجمـة يحيى بن معيـن: «هـو الإمامُ الحافـظ، الجِهْبِـذُ، سيـدُ الحفاظ، وملِـكُ الحفـاظ، شيـخُ المحـدِّثيـن، أبـو زكـريـا، يحيــى بـنُ مَعيـن بـن عَـوْن ابن زياد بن بِسْطَام، ولم يكن من العرب وإنما والَى بعضَ بني مُرَّ منهم فقيـل لـه: المُـرِّيُّ وَلاءً، البغـداديُّ ولادةً ومنشـأً، أحـدُ أعـلام المحدِّثيـن الكبار.

وُلد في بغداد سنة ١٥٨ من الهجرة، ونشأ في بغداد، وكتب العلم وهو ابن عشر سنين، وكان أبوه مَعِينٌ من نبلاء الكُتَّاب لعبد الله بن مالك على خَراج

= المعروف المجاوِر القريبِ من المملكة العربية السعودية، والنسبةُ في الثياب إليه: قِطْرِي، على خلاف القياس، فَكَسَرُوا القاف وسَكَّنُوا الطاء للتخفيف كما في كتاب «النهاية» لابن الأثير. وتوشَّحَ بثوبِهِ: لَبِسَهُ.

(١) «سيـر أعـلام النبـلاء» ١١: ٧١ ومـا بعـدهـا، و «تـذكـرة الحفـاظ» ٢: ٤٢٩ وما بعدها. وإنما ذكرتُ هذه الترجمة الوجيزة ليحيـى بن معين هنا ــ استطراداً وخروجاً عن منهج الكتاب ــ ليُفْهَمَ خبرُهُ الذي أسلفتُ ذكرَهُ على الوجه المطلوب، فمعذرة.

الري، فخلَّف له ألفَ ألفِ درهم[1]، فأنفَقَها كلَّها على تحصيل الحديث حتى لم يَبْقَ له نعلٌ يَلْبَسُه!.

سَمِعَ الحديثَ من عبد الله بن المبارك، وهُشَيم بن بَشير، وإسماعيل بن عياش، وسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق الصنعاني باليمن، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن سعيد القطَّان، وعبدِ الرحمن بن مهدي، وخلقٍ كثير سواهم، بالعراق والشام والجزيرة ومصر والحجاز.

ورَوَى عنه الحديثَ الإمامُ أحمد بن حنبل، والبخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داود، وعباسٌ الدُّوري البغداديُّ وهو راويةُ علمِه، وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، وعثمانُ بن سعيد الدارمي، وأبو يَعْلَى المَوْصِلي، وخلائقُ لا يُحصَون كثرةً.

كتابةُ ابن معين بيدِهِ ألفَ ألفِ حديث
وكتابتُهُ الحديثَ الواحدَ خمسين مرة

قال علي بن المديني: انتهى علمُ الناس إلى يحيى بن معين. وقال عبد الخالق بن منصور: قلتُ لعبد الله بن الرومي: سمعتُ بعضَ أصحاب الحديث يُحَدِّثُ بأحاديثِ يحيى بن معين ويقول: حدَّثني من لم تطلع الشمسُ على أكبر منه، فقال ابن الرومي: وما تَعْجَبُ؟ سمعتُ عليَّ بن المديني يقول: ما رأيتُ في الناس مثلَه، وما نعلم أحداً من لدن آدم كَتَبَ من الحديث ما كَتَبَ يحيى بن معين. قال محمد بن نصر المَرْوَزي:

---

(١) الدرهم = ٢,٩٧٥غم من الفضة، كما في ملحق كتاب ابن الرِّفْعَة المتقدم ص ٦١. ويرى شيخي الشيخ محمد رواس قلعه جي في «الموسوعة الفقهية الميسرة» ١ : ٨٥٤ أن الدرهم = ٢,٨١٢غم من الفضة. سلمان.

سمعتُ يحيـى بن معين يقول: كتبتُ بيدي ألفَ ألفِ حديث[1].

قال الذهبـي: يعني بهذا العددِ المكرَّرَ من الحديثِ الواحد، ألا تراه قال: لو لم نكتب الحديث خمسين مرةً ما عرفناه.

كلُّ حديثٍ لا يَعرفه ابنُ معين فليس بحديث

وقال الإمام أحمد بن حنبل: كلُّ حديث لا يَعرفه يحيـى بن معين فليس بحديث، يحيـى بنُ معين رجلٌ خلقَهُ الله لهذا الشأن، يُظهِرُ كذبَ الكذّابين.

وقال أبو حاتم الرازي: إذا رأيتَ البغدادي يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحبُ سُنَّة، وإذا رأيتَه يُبْغِضُ يحيـى بن معين فاعلم أنه كذّاب.

قول ابن معين: إذا كتبتَ فقمِّش وإذا حَدَّثتَ ففتِّش

ويحيـى بن معين هو صاحبُ المنهج العظيم في تلقي العلم ونشرِهِ، إذ يقول كلمَتَهُ التي صارت دُستورَ المحدثين والعلماء، في التحصيل والأداء: إذا كتبت فَقَمِّشْ ــ أي اكتُب كلَّ ما تَسمع واجْمَعْهُ ــ وإذا حدَّثتَ فَفَتِّشْ[2].

---

(١) يَعُدُّ المحدِّثون كلَّ خبرٍ أو كلمةٍ من كلام الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، أو كلام الصحابـي أو التابعي أو تابع التابعي، أو التفسير للفظٍ غريب، أو لفظٍ مبهم، أو نحوَ ذلك، إذا رُوي بالسند: حديثاً. فهذا العدَدُ على هذا المعنى.

(٢) وقعت نسبة هذه الكلمة إلى أبـي حاتم الرازي، في «شرح الحافظ العراقي لألفيته» في المصطلح في مبحث آداب طالب العلم ٢: ٢٣٢، وأبو حاتم من تلامذة ابن معين، فنِسبَتُها إليه من حيث إنه ذكرها لا أنه أنشأها.

[وقال الحافظ رحمه الله في شرح هذه الكلمة: «والتَّقْمِيْشُ والقَمْشُ أيضاً: جمع الشيء من ههنا وههنا، ولم يُبيِّنِ ابن الصلاح ما المرادَ بذلك؟ وكأنَّه أرادَ كَتْبَ الفائدة ممن سمعتَها ولا تؤخِّر ذلك حتى تنظُر فيمن حَدَّثَك، أهوَ أَهْلٌ أن يُؤخَذَ عنه أم لا؟ فرُبَّما فات ذلك بموتِ الشيخ أو سفرِهِ أو سفرِك، فإذا كان وقتُ الرواية عنه أو وقتُ العملِ بذلك ففتِّش حينئذٍ. . . =

كثرةُ الكتب التي خلَّفها ابنُ معين

قال صالح بن أحمد الحافظ: سمعتُ أبا عبد الله محمد بنَ عبد الله قال: سمعت أبـي يقول: خلَّف يحيـى بنُ معين من الكتب مِئَةَ قِمَطْر، وأربعةَ عشرَ قِمَطْراً[(١)]، وأربعةَ حِبَاب شَرَابِيَّةٍ مملوءةً كتباً[(٢)].

ابنُ معين كان يذُبُّ الكذبَ عن رسول الله ﷺ

وكان يحيـى بن معين هذا، إذا حَجَّ ذهب إلى مكة من طريق المدينة، وإذا رجع من مكة رجع عن طريق المدينة، فلما حج في سنة ٢٣٣، دخل المدينة قبل الحج في أواخر ذي القعدة، وأصابه المرض فمات لسبع ليال بقين من ذي القعدة، فتسامع الناسُ بقدومِهِ وبموتِهِ، وأخرج له بنو هاشم الأعواد ــ أي السرير ــ التي غُسِّل عليها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فَغُسِّل عليها، وصَلَّى عليه الناس ودُفِنَ في البقيع، وكان الناس يقولون: هذا الذي كان يذب الكذب عن رسول الله ﷺ». انتهى كلام الحافظ الذهبـي بتصرُّف.

= وينبغي للطالبِ أن يسمعَ ويكتب ما وقعَ له من كتابٍ أو جزءٍ على التمام ولا ينتخبه، فرُبَّما احتاج بعدَ ذلكَ إلى رواية شيء منه لم يكن فيما انتخَبَهُ منهُ فيندمَ، وقد روِّينا عن ابنِ المبارك قال: ما انتخَبتُ على عالم قَطُّ إلاَّ نَدِمتُ، . . . ، وروِّينا عن ابن معين قال: صاحب الانتخاب يندم، وصاحب النسخ لا يندم». انتهى مصححاً بعضه من «فتح الباقي» للعلاَّمة زكريا الأنصاري].

(١) قال المرتضَى الزَّبِيدي في «شرح الإحياء» ١:٣٥٩: «القِمَطْرُ: سَفَطٌ يُسوَّى من قَصَب، تُصَانُ فيه الكتب».

(٢) الحِباب جمعُ حُبّ بضم الحاء، وهو الجَرَّةُ الكبيرة الضخمة، وكانوا يضعون كتبهم في تلك الجِرار الكبيرة، حِفظاً لها. وشَرَابِيَّة منسوبة إلى الشَّراب.

شرحُ واقعةِ ابن معين مع شيخِهِ محمد بن الفضل

قلت: في تلقي يحيـى بن معين لحديث اتكاء النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم على أسامة رضي الله عنه من شيخه محمد بن الفضل لطائفُ غالية، وفوائدُ ثمينة، وذلك أن يحيـى بن معين الذي عرفنا طرفاً من ترجمته فيما تقدم، طَلَبَ من شيخه محمد بن الفضل السَّدوسِي البصري الملقَّب بعَارِم: أن يُحَدِّثَه بهذا الحديث أوّل ما جلس إليه يحيـى، فلمّا بدأ يُحَدِّثُه واستهلَّ التحديث بقوله: حدثنا حمَّادُ بن سَلَمَة، قال له يحيـى: لو كان من كتابك.

وإنما طلب يحيـى هذا منه زيادةً في التوثق والتثبت، فإن محمد بن الفضل حافظ ثَبْتٌ صدوقٌ مأمونٌ أَحَدُ الثقات المعروفين، ولكن أراد يحيـى زيادة الاستيثاق والضبط.

وكان من عادة المحدثين قبل إنشاء المدارس في القرن الخامس الهجري أن يحدث الشيخُ طلابَه في المسجد، أو في مكانٍ فسيح إذا كانوا لا يَسعهم المسجد، أو على باب داره إذا كان العدد قليلاً، وكان الفضل بن محمد يُحَدِّث يحيـى بن معين هذا الحديث على باب داره.

فلما قام محمد بن الفضل ليَدخلَ دارَه ويأتيَ بكتابِهِ من بيته فيُحَدِّثَهُ منه، خشِيَ يحيـى أن يحصُلَ لمحمدِ بن الفضل مانعٌ في هذه الفترة القصيرة بين قيامِهِ لبيته للإتيان بالكتاب وعَوْدَتِهِ إليه، فَيَفُوتَ عليه سماعُ هذا الحديث منه، فأَخَذَ بثيابه قبل أن يَتِمَّ قيامُهُ ليأتي بالكتاب من بيته، ومَنَعَهُ من دخول الدار حتى يُحَدِّثَهُ بالحديث من حفظِهِ، لشدة حرصِهِ على سماعِ الحديثِ، خشيةَ أن يفوتَهُ سماعُهُ بعارضٍ يَعْرِضُ أو مانعٍ يمنع.

وقال له: أمْلِهِ عليَّ الآن من حفظك، فإني أخاف أن لا ألقاك، فإنَّ الحياة لها قواطِعُهَا، فأخافُ أن يُحالَ بيني وبينك فلا ألقاكَ، فأملى محمد بن الفضل:

الحديثَ على يحيـى بن معين من حفظه أولاً، ثم دخل داره فجاء بالكتاب فقرأه عليه منه ثانياً.

وهذه الواقعة تُسجِّلُ لنا ما كان عليه الإمام يحيـى بن معين، من شدةِ الحرص على كسب الوقت، وعظيمِ الحِفَاظ على تحصيل العلم، ومتانةِ التوثق فيه، وقُوَّةِ المسارعة والاستباق إلى الاستفادة، وما كان عليه من الابتعاد عن الأمل والتمهل في تقييد العلم والفوائد، وخوف المباغتة من قواطع الحياة[1].

وبهذه الواقعة الصغيرة التي جاء تسجيلُها عَرَضاً، عرفنا ما كان عليه الإمام يحيـى بن معين من حفظ الوقت وكسب الزمن، وأدركنا كيف تسنَّى ليحيـى بن معين أن يكتب بيده ألفَ ألفِ حديث، ويَطُوفَ البلدان، ويَسمَعَ من الشيوخ، ويُحَدِّثَ بما سَمِعَهُ وتلقَّاهُ ألوفَ المحدِّثينَ والطالبين.

وليس الإمام يحيـى بن معين في هذه المنقبة نسيجَ وحدِهِ وفريدَ نوعِهِ، بل قُلْ مثلَ ذلك في الإمام عليِّ بنِ المديني وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبـي داود والترمذي والنسائي وأمثالِهم.

قصة أخرى لابن معين
في المبادرة إلى سماع الحديث خشية انفلات الزمن

وقد تكرَّرَ هذا الحرص من الإمام يحيـى بن معين رحمه الله تعالى في أكثر من مناسبة، فروى الخطيبُ البغداديُّ في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في المقدمة الحافلة لكتابه العظيم «المجموع» ١:٦٨، في (باب آداب المتعلِّم): «ومن آدابه: أن تكون هِمَّتُهُ عالية، فلا يَرضَى باليسير مع إمكان الكثير، وأن لا يُسوِّفَ في اشتغاله، ولا يُؤَخِّرَ تحصيلَ فائدةٍ وإنْ قَلَّتْ إذا تمكَّن منها، وإنْ أَمِنَ حصولَها بعدَ ساعة، لأنَّ للتأخير آفات، ولأنه في الزمنِ الثاني يُحَصِّلُ غيرَها».

وآداب السامع»[١]، بسنده إلى «أبـي جعفر بنِ نُفَيْل ــ عبدِ الله بن محمد بن علي بـن نُفَيْـل الحَـرَّانـي الحـافـظِ الثَّبْـتِ السَّنَـدِ الإمـام ــ ، قـال: «قَـدِم علينـا ــ حَرَّانَ ــ أحمدُ بن حنبل ويحيـى بن معين، فسألني يحيـى وهو يُعانِقُني، قال: يا أبا جعفر، قرأتَ على مَعْقِل بن عُبَيد الله، عن عطاء: (أَدْنَى وَقْتِ الحائِض يومٌ)؟ فقال له أبو عبد الله ــ يعني أحمدَ بنَ حنبل ــ: لو جَلَسْتَ؟ قال: أكرَهُ أن نَمُوتَ أو نُفارِقَ الدنيا قبلَ أن أَسْمَعَهُ». انتهى.

قصة أخرى:
ابن معين يتلقَّى حديثاً في جنازة[٢]

جاء في «تاريخ بغداد»[٣] في ترجمة أبـي جعفر محمد ابن المنادي عنه قال: «حضرتُ جنازةً فذكرتُ هذا الحديث لقوم معي[٤]، فحدّثني رجل من خلفي، فالتفتُّ وإذا هو يحيـى بن معين، فسلَّمت عليه، فقال لي: يا أبا جعفر حدّثني هذا عن أبـي النضر، فإني ما كتبتُه عنه، فامتنعتُ من ذلك إجلالاً لأبـي زكريا، فما تركني حتى أجلَسَني في ناحية من الطريق، وكتبه عَنِّي في ألواحٍ كانت معه». انتهى.

---

(١) ٢: ١٨٣، في (باب القول في كَتْب الحديث على وجهِهِ وعمومِهِ...).

(٢) كتبته بإشارة من الوالد رحمه الله. سلمان.

(٣) ٢: ٣٢٧.

(٤) هو: حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم، حدثني رجل، عن عمر بن ذر الهَمْدَاني أنه كان يقول: «اللهم إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك: شهادة أن لا إله إلاَّ أنت، ولم نعصك في أبغض الأشياء إليك: الشرك، فاغفر لنا ما بينهما». اهـ.

وعمر بن ذر من أتباع التابعين، فتسمية قوله حديثاً من باب التوسع، كما تقدم تعليقه من الوالد رحمه الله ص ٦٦. س.

حِرصُ الجاحظِ والفتحِ بن خاقان وإسماعيلَ القاضي على العلم

وروى الخطيب البغدادي في كتابه «تقييد العلم»[١]: «عن أبـي العباس المبرِّد، قال: ما رأيتُ أحرصَ على العلم من ثلاثة: الجاحِظ ــ عَمْرو بن بحرٍ إمـامِ أهـلِ الأدبِ، ولـد سنـة ١٦٣، ومـات سنـة ٢٥٥ ــ، والفتـح بـن خـاقـان ــ الأديب الشاعر أحدِ الأذكياء، من أبناء الملوك، اتخذه الخليفةُ المتوكلُ العباسيُّ وزيراً له وأخاً، واجتَمَعَتْ له خِزانةُ كتب حافلة من أعظم الخزائن، توفي سنة ٢٤٧ ــ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي ــ الإمام الفقيه المالكي البغدادي، ولد سنة ٢٠٠، ومات سنة ٢٨٢ ــ.

فأما الجاحِظُ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره، أيّ كتاب كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويَبِيتُ فيها للنظر في الكتب.

وأما الفتحُ بن خاقان فإنه كان يَحمِلُ الكتابَ في كُمِّه أو في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبولِ أو الصلاة، أخرَجَ الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يَبلُغَ الموضعَ الذي يريده، ثم يَصْنَعُ مثلَ ذلك في رجوعه، إلى أن يأخذَ مجلسَه. فإذا أراد المتوكل القيامَ لحاجة، أخرجَ الكتابَ من كُمِّهِ أو خُفِّه، وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عَوْدِهِ.

وأمَّا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي، فإني ما دخلتُ عليه قط إلاَّ رأيتُه وفي يـدِهِ كتـابٌ يَنظُـرُ فيـه، أو يُقلِّـبُ الكتـبَ لطلـبِ كتـابٍ يَنظُـرُ فيـه، أو يَنفُـضُ الكتب»[٢].

---

(١) ص ١٣٩.

(٢) انتهى بزيادة يسيرة من «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ١٦: ٧٥، في ترجمة الجاحظ.

ابنُ سُحنون أَلقَمَتْهُ جاريتُه العَشاءَ
ولم يَشعُر به لاشتغالِهِ بالتأليف

وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض(١)، في ترجمة الفقيه المالكي المحدِّث الإمام (محمد بن سُحْنُون القَيْرَواني) المولود سنة ٢٠٢، والمتوفى سنة ٢٥٦ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال المالكيُّ: كانت لمحمد بن سُحْنُون سُرِّيَّة ــ أي جاريةٌ مملوكة ــ يقال لها: أمُّ مُدَام، فكان عندَها يوماً، وقد شُغِلَ في تأليفِ كتابٍ إلى الليل، فحَضَر الطعامُ، فاستأذَنَتْهُ فقال لها: أنا مشغولٌ الساعةَ.

فلما طال عليها ــ الانتظار ــ جَعَلَتْ تُلقِّمُه الطعامَ حتى أَتَى عليه، وتمادَى هو على ما هو فيه، إلى أن أُذِّنَ لصلاةِ الصبح. فقال: شُغِلْنا عنكِ الليلةَ يا أمَّ مُدَام! هاتِ ما عندكِ، فقالت: قد ــ واللهِ يا سيدي ــ ألقمتُهُ لك، فقال: ما شَعَرتُ بذلك!»(٢).

---

(١) ٤: ٢١٧.

(٢) قلت: هذا نموذج من نماذج ذُهولِ العلماء قديماً واستغراقِهم وفَنَائِهم في العلم! ويُشبهُهُ ما حَدَث لشيخ المحدِّثين الإمامِ أبي الحُسَين مُسْلِم بن الحجَّاج القُشَيري النيسابوري، صاحبِ «الصحيح»، المولود سنة ٢٠٤، والمتوفى سنة ٢٦١، جاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ١٠:١٢٧ في ترجمته: «قال الحاكم: سمعتُ أبا الفضل محمد بن إبراهيم، قال: سمعتُ أحمد بنَ سَلَمَة ــ رفيق مسلم في الرحلة من نيسابور إلى بَلْخ وإلى البصرة ــ يقول: عُقِدَ لمسلم مجلسُ المذاكرة، فذُكِرَ له حديثٌ فلم يَعرفه، فانصرف إلى منزله ــ وكان الوقتُ ليلاً ــ ، وقُدِّمَتْ له سَلَّةٌ فيها تَمْر، فكان يَطلُبُ الحديثَ ويأخُذُ تمرةً تمرة، فأصبحَ وقد فنِيَ التمرُ! ووَجَدَ الحديث! زاد غيرُهُ: فكان ذلك سَبَبَ موتِهِ رحمه الله تعالى».

سَهَرُهم واحتراقُهم في العلم

روى القاضي عياض في «الإلماع»[١] بسنده إلى محمد بن اللَّبَّاد «أن محمد بن إبراهيم بن عبدوس الإمام الفقيه القَيْرَواني، المعروف بابن اللباد، المولود سنة ٢٠٢، والمتوفى سنة ٢٦٠، صَلَّى الصبحَ بوضوء العَتَمة ثلاثين سنة، خمس عشرة سنة من دراسة، وخمس عشرة سنة من عبادة».

لا يجدون وقتاً للقراءة على الشيخ إلاّ في الليل

جاء في «الجرح والتعديل» لعبد الرحمن بن أبي حاتم[٢]، وفي «تهذيب الكمال» للمِزِّي[٣]، في ترجمة الحافظ (أبي عبد الرحمن عبد الله بن مَسْلَمَة القَعْنَبِيِّ المَدَني) نزيلِ البصرة ثم مكة المكرمة، والمتوفى بها سنة ٢٢١ تلميذِ الإمام مالك رحمهما الله تعالى، ما يلي:

«قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلتُ لأبي: القعنبيُّ أحبُّ إليك في «الموطأ» أو إسماعيل بن أبي أُوَيس؟ قال: القعنبيُّ أحبُّ إلي، لم أرَ أخشَعَ منه، سألناه أن يقرأ علينا «الموطأ»، فقال: تعالَوْا بالغداة، فقلنا: لنا مجلسٌ عند الحَجَّاج ــ حجاج بن يوسف المعروف بابن الشاعر ــ، قال: فإذا فرغتم من الحجاج، قلنا: نأتي مُسْلِمَ بنَ إبراهيم ــ الأزدي ــ، قال: فإذا فرغتم، قلنا: يكونُ وقتُ الظهر ونأتي أبا حُذَيفة ــ موسى بن مسعود النَّهْدِي البصري ــ، قال: فبعدَ العصر، قلنا: نأتي عارماً ــ السَّدُوسي ــ، قال: فبعدَ المغرب.

---

(١) ص ٢٣٥، وذكره أيضاً في «ترتيب المدارك» ٣: ١٢٢ في ترجمة ابن عبدوس صاحب الخَبَر المذكور هنا.

(٢) ٢/ ٢: ١٨١.

(٣) ص ٧٤٢ من الطبعة المصوَّرة، و ١٦: ١٣٩ من الطبعة المحقَّقة.

فكُنَّا نأتيه بالليل، فيَخرُجُ إلينا وعليه كَبْلٌ[١]، ما تحته شيء، في الصيفِ في الحر الشديد، فكان يقرأ علينا وعليه كساؤه، ولو أراد لأُعطِيَ الكثير»[٢].

ابنُ أبي حاتم
يقرأ على أبيه أثناءَ الأكلِ والمشيِ والخَلاَء

وجاء في «سِيَر أعلام النبلاء»[٣]، في ترجمة الإمام الجليل، والمحدِّث الناقد النبيل، الحافظ أبي حاتم محمد بن إدريس الحَنْظَلي الرازي، المولود سنة ١٩٥، والمتوفى سنة ٢٧٧ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال علي بن إبراهيم الرازي: حدثنا أحمدُ بن عليّ الرَّقَّامُ، سمعتُ الحسن بن الحُسَين الدارِسْتِيني، قال: سمعت أبا حاتم يقول: قال لي أبو زُرْعَة: ما رأيتُ أحرصَ على طلب الحديث منك، فقلتُ له: إنَّ عبد الرحمن ابني لحريص، فقال: مَنْ أشبَهَ أباه فما ظَلَم.

قال الرَّقَّام: فسألتُ عبدَ الرحمن عن اتفاقِ كثرةِ السماعِ له، وسُؤالاتِهِ لأبيه؟ فقال: ربما كان يأكلُ وأقرأُ عليه، ويمشي وأقرأُ عليه، ويَدخل الخلاء وأقرأُ عليه، ويَدخلُ البيت في طلب شيء وأقرأُ عليه».

الحافظ أبو حاتم الرازي في النَّزْع
يُجيبُ ابنَهُ عن راو

وها هو ابن أبي حاتم أبو محمد عبدُ الرحمن الرازي ــ الإمام ابن الإمام، والحافظ ابن الحافظ، والناقد ابن الناقد، المولود سنة ٢٤٠،

---

(١) الكَبْلُ: فَرْوٌ كثير الصوف ثقيل.

(٢) هكذا كانوا يدرسون ويتلقون العلم طولَ النهار وقسطاً من الليل، لا بالدقائق المعدودة والساعات المحدودة.

(٣) ١٣: ٢٥٠.

والمتوفى سنة ٣٢٧ رحمهما الله تعالى ــ يسأل أباه وهو في النَّزْعِ عن راوٍ فيُجيبُه وهو في تلك الحال.

جاء في كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبـي حاتم الرازي، في ترجمة التابعي الجليل (أبـي نَهَار عُقْبَةَ بن عبد الغافر العَوْذي البصري)[١]، من أجِلَّة أهل البصرة، المتوفى سنة ٨٣ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال أبو محمد ــ ابنُ أبـي حاتم الرازي ــ : سألتُ أبـي وهو في النَّزْعِ عن عقبة بن عبد الغافر، هل له صُحبة؟ فقال: لا، بِلِسَانٍ مِسْكِينٍ». انتهى. فانظر ما أحرَصَ الابنَ على الاستفادة، وما أحرَصَ الأبَ على الإفادة، يَسألُه ابنُهُ وهو في النَّزْع عن راو، فيُجيبُهُ بلسانٍ ضعيفٍ مِسكينٍ شِبْهِ ميِّت.

فلم تَمنع الابنَ حالُ والده في النَّزْعِ عن سؤالِهِ وكسبِ الوقتِ والاستفادةِ منه، ولم يتكدر الوالدُ أو يتضجَّر من سُؤاله عن راوٍ، وهو في الذَّمَاءِ: النَّفَسِ الأخير يُفارِقُ الحياة، فللَّه دَرُّهما، ما أغلَى الوقتَ والعلمَ عندهما؟!

الإمامُ ثعلبٌ النَّحوي يقرأ كتاباً وهو ماشٍ
ابنُ تسعين سنة فيتردَّى في حفرة فتكون وفاته

جاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحَمَوي[٢] في ترجمته: «هو أبو العباس أحمد بن يحيـى بن زيد الشيباني مولاهم، المعروف بثعلب، النحويُّ اللغوي البغدادي، إمامُ الكوفيين في النحوِ واللغةِ والثقةِ والدِّيانة، ولد سنة ٢٠٠، ومات سنة ٢٩١ رحمه الله تعالى، وكان قد ثَقُل سمعُه قبل موته.

قال المَرْزُباني: كان سَبَبُ وفاة أبـي العباس ثعلب أنه كان في يوم

---

(١) ٣/ ١: ٣١٣.

(٢) ٥: ١٠٢ ــ ١٠٧.

جمعة، قد انصرف من الجامع بعد صلاة العصر، وكان يتبعه جماعة من أصحابه إلى منزله أنا أحدُهم، فتبعناه في تلك العشية، إلى أن صرنا إلى دربٍ بناحية باب الشام ــ في بغداد ــ، واتفق أن ابناً لإبراهيم بن أحمد المادَرَائي يسيرُ من ورائنا على دابة، وخَلْفَه خادم له على دابة قد قَلِقَ واضطرب.

وكان في تلك العشية بيده دفتر يَنظرُ فيه، وقد شَغَله عما سواه، فلما سَمِعنا صوتَ حوافر الدوابّ خَلْفَنا، تأخرنا عن جادَّةِ الطريق، ولم يَسمع أبو العباس لصممه صوت الحوافر، فصدمَتْه دابةُ الخادم، فسقط على رأسه في هُوَّةٍ من الطريق أُخِذَ ترابُها، فلم يَقدِر على القيام، فحملناه إلى منزله كالمختلِط يتأوَّهُ من رأسه، وكان سببَ وفاته رحمه الله تعالى».

ثعلبٌ يُجيبُ الدعوة بشرطِ أن يُفَرَّغ لمطالعةِ كتابه

وقال أبو هلال العسكري في كتابه «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعِه»[1]: «وحُكي عن ثعلب أنَّهُ كان لا يفارقه كتابٌ يَدْرُسُه، فإذا دعاه رجلٌ إلى دَعْوةٍ، شَرَط عليه أن يُوسعَ له مِقدَارِ مِسْوَرَةٍ ــ هي المُتَّكأُ من الجلد ــ يَضعُ فيها كتاباً ويَقرأ».

حفظُ ابن جرير لوقتِهِ وعَزْمُه أن يُفسِّر القرآن بثلاثين ألف ورقة

وهذا الإمام ابن جرير الطبري شيخُ المفسرين والمحدِّثين والمؤرخين، والإمامُ المجتهد العظيم، كان رحمه الله تعالى آية من الآيات، في استفادته من الوقت وحِفاظه على ملئِهِ بالتعلُّم والتعليم والكتابة والتأليف، حتى بلغت مؤلفاته من الكثرة ــ مع الإبداع والإتقان ــ العَدَدَ العُجابَ.

---

(١) ص ٧٧.

قال العلامةُ ياقوت الحمويُّ في كتابه «معجم الأدباء»[١]، في الترجمة الحافلة التي كتبها للإمام ابن جرير الطبري، وبلغت ٥٦ صفحة، والحافظُ الخطيبُ البغداديُّ في «تاريخ بغداد»[٢]، ما أقطِفُ منه هنا الجُمَلَ التاليةَ من ترجمة هذا الإمام الجليل، ودَخَلَ حديثُ أحدهما في الآخر:

«حدَّث علي بن عُبَيد الله اللغوي السِّمْسِمي، عن القاضي أبـي عمر عُبَيد الله بن أحمد السِّمْسَار[٣] وأبـي القاسم بن عقيل الورَّاق: أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قَدْرُهُ؟ قال: ثلاثون ألفَ ورقة، فقالوا: هذا مما تَفْنَى الأعمارُ قبلَ تمامِهِ! فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، وأملاه في سبع سنين، من سنة ثلاث وثمانين ومئتين إلى سنة تسعين.

عَزْمُ ابنُ جرير أن يؤلِّف التاريخ في ثلاثين ألفَ ورقة

ثم قال لهم: أتنشطون لتاريخ العالَم من آدم إلى وقتِنا هذا؟ قالوا: كم قَدْرُهُ؟ فذكر نحواً مما ذكره في «التفسير»، فأجابوه بمثل ذلك! فقال: إنَّا لله! ماتَتْ الهِمَم! فاختصره في نحوِ مما اختَصَرَ «التفسير»، وفرغَ من تصنيفه ومن عَرْضِه ــ أي قراءته ــ عليه يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقين من شهر ربيعِ الآخِرِ سنة ثلاث وثلاثِ مئة، وقَطَعه ــ أي ختمه وانتهى فيه عند الكلام ــ على آخر سنةِ اثنتين وثلاث مئة.

---

(١) ١٨: ٤٠ ــ ٩٦.

(٢) ٢: ١٦٢ ــ ١٦٩.

(٣) وقع في «تذكرة الحفاظ» للذهبـي ٢: ٧١١ (عبد الله...) بالتكبير. والظاهر أن الصواب بالتصغير كما جاء هنا وفي غير كتاب.

ابنُ جرير كان يكتبُ كلَّ يوم أربعين ورقة تأليفاً

قال الخطيب: وسمعتُ السِّمْسِميَّ يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة. وحدَّث تِلميذُه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفَرْغاني، في كتابه المعروف بكتاب «الصِّلَة»، وهو كتاب وَصَلَ به «تاريخ ابن جرير»: أنَّ قوماً من تلاميذ ابن جرير، حَصَّلوا أيامَ حياته ــ أي جمعوها ــ، منذ بَلَغَ الحُلُمَ إلى أن توفي وهو ابن سِتٍّ وثمانين سنة، ثم قسَّموا عليها أوراق مصنَّفاتِه، فصار منها على كل يوم أربعَ عشرة ورقة. وهذا شيء لا يتهيَّأُ لمخلوقٍ إلاَّ بحُسْنِ عنايةِ الخالق». انتهى. تبارك اللهُ ماذا تَبْلُغُ الهِمَمُ!

مجموعُ ما صنَّفه ابنُ جرير نحو ٣٥٨ ألفَ ورقة

وقد وُلِدَ ابنُ جرير سنة ٢٢٤، وتوفي سنة ٣١٠، فعاش ٨٦ سنة، وإذا اطَّرَحْنا منها سِتَّةُ قبلَ البلوغ وقَدَّرناها بأربعَ عشرةَ سنة، يكون قد بقي ابن جرير اثنتين وسبعين سنة يكتب كل يوم ١٤ ورقة، فإذا حسبنا أيام الاثنتين والسبعين سنة، وجعلنا لكل يوم منها ١٤ ورقة تصنيفاً، كان مجموع ما صنفه الإمام ابن جرير نحو ٣٥٨ ألف ورقة.

وهذا التقسيمُ في ضَخامته يُلاحظ معه أيام ارتحاله وأسفاره في الطلب ولقاء الشيوخ وأئمة العلم وقطع المسافات البعيدة، وفي آخر حياته بلغ أو بلغت منه الشيخوخةُ مبلغاً كبيراً، إذ عاش ٨٦ سنة، وأقام في بغداد إلى حين وفاته رحمه الله تعالى.

وقد اعتبروا كلاًّ من «تاريخه» و «تفسيره» نحو ثلاثة آلاف ورقة، فيكون الكتابان مجموعهما نحو سبعة آلاف ورقة أو ثمانية آلاف ورقة. وقد جاء التاريخ مطبوعاً في أحد عشر جزءاً كبيراً، وجاء التفسير مطبوعاً في ثلاثين جزءاً كبيراً، من الأجزاء الكبار التي يكون كل جزء منها مجلداً.

فاحسُبْ حسابَ الباقي من أوراق مصنفاته، وهو ٣٥١ ألف ورقة، لتعرف كم تبلغ مؤلفات هذا الإمام، الذي كان في علومه بمثابة مجمع علمي واسع الفنون، وفي كثرة تآليفه بمثابة دار للنشر، وهو فرد واحد بنفسه، يكتب بقلمه لنفسه، ويؤلف على ورقِهِ بنفسه، ويُخرج للناس فكره وعلمه: عَسَلاً مُصَفًّى وزُبْداً شَهياً، وما كان يكون له كلُّ ذلك، لولا أنه كان يَكسِب وقته، ويدري كيف يملؤه بالاستفادةِ والتأليف.

تنظيمُ ابن جرير لأوقاتِهِ وأعمالِه

قال القاضي أبو بكر بن كامل ـ أحمد بن كامل الشجري ـ تلميذُ ابنِ جرير وصاحبُه، يصفُ انتظامَ أوقاتِ ابن جرير وأعمالِهِ رحمه الله تعالى:

«كان إذا أكل نام في الخَيْشِ ـ ثيابٌ في نَسْجها رِقَّة، وخيوطها غلاظ، تُتَّخَذُ من مُشاقَةِ الكَتَّان، تُلْبسُ في الحَرّ عند النوم لبرودتها على الجسم ـ، في قميصٍ قصيرِ الأكمامِ، مصبوغٍ بالصَّنْدَلِ وماءِ الوَرْد.

ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته، ويكتُبُ في تصنيفه إلى العصر، ثم يخرج فيصلي العصر، ويجلس للناس يُقرىءُ ويُقرَأ عليه إلى المغرب، ثم يَجلس للفقه والدرس بين يديه إلى العشاء الآخرة، ثم يدخل منزله. وقد قَسَمَ ليلَهُ ونهارَه في مصلحةِ نفسِهِ، ودينِهِ، والخَلْق، كما وفَّقه الله عز وجل». انتهى.

ابن جرير يكتُبُ معلومةً قُبَيْلَ وفاتِهِ بساعة

وقال الأستاذ محمد كُرْدعَلِي، في كتابه «كنوز الأجداد»[1]، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري: «وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة

---

(١) ص ١٢٣ في الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠، و ص ١١٨ في الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤.

والاستفادة، رَوَى المُعَافَى بنُ زكريا عن بعض الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبلَ موته، وتُوفي بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها، فذُكِرَ له هذا الدعاءُ عن جعفر بن محمد، فاستَدعَى مَحْبَرَةً وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: «ينبغي للإنسان أن لا يَدَعَ اقتباسَ العلم حتى الممات». فرحِمَهُ الله وجزاه عن العلم والدين والإسلام وأهلِهِ خيرَ الجزاء.

بقاءُ ذكر ابن جرير ببقاء مؤلَّفاته وآثاره الخالدة

هذه إلماعةٌ عابرةٌ إلى مؤلَّفات الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، دُون تعدادِها وإحصائِها وذكرِ أسمائِها وبيانِ موضوعاتِها، وقد كُتِبَ لطائفةٍ منها البقاءُ إلى يومنا هذا، فهي أكثَرُ تذكيراً به من الأولاد والأحفاد ولو بلغوا العشرةَ أو العشرين أو الثلاثين إنساناً، فإنهم ينغمرون في صفحات الفناء بعد قليل من الزمان، ويَدخُلون في طيَّاتِ الإغفَالِ والنِسيان، أما هذه المؤلفات فهي الذكرُ الدائمُ الحسَنُ له على مدى الأزمان، وقد مَضَى على وفاتِه ألفٌ ونحوُ مئةِ عام، فهي باقية ما تعاقَبَ المَلَوانِ إلى ما شاء الله تعالى. وصَدَق الإمامُ ابن الجوزي إذ قال: **كتابُ العالِم وَلَدُه المُخَلَّد**[1].

---

(١) «صيد الخاطر» ص ٢٠.

وقال الخطيب البغدادي: «التأليفُ يُثبِّتُ الحفظ، ويُذْكي القلب، ويَشحذُ الطبع، ويُجيد البيان، ويُكسِبُ جميلَ الذكر وجزيلَ الأجر، ويُخلِّدُه إلى آخر الدهر». انتهى من «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، ص ٣٠.

وقال الإمام تاج الدين السُّبْكي: «العالمُ وإن امتدَّ بَاعُه، واشتدَّ في ميادين الجدال وَقَاعُه، واستدَّ سَاعدُه حتى خرَق به كلّ سَدٍّ سُدَّ بابُه وأُحكم امتناعُه، فنفعُه قاصرٌ على مدةِ حياتِهِ، ما لم يصنف كتاباً يَخلُدُ بعدَه، أو يُورِّثْ علماً ينقلُه عنهُ تلميذٌ إذا وجد الناسُ فَقْدَه، أو تهتدي به فئةٌ مات عنها، وقد ألبسها به الرشادُ بُرْدَه. =

أبو القاسم البغوي يموت والحديث يُقْرأ عليه

جاء في «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي[١]: «وقال ابن طاهر المقدسي الحافظ: سمعتُ أصحابنا بهراةَ يحكون أن أبا محمد عبد الرحمن بنَ أبي شُريح الأنصاريَّ، قال: كنتُ أقرأ ببغداد على أبي القاسم البغوي ــ عبد الله بن محمد البغوي الأصل، البغدادي الدار والمولد والوفاة، المعمَّر الكبير مُسْنِد الدنيا، ولد سنة ٢١٤، ومات سنة ٣١٧، فعاش ١٠٣ سنين ــ فلما كان في بعض الأيام، وكنتُ أقرأ عليه جزءاً، وقد وَضَع رأسَه بين ركبتيه، فرفع رأسَه وقال: كأني بهم إذا متُّ يقولون: مات البغوي، ولا يقولون: مات جبل العلم. وفي «سير أعلام النبلاء»[٢]: ولا يقولون: مات مُسْنِد الدنيا. ثم وضع رأسه بين ركبتيه واستند، فلما فرغتُ من قراءة الجزء، قلت: كم قرأتُ عليك، فلم يجبني، فحركته فإذا به قد مات رحمه الله».

ابن الخياط النَّحْوي
يَدْرُسُ في الطريق فَيَسْقُطُ في جُرْف

وقال أبو هلال العسكري في كتابه «الحثّ على طلب العلم والاجتهاد

= ولعَمْري إنّ التصنيف لأرفَعُها مكاناً، لأنَّه أطولُها زماناً، وأدومها إذا مات أحياناً، ولذلك لا يخلو لنا وقتٌ يمر بنا خالياً عن التصنيف، ولا يخلو لنا زمن إلاَّ وقد تقلد عِقْدُه جواهرَ التأليف، ولا يَجْلُو علينا الدهرُ ساعةَ فراغ إلاَّ ونُعْمِلُ فيها القَلَمُ بالترتيب والترصيف». انتهى من «فتح المغيث» للسخاوي من (آداب طالب الحديث) ٣: ٣١٩ ــ ٣٢٠.

[وللإمام ابن الجوزي رحمه الله كلمة أخرى جميلة جداً، في فضل التصنيف وشأنه، تأتي أواخر الكتاب، ص ٢٢٦].

(١) ٣: ٤٧٥.

(٢) ١٤: ٤٥٦.

في جَمْعِه»[١]: «كان أبو بكر بنُ الخيَّاط النَّحْوِيُّ[٢] ــ الإمامُ: محمدُ بنُ أحمد ابن منصور السمرقنديُّ الأصل، البغداديُّ القرار، المتوفى سنة ٣٢٠ رحمه الله تعالى ــ يَدْرُسُ جميعَ أوقاتِهِ حتى في الطريق، وكان ربما سَقَط في جُرْفٍ أو خبَطَتْهُ دابَّة!».

أبو جعفر المَهْري يطالع عند طعامه

وهذا أبو جعفر المَهْري أحمد بن عبد الله القَيْرواني المولود سنة ٢٥٠ والمتوفى سنة ٣٣٣ رحمه الله تعالى يقول عنه القاضي عياض: «من أهل العناية بالعلم، وكان في الدراسة والمطالعة آيةً، لا يكاد يسقط الكتاب من يده حتى عند طعامه». انتهى[٣].

الحاكم الشهيد لا يُكلِّمُ زُوَّارَهُ لاشتغالِهِ بالتأليف

وجاء في «الأنساب» للسمعاني[٤]، في ترجمة الحاكم الشهيد: أبي الفضل محمد بن محمد بن أحمد المَرْوَزِي البَلْخي، الحنفي القاضي

---

(١) ص ٧٧.

(٢) وقع في كتاب «الحث على طلب العلم» بلفظ: (أبو بكر الخياط)، وصوابه: (أبو بكر بنُ الخياط)، وهو (محمد بن أحمد بن منصور)، كما تُرجِمَ له بهذا الاسم وهذه الكنية: (أبو بكر بنُ الخياط) في «معجم الأدباء» ١٧: ١٤١، و «نزهة الألباء» ص ٢٤٧، و «بغية الوعاة» ١: ٤٨، و «إنباه الرواة» للقِفْطي ٣: ٥٤ و ٢٤٩ و ٤: ١٦٣. وقد انقلب اسمُه على القِفطي فترجم له مرةً ثانية باسم (أحمد بن محمد بن منصور الخياط)، فاعرفه وتجنَّبْه.

(٣) «ترتيب المدارك» ٦: ٢٧٣، و «جمهرة تراجم السادة الفقهاء المالكية» ١: ٢٢٩. والخبر من إضافة العبد سلمان.

(٤) في نسبة (الشهيد) ٧: ٤٢٥ من طبعة دمشق، و ٨: ١٨٩ من طبعة الهند.

الوزيرُ، الحاكمُ الشهيدُ، المتوفى شهيداً سنة ٣٣٤ رحمه الله تعالى، عالِم مَرْو وإمامِ أصحاب أبـي حنيفة في عصره، ما يلي:

«ذَكَرَ أبو عبد الله بنُ الحاكم الشهيد، قال: عَهِدْتُ الحاكمَ وهو يصومُ يومَ الاثنين والخميس، ولا يَدَعُ صلاةَ الليل في السفر والحضر، وكان يقعُدُ والسَّفَطُ والكتُبُ والمِحْبَرَةُ بين يديه، وهو وزيرُ السلطان، فيأذَنُ لمن لا يَجدُ بُدّاً من الإذنِ لَهُ، ثم يشتغلُ بالتصنيف، فيقومُ الداخلُ. ولقد شكاه أبو العباس بن حَمُّوْيَهْ، قال: نَدخُلُ عليه ولا يُكلِّمُنا، ويأخُذُ القلَمَ بيدِهِ ويَدَعُنا ناحيةً!

قال الحاكم أبو عبد الله الحافظ صاحبُ «المستدرك»: ولقد حَضَرتُ عشيَّةَ الجمعةِ مجلسَ الإملاءِ للحاكم أبـي الفضل، ودَخَلَ أبو علي بن أبـي بكر بن المظفَّر الأميرُ، فقام له قائماً ولم يَتحرَّك من مكانه، ورَدَّه من باب الصُّفَّة، وقال: انصرِفْ أيها الأمير، فليس هذا يَوْمَكَ».

أبو إسحاق البَكْري يدرسُ العلم بالليل دائماً إلاَّ قبل موته بقليل

جاء في «جمهرة تراجم السادة الفقهاء المالكية»[1] للعالم المحقق الشيخ قاسم علي سعد في ترجمة الإمام الصالح الزاهد المُخْبِت الورع إبراهيم بن أحمد بن علي بن سالم، أبو إسحاق البَكْري الجِبْنِياني، المولود سنة ٢٧٩، والمتوفى سنة ٣٦٩ رحمه الله تعالى:

«قال أبو القاسم اللَّبِيدي: كان حسنَ الضبط في نقلِهِ وتصحيحِهِ للكتب، وكان حافظاً إذا حفظ شيئاً قلَّمَا ينساه، وكان دَرَس من الفقه دواوين، وكتب بيدِهِ كُتباً كثيرةً، وكانَ من أعلم الناسِ باختلاف العلماء، عالماً بعبارة الرؤيا،

---

(١) ١:١٤٨. والخبر من إضافة العبد سلمان.

ولا يفتي فيها، ويعرِفُ حظّاً من اللغة والعربية، حسنَ القراءةِ للقرآن، يُحْسِن تفسيرَه وإعرابَه وناسخَه ومنسوخَه، لم يَتْرُك حَظَّهُ من دراسة العلم بالليل إلاَّ عند ضعفه قبل موته بقليل، وكان لمَّا ضعُف بصره عن قراءة الليل يجعل ابنه أبا الطاهر يقرأ عليه». انتهى.

ابن الفُرَات يكتب مئة تفسير ومئة تاريخ...
وخطه حجة في صحة النقل والضبط

جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[1]، و «تذكرة الحفاظ» للذهبي[2]، في ترجمة الحافظ الإمام البارع ابن الفُرَات (أبي الحسن محمد بن العباس بن أحمد بن محمد بن الفُرات البغدادي)[3]، المولود سنة ٣١٩، والمتوفى سنة ٣٨٤ رحمه الله تعالى:

«سَمِعَ الحديث فأكثر من سماعه، وكان ثقةً كثيرَ الكتب، وجَمَع ما لم يجمعه أحدٌ في وقته، وجوَّد، قال الخطيب: بلغني أنه كان عنده عن علي بن محمد المصري الواعظ وحدَهُ ألفُ جزء[4]، وأنه كتَبَ مئةَ تفسير ومئة تاريخ، وحدَّثني الأزهري أنه خلَّف ثمانية عشر صُندوقاً مملوءة كتباً، أكثرها بخطه، سوى ما سُرِق من كتبه، ومكَثَ يكتب الحديث من قبلِ سنة ستةٍ وثلاثين وثلاث مئة إلى أن مات.

---

(١) ٣: ١٢٢.

(٢) ٣: ١٠١٥.

(٣) وينسب إلى جده (الفرات) أيضاً فيقال فيه: الفُرَاتي، كما في «اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير ٢: ١٩٩، وقد ترجم له فيه هناك، ووقع محرَّفاً إلى (ابن القزاز) في «الكامل» لابن الأثير ٩: ١٠٦، و «البداية والنهاية» لابن كثير ١١: ٣١٤.

(٤) تقدم ص٦٢ أن الجزء ما يعادل في زماننا نحو ثلاثين صفحة من القطع الوسط. س.

ولم يكن له بالنهار وقت يتسع للنَّسْخ، لأن مجالِسَه التي كان يَقرأ فيها على الشيوخ كانت متصلة في كل يوم غُدوةً وعشية، وكان يُحضِرُ كتابه الذي قد نَسَخه من أصل الشيخ بعد الفراغ من تصحيحه ومقابلتِه، وذلك أن جاريةً له كانت تُعارِضُه بما يكتبه، فلا يَحتاج أن يُغيِّر كتابه وقتَ قراءته على الشيخ. وكتابُه هو الحُجَّةُ في صحةِ النقل، وجودةِ الضبط، ولم يزل يُسمع إلى أن مات».

وقد يَتَبادَر لبعض العصريين المتأخرين أصحابِ الهِمَم المَيْتَةِ والدعوى العريضة في أيامنا! أن ما يذكر في كتب المتقدمين وتراجِمهم من كثرة التآليف، وكثرةِ ما كتبوه من الكتب: لا يخلو من مبالغة وتضخيم.

وهذا القولُ إنما يصدُر من أولئك العصريين بدافع مقايستِهم حالَ المتقدمين بحالهم اليوم، وأنهم اليوم لمّا كانوا يعجِزون عن تأليف تلك الكثرة، أو كتابة تلك الكتب، فالمتقدمون يعجِزون عنها، فيوهِّنون الأخبار المحكيةَ فيها، ويُصغِّرون من ضخامتها وكِبَرها. وهذا قياس خاطىء لا يشهد له بالصحة شيء.

كثرة مؤلَّفات الحافظ المحدِّث ابن شاهين

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[1]، في ترجمة المحدِّث (ابن شاهين)، المولود سنة ٢٩٧، والمتوفى سنة ٣٨٥ رحمه الله تعالى عن ٨٨ سنة:

«هو الحافظ الإمام المفيد المكثر، محدِّثُ العراق، أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي، الواعظ، المعروف بابن شاهين، صاحبُ التصانيف، صنَّف شيئاً كثيراً.

---

(١) ٣: ٩٨٧.

قال أبو الحسين بن المهتدي بالله ــ تلميذه ــ : قال لنا ابن شاهين: صَنَّفتُ ثلاثَ مئة مصنَّف وثلاثين مصنفاً، منها «التفسير الكبير» ألفُ جزء، ومنها «المسند» ألفٌ وثلاث مئة جزء، و «التاريخ» مئة وخمسون جزءًا، و «الزهد» مئة جزء.

صَرْفُ ابن شاهين في ثمن الحِبر سَبْعَ مئةِ درهم

قال محمد بن عمر الداوُدِي القاضي: سمعتُ ابن شاهين يقول: حَسَبْتُ ما اشتريتُ من الحِبر إلى هذا الوقت، فكان سَبْعَ مئةِ درهم، قال ابن أبي الفوارس: صَنَّفَ ابن شاهين ما لم يصنفه أحد». انتهى.

تلقيبُ منذرٍ المَرْوَانيِّ النحْويِّ (المُذَاكَرة)
لشدة تعلقه بمذاكرة النحو

وكان بعضُ أئمة اللغة العربية يُلقَّبُ: (المُذَاكَرة) لشدة تعلُّقِهِ بمُذَاكرةِ علم العربية مع كل من يراه من العلماء، قال الحافظ ابن حجر في «نُزْهَة الألباب في الألقاب»[1]: «المُذَاكَرَةُ، هو المُنْذِرُ بن عبد الرحمن بن معاوية بن محمد بن عبد الله بن المنذر بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك[2]، الأندلسي المَرْوَاني.

لُقِّبَ بذلك لأنه كان مُغْرَماً بعلم النحو، وكان إماماً فيه، مقدَّماً في اللغة، وكان متى لقي رجلاً من إخوانه، قال له: هل لك في مُذاكرةِ بابٍ من العربية؟

---

(١) ٢: ١٦٥.

(٢) هكذا جاء نَسَبُهُ في «نزهَة الألباب»، وجاء في «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص ٩٥ كما يلي: «هو المنذر بن عبد الرحمن بن معاوية بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن المنذر ابن الأمير عبد الرحمن بن معاوية».

فلُقِّبَ بالمُذَاكَرة لذلك، ذكره ابنُ حزم، قالَ: مات سنة ٣٩٣»[١] رحمه الله تعالى.

ابنُ المَكْوِيِّ القرطبي لا يدع القراءة يوم العيد

وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[٢] في ترجمة (أبي عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي) المعروف بابن المَكْوِيّ القرطبي، شيخِ فقهاء الأندلس في وقتِه، المولود سنة ٣٢٤، والمتوفى سنة ٤٠١ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«كان قد حُبِّب إليه الدَّرْسُ مُدَّةَ عُمرِه، لا يَفتُرُ عنه ليلَه ونهارَه، وجُعِلَتْ فيه لَذَّته، يتَّجِر في سوق البَزَّازِين، لا يفارق أثناءَ ذلك المطالعةَ في جلوسِهِ وحركته.

ذُكِرَ أنَّ صديقاً له قصَدَهُ في عِيدٍ زائراً له، فأصابه داخلَ دارِه، وبابُهُ مفتوح، فجَلَس ينتظره وأبطأ عليه، فأوصَى إليه فخرج وهو يَنظُرُ في كتاب، فلم يَشعُر بصديقه حتى عَثَر فيه، لاشتغالِ بالِهِ بالكتاب، فتنبَّهَ حينئذٍ له وسلَّمَ عليه، واعتَذَر له من احتباسِهِ بشُغله بمسألةٍ عويصةٍ، لم يُمكنه تركُها حتى فَتَحها الله عليه.

فقال له الرجل: في أيامِ عيدٍ، ووَقْتِ راحةٍ مَسْنُونة؟ فقال: إذا عَلَتْ هذِه النفسُ، انصبَّتْ إلى هذه المعرفة، واللهِ ما لي راحةٌ ولا لَذَّةٌ في غيرِ النظرِ والقراءة.

---

(١) هكذا جاء في «نزهة الألباب»، وليس في «الجمهرة» ذكرُ تاريخ الوفاة. وقد زدت بعضَ كلماتٍ منها على عبارة «النزهة».

(٢) ٢:٦٣٦ طبعة بيروت، و ٧:١٢٤ طبعة المغرب، [و «جمهرة تراجم السادة الفقهاء المالكية» ١: ٢٣٠].

قال ابنُ عفيف: إليه انتهَتْ رئاسةُ العلم بالأندلس، حتى صار بمثابةِ يحيى بن يحيى الليثي في زمانِه، واعتَلَى على جميع الفقهاء، ونُفِّذَتْ الأحكامُ برأيه، فحَكَمَ على الحاكم، وبَعُدَ صِيتُه بالأندلس، وحازَ رِئاسَةً أحادِيثُها مشهورة».

ابن البغدادي لا ينام إلَّا عن غلبة[١]

وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب[٢] في ترجمة المحدث الصالح الفقيه الورع الحسين بن أحمد بن جعفر، أبو عبد الله، المعروف بابن البغدادي المتوفى سنة ٤٠٤:

«كان صدوقاً، ديِّناً، عابداً، زاهداً، ورعاً، سمعت بعض الشيوخ الصالحين يقول: كان أبو عبد الله ابن البغدادي لا يزال يخرج إلينا وقد انشَقَّ رأسه، وانفتحت جبهته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كان لا ينام إلَّا عن غلبةٍ، ولم يخل أن يكون بين يديه مِحْبَرةٌ أو قَدَحٌ، أو شيء من الأشياء موضوعاً، فإذا غَلَبه النوم سقط على ما يكون بين يديه فيؤثر في وجهه أثراً». انتهى.

الفقيه ابن مَحْمِش الزيادي يفتي في النَّزْعِ بضمانِ الدَّرَك

وجاء في «أدب المفتي والمستفتي» للحافظ ابن الصلاح[٣]، و «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي[٤]، و «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي[٥]، في ترجمة

---

(١) من إضافة العبد سلمان.

(٢) ٨: ١٥.

(٣) ص ١١٣ من الطبعة المستقلة سنة ١٤٠٧، و ١: ٤٨ من الطبعة المضمومة مع (فتاوى ومسائل ابن الصلاح) سنة ١٤٠٦.

(٤) ١٧: ٢٧٦.

(٥) ٤: ٢٠٠.

ابن مَحْمِش (أبـي الطاهر محمد بن محمد بن مَحْمِش الزِّيَادي النيسابوري)، الفقيه الأديب العلامة الأستاذ القدوة، شيخ خراسان ومحدِّث نيسابور ومُسْنِدِها وفقيهها ومُفتِيها وإمام العربية والأدب فيها، المولود سنة ٣١٧، والمتوفى سنة ٤١٠ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«كان إماماً في المذهب، متبحراً في علم الشروط، له فيه مصنَّف، بصيراً بالعربية، كبيرَ الشأن، وكان إمامَ أصحابِ الحديث ومُسنِدَهم ومفتيَهم، ولولا ما اختصَّ به من الإقْتَارِ! وحِرفةِ أهل العلم! ـ يعني بها: نَسْخَ الكتب بالأُجرة لشراءِ القُوتِ بها ـ لَمَا تَقَدَّمَ عليه أحد.

قال ابن الصلاح: ومن أعجبِ ما وجدتُهُ بخط بعضِ أصحابِ القاضي الإمام حُسَينِ بن محمد المَرْوَرُّوْذِيِّ عنه، أنه سَمِعَ الإمامَ أبا عاصم العَبَّادِيَّ يَذكُرُ أنه كان عند الأستاذ أبـي طاهر، وهو الإمامُ الزِّيَادِيُّ شيخُ خراسان، حين احتُضِرَ، فسُئِلَ عن ضَمانِ الدَّرَك[١]، وكان في النَّزْع، فقال: إنْ قَبَضَ الثمنَ فيصحّ، وإن لم يَقْبِض فلا يصح، قال: لأنه بعد قَبْضِ الثمنِ يكونُ ضَمَانَ ما وَجَب[٢].

---

(١) جاء في «القاموس» وشرحه «تاج العروس» ٧: ١٢٧، في (درك): «الدَّرَكُ بفتحتين، ويُسكَّن الراءُ لُغَةٌ فيه: التَّبِعَةُ، يقال: ما لَحِقَك من دَرَكٍ فعليَّ خَلاصُهُ»، انتهى. وفي «كتاب التعريفات» للسيد الشريف الجُرْجَاني ص ١٤٣: «ضَمَانُ الدَّرَك هو رَدُّ الثمن للمشتري عند استحقاقِ المبيع، بأن يقول: تكفَّلتُ بما يُدرِكُك في هذا البيع». انتهى. وفي حاشية العلامة الشيخ ابن عابدين، «رد المحتار على الدر المختار» ٤: ٢٦٤، في كتاب الكفالة: «ضَمَانُ الدَّرَكِ هو الرجوعُ بالثمن عند استحقاقِ المَبِيع».

(٢) قولُ الفقيه الزيادي هنا: (إنْ قَبَض الثَّمَنَ فيصحّ...)، يعني: إذا قَبَضَ البائعُ الثمنَ من المشتري، وتعهَّد له البائعُ بضمانِ الدَّرَك فيصح، وإن لم يقبض البائعُ الثمنَ فلا يصح، لأنه بَعْدَ قبضِهِ الثمن يكونُ الضمانُ ضَمَانَ ما وَجَبَ على البائع تسليمُهُ للمشتري خالياً من حقّ غيره فيه، فيصح حينئذٍ ضمانُ الدَّرَك.

والله أعلم»(١).

أبو نُعَيم الأصفهاني يُقرأُ عليه في الطريق

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»(٢)، في ترجمة الحافظ أبي نُعَيم الأصفهاني أحمد بن عبد الله، المحدِّث المؤرِّخ الصُّوفي، المولود سنة ٣٣٦، والمتوفى سنة ٤٣٠ رحمه الله تعالى:

«قال أحمد بن مَرْدُوَيْه: كان أبو نُعيم في وقته مَرْحولاً إليه، لم يكن في أُفق من الآفاق أَحَدٌ أحفظَ منه، ولا أسندَ منه، كان حُفَّاظُ الدنيا قد اجتمعوا عنده، وكلَّ يوم نوبةُ واحد منهم، يَقرأ ما يُريدُه إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى دارِه ربما يُقرأُ عليه في الطريق جُزء، وكان لا يَضجر، لم يكن له غِذاء سوى التسميع والتصنيف».

---

(١) قال التاج السبكي: «ولم يُرد ابنُ الصلاح بحكايةِ هذا الخبر أنه غريب، بل أراد: حُضورَ ذهنِ هذا الأستاذِ عند النَّزْعِ لمسائِل الفقه، ولذلك قال ابنُ الصلاح: إنَّ هذا من أعجبِ ما وجدتُهُ». انتهى.

وابنُ الصلاح رحمه الله تعالى ذَكَرَ هذه الواقعةَ للفقيه الزيادي، استدراكاً واستثناءً من قولِه قبلَها: «المسألةُ الثامنة: ليس للمفتي أن يُفْتي في كلِّ حالةٍ تُغَيِّرُ خُلُقَهُ، وتَشغَلُ قلبَهُ، وتَمنَعُهُ من التثبُّتِ والتأمُّل، كحالة الغضبِ، أو الجوعِ، أو العطشِ، أو الحُزنِ، أو الفَرَحِ الغالب، أو النُّعَاسِ، أو المَلاَلةِ، أو المَرَضِ، أو الحَرِّ المُزْعِج، أو البَرْدِ المؤلم، أو مُدافَعَةِ الأخبَثَيْن ــ أي البولِ والغائط ــ .

وهو أعلَمُ بنفسِه، فمَهْمَا أَحسَّ ــ أي فمَتَى أَحَسَّ ــ باشتغالِ قلبِهِ وخروجِهِ عن حَدِّ الاعتدال، أمسَكَ عن الفُتْيَا، فإن أفتى في شيء من هذه الأحوالِ، وهو يَرى أن ذلك لـم يَمنعـه مـن إدراكِ الصـواب، صَحَّـتْ فُتيَـاهُ وإن خـاطَـرَ بهـا، ومـن أعجـبِ ذلـك ما وجدتُهُ...».

(٢) ٣: ١٠٩٤.

البَيْرُوني يَتعلَّمُ مسألة في الفرائض وهو في الغَرْغَرةِ والنَّزْع

وجاء في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي[١]، في ترجمة الإمام الفلكي الرياضي الفذ، والمؤرخ اللغوي الأديب الأريب، الجامع لأشتات العلوم أبي الرَّيحان البَيْرُوني (محمد بن أحمد الخُوارزمي)، المولود سنة ٣٦٢، والمتوفى سنة ٤٤٠ رحمه الله تعالى:

«كان أبو الرَّيْحان مع الفُسْحَةِ في التعمير، وجلالةِ الحال في عامة الأمور، مُكِبّاً على تحصيل العلوم، مُنْصَبّاً إلى تصنيف الكتب، يفتح أبوابَها، ويُحيط بشواكلها وأقرابِها ــ أي بغوامضها وجَلِيَّاتِها ــ ، ولا يكادُ يفارقُ يدَه القلمُ، وعينَهُ النظَرُ، وقلبَه الفِكْرُ، إلا في يومَيْ النَّيْرُوز والمِهرجان من السَّنَة[٢]، لإعدادِ ما تَمَسُّ إليه ــ الحاجةُ ــ في المعاش، من بُلغةِ الطعام وعُلْقةِ الرِّياش[٣]، ثم هِجِّيراهُ في سائر الأيام من السَّنَة عِلمٌ يُسفِرُ عن وجهِهِ قِناعَ الإشكال، ويَحسُرُ عن ذراعيه كِمامَ الإغلاق.

حدَّث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلْوَالِجِيُّ، قال: دخلتُ على أبي الرَّيحان وهو يجود بنفسِهِ، قد حَشْرَجَ نَفَسُه، وضاق به صدرُهُ، ــ وقد بلغ

---

(١) ١٧: ١٨١ ــ ١٨٢.

(٢) النيروز معرَّب نوروز، وهو لفظ فارسي معناه: «اليوم الجديد»، لأن «نُو» بمعنى الجديد، و «روز» بمعنى اليوم. وهو أول يوم في السنة الشمسية، وأول الربيع. وأما المهرجان فأول الخريف.

وهما عيدان مجوسيان فارسيان. يحرم الاحتفال بهما، من «العقود الدرية السلطانية فيما يُنسب إلى الأيام النَّيْرُوزية» لمحمد سلطان الخُجَندي. سلمان.

(٣) العُلْقَةَ: كل ما يُكتفَى به من العيش. والرِّيَاش: المعاش. فالمراد اليسير من المعاش. سلمان.

من العمر ٧٨ سنة ــ، فقال لي في تلك الحال: كيف قلتَ لي يوماً: حِسابَ الجدَّاتِ الفاسدة ــ وهي التي تكون من قِبَل الأم ــ؟

فقلتُ له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا! أُودِّعُ الدنيا وأنا عالمٌ بهذه المسألة، ألا يكونُ خيراً من أن أُخلِّيَها وأنا جاهل بها، فأَعَدْتُ ذلك عليه، وحَفِظَ، وعلَّمني ما وَعَد، وخَرَجْتُ من عندِهِ وأنا في الطريق فَسَمِعْتُ الصُّراخ!». انتهى.

وكان هذا الإمامُ الباقعةُ في العلم يُتْقِنُ خمسَ لغات: العربية، والسِّرْيانية، والسنسكريتية، والفارسية، والهندية، وَتَرَكَ من المؤلَّفات في علوم الفَلَك والطب والرياضيَّات والأدب واللغة والتاريخ وغيرها ما زاد على ١٢٠ مؤلَّف. قال فيه المستشرق الألماني الكبير كارل سخاو: «إنه أكبرُ عقليةٍ عَرَفَها التاريخ». وقال المستشرق البلجيكي المشهور جورج سارطون: «كان البَيْرُونِيُّ من أعظم عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم». وانظر ترجمته وحياتَه العلمية في كتاب: «تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات» لقدري حافظ طوقان[1].

سُلَيم الرازي
إمَّا يَنْسَخ أو يُدَرِّس أو يقرأ أو يتلو لا فَرَاغَ لديه

وجاء في كتاب «تبيين كذب المفتري» للحافظ ابن عساكر[2]، و «طبقات الشافعية الوسطى» لتاج الدين السبكي، في ترجمة الإمام سُلَيم الرازي، أحد أئمة السادة الشافعية في عصره، المتوفى سنة ٤٤٧ رحمه الله تعالى، قولُ التاج

(١) ص ٣١٠ ــ ٣٢١.
(٢) ص ٢٦٣.

السبكي فيه: «كان رحمه الله من الورع على جانب قوي، يحاسبُ نَفْسَهُ على الأوقات، لا يدع وقتاً يمضي بغير فائدة، إما يَنسخ أو يُدَرِّس أو يَقرأ، ويَنسخُ شيئاً كثيراً.

قال الحافظ ابن عساكر: ولقد حدَّثني عنه شيخُنا أبو الفرج الأَسْفَرَاييني أنه نَزَل يوماً إلى داره وَرَجَعَ، فقال: قد قَرأتُ جزءًا في طريقي. قال أبو الفرج: وحدَّثني المؤمَّلُ بن الحسن أنه رأى سُلَيماً حَفِيَ عليه القلم، فإلى أن قَطَّهُ جَعَلَ يُحَرِّكُ شفتيه، فَعَلِمَ أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضي عليه زمانٌ وهو فارغ». انتهى. أي: لمَّا شُغِلَتْ يداه حرَّكَ شفتيه بذكرِ الله، لئلا يَذهبَ الزمانُ فارغاً، بغير عمل وطاعة، فللَّه درُّه ما أعرفَه بالغنائم.

الخطيب البغدادي
يمشي في الطريق وهو يطالع في كتاب

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١] في ترجمة الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها، المولود سنة ٣٩٢ والمتوفى سنة ٤٦٣ رحمه الله تعالى: «كان الخطيب يمشي وفي يده جزء يطالعه». وما ذلك إلاَّ للحِفاظ على الوقت وكسب الزمن أن يذهب فارغاً أثناء المشي دون استفادة وانتفاع به في جنب العلم[٢].

---

(١) ٣: ١١٤١.

(٢) وقد تكررت الأخبار عن العلماء والنبغاء في القراءة أثناء المشي مع حاجة الماشي إلى تردد النظر بين الدرب والكتاب، وقد أصبح التنقل اليوم بالسيارات والحافلات، والسفر بالقطارات والطائرات، فغدا لزاماً على طلبة العلم والمتعلمين أن يستفيدوا من هذه الأوقات بالذكر والتلاوة والدراسة والمذاكرة والمطالعة، والمغبون من أضاعها بالقيل والقال وغث الكلام. س.

إمامُ الحَرَمَينِ يأكُل وينامُ اضطراراً لا عادةً

وجاء في «تبيين كذب المفتري» للحافظ ابن عساكر[١] و «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي[٢] في ترجمة (إمام الحرمين) أبي المعالي عبدِ الملِك بن عبد الله الجُوَيني النيسابوري الشافعي الفقيه الأصولي المتكلم النظَّار المِحجاج، شيخِ الإمام الغزالي، المولود سنة ٤١٩، والمتوفى سنة ٤٧٨ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال عبد الغافر الفارسي في كتابه «سياق نيسابور»[٣]: إمامُ الحرمين، فخرُ الإسلام، إمامُ الأئمة على الإطلاق، حَبرُ الشريعة المُجمَعُ على إمامتِهِ شرقاً وغرباً، من لم تَرَ العيونُ مثلَه قبلَه ولا ترى بعدَه.

سمعتُهُ في أثناء كلام يقول: أنا لا أنامُ ولا آكلُ عادةً، وإنما أنامُ إذا غلبني النومُ ليلاً كان أو نهاراً، وآكلُ إذا اشتَهيتُ الطعام أيَّ وقت كان. وكانت لَذَّتُهُ ولهْوُهُ ونُزْهَتُه في مذاكرةِ العلم، وطلبِ الفائدة من أي نوع كان.

إمام الحرمين
وهو في الخمسين من العمر يتتلمذ لعالمٍ نَحْوي

ولقد سمعتُ الشيخ أبا الحسن عليَّ بن فَضَّال بنِ علي المُجاشعيَّ القَيْروانيَّ النحويَّ، القادمَ علينا سنة تسع وستين وأربع مئة، وقد قَبِلَهُ الإمام فخرُ الإسلام، وقابَلَهُ بالإكرامِ، وأخذ في قراءة النحوِ عليه والتلمذةِ له، بعد أن

---

(١) ص ٢٧٨ و ٢٨٣.

(٢) ٥: ١٧٤ و ١٧٩.

(٣) ورد في «المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور» ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ الثناءُ عليه دون قصة حرصه على الزمن. س.

كان إمامَ الأئمة في وقته ــ وقد بلغ من العمر خمسين سنة ــ ، وكان يَحمِلُه كلَّ يوم إلى داره، ويقرأُ عليه كتابَ «إكسير الذهب في صناعة الأدب» من تصنيفه. فكان أبو الحسن المُجاشعيُّ يحكي ويقول: ما رأيتُ عاشقاً للعلم مثلَ هذا الإمام، فإنه يطلُبُ العلمَ للعلم. وكان كذلك». انتهى.

يَعقوبُ النَّجِيرَميُّ يُطالعُ كتابَهُ خِلالَ مَشْيِهِ

وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة» لِلْقِفْطِي[1]، في ترجمة محمد السَّعيدي بن بركات النحوي البصري المِصري، المولود سنة ٤٢٠، والمتوفى سنة ٥٢٠ عن مئة سنة رحمه الله تعالى، «قال: رأيتُ وأنا صَبِيٌّ أبا يوسف يعقوب بن خُرَّزاذ النَّجِيرَميّ ماشياً في طريق القَرَافة، شيخاً أسمَرَ كبيرَ اللحية، مدوَّرَ العِمامة، وبيده كتابٌ وهو يُطالعُ فيه في مَشْيِهِ». انتهى.

ابنُ عقيل وابنُ الجوزي
غايةُ الغايات في حفظ الوقت

ويَحْتَلُّ الذِّروةَ في مقام المحافظةِ على الزمن، ومعرفةِ نفاستِه، وغلاءِ قيمتِه، والحِرصِ على مَلْءِ الأوقات بالأعمالِ الزاكيات، والاستفادةِ من الخَطَراتِ واللحظات، تأليفاً وتفكيراً، وتذكُّراً وتذكيراً: ما جاء في سيرة إمامين جليلين من كبار رجال فقهاء السادة الحنابلة، بل من كبار أئمة المسلمين:

الأولُ منهما: الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي تلميذ الحافظ الخطيب البغدادي، والثاني: الإمام أبو الفرج ابن الجوزي تلميذ تلامذة أبي الوفاء ابن عقيل، رحمهما الله تعالى، فأنقل من سيرة كل واحد منهما سطوراً تغني في هذا المقام عن كتاب كبير، فأقول:

---

(١) ٣: ٧٩.

ابنُ عقيل أحَدُ أذكياء بني آدم

أما الإمام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي (علي بن عقيل البغدادي)، فقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة»، في ترجمته الحافلة الحافزة[١]، ما ملخَّصُه: «وُلِدَ سنة ٤٣١، وتوفي سنة ٥١٣، وكان من أفاضل العالَم، وأذكياء بني آدم، مفرطَ الذكاء، متسعَ الدائرة في العلوم.

ابنُ عقيل لا يُضيع ساعةً من عُمره

وكان يقول: إني لا يَحِلُّ لِي أن أُضيعَ ساعةً من عمري، حتى إذا تَعَطَّلَ لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلاَّ وقد خطر لي ما أسطِّره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة.

اختيارُ ابن عقيل الكعكَ المبلولَ على الخبز لكسب الوقت

وأنا أقصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختارُ سفَّ الكعكِ وتحسِّيَه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المَضْغ، توفراً على مطالعة، أو تسطيرِ فائدة لم أدركها فيه، وإنَّ أجلَّ تحصيل عند العقلاء، بإجماع العلماء، هو الوقت، فهو غنيمة تنتهز فيها الفُرَص، فالتكاليف كثيرة، والأوقاتُ خاطفة.

قال الشيخ ابن الجوزي: كان الإمام ابن عقيل دائمَ الاشتغال بالعلم، وكان له الخاطر العاطر، والبحثُ عن الغوامض والدقائق، وجعَلَ كتابه المسمَّى بـ «الفنون» مَناطاً لخواطره وواقعاته.

---

(١) ١ : ١٤٢ ــ ١٦٢. ومن «المنتظم» لابن الجوزي ٩ : ٩٢ و ٢١٢ ــ ٢١٥.

تنوُّعُ علومِ ابن عقيل وتنوُّعُ تصانيفه

وله تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، نحو العشرين، وأكبرُ تصانيفه كتاب «الفنون»، وهو كتاب كبير جداً، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، وأصول الفقه، وأصول الدين، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات. وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره، قيَّدها فيه.

كتابه «الفنون» ثماني مئةِ مجلَّدةٍ وهو أحَدُ كتبه

قال الحافظ الذهبي: لم يصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب، حدَّثني من رأى منه المجلَّدَ الفلانيَّ بعدَ الأربعِ مئة. قال ابن رجب: وقال بعضهم: هو ثماني مئةِ مجلدَّة». انتهى[١].

خيرُ ما قُطِعَ به الوقت وتقربَ به لله طلَبُ العلم

وهو القائل رحمه الله تعالى، في فاتحة القسم الأول المطبوع من كتابه «الفنون»: «أما بعدُ، فإنَّ خيرَ ما قُطِعَ به الوقتُ، وشُغِلَت به النفسُ، فتُقرِّب به إلى الرَّبِّ جلَّتْ عظمَتهُ: طَلَبُ عِلْم أخرَج من ظلمةِ الجهلِ إلى نُورِ الشرع، وذلك الذي شَغَلتُ به نفسي، وقَطعتُ به وقتي.

فما أزالُ أُعلِّقُ ما أستفيدُهُ من ألفاظ العلماء، ومن بُطونِ الصحائف، ومن صَيْدِ الخواطر[٢] التي تَنثُرُها المناظراتُ والمُقابَساتُ، في مَجالس العلماء،

---

(١) وقد وُجِدَتْ قطعة صغيرة منه، طبعتها دارُ المشرق في بيروت، في مجلدين، في سنة ١٩٧٠ و ١٩٧١، بتحقيق الدكتور جورج المقدسي. [واسمه حسبما جاء في «المسارعة إلى قيد أوابد المطالعة» لجميل العظم، ص ١١٠ : الفنون والفصول. س].

(٢) وتسميةُ ابن الجوزي أحَدَ كتبه: «صَيْدَ الخاطر» مستفادةٌ ومقتبسةٌ من كلام أبي الوفاء بن عقيل رحمهما الله تعالى.

ومَجامع الفضلاء، طَمَعاً في أن يَعلق بـي طَرَفٌ من الفضل، أبعُدُ به عن الجهل، لعلي أصِلُ إلى بعضِ ما وَصَلَ إليه الرجالُ قبلي؟!

ولو لم يكن من فائدته عاجلاً إلاَّ تنظيفُ الوقت عن الاشتغال برُعُونات الطباع، التي تنقطع بها أوقاتُ الرَّعَاع، لكَفَى، وعلى اللهِ قَصْدُ السبيل، وهو حسبـي ونعم الوكيل». انتهى.

ابنُ عقيل يقولُ عند وفاته: دَعُوني أتهنَّأ بلقاءِ الله

قال ابن الجوزي: «ولما أدركتِ الوفاةُ الإمامَ أبا الوفاء ابنَ عقيل واحتُضِر بكى النساء! فقال أبو الوفاء: قد وقَّعتُ عن الله خمسين سنة ــ يعني إنه كان يُوقِّع الفتاويَ التي يُبيِّنُ فيها أحكامَ الله في الوقائع والحوادث التي تقع للناس، فكان يُوقع فيها نيابةً عن الله تعالى ــ، فدَعوني أتهنَّأ بلقائه».

ولم يخلِّف هذا الإمام الجليل من الدنيا سوى كتبه وثياب بدنه، وكانت بمقدار كفنِه وأداءِ دَينه، رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيراً.

فانظر أيها القارىء الكريم ــ رعاك الله وإياي ــ كيف يُثمر إعمالُ الخاطر، وحفظُ الوقت، ودأَبُ النفس في الخير والعلم، إنه ليُثمر ثمراتٍ لا تكاد تُصدَّق وإنها لصِدْق، يُثمر (ثماني مئةِ مجلَّدة): أكبر كتاب في الدنيا، يؤلفه فَرْدٌ واحد من الناس أبو الوفاء ابن عقيل، إلى جانب تآليف كثيرةٍ غيرِه، ألَّفها، تبلغ نحو العشرين مؤلَّفاً، وبعضُها في عشر مجلدات.

القليلُ إلى القليلِ كثير، وإنما السَّيْلُ اجتماعُ النُّقَط

وما أصدقَ وأجملَ ما قاله الإمام بهاء الدين ابن النحاس الحلبـي النحوي (محمد بن إبراهيم)، المتوفى سنة ٦٩٨ رحمه الله تعالى، إذ يشير بقوله الآتي إلى أنَّ ضَمَّ القليل إلى القليل مع الدوام عليه، يتكوَّنُ منه الكثيرُ الهائلُ

العجيب، كما حَصَلَ لأبـي الوفاء ابن عقيل (ثماني مِئةِ مجلدة)، يقول بهاء الدين ابن النحاس الحلبـي كما في ترجمته في «بغية الوعاة» للسيوطي[١]:

اليـومَ شـيءٌ وغـداً مِثلُـهُ   مـن نُخَـبِ العلـم التـي تُلْتَقَـطْ
يُحَصِّـلُ المـرءُ بهـا حِكمـةً   وإنمـا السَّيْـلُ اجتمـاعُ النُّقَـطْ

ابـنُ الجـوزي
أرْبَتْ تآليفُه على ٥٠٠ مؤلَّف بحفظِ الوقت

وأمـا الإمـام أبـو الفـرج ابـن الجـوزي (عبـد الـرحمـن بـن علـي الحنبلـي البغدادي)، فقد ولد سنة ٥٠٨، وتوفي سنة ٥٩٧، وعاش تسعاً وثمانين سنة، وألَّف تآليف أربت على خمس مئة كتاب.

لزومُ معرفةِ شَرَفِ الوَقْتِ وَمَلْئِهِ بالأفضل فالأفضل

وإليك نبذةً من سيرته، لتشهده كيف كان يعرف شرف الوقت وقيمته، وكيـف كـان يكسـب الـوقـت إذا زاره ضيـوف أو نـزل بـه ثقـلاء بطَّـالـون. قـال رحمه الله تعالى، كما في كتابه: «صيد الخاطر»[٢]، و «الآداب الشرعية» لابن مفلح الحنبلي[٣].

«ينبغي للإنسان أن يَعرِفَ شَرَفَ زمانِهِ وَقَدْرَ وقته، فلا يُضيعَ منه لحظةً في غيرِ قُربة، ويُقَدِّمَ ـ فيه ـ الأفضلَ فالأفضلَ من القول والعمل. ولتكن نيتُهُ في الخير قائمةً من غير فتور، بما لا يَعجِزُ عنه البدنُ من العمل، كما جاء في الحديث الشريف: «نِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عَمَلِهِ»[٤]. وقد كان جماعة من السلف

---

(١) ص ٦.
(٢) ١:٤٦ و ٢٠١ ـ ٢٠٢ و ٢:٣١٨ ـ ٣١٩ و ٣:٦٠٦.
(٣) ٣:٤٨٣.
(٤) هو جزء من حديث ضعيف أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ٦:٢٢٨، عن =

يبادرون اللحظات، فنُقِلَ عن عامر بن عبد قيس ــ أحد التابعين العباد الزهاد ــ أن رجلاً قال له: (كَلِّمْنِي) فقال له عامر: أَمسِك الشمس.

أكثرُ الناس يضيعون الوقت بما لا ينفع

وقد رأيتُ عُمومَ الخلائق يَدفعون الزمان دفعاً عجيباً! إن طال الليلُ فبحديثٍ لا ينفع، أو بقراءةِ كتابٍ فيه غَزَل وسَمَر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ــ وكان ابن الجوزي يعيش في بغداد ــ فشبَّهتهم بالمتحدِّثينَ في سفينة وهي تجري بهم، وما عندهم خبر[١]!! ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد والتهيؤ للرحيل، فاللهَ اللهَ في مواسم العمر، والبِدارَ البِدَارَ قبلَ الفَوات، ونافِسُوا الزمان.

تعوُّذُ ابن الجوزي من صُحبةِ البطَّالين

وأعوذ بالله من صُحبةِ البطالين! لقد رأيت خلقاً كثيراً يَجرون معي فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد: خدمة! ويطيلون الجلوس، ويُجْرون فيه أحاديثَ الناس وما لا يَعني، ويتخلله غيبة. وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المَزُور، وتشوَّق إليه، واستَوْحَشَ من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يَمزِجون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان!

= سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه. وأورده الهيثمي عنه في «مجمع الزوائد» ١: ٦١ و ١٠٩، والسيوطي في «الجامع الصغير» ٦: ٢٩٢ بشرح المُنَاوي.

(١) قال العارف ابن عطاء الله السكندري في «تاج العروس»، ص ٨٢: «ما أقلَّ بركة مالٍ وقعت فيه أيدي النَّاهبين! فهذا ــ واللهِ ــ عُمُرُ الغافلين منهوب». انتهى. سلمان.

قيامُه بأعمال لا تَمنعُ من المحادثةِ وقتَ لقاءِ الزُّوَّار

فلما رأيتُ أن الزمان أشرَفُ شيء، والواجبَ انتهابُه بفعل الخير، كرهتُ ذلك وبَقيتُ معهم بين أمرين: إن أنكرتُ عليهم وقَعتْ وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان! فصرتُ أدافعُ اللقاءَ جَهْدِي، فإذا غُلِبتُ قَصَّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق. ثم أعددتُ أعمالاً لا تمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلتُ من الاستعداد للقائهم قَطْعَ الكاغد ــ أي قصَّ الورق ــ وبَرْيَ الأقلام، وحَزْمَ الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي[١].

---

(١) قال سلمان: الإمام ابن الجوزي رحمه الله يستحضر هنا قاعدتين حَكِيمتين:

١ ــ إنّ مضيّعات الوقت تنبع دائماً من مصدرين: أحدهما هو البيئة المحيطة، والآخر هو نفسك أنت.

٢ ــ إذا أحسنت استخدام أوقاتك الضائعة فسوف تُضيف إلى وقتك ساعات.

لا تــحــقــرنّ صــغــيــرةً ... إنّ الــجــبــال مــن الــحــصــى

(استفدتهما من كُتيّب «كيف تُدير وقتك» لصلاح الدين محمود).

ولذلك تجده يسرق ويُسارق وقته من أولئك البطالين سارقي العمر والزمن، وفي ذلك يقول الشاعر:

خُذْ الوقتَ أخذَ اللصِّ واسرِقْه واختَلِسْ ... فــوائــدَه بــالطِيــبِ أو بــالتطــايــبِ
ولا تتعلَّــل بــالأمــانــي فــإنهــا ... مطــايــا أحــاديــثِ النفــوسِ الكــواذبِ

ويقول الشاعر الحكيم الأديب الأريب صفي الدين الحِلِّي، كما في «ديوانه» ص٦٥٩:

أُحِــبُّ صــديقــاً منصفــاً فــي ازديــارِهِ ... يُخَفِّــفُ عــن قصــدٍ ويُبــرِمُ عــن عُــذْرِ
ولا رأيَ لــيْ فيمَــنْ يُنغِّــصُ خَلــوتــي ... فيســرقُ لــذّاتــي، وينفِــقُ مــن عُمــري
ولــيْ خلــواتٌ لا أبيــعُ يَسيــرهَــا ... بمــا ملكــتْ كفَّــايَ مــن وافــرِ الــوفــرِ
أبيــتُ بهــا فــي عــالــمِ مــن تصــوُّري ... يُســامــرنــي عقلــي، ويــؤنسنــي فكــري=

شرَفُ الوقتِ لا يعرفه إلاَّ الموفَّقُون

ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثرَ النهار ينظرُ إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر. ومنهم من يخلو بلعب الشِّطْرَنْج، ومنهم من يقطع الزمان بحكاية الحوادث عن السلاطين والغَلاء والرُّخْص إلى غير ذلك، فعلمتُ أن الله تعالى لم يُطْلع على شرف العمر ومعرفةِ قدر أوقاتِ العافية إلاَّ من وفَّقه وألهمه اغتنامَ ذلك، ﴿وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم﴾[١]. نسأل الله عز وجل أن يعرّفنا شَرَفَ أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه[٢].

= ويعتادُني من خمرِ معنايَ نشوةٌ ... أودُّ سروراً أن يدومَ بها سُكْري

إذا كَدَّ وزنُ النَّظْمِ جُهْدَ قَريحتي ... عزلتُ القوافي واسترَحتُ إلى النَّثْرِ

وأجعلُ لفظي للمعاني قوالباً ... فأنحتُ من صخرٍ وأغرِفُ من بحرِ

ومن الطرائف في التخلُّص من الضيوف المطيلين المُكثَ ما جاء في ترجمة الشيخ الكبير العالم المُعمَّر مسندِ وقته أبي علي محمد بن سعيد بن إبراهيم بن سعيد بن نَبْهَان البغدادي الكرخي الكاتب المولود سنة ٤١١ والمتوفى سنة ٥١١. قال ابن السمعاني: «سمعت أبا العلاء محمد بن جعفر بن عقيل يقول: كان شيخنا ابن نَبْهَان إذا مكثَ عندَه أصحاب الحديث طويلاً يقول: قوموا فإنّ عندي مريضاً. فبقي على هذا مدة سنين، فكانوا يقولون: مريضُ ابنِ نبهان قَطُّ لا يَبْرَأ». انتهى من «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» للدمياطي، ص ٨٩.

ورحم الله القائل:

لقاءُ الناسِ ليس يفيدُ شيئاً ... سوى الهَذَيَانِ من قيلٍ وقالِ

فأقلل من لقاءِ الناسِ إلاَّ ... لأخذِ العلم أو إصلاحِ حالِ

من «مِن بدائع الحِكم» للعلامة أحمد قلاش، ص ٨٦.

(١) من سورة فُصِّلَتْ، الآية ٣٥.

(٢) وقال رحمه الله في كتابه اللطيف «حفظ العمر»، ص ٥٩: «ولو كان الذهنُ قويّاً لعلِم أنَّ الراحةَ البَطَّالة تذهبُ، وفِعَالُها خُسرانُ المناقب، وأنتَ ترى الغافلين في ساعات =

حِفَاظُ السلفِ على الوقتِ وحَذَرُهم من إضاعتِهِ

وقد كان القدماء ـ يعني السلف ـ يَحْذَرون من تضييع الزمان، قال الفُضَيل بن عياض: أعرِفُ من يَعُدُّ كلامَه من الجمعة إلى الجمعة. ودخلوا على رجل من السلف، فقالوا: لعلَّنا شغلناك؟ فقال: أَصْدُقكم، كنت أقرأ فتركتُ القراءة لأجلكم! وجاء عابدٌ إلى السَّرِيِّ السَّقَطِي، فرأى عنده جماعةً، فقال: صِرتَ مُناخَ البَطَّالين! ثم مضَى ولم يجلس.

ومتى لانَ المَزُورُ طَمِعَ فيه الزائرُ فأطال الجلوس، فلم يَسْلَم من أذى. وقد كان جماعةٌ قعدوا عند معروف الكرخي، فأطالوا، فقال: إنَّ مَلَكَ الشمس لا يَفْتُر عن سَوْقِها، فمتى تريدون القيام؟!

نماذجُ رائعةٌ من المحافظة على الوقتِ عند السلف

وكان جماعة من السلف يحفظون اللحظات، وكان داود الطائي يستفُّ الفَتِيتَ، ويقول: بين سفِّ الفتيت وأكلِ الخبزِ قراءةُ

= البُطالة عن أشغال الدنيا، منهم من يسعى في لهو يؤذي دينه ويلعب بالشِّطرنج، ومنهم من يتحدث حديثاً لا يخلو من إثم.

وينبغي للإنسان أن يعلمَ أنّ أعزّ الأشياء شيئان: قلبه ووقته، فإذا أهملَ وقتَهُ وضيّع قلبَهُ ذهبت منه الفوائد». انتهى.

ولابن الجوزي قدّس الله روحه كتاب آخرُ لطيفٌ في الباب اسمه: «تنبيهُ النائمِ الغَمْرِ على مواسمِ العُمْر»، قال في آخره:

«ومن عَرَف شرف العمر وقيمته لم يفرِّطْ في لحظةٍ منه. فلينظر الشابُّ في حراسةِ بضاعتِهِ، وليتحفَّظِ الكَهْلُ بقدرِ استطاعتِهِ، وليتزوّدِ الشيخُ لِلَّحاقِ بجماعتِهِ، ولينْظُر الهَرِمُ أن يُؤخَذَ من ساعتِهِ.

نفعنا الله وإياكم بعلومِنَا، ولا سَلَبَنا فوائدَ فهُومِنا، ومتَّعنَا بأسماعِنا وأبصارنا، ولا جعلَ علمنَا حُجَّةً علينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه». انتهى. سلمان.

خمسين آية[١]. وكان عثمان الباقِلَّاويُّ دائمَ الذكر لله تعالى، فقال: إني وقت الإفطار أُحِسُّ برُوحي كأنها تَخْرُجُ! لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر[٢]. وأوصى بعضُ السلف أصحابَه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم.

واعلم أنَّ الزمانَ أشرفُ من أن يُضيَّعَ منه لحظة، فإن في «الصحيح» عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِسَتْ له بها نَخْلَةٌ في الجنة»[٣]. فكم يُضيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيل؟! وهذه الأيامُ مثلُ المزرعة، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر أو يتوانى؟

بيانُ ما يُعينُ على اغتنام الوقت

والذي يُعين على اغتنام الزمان: الانفرادُ والعُزلةُ مهما أمكن[٤]، والاختِصارُ

(١) «حلية الأولياء» ٧: ٣٥٠. سلمان.

(٢) «تاريخ بغداد» ١١: ٣١٣. سلمان.

(٣) الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، رواه الترمذي في «جامعه» ٥: ٥١١ في الدعوات، والحاكم في «المستدرك» ١: ٥٠١ في الدعاء [وغيرهما]. وقال الترمذي فيه: «حديث حسن غريب». وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». انتهى. [وفيه ضعف يسير]. فقول ابن الجوزي: «في الصحيح...»، ليس كما ينبغي لأنه يتبادر منه أنه في الصحيحين أو في أحدهما وليس هو كذلك.

(٤) قال صفي الدين الحِلِّي العالم الشاعر الحكيم الأديب:

وأطيبُ أوقاتي من الدهرِ خَلْوةٌ ... يَقَرُّ بها قلبي ويصفو بها ذِهني

وتأخذُني من سَورة الفِكْرِ نَشْوَةٌ ... فأخرجُ من فَنٍّ وأدخلُ في فَنِّ

ويفهَمُ ما قدْ قال عقلي تصوُّري ... فنقلي إذاً عنِّي وسمعي بها مِنِّي

وأسمعُ من نجوى الدفاتر طُرفَةً ... أُزيلُ بها همِّي وأجلو بها حُزْني=

على السلامِ أو حاجةٍ مهمةٍ لمن يَلقَى، وقلةُ الأكل، فإنَّ كثرتَهُ سَبَبُ النومِ الطويل وضَيَاعِ الليل. ومن نَظَرَ في سِيَرِ السلف، وآمَنَ بالجزاء، بَانَ له ما ذكرتُه.

عُلوُّ هِمَم العلماء السالفين وفضلُ تصانيفهم

ولقد كانت هِمَمُ القدماء من العلماء عَلِيَّة، تدل عليها تصانيفهم، التي هي زُبْدَةُ أعمارهم، إلاَّ أن أكثر تصانيفهم دَثَرَتْ، لأن هِمَمَ الطلاب ضَعُفَتْ، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يَدْرُسُون به من بعضها، فَدَثَرَتْ الكتب ولم تُنْسَخ!

فسبيلُ طالب الكمال في طلب العلم: الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلَّفت من المصنفات، فليُكثِر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعُلُوِّ هِمَمِهِم ما يَشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجِدّ. وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيَقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيد منه المتزهِّد، فاللهَ اللهَ، وعليكم بملاحظة سِيَرِ القوم، ومطالعةِ تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثارُ من مطالعةِ كتبهم، رُؤيةٌ لهم كما قال ــ الشريف الرَّضِي ــ :

فاتني أن أرَى الديارَ بطَرْفي فلعلِّي أرَى الديارَ بسَمْعي[1]

= ينادمني قومٌ لديّ حديثُهم فما غابَ منهم غيرُ شخصِهِمُ عَنِّي

وقال أيضاً:

تؤنسُني الوحدةُ في خلوَتي وهذه من صِفةِ العَالِمِ
مَن يَكُ بالعالَمِ مستأنِساً فإنَّني مِنِّيَ في عَالَمِ

من «ديوانه» ص ٦٦٧. سلمان.

(١) قال شيخنا الكوثري رحمه الله في «المقالات»، ص ٥٠٦ في مقالته عن أمين الخانجي: «إنّ الكتُبَ لا تَقِلُّ أهميةً في استنهاض الهممِ عن الأساتذةِ الأفذاذ، حيث لا يصلُ=

نَهَمُ ابن الجوزي في العلم وشِدَّةُ تعلُّقِهِ بالكتب

وإني أُخبِرُ عن حالي، ما أشبعُ من مطالعةِ الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعتُ على كنز.

ولقد نظرتُ في ثَبَت الكتب ـ أي فهرس الكتب ـ الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي: ـ محمد بن فَتُّوح الأندلسي البغدادي صاحب ابن حزم ـ، وكتب شيخنا عبد الوهاب الأنماطي، وابن ناصر، وكتب أبي محمد الخشّاب وكانت أحمالاً، وغيرِ ذلك من كل كتاب أقدر عليه[1]، ولو قلتُ: إني قد طالعتُ عشرين ألف مجلد ـ أي كتاب ـ كان أكثر، وأنا بَعْدُ في الطلب.

فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سِيَرِ القوم، وقَدْرِ هِمَمِهِم وحِفظِهِم، وعباداتهم، وغرائبِ علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرتُ أستزري ما الناسُ فيه، وأحتقِرُ هِمَمَ الطلاب، ولله الحمد». انتهى.

كلُّ نَفَسٍ خِزانة فاحذَرْ أن تكون خِزانتُك فارغة

وقال الإمامُ ابنُ الجوزيِّ أيضاً، رحمه الله تعالى، في رسالته اللطيفة التي نَصَح بها وَلَدَهُ، وسمَّاها: «لَفْتَةَ الكَبِد في نصيحةِ الوَلَد»، حاضّاً لوَلَدِهِ على حِفْظِ الوقتِ: «واعلَمْ يَا بُنَيَّ، أنَّ الأيامَ تُبْسَطُ ساعاتٍ، والسَّاعات تُبْسَطُ

= إلى كبار الأساتذة إلاَّ آحاد، وأما الكتبُ فتصلُ إلى الأيدي كلِّها، فتثمر ثمرتها عند أصحابِ القابليات الفِطرية». انتهى.

(١) يريد أن هذه المكتبات التي سمَّاها بذكر أثباتها وفهارسها، قد طالع كتبها كلها، وهي من مكتبات بغداد الكبرى في عصره. [حرس الله بغداد وأدام فيها عزَّ السنة والعلم وأهلهما، وأعاد لها مجدها العظيم العريق وسائر بلدان المسلمين].

أنفاساً، وكلُّ نَفَس خِزَانَةٌ، فاحذَرْ أن يَذْهَبَ نَفَسٌ بغير شيء، فتَرى في القيامة خِزانةً فارغةً فَتَنْدَمَ!

وانظُرْ كلَّ ساعةٍ من ساعاتِك بماذا تذهَبُ، فلا تُودِعْها إلاَّ إلى أشرفَ ما يُمكن، ولا تُهْمِلْ نَفْسَك، وعوِّدْها أشرَفَ ما يكونُ من العملِ وأحسَنَهُ، وابعَثْ إلى صُندوق القَبْرِ ما يَسرُّك يومَ الوصولِ ــ الوصولُ[١] ــ إليه». انتهى.

ابن الجوزي كانَ يكتبُ في اليوم أربعة كراريس تأليفاً

وقال الحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» في ترجمة ابن الجوزي[٢]: «لم يَترك فناً من الفنون إلاَّ وله فيه مصنَّف، وسئل عن عدد تآليفه، فقال: زيادة على ثلاث مئة وأربعين مصنفاً، منها ما هو عشرون مجلداً، ومنها ما هو كراس واحد. وقال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزي لا يُضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربعة كراريس، ويرتفع له كلَّ سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين».

كتابة ابن الجوزي بيدِهِ ألفَيْ مجلَّدة، بكسب الوقت

وقال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» وابن رجب في «الذيل»[٣]: «قال أبو المظفر سِبطُ ابن الجوزي: سمعت جدي يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيَّ هاتين ألفَيْ مجلّد». ويقول ابن الوردي في «تتمة المختصر في أخبار البشر»[٤]: «قيل: إنه جُمعت الكراريس التي كتبها أبو الفرج

---

(١) زيادة مني ليستقيم النص. سلمان.

(٢) ١ : ٤١٢ و ٤١٣.

(٣) «تذكرة الحفاظ» ٤ : ١٣٤٤، و «ذيل طبقات الحنابلة» ١ : ٤٠١.

(٤) ٢ : ٢١٨.

ابن الجوزي، وحُسبت مُدَّةُ عمره فقُسمت على المدة، فكان ما خَصَّ كلَّ يوم منها تسعةَ كراريس».

بُرايَةُ أقلام ابن الجوزي
سُخِّن بها ماءُ غَسْلِ موته وزادت

ونقل القُمّي في «الكنى والألقاب»[1]: «أنَّ بُراية أقلام ابن الجوزي التي كَتَب بها الحديث، جُمعتْ فَحَصَلَ منها شيء كثير، وأوصى أن يُسخَّن بها الماء الذي يُغسَّل به بعد موته، ففُعل ذلك، فكَفَتْ وفَضَلَ منها».

وقد ألَّف الأستاذ عبد الحميد العَلْوَجي العراقي كتاباً باسم «مؤلفات ابن الجوزي»، وطبعته وزارة الثقافة والإرشاد العراقية ببغداد سنة ١٣٨٥، وقد عدَّد فيه أسماء مؤلفاته، فبلغت ٥١٩ كتاباً، ما بين كبير في أكثر من عشر مجلدات وصغير في صفحات ــ وفَاتَهُ مؤلَّفاتٌ أخرى ــ .

قـولُ ابـن تيميـة:
مصنَّفاتُ ابن الجوزي أكثَرُ من ألفِ مصنَّف

ونَقَلَ الأستاذ العلوَجي في مقدمته[2] ما يلي: «ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة»[3] أنَّ الإمام ابن تيمية، قال في «أجوبته المصرية»: كان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنَّف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره».

---

(١) ١: ٢٤٢.

(٢) ص ٤.

(٣) ١: ٤١٥.

قـول الـذهـبـي:
ما علمتُ أحداً صنَّف ما صنَّف ابنُ الجوزي

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١]، بعد أن ذكر طائفة كثيرة من مؤلفات ابن الجوزي: «وما علمتُ أحداً من العلماء صَنَّفَ ما صَنَّفَ هذا الرجل». ثم نَقَلَ عن الموفق عبد اللطيف قولَه في ابن الجوزي: «إنه لا يضيع من زمانه شيئاً، وكان يكتب في اليوم أربعة كراريس ــ أي من اشتغاله بالتدريس والتأليف وإفتاء السائلين ــ، وله في كل علم مشاركة». انتهى.

مريضٌ متألم ولا يَدَع الإقراء عليه

جاء في مقدمة الإمام النووي على «صحيح مسلم»[٢]، في ترجمة (أبي عبد الله الفُراوي محمد بن الفضل النيسابوري) المعمَّر الإمام البارع في الفقه والأصول والحديث وغيرها، المولود سنة ٤٤١، والمتوفى سنة ٥٣٠: «رحلَتْ إليه الطلبة من الأقطار، وانتشرت الروايات عنه فيما قرب وبعد من الأمصار، حتى قالوا فيه: للفَرَاوي ألفُ راوي، وكان يقال له: فقيه الحرم، لإشاعته ونشره العلم بمكة زادها الله فضلاً وشرفاً.

ذكره الإمام الحافظ أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر رضي الله عنهما، فأطنب في الثناء عليه بما هو أهله، وقال: وإليه كانت رحلتي الثانية، لأنه كان المقصود بالرحلة في تلك الناحية، لِمَا اجتمع فيه من علو الإسناد، ووفور العلم، وصحة الاعتقاد، وحُسن الخلق، ولين الجانب، والإقبال بكليته على الطالب.

---

(١) ٤: ١٣٤٤.

(٢) ١: ٨.

فأقمتُ في صُحبته سنةً كاملة، وغنمتُ من مسموعاته فوائدَ حسنة طائلة، وكان مُكرِماً لمَوْرِدي عليه، عارفاً بحقّ قصدي إليه.

ومرض مرضة في مدة مقامي عنده، ونهاه الطبيب عن التمكين من القراءة عليه فيها، وعَرَّفه أن ذلك ربما كان سبباً لزيادة تألُّمه، فقال: لا أستجيزُ أن أمنَعَهم من القراءة، وربما أكون قد حُبستُ في الدنيا لأجلهم.

وكنتُ أقرأ عليه في حال مرضه، وهو مُلْقًى على فراشه، ثم عوفي من تلك المرضة، وفارقته متوجهاً إلى هَراة، فقال لي حين ودَّعتُه بعد أن أظهر الجَزَع لفراقي: وربما لا نلتقي بعد هذا! فكان كما قال، فجاءنا نعيهُ إلى هراة، وكانت وفاته في العشر الأواخر من شوال سنة ٥٣٠، ودُفن في تربة أبـي بكر بن خزيمة رضي الله عنهما».

قاضي المَرِسْتَان يقع في الأسر فيتعلم الرومية[١]

تمر بالإنسان في أطوار حياته وتقلباتها أحوال من مرض وأسر واغتراب تحول بينه وبين وسائل العلم من كتاب يرجع إليه، وورقة يخط عليها، ولكن الحريص على الاستفادة من الوقت، لا يعدم وسيلة للاستفادة حتى من هذه الأوقات المعطلة في الظاهر، فيستثمرها في قراءة القرآن، وذكر الله عز وجل، وتعلُّمِ ومذاكرةِ ما يمكن أن يستفيده في تلك الظروف، وقد وِقع هذا لكثير من العلماء والصلحاء، وأُورِد هنا مثالاً لذلك طرفاً من ترجمة القاضي أبـي بكر محمد بن عبد الباقي المعروف بقاضي المرستان منقولة عن «سير أعلام النبلاء»[٢] للذهبـي:

«الشيخ الإمام العالم المتفنن، الفَرَضِي العدل، مُسند العصر، القاضي

---

(١) وقعت هذه الترجمة لي أثناء عملي في مراجعة «لسان الميزان». سلمان.

(٢) ٢٠: ٢٣ ــ ٢٨ بتصرف.

١١١

أبو بكر محمد بن عبد الباقي الخزرجي السَّلَمي الأنصاري البغدادي الحنبلي البزاز، المعروف بقاضي المَرِسْتَان، ويعرف أبوه بـ: صِهْرُ هِبَة[١]، وينتهي نسبه إلى شاعر النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم وأحد الثلاثة الذين خُلِّفوا كعب بن مالك بن عمرو بن القَيْن.

مولده في عاشر صفر سنة ٤٤٢، بكَّرَ به أبوه، وسمَّعه من أبـي إسحاق البرمكي «جُزء» الأنصاري وما معه حضوراً في السنة الرابعة... وروى الكثير وشارك في الفضائل، وانتهى إليه علو الإِسناد، وحدّث وهو ابن عشرين سنة في حياة الخطيب.

وقال أبو موسى المديني: كان إماماً في فنون، وكان يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وما من علم إلاَّ وقد نظرت فيه، وحصَّلتُ منه الكُلَّ أو البعض[٢]، إلاَّ هذا النحو، فإني قليل البضاعة فيه، وما أعلم أني ضيَّعتُ ساعة من عمري في لهو أو لعب.

وكان قد سافر، فوقع في أسر الروم، وبقي سنة ونصفاً، وقيَّدوه وغلّوه وأرادوه على كلمة الكُفر، فأبـى، وتعلَّم منهم الخط الرومي، سمعتُه يقولُ: من خدم المحابر، خَدَمَتْهُ المنابرُ، يجبُ على المعلم أن لا يُعَنِّف، وعلى المتعلم أن لا يأنف، ورأيتُهُ بعد ثلاث وتسعين سنةً صحيحَ الحواسِّ لم يتغيَّر منها شيءٌ، ثابتَ العقلِ، يقرأُ الخطَّ الدقيقَ من بُعْدٍ، ودخلنا عليه قَبلَ موته بِمُدَيْدَةٍ، فقال: سالتْ في أُذُني مادَّةٌ، فقرأ علينا مِن حديثه، وبقيَ على هذا نحواً من شهرين، ثم زال ذلك، ثم مرض، وبقي ثلاثةَ أيَّامٍ لا يفترُ من قراءة القرآن، إلى أن تُوفِّي قبل الظهر ثاني رجب سنة ٥٣٥ رحمه الله تعالى.

---

(١) «نزهة الألباب في معرفة الألقاب» لابن حجر ١ : ٤٣٠.

(٢) هذا خطأ لغوي شائع. صوابه: كُلاًّ أو بعضاً، والله أعلم.

وقال السمعاني: ما رأيتُ أجمع للفُنونِ منهُ، نظر في كُلِّ علم، فبرعَ في الحسابِ والفَرائضِ، سمعتُهُ يقولُ: تُبْتُ من كل علم تعلمتُهُ إلاَّ الحديثَ وعلمَهُ، ورأيتُهُ وما تغيَّر عليه من حواسِّه شيءٌ، وكان يقرأُ الخطَّ البعيدَ الدقيق، وكان سريعَ النسخِ، حَسَنَ القراءةِ للحديث، وكان يشتغلُ بمُطالعة الأجزاءِ التي معي وأنا مُكبٌّ على القراءة، فاتَّفق أنه وَجَدَ جُزءاً من حديث الخُزاعي قرأتُه بالكوفةِ على عُمر بنِ إبراهيم العَلَوِيِّ بإجازته من محمدِ بنِ عليٍّ بن عبدِ الرحمن العَلَوي، وفيه حكاياتٌ مليحةٌ، فقال: دَعْهُ عندي، فَرَجَعْتُ من الغَدِ، فأخرجهُ وقد نَسَخَه، وقال: اقرأهُ حتى أسمعَه، فقلتُ: يا سيِّدي، كيف يكونُ هذا؟! ثم قرأتُهُ، فقال للجماعةِ: اكتبُوا اسمي».

فانظر ــ رحمني الله وإياك ــ إلى هذا الحرص على الوقت واستثماره، في كل أحوال العمر، منذ اليفوعة وحتى الوفاة، بل إنه تعلم في الأسر ــ وهو المحدث ــ الخطَّ الروميَّ، ولو كان ضعيف الهمة فاتر العزم لأعرض عن ذلك بدعوى أن لا فائدة له منها، ولكنه الحرص على العلم واكتنازه في كل حال وآن.

ابن رُشْد الحفيد لم ينقطع عن العلم إلاَّ ليلتين

وهذا الإمام الحجة الفقيه الطبيب ابن رشد الحفيد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، الملقَّب بالحفيد تمييزاً له عن جده، المولود سنة ٥٢٠ والمتوفى سنة ٥٩٥ رحمه الله تعالى.

روي عنه في ترجمته أنه لم ينقطع عن مذاكرة العلم منذ عقل إلاَّ ليلتين: ليلة وفاة أبيه، وليلة زواجه[١].

---

(١) «الديباج المُذْهَب» لابن فرحون، ص ٢٨٤ أو ٢:٢٥٨. وصدّره بلفظ (حُكِي)، =

القاضي الفاضل البَيْسَاني
لا يكاد يَضِيْعُ شيء من زمانه إلاَّ في طاعة

جاء في ترجمته في «الفتح المواهبي في ترجمة الإمام الشاطبي» للحافظ القسطلاني رحمهم الله تعالى(١):

«القاضي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد الفاضل محيي الدين أبي علي القاضي الأشرف اللخمي العسقلاني البَيْساني المصري، صاحبُ دواوين الإنشاء، ووزير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وصديقه وعضُدِهِ.

وُلِد منتصفَ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩، وسمعَ من السِّلَفي وابن عساكر. قال الشيخُ تاجُ الدين السبكي وغيره: وإنما قيل البيساني، لأن أباه ولي قضاء بَيْسَان، وإلاَّ فهو ليس منها. قال: وكان إمام المترسِّلين، وقائدَ لواء الأدباء بإجماع السابقين واللاحقين، ليس في صفته مثلُه، ولا ممن سبقه ولا ممن لحقه أو تأخر بعده، لم ترَ الأعينُ نظيرَه، ولا من يدانيه، وهو بينهم كالشافعي وأبي حنيفة بين الفقهاء، بل أراه عندَهم أبلغ موقعاً، لأن الإمامين قد يتنازعان الإمامةَ والأولوية، وهذا لا منازعَ له، فما هو بينهم إلاَّ كسيبويهِ بين البصريين من النحاة، وكان ذا دينٍ وتقوى ورياسةٍ تامة، من إغضاءٍ وحِلمٍ وصفحٍ وعفوٍ وشكرٍ وكرمٍ زائد. انتهى.

ووصفه الحافظ عماد الدين ابن كثير: إمام الفصحاء والبلغاء، وقال: إنَّ أباه أرسله في الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء

= فليتأمّل ثبوته عنه، والنص من إضافة العبد سلمان، ولم ينقطع بعض العلماء عن العلم حتى ليلة زواجهم!

(١) ص ١١١ ــ ١١٣ بتصرف يسير. والخبر من إضافة العبد سلمان.

على الشيخ أبـي الفتح بن قادوس وغيره، فساد أهل البلاد حتى بغداد وغيرها، وغرباً وبعداً وقرباً، ولم يكن له في زمانه نظيرٌ ولا عديل، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مماثلٌ ولا مناظرٌ ولا نديد.

ولما استقر الملك صلاح الدين في الديار المصرية جعله كاتبَه وصاحبَه ووزيرَه، ومشيرَه وجليسه وأنيسَه، فكان عليه أعزَّ من أهله وأولاده، وأكرمَ عليه من طريفه وتِلادِه، ومساعداً له على فتح الأقاليم والبلدان، والحصون والمعاقل، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بلسانه وقلمه وبيانه.

وقال عبدُ اللطيف البغدادي: دخلنا عليه فرأيتُ شخصاً ضئيلاً، كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، وكأنَّه يكتبُ بجملةِ أعضائه. وقال آخر: إنه لم ينطلق قلمه قط إلاَّ بإيصال رزق، أو سبب خير، أو تجديد نعمة. وكان قليلَ الملذّات، كثيرَ الحسنات، دائمَ التهجد، يشتغل بعلوم الأدب وتفسير القرآن، وكان لا يكاد يَضِيعُ شيءٌ من زمانه إلاَّ في طاعة.

وقال العماد الكاتب: إنه كان يختم كل يومٍ القرآنَ المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله. قال غيره: كان متقلّلاً في مطعمه ومنكحه وملبسه، ولباسُه البياض، لا يبلغ جميعُ ما عليه دينارين، ويركب معه غلامٌ وركاب، ولا يمكِّنُ أحداً يصحبه، ويكثر زيارةَ القبور، وتشييعَ الجنائز، وعيادةَ المرضى، وله معروفٌ في السر والعلانية.

وكان ضعيفَ البُنْية، رقيقَ الصورة، ولأصحاب الفضائل عندَه نَفَاق، يُحسِن إليهم ولا يَمُنّ عليهم، ويؤثر أربابَ البيوتِ والقربى، ولم يكن له انتقامٌ من أعدائه إلاَّ بالإحسانِ إليهم، أو بالإعراضِ عنهم، وكان دَخلُه في كل سنةٍ من إقطاعٍ وأرباعٍ وضِياعٍ خمسين ألفَ دينار سوى متاجر الهند والغرب وغيرهما،

وكان يقتني الكتبَ من كلِ مكان وفن، ويجتلبها من كل جهة، وله نُسّاخ لا يَفْتُرون، ومجلِّدون لا يبطِّلون.

وبالجملة ففضائله ومعارفه أعجزت من تقدمه ومن تأخر بعده، وصدقاته أكثرُ من أن تُذكر، وله أوقافٌ على الفقراء والمساكين لنشر العلوم، وعلى فِكاك الأُسارى، من أيدي النصارى، وجدد عمارة العَين التي تجري ظاهرَ المدينة المشرفة، وما ترك باباً من أبواب الخير إلاَّ أخذ منه أوفى نصيب. وتوفي سادس ربيع الآخر سنة ٥٩٦، ودفن بتربته المذكورة بجوار قبر الشاطبي، رحمهما الله تعالى». انتهى.

عبد الغني المقدسي وحِفاظُهُ على الأوقاتِ وتنظيمُها

وجاء في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمة (الحافظ عبد الغني المقدسي) المولود سنة ٥٤١، والمتوفى سنة ٦٠٠ رحمه الله تعالى: «الإمامُ العالم محدِّثُ الإسلام الحافظ الكبير، الصادق، القدوة، العابدُ، الأثريُّ، المُتَّبِعُ، عالمُ الحُفَّاظ، تقيُّ الدين، أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد، المَقْدِسي، الجَمَّاعيلي، ثم الدمشقي الصَّالحي، الحنبلي، صاحبُ التصانيف. كَتَبَ عن أبي طاهر السِّلَفي ألفَ جزء، وكَتَبَ ما لا يُوصَفُ كثرة، وما زال يَنْسَخُ، ويُصَنِّف، ويُحَدِّثُ، ويَعْبُدُ الله، حتى أتاه اليقين.

قال الحافظ ضياء الدين المَقْدِسي تلميذُهُ: وكان لا يُضيع شيئاً من زمانه بلا فائدة، كان يصلي الفجر، ويُلقِّن القرآن، وربما لَقَّن الحديث، ثم يقومُ فيتوضأ ويصلي ثلاثَ مِئةِ ركعةٍ بالفاتحة والمعوِّذتين إلى قُبَيْل الظهر، فينامُ نومةً فَيُصلِّي الظهر، ويشتغل بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فيُفْطِرُ إن كان صائماً،

---

(١) ٤: ١٣٧٦ ـ ١٣٨٠ بزيادة يسيرة من «سير أعلام النبلاء» ٢١: ٤٥٢.

وإلاَّ صلى من المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء ثم ينامُ إلى نِصفِ الليل أو بعدَه، ثم قام كأن إنساناً يوقظه.

ثم يتوضأُ ويصلي، ثم يتوضَّأ ويصلي إلى قريب الفجر، وربما توضأ سَبْعَ مرَّات أو أكثر، ويقول: تطيبُ لي الصلاة ما دامت أعضائي رَطْبَة، ثم ينام نومةً يسيرة قبل الفجر، وهذا دَأْبُه». انتهى.

وتَرَكَ من الكتب التي ألَّفها ما يزيد على أربعين كتاباً. فيها النفائس الغوالي. انظرها في ترجمته الواسعة الحافلة، في «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب[١].

الفخرُ الرازي
يتأسَّفُ على الوقتِ الذي يَذهَبُ في الأكل

وجاء في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» للطبيب المؤرخ ابن أبي أُصَيْبِعة[٢]، في ترجمة الإمام فخر الدين الرازي المفسِّر الأصولي المتكلِّم (محمد بن عمر) المولود سنة ٥٤٣، والمتوفى سنة ٦٠٦ رحمه الله تعالى، عن ٦٣ سنة من العمر، وقد تَرَكَ من التآليف نحو مئتي كتاب، ما بين كتابٍ كبير «كالتفسير» المشهور له، ورسالةٍ في صفحات.

جاء في ترجمته قولُ ابن أبي أُصَيْبِعَة: «حكى لنا القاضي شمس الدين الخُوْئِي، عن الشيخ فخر الدين أنه قال: واللهِ إنني أتأسَّفُ فِي الفَوَاتِ عن الاشتغال بالعلم في وقتِ الأكل، فإنَّ الوقتَ والزمانَ عزيز».

(١) ٢: ٥ ـ ٣٤.

(٢) ٢: ٣٤.

ويموت ولده فلا يشغله التأسف والحزن عليه من الاستمرار في التأليف

جاء في آخر تفسير سورة يوسف في تفسيره «مفاتيح الغيب»[(١)] قوله: «تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان، خُتم بالخير والرضوان سنة إحدى وست مئة ٦٠١، وقد كنت ضيق الصدر جدّاً، بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وخَصَّه بدرجات الفضل والإحسان...».

وأورد استطراداً واقعة كانت للإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى، تعرفك بحب هذا الإمام العظيم للعلم، وبغلاء العلم عنده:

حكى العلامة ياقوت الحَمَوي رحمه الله تعالى، في كتابه «معجم الأدباء»[(٢)]، في ترجمة العلامة النسَّابة الأديب عَزيزِ الدين إسماعيل بن الحُسَين المَرْوَزِي العَلَوِيّ الشريف، المولود سنة ٥٧٢، والمتوفى بعد سنة ٦١٤ رحمه الله تعالى. وكان العلامة ياقوت لَقِيَهُ في مَرْو في سنة ٦١٤، وَأَثْنَى على أخلاقه وعلمه.

قال: «قد طُبع من حُسنِ الأخلاق، وسَماحةِ الأعراق، وحُسنِ البِشْر، وكَرَمِ الطبع، وحياءِ الوجه، وحُبِّ الغرباء، على ما نراه مُتفرِّقاً في خَلْقٍ كثير، وهو مع ذلك أعلمُ الناس يَقيناً بالأنساب، والنحو، واللغة، والشعر، والأصول، والنجوم ــ أي الفَلَك ــ، وهو مع سَعَةِ علمِهِ متواضعٌ حسَنُ الأخلاق.

---

(١) ٥: ٢٥٨. وهذا النص دون الاستطراد من إضافة العبد سلمان، مستفاداً من أخي الجليل الشيخ مجد مكّي حفظه الله مستفاداً من كتاب «القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف» للشيخ محمد محمد المدني رحمه الله، ص ٧٧.

(٢) ٦: ١٤٨ أو ٢: ٦٥٤.

حدَّثَني رحمه الله تعالى قال: وَرَدَ الفخرُ الرازي إلى مَرْو، وكان من جلالةِ القَدْر، وعِظَم الذكر، وضخامةِ الهيبة، بحيثُ لا يُراجَعُ في كلامِهِ، ولا يَتَنفَّسُ أحَدٌ بين يديه لإعظامِه، على ما هو مشهورٌ مُتَعَارَف.

فدخلتُ إليه، وتردَّدْتُ للقراءةِ عليه، فقال لي يوماً: أُحِبُّ أن تُصنِّفَ لي كتاباً لطيفاً في أنسابِ الطالبيِّين لأنظُرَ فيه، فلا أُحِبُّ أن أموت جاهلاً به، فقلتُ له: أتُريدُهُ مُشَجَّراً ـ أي على طريقةِ شجرَة النَّسَب ـ أم منثوراً؟ فقال: المُشجَّرُ لا ينضبطُ بالحفظ، وأنا أريدُ شيئاً أحفَظُه، فقلتُ: السمعُ والطاعة.

وَمَضَيتُ وصنَّفْتُ له الكتابَ الذي سمَّيتُه بالفَخْري ـ نسبة إلى الفخر الرازي ـ وحملتُهُ وجئتُه به، فلما وقف عليه، نَزَل عن طَرَّاحَته ـ أي مَفْرَشِهِ الذي يَجلِسُ عليه في وقت التدريس ـ، وجَلَس على الحصير، وقال لي: اجلِسْ على هذه الطَّرَّاحة، فأعظمتُ ذلك وهبته، فانتَهَرني نَهرةً مُزْعِجة، وَزَعقَ عليَّ، وقال: اجلِسْ بحيثُ أقولُ لك، فتَداخَلَني ـ عَلِمَ اللهُ ـ من هَيْبَتِهِ ما لم أتمالَكْ إلاَّ أن جَلَستُ حيثُ أمَرني.

ثم أخَذَ يقرأُ عليَّ ذلك الكتاب، وهو جالسٌ بين يدَيَّ، ويَستفهمني عما يَستغْلِقُ عليه، إلى أن أنهاه قراءةً، فلما فَرَغَ منه، قال: اجلِسْ الآن حيثُ شئت، فإنَّ هذا عِلْمٌ أنت أستاذي فيه، وأنا أستفيدُ منك وأتتلمَذُ لك، وليس من الأدب أن يَجلِسَ التلميذُ إلاَّ بين يَدَيْ الأستاذ.

فقمتُ من مَقامي، وجَلَسَ هو فِي مَنْصِبِه، ثم أخذتُ أقرأُ عليه، وأنا جالسٌ بحيثُ كان أوَّلاً. وهذا لَعَمْري من حُسنِ الأدَبِ حَسَنٌ، ولا سيما من مثلِ ذلك الرجلِ العظيم المَرْتَبَة».

فانظر كيف تواضع هذا الإمام، الفذ عالمُ عصره، وطلب من تلميذه أن

يُعرِّفَهُ (علم الأنساب)، ولم يجد غضاضة من التلمذة له، فأجلسه مجلس الأستاذ، وجلس هو بين يديه مجلس التلميذ، فكان هذا وسام تواضع ورفعة، زادت به سيرة الإمام فخر الدين الرازي سمواً وعلواً، وما نقص ذلك من مقامه العظيم، فانظر ما أحب العلم إلى قلوب مثل هؤلاء العلماء وما أجلّه في نفوسهم، وما أرفعه في أعينهم، وما أحوج الخلف إلى الاقتداء بهذا السلف العظيم، يتواضعون للعلم حتى يأخذوه من بعض تلامذتهم وما يأنفون، **لأنه أغلى في نفوسهم من كل مقامٍ ورفعةٍ هُمْ عليها.**

حِفْظُ ابنِ سُكينة لأوقاتِهِ وتنظيمُها ومَلْؤها بالأعمالِ الصالحة

وقال الحافظ المؤرخ ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» والحافظ الذهبي، في «سِيَر أعلام النبلاء»[1]، في ترجمة الإمام ابن سُكَيْنَة: «الشيخُ الإمام العالم الفقيه المحدِّثُ الثقة، المعمَّرُ القدوةُ الكبير، شيخُ الإسلام مفخرُ العراق، ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي ابن سُكَيْنَةَ البغدادي الصوفي الشافعي، ولد سنة ٥١٩، ومات سنة ٦٠٧، وكان شيخ وقته في علو الإسناد والمعرفة والإتقان، والزهد والعبادة، وحُسنِ السَّمْتِ وموافقةِ السنة وسلوكِ طريقِ السلفِ الصالح.

مَدَّ الله له في العمر حتى حدَّث بجميع مروياته مراراً، وقصده طلاب العلم من سائر الأقطار، وكانت أوقاته محفوظة، وكلماته معدودة، فلا تمضي له ساعةٌ إلاَّ في قراءة قرآن، أو ذكر، أو تهجد، أو قراءة الناس عليه، وكان

---

(١) ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» ١ : ٣٥٤ ــ ٣٦٨، وابنُ سُكَيْنَة شيخُ ابن النجار، فلذا أطال في ترجمته واستوعب، والذهبي في «سِيَرِ أعلام النبلاء» ٢١ : ٥٠٢ ــ ٥٠٥.

يَمنعُ الناسَ من التحديث في مجلسه بلغو أو غيبة إنسان أو ما لا فائدة فيه. لا يخرج من بيته إلاَّ لحضور جمعةٍ أو عيدٍ أو جنازةٍ، ولا يَحضُر دُورَ أبناء الدنيا في هَنَاء ولا عَزَاء.

قال ابن النجار تلميذُهُ: لقد طُفتُ الأرض شرقاً وغرباً، ورأيتُ الأئمةَ والعلماء والزهاد، فما رأيتُ أكملَ منه ولا أكثرَ عبادةً ولا أحسنَ سَمْتاً، صَحِبْتُه قريباً من عشرين سنة ليلاً ونهاراً، وتأدَّبتُ به وخدمته، وقرأتُ عليه القرآن بجميع مروياته وقراءاته، وسمعتُ منه أكثر مروياته في الحديث، وقرأت عليه الكتب المطولات واستفدتُ منه كثيراً.

قولُ ابن سُكَيْنَة لتلامذته:
لا تزيدوا على (سلامٌ عليكم) مسألة

قال يحيى بن القاسم مُدَرِّسُ النِّظَامِيَّة: كان ابن سُكَيْنَة عالماً عاملاً، لا يُضيع شيئاً من وقته، وكنا إذا دخلنا عليه يقول: لا تزيدوا على (سلامٌ عليكم) مسألة[1]، لكثرة حرصِه على المباحثة وتقرير الأحكام». انتهى. والمدرسةُ النظامية أرقى معاهد العلم في بغداد آنئذٍ.

وهذا ــ واللهِ ــ شيءٌ عَجَبٌ! إذْ يدعوهم إلى اختصار السلام: (سلامٌ عليكم)، ويَمنعُهم من التجمل بالمجاملات المعتادةِ أوَّلَ اللقاء، ويأمُرُهم أن يَدخلوا في المُبَاحثةِ والمُدَارسة فَوْرَ سلامِهم، كسباً للوقت.

ابن سعيد الأندلسي يرى راحتَهُ في تحصيل العلم

ونَقَل المؤرِّخ المَقَّريُّ في «نَفْح الطِّيب من غُصن الأندلس الرَّطيب»[2]،

---

(١) وهكذا كان الوالد رحمه الله في بعض الأحيان. سلمان.

(٢) ٢ : ٣٢٩ و ٣٣٣.

عن الأديب المؤرِّخ أبـي الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي، أنه لمَّا ترجَمَ لوالده العالم الفاضل المؤرخ الأديب أبـي عمران موسى بن محمد بن سعيد الأندلسي، المولود سنة ٥٧٣، والمتوفى سنة ٦٤٠ رحمه الله تعالى، في كتاب «المُغْرِب في حُلَى أهل المَغْرِبِ»، وقد توارد على تأليفِهِ خمسةٌ من آل ابن سعيد جَدُّ أبـي الحسن وَعَمُّهُ ووالدُهُ وأتَمَّهُ هو بعدهم، قال: «لولا أنه والدي لأطنبتُ في ذكرِه، ووفَّيتُهُ من الوصفِ حَقَّ قَدْرِه، لكنْ كفاه وَصْفاً ما أثبَتُّه له في هذه الترجمة. . .

ومما شاهدتُه من عجائبه أنه عاش سَبْعاً وستين سنة، ولم أره يوماً يُخْلِي مُطالعَةَ كتاب، أو كَتْبَ ما يُخلِّدُه، حتّى إنَّ أيامَ الأعياد لا يُخْليها من ذلك، ولقد دخلتُ عليه في يومِ عيد، وهو في جهد عظيم من الكَتْب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إليَّ كالمُغْضَبِ وقال: أظنُّك لا تُفلحُ أبداً. أتَرى الراحةَ في غيرِ هذا؟ والله لا أحسَبُ راحةً تَبلُغُ مبلغَها، ولوَدِدتُ أن الله تعالى يُضاعِفُ عُمُري حتى أُتِمَّ كتابَ «المُغرِب» على غَرَضِي.

قال: فأثار ذلك في خاطري أنْ صِرتُ مِثلَهُ، لا ألتَذُّ بنعيمٍ غيرِ ما ألتَذُّ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بَلَغ هذا التأليفُ: «المُغْرِبُ» إلى ما تراه.

وكان أَولَعَ الناسِ بالتجوُّلِ في البلدان، ومُشاهدةِ الفضلاء، واستفادةِ ما يَرى وما يَسمع، وفي تولُّعِهِ بالتقييدِ والمطالعةِ للكُتُبِ يقول:

يـا مُفْنِيـاً عُمْـرَهُ فِـي الكـأسِ والـوَتَـرِ ... وراعِيـاً فـي الـدُّجَـى لـلأَنْجُـم الـزُّهُـرِ
يَبكــي حَبيبــاً جَفــاهُ أو يُنــادِمُ مَــنْ ... يَهْفُـو لـديـه كغُصـنٍ بـاسـمِ الـزَّهَـرِ
مُنَعَّمـــاً بيـــنَ لَـــذَّاتٍ يُمَحِّقُهـــا ... ولا يُخلِّـــدُ مِـــنْ فَخْـــرٍ ولا سِيَـــرِ
وَعـــاذِلاً لِـــيَ فيمـــا ظِلْـــتُ أكتبُـــهُ ... يُبدِي التعجُّبَ من صَبْرِي ومن فِكَرِي

يقـولُ مـا لَـكَ قـد أفنيـتَ عُمْـرَكَ فِـي ... حِبْـرٍ وطِـرْسٍ عـن الأغصـانِ والحِبَـرِ
وظَلْـتَ تَسهَـرُ طـولَ الليـل فِـي تَعَـبٍ ... ولا تُـرَى أبَـدَ الأيـام فـي ضَجَـرِ
أقْصِـر فـإنِّـي أدْرَى بـالـذي طَمَحَـتْ ... لأُفْقِـهِ همَّتـي واسْـأَلْ عـن الخَبَـرِ
واسمَـعْ لقـولِ الـذي تُتْلَـى مَحـاسِنُـهُ ... من بَعْدِ ما صار مِثلَ التُّرْبِ، كالسُّوَرِ
«جَمَالَ ذِي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهُمْ ... بَعْـدَ المِمـاتِ جَمَـالُ الكُتْـبِ والسِّيَـرِ»

ابن تيمية الجَدُّ
يُقْرأُ عليه الكتابُ إذا دخَل الخلاء

وممن حافظوا على الاستفادة من الوقتِ بشكلٍ عجيب، وحالٍ لا تَخْطُرُ على بال: الإمامُ ابنُ تيمية الجَدُّ: مَجْدُ الدين أبو البركات عبدُ السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني الحنبلي، المولود في حدود سنة ٥٩٠، والمتوفى سنة ٦٥٣ رحمه الله تعالى.

قـال الحـافـظ ابـنُ رجـب الحنبلي في «ذيـل طبقـات الحنـابلـة»[١]، في ترجمته: «الإمامُ الفقيهُ المقرىءُ المحدِّثُ المفسِّرُ الأصوليُّ النَّحْويُّ، شيخُ الإسلام وفقيهُ الوقت، وأحَدُ الأعلام، قال شيخنا أبو عبد الله بن القيم[٢]: حدَّثني أخو شيخِنا عبدُ الرحمن بنُ عبد الحليم بن تيمية، عن أبيه، قال: كان الجَدُّ ــ مَجْدُ الدين أبو البركات ــ إذا دَخَلَ الخلاءَ يقول لي: اقرَأْ في هذا الكتاب، وارفَع صوتَك حتى أسمَع.

قلتُ ــ القائلُ ابن رجب ــ: يُشيرُ بذلك إلى قُوَّةِ حرصِهِ على العلم وحُصُولِهِ، وحِفظِهِ لأوقاتِه».

---

(١) ٢: ٢٤٩ ــ ٢٥٢.

(٢) وذَكَرَ هذا أيضاً ابنُ القيم في كتابه: «روضة المحبين»، ص ٧٠.

الحافظ المنذري

كتب بيده ٩٠ مجلدة و ٧٠٠ جزء من غير تصانيفه

وتحدَّث الإمامُ النوويُّ رحمه الله تعالى، في آخر كتابه «بُستان العارفين»[(١)]، عن بعض مآثِر جماعةٍ من كبار العلماء البارعين الأفذاذ، تحت عنوان (باب في حكاياتٍ مُسْتَطْرَفَة)[(٢)]، فَذَكَر مَنْقَبَةً سَمِعَها من شيخه لِشَيخِهِ الإمام الحافِظ عبدِ العظيم المنذريِّ، المولودِ بالقاهرة سنة ٥٨١، والمتوفى بها سنة ٦٥٦ رحمه الله تعالى، قال:

«سَمِعتُ شيخَنا وسيدَنا الإمامَ الجليل، والسيدَ النبيل، الحافظَ المحقِّق، والمقتبِسَ المدقِّق، الضابطَ المُتْقِن، والمشفِقَ المُحْسِن، الورِعَ الزاهد، والمجتهدَ العابد، بقية الحفاظ، المفتيَ شيخَ الأئمة والمحدِّثين: ضياءَ الدين أبا إسحاق إبراهيمَ بنَ عيسى المُراديَّ، يقولُ ـ في يوم الأربعاء السادس من شوال سنة ثمان وخمسين وست مئة[(٣)]،

---

(١) ص ١٩١ من الطبعة الثالثة المطبوعة بدمشق في مطبعة زيد بن ثابت سنة ١٤٠٥.

(٢) وقع في المطبوعة (مستظرفة) أي بالظاء المنقوطة، وصوابُهُ (المستطرَفَة) بالطاء المهملة كما أثبتُه.

(٣) يستفاد من هذا التأريخ أن الإمام النوويَّ كان يسجِّل مسموعاتِهِ من شيوخه بتأريخ السنة واليوم واسمِه، زيادة منه في الضبط والإتقان، رحَمَاتُ الله تعالى عليه، فكلُّ شأنِهِ علمٌ وإفادة.

قال سلمان: وقد كان هذا منهج سيدي العلامة الوالد طيَّب الله ثراه، في أوراقه المهمة، وفي تعليقاته على كتبه، وفي منتخباته منها، وفي ما يدوّنه من خواطره وأفكاره، فلا تكاد تجد ورقة بل قُصَاصَةً من أوراقه المهمة إلاَّ وأرَّخها بالسنة والشهر واليوم، مع ذكر المكان غالباً.

وذلك من لطائف العلم ومستحباته، وأحياناً من ضرورياته، فله وَقْعُه وفائدته، وكم =

بالمدرسة البادرائية بدمشق حَمَاها الله وصانها ــ :

سمعتُ الشيخَ عبدَ العظيم رحمه الله تعالى يقول: (كتبتُ بيدي تسعين مجلَّدةً، وكتبتُ سبعَ مِئةِ جزء). كلُّ ذلك من علوم الحديث تصنيفِ غيره، وكَتَبَ من مصنفاتِهِ وغيرها أشياءَ كثيرة.

الحافظ المنذري يشتغلُ بالعلم في حالِ الأكل

قال شيخُنا: ولم أر ولم أسمع أحداً أكثَرَ اجتهاداً منه في الاشتغال، كان دائمَ الاشتغال في الليل والنهار. قال: وجاورتُه في المدرسة، يعني بالقاهرة حماها الله تعالى، بَيْتِي فَوْقَ بيتِه اثنتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فلم أستيقظ في ليلةٍ من الليالي، ساعةً من ساعاتِ الليل، إلاَّ وَجَدتُ ضوءَ السِّراج في بيتِهِ وهو مشتغل بالعلم، وحتى كان في حالِ الأكلِ والكتابُ والكتُبُ عنده يَشتغلُ فيها.

الحافظ المنذري لا يخرجُ من المدرسة لا لعزَاء ولا لهَنَاء

وذَكَرَ من تحقيقِهِ وشِدَّةِ بحثِهِ وتفنُّنِهِ ما أعجزُ عن التعبير عنه. قال: وكان لا يَخرُجُ من المدرسة لا لعَزَاءٍ، ولا لهَنَاء، ولا لفُرْجة، ولا لغير ذلك،

= وكم حَلَّ التأريخ من إشكال وأراح مِن بال، جاء في «زهر الآداب» للحُصْري ٣: ٨٨١ و «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ ص ٢٠: «قال الصُّوْلي ــ الوزير الأديب المعروف ــ: كاتبتُ أبا خليفة ــ الفضل بن الحُباب الجُمحي القاضي ــ في أمور أرادها، فأغفَلتُ التاريخَ منها في كتابين، فكتب إليّ بعد نفوذِ الثاني: وصَل كتابك ــ أعزّك الله ــ مُبهَم الأوانِ، مُظلمَ المكان ــ في «اللباب»: البيان ــ، فأدّى خيراً ما القرب فيه أولى من البُعد، فإذا كتبتَ ــ أكرمك الله تعالى ــ فلتكن كتبُك موسومةً بتاريخ، لأعرف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمود اليقين، ونافي الشك، به تُعرف الحقوق، وتُحفظ العهود».

إلاَّ لصلاةِ الجمعة، بل يَستغرقُ كلَّ الأوقاتِ في العلم، رضي الله تعالى عنه وعن والدينا والمسلمين». انتهى.

الحافظ المنذري
يموت ابنُهُ الغالي فيُشيِّعُهُ لباب المدرسة فقط

قال الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[١]، في ترجمة الحافظ المنذري: «وقد دَرَّسَ بالآخِرَةِ في دار الحديث الكاملية، وكان لا يَخرجُ منها إلاَّ لصلاة الجمعة، حتى إنه كان له ولد نجيبٌ محدِّثٌ فاضل ـ هو رشيد الدين أبو بكر محمد، توفي سنة ٦٤٣، وكان أَحَدَ الأذكياء النبغاءِ الحُفَّاظ ـ توفَّاه الله تعالى في حياتِه، ليُضاعِفَ له في حَسَنَاتِه، فصلَّى عليه الشيخُ داخلَ المدرسة، وشيَّعَه إلى بابها، ثم دَمَعَتْ عيناه وقال: أودعتُك يا ولدي اللهَ تعالى، وفَارَقَه». ولم يخرُج من المدرسة.

المؤرِّخ ابن العديم الحَلَبي
يُدوِّنُ العلم راكباً مسافراً

جاء في «فَوَات الوَفيَات»[٢] لابن شاكر الكُتْبِي رحمه الله تعالى في ترجمة ابن العديم: «كمالُ الدين أبو القاسم عُمَرُ بنُ أحمد بن هبة الله بن أبي جَرَادة، العُقَيلي الحلبي، الصاحب العلامة رئيسُ الشام، ولد سنة ٥٨٦، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٦ رحمه الله تعالى.

سمع الحديث من أبيه ومن عمِّه أبي غانم محمد وابن طَبَرْزَد والافتخار[٣] والكِنْدِي والحَرَسْتَاني، وسَمِعَ جماعةً كثيرة بدمشق وحلب

---

(١) ٨: ٢٦٠.

(٢) ٣: ١٢٦.

(٣) افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي.

والقدس والحجاز والعراق، وكان محدِّثاً حافظاً، مؤرِّخاً صادقاً، فقيهاً مُفتياً، منشئاً بليغاً، كاتباً مجوِّداً، درَّس وأفتى وصنَّف وترسَّلَ عن الملوك، وكان رأساً في الخط المنسوب لا سيما النَّسْخ والحواشي.

وكان إذا سافر يركب في مِحَفَّةٍ[١] تُشَدُّ له بين بَغْلَينِ، ويجلس فيها ويكتب»[٢].

ابنُ مالك كان يُصلي أو يتلو أو يُصنِّف أو يَقرأ

ومن الأئمة الكبار، الذين حافظوا على الساعات واللحظات، حتى وهُمْ في غَمَرات الموتِ ووَداع الحياة، وتعلقوا بتحصيل العلم قُبَيلَ ساعةِ الممات: الإمامُ ابنُ مالك النَّحْويُّ صاحبُ «الألفية» وغيرها من أمهات كتب النحو، (محمد بن عبد الله) المولود سنة ٦٠٠، والمتوفى سنة ٦٧٢ رحمه الله تعالى، جاء في ترجمته في «نفح الطيب» للمَقَّري[٣]:

«كان رحمه الله تعالى كثيرَ المطالعة، سريعَ المراجعة، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محلِّه، وهذه حالةُ المشايخ الثقات، والعلماءِ الأثبات، ولا يُرى إلاَّ وهو يصلي أو يتلو أو يُصَنِّفُ أو يقرأ.

---

(١) هَوْدَجٌ لا قُبَّةَ له. «المعجم الوسيط». س.

(٢) ومما جاء في ذلك من التأليف في الأسفار، ما جاء في «كشف الظنون» لحاجي خليفة ٢:١٨٢٤ في أثناء تعداده لشروح «منار الأنوار» للنسفي الإمام المشهور عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٧١٠، المتن الأصولي المشهور: «والعلامة شرف الدين بن كمال القُرَيْمي سوّد شرحاً حافلاً وتركه، ثم إنه لما قصد الحج عرضه على علماء الشام فأعجبهم وطلبوا تبييضه، فبيّضه في طريق الحجاز، وهو شرح بالقول. وفرغ منه يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان سنة ٨١٠، أوله: الحمد لله الذي شرّف خوّاص نوع الإنسان بالهداية... إلخ. فصار أحسن شروحه». انتهى. سلمان.

(٣) ٢:٢٢٢ و ٢٢٩.

وحُكي أنه توجَّه يوماً مع أصحابه للفُرجة بدمشق، فلما بلغوا الموضعَ الذي أرادوه، غَفَلوا عنه بسُوَيعة، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكباً على أوراق.

حِفظُ ابن مالك ثمانيةَ أبياتٍ قبلَ موته تلقيناً

وأغربُ من هذا في اعتنائه بالعلم: ما مَرَّ أنه حَفِظَ يومَ مَوْتِهِ عِدَّةَ أبيات، حَدَّها بعضُهم بثمانية أبيات، لقَّنه إيَّاها ابنُه، وهذا مما يُصدِّقُ ما قيل: **بقَدْرِ ما تتعنَّى، تَنالُ ما تتمنَّى**، فجزاه الله خيراً عن هذه الهِمَّةِ العلية. وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢، ودُفِنَ بسَفْح جبل قَاسِيُون، وما يزال قبرُهُ معروفاً هناك، رحمه الله تعالى». انتهى.

الإمـام الـنـووي
لم يَضَع جنبَهُ على الأرض نحوَ سنتين

وقال الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١] وابن قاضي شُهْبَة في «طبقات الشافعية»[٢] في ترجمة الإمام النووي (يحيى بن شرف الحَوْراني): «هو الإمامُ الحافظُ الأوحد، القُدوة، شيخ الإسلام، عَلَمُ الأولياء، محيي الدين أبو زكريا، يحيى بن شَرَف بن مُرِّي الحِزامي الحَوْراني الشافعي، صاحبُ التصانيف النافعة.

وُلِدَ سنة ٦٣١ ـ في بلدة نَوَى من حَوْرَان ـ وقَدِمَ دمشق سنة ٦٤٩، فسكن في المدرسة الرَّواحِيَّة يتناولُ خُبزَ المدرسة، ـ قال: وبقيتُ نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض ـ فحَفِظَ «التنبيه» في أربعة أشهر

(١) ٤: ١٤٧٢.
(٢) ٢: ١٩٤.

ونصف، وقرأ رُبعَ «المهذَّب» حفظاً في باقي السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد.

النووي يَقرأُ كل يوم
اثنَيْ عشر درساً مع الضبط والتعليق

ذكر تلميذُه شيخُنا أبو الحسن ابن العطار: أن الشيخ محيي الدين ذَكَر له: أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثنَيْ عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً: درسينِ في «الوسيط» ــ في علم الفقه ــ، ودرساً في «المهذَّب» ــ في الفقه أيضاً ــ، ودرساً في «الجمع بين الصحيحين» ــ في علم الحديث ــ، ودرساً في «صحيح مسلم»، ودرساً في «اللُّمَع» لابن جِنِّي ــ في علم النحو ــ، ودرساً في «إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت ــ في علم اللغة ــ، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، تارةً في «اللُّمَع» لأبي إسحاق، وتارةً في «المنتخب» لفخر الدين الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين.

قال: وكنتُ أُعَلِّقُ جميعَ ما يتعلق بها من شرحِ مشكلٍ، ووضوحِ عبارة، وضبطِ لغة، وبارك الله تعالى في وقتي.

النووي كان لا يأكل
إلَّا أكلةً واحدة في اليوم والليلة

قال أبو الحسن ابن العطار: ذكَرَ لي شيخُنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيعُ له وقتاً، لا في ليلٍ ولا في نهار إلَّا في الاشتغال بالعلم حتى في الطَّريق يُكرِّرُ أو يُطالع، وأنه دام على هذا سِتَّ سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق. وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلَّا أكلةً بعدَ عِشاء

الآخرة، ويشربُ شربةً واحدةً عند السَّحَر، ويمتنعُ من أكل الفواكه والخيار، ويقول: أخافُ أن يُرَطِّبَ جسمي ويجلب لي النوم، ولم يتزوَّج. وعزم عليه الشيخ برهان الدين الإسكندراني أن يفطر عنده، فقال: أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة، فأكل من ذلك وكان لونين.

تقشُّفُ النوويِّ
وتخشُّنُه في مطعمه وملبسه وعَيْشِه

ولازَم الاشتغالَ والتصنيفَ ونَشْرَ العلم، والعبادةَ والأورادَ والصيامَ والذكر، والصبرَ على العيش الخَشِن في المأكل والملبس ملازمةً كليةً لا مزيدَ عليها، مَلْبَسُه ثوبُ خام، وعِمَامَتُه سَخْتِيَانِيَّة صغيرة».

الإمام النووي
لا ينامُ إلاَّ لحظةً إذا غَلَبه النوم

وجاء في «المَنْهَلُ السَّويُّ في ترجمة الإمام النووي» للحافظ السيوطي[1]: «قال الكمال الأُدْفَوي في «البدر السافر»: ــ مخطوط ــ: حكى لي قاضي القضاة بدر الدين ــ تلميذ الإمام النووي ــ أنه سأله عن نومه، فقال: إذا غلبني النوم استندتُ الكُتُبَ لحظةً وأنتبه.

وقال الأَذْرُعي ــ شهاب الدين أحمد بن حمدان ــ في أول «التوسط والفتح»: بلغني أن الشيخ محيي الدين ــ النووي ــ كان يكتب إلى أن يَعْيَا، فيضع القلم ليستريح، وينشد:

لئن كان هذا الدمعَ يجري صَبَابة ... على غير سُعْدى فهو دمع مضيَّعُ».

---

(١) ص ٥٣.

مطالعةُ النووي كتاب «الوسيط» أربع مئة مرة

وجاء في «المنهل السوي» أيضاً[١]: «قال الأدفوي في «البدر السافر»: ونُوزِع مرة في النقل عن «الوسيط»، فقال: أتُنازِعونني؟ وقد طالعتُه أربعَ مئةِ مرة».

وقد توفي سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى، فكانت حياته ٤٥ سنة، وترك من المؤلفات الكثيرة العظيمة ما قسَّموه على أيام حياته، فكان لكل يوم فيها أربعةُ كراريس.

الطبيبُ ابنُ النفيس
إمامٌ في الطبِّ والفقهِ وحفظِ الوقت

ومن العلماء الكبار، والأطباءِ الأفذاذ النَّبَغَة الأخيار، الذين حافظوا على الوقتِ واللحظات، وتسجيل الأفكار والخَطَرات، في أغرب الأوقاتِ والساعات: شيخُ الطِّبِّ في عصره ابنُ النفيس الدمشقي ثم المصري الشافعي.

جاء في ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي[٢] وفي «روضات الجنات» للخوانساري[٣] نقلاً عن «الوافي بالوَفَيَات» لصلاح الدين الصفدي، ما أقطِف منه ما يلي:

«الإمامُ الفاضلُ الحكيم العلامة علاءُ الدين ابنُ النفيس علي بنُ أبي حَزْم القَرْشي ــ نسبة إلى بلدة قَرْش من بلاد ما وراء النهر ـ المولود بدمشق في حدود سنة ٦١٠، والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٧ رحمه الله تعالى.

---

(١) ص ٤٣.

(٢) ٨: ٣٠٥.

(٣) ٥: ٢٩٠ ــ ٢٩٣ بزيادة يسيرة.

كـان إمـامـاً فـي علـم الطـب، أوحَـدَ، لا يُضـاهَـى فـي ذلـك ولا يُـدانـى استحضاراً ولا استنباطاً، وله في الطب التصانيف الفائقة، والتواليفُ الرائقة.

صنَّف كتاب «الشامل» في الطب، وتدُلُّ فهرسةُ هذا الكتاب على أنه يكون في ثلاثِ مئة سِفر، ذَكَر ذلك بعضُ أصحابه، وبيَّض منها ثمانين سِفراً.

وألَّف كتاب «المهذَّب في الكُحل»، و «شَرْحَ القانون لابن سينا» في عِدَّةِ أسفار، وغيرَ ذلك في الطب[1].

وله معرفة بالمنطق، وصنَّف فيه مختصراً، وشَرَحَ كتاب «الهداية» لابن سينا في المنطق، وصنَّف أيضاً في أصول الفقه، والفقه، والعربية، والحديث، وعلم البيان، وغير ذلك، وشَرَحَ من أول «التنبيه» لأبـي إسحاق الشيرازي في فروع الشافعية، من أوله إلى (باب السهو)، شرحاً حسناً، وكان قد تولَّى تدريس الفقه في المدرسة المسرورية بالقاهرة.

وبالجملة: كان مشاركاً في فنون، وأما الطب فلم يكن على وَجْهِ الأرض مثلُهُ، قيل: ولا جاء بعدَ ابن سينا مثلُه، قالوا: وكان في العلاج أعظمَ من ابنِ سِيْنَا.

وكان يملي تصانيفه من ذهنه، قال الإمام برهان الدين إبراهيم الرشيدي: كان العلاء بن النفيس، إذا أراد التصنيف، تُوضَعُ له الأقلامُ مَبْرِيَّةً، ويُديرُ وجهَهُ

---

(١) انظر أسماء كتبه ومؤلفاته، ومواضعَ الموجود منها، في ص ١٤١ ــ ١٤٨ من كتاب: «ابن النفيس طليعة العهد العلمي في الطب»، تأليف الدكتور بول غليونجي، طبعته وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، بمطبعة حكومة الكويت دون تاريخ. وانظر لكشفِ ابن النفيس (الدورة الدموية): كتابَ «الطبيبُ العربـي: ابنُ النفيس» للدكتور سَلْمان قَطَاية رحمه الله، ضمن سلسلةٍ عنوانُها: «أعلام الطب العربـي»، والكتاب المذكور هو أول السلسلة، نشرَتْهُ المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت سنة ١٩٨٤.

إلى الحائط، ويأخُذُ في التصنيف إملاءً من خاطِرِه، ويكتُبُ مثلَ السَّيْل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلمُ وحَفِي، رَمَى به وتناوَلَ غيره، لئلا يضيعَ عليه الزمانُ في بَرْي القلم. وكان يكتب ـ إذا صَنَّف ـ من صدره، من غير مراجعةِ حالة التصنيف.

مسامرةُ ابن النفيس بالعلم
مع ابن واصِل حتى الفجر

وقال السَّديدُ الدمياطيُّ الحكيمُ بالقاهرة، وكان من تلاميذه: اجتمع ليلةً هو والقاضي جمالُ الدين بنُ واصل، وأنا نائمٌ عندهما، فلما فَرَغَا من صلاةِ العشاءِ الآخرةِ، شَرَعَا في البحثِ، وانتقلا من علم إلى علم، والشيخُ علاء الدين في كل ذلك يَبحَثُ برياضةٍ ودُون انزعاج، وأما القاضي جمال الدين فإنه كان ينزعجُ، ويعلو صوتُه، وتحمَرُّ عيناه، وتنتفخُ عُروقُ رقبتِه، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفرَ الصبح.

فلما انفصل الحال، قال القاضي جمالُ الدين: يا شيخ علاء الدين، أما نحن فعندنا مسائلُ ونُكتٌ وقواعد، أمَّا أنت فعندك خزائنُ علوم.

تسجيلُ ابن النفيس
بعضَ مباحثِ الطب أثناءَ استحمامه

وقال آخر: دخل الشيخ علاءُ الدين مرةً إلى الحمَّام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيلِهِ خَرَجَ إلى مَسْلَخ الحَمَّام ــ مَوضع نَزْع الثياب وخَلْعِها ــ واستَدعَى بدواة وقلم وورق، وأخَذَ في تصنيف مقالةٍ في النَّبْض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودَخَل الحمَّام وكمَّل تغسيله.

وكان ذا مروءة، وكان لا يحجُبُ نفسَه عن الإفادة ليلاً ولا نهاراً، وكان

يَحضر مجلسه في داره جماعةٌ من الأمراء، ومهذَّبُ الدين بن أبـي حُلَيْقة رئيسُ الأطبـاء، وشـرفُ الـديـن بـن صغيـر، وأكـابـرُ الأطبـاء، ويجلـس النـاسُ علـى طبقاتهم. وعليه وعلى عماد الدين النابلسي تخرَّجَ الأطباء بمصر والقاهرة، وكان قد ابتَنَى فيها داراً، وفَرَشها بالرُّخام حتى إيوانها.

وفي عِلَّتِه التي توفِي فيها، أشار عليه بعضُ أصدقائه الأطباء، بتناولِ شيء من الخمر، إذْ كانت عِلَّتُه تُناسبُ أن يَتَداوَى بها على ما زَعموا، فَأَبـى أن يتناوَلَ شيئاً من ذلك، وقال: لا أَلْقَى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر. ولم يكن متزوِّجاً. توفي عن نحو ثمانين سنة، وخلَّفَ مالاً جزيلاً، ووقَفَ دارَه هذه، وكتبَه، وأموالَه على البِيْمَارِسْتَان المنصوري[١]. وبالجملة: كان إماماً عظيماً، وكان كثيرٌ من الأفاضل يقولون: هو ابنُ سِيْنا الثاني». انتهى.

ابنُ النفيس كاشفُ الدورةِ الدمويةِ قبلَ سبعة قرون

قـال عبـد الفتاح: ولا تَنْسَ أنَّ ابـنَ النفيس هـو كاشفُ (الدورة الدموية) في البـدن، منذ أكثر من سبعة قرون، ذلك الكشفُ العظيـمُ الهائل في عالَـم الطب.

وكان مع هذا الفضل العظيم والنبوغ الباهر في الطب وغيره، يَتَواضعُ فَيَصِفُ نفسَه في إجازاتِه للمستفيدين والمتخرِّجين به، باسم (المُتَطَبِّب)، وهو إمامُ الطِّبِّ والأطباء في عصره، كما تراه في نموذج من خطه الجميل، المصوَّر في ترجمته في كتاب «الأعلام» للزركلي[٢].

(١) لفظ (بيمارستان) مركَّب من كلمتين فارسيتين: (بيمار) بمعنى (مريض)، و (ستان) بمعنى محل أو دار، ومعناه: دارُ المرضى، ويقال له الآن: المستشفى.

(٢) ٤ : ٢٧١ الطبعة الخامسة.

الفقيهُ ابنُ الرِّفعة لا ينفك عن المطالعة مع طولِ مرضِهِ وشدةِ آلامه

جاء في «البدر الطالع» للشوكاني[١]، في ترجمة الإمام ابن الرِّفْعَة: أحمد بن محمد بن علي المصري، الفقيه، شافعِيِّ زمانه، المولود سنة ٦٤٥، والمتوفى سنة ٧١٠ رحمه الله تعالى: «كان مُكِبًّا على الاشتغال، حتى عَرَض له وجَعُ المفاصل، بحيثُ كان الثوبُ إذا لَمَس جسمَه آلَمَهُ، ومع ذلك لا يخلو من كتابٍ معه يَنظرُ إليه، وربما انكبَّ على وجهه وهو يطالع».

الشيخ ابن تيمية تَرَكَ تآليف لا يمكنُ حصرُها، بكسب الوقت

وأعجبُ من ذلك حالُ شيخ الإسلام ابن تيمية أبي العباس أحمد بن عبد الحليم الحَرَّاني الدمشقي الحنبلي، المولود سنة ٦٦١، والمتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى، عن ٦٧ سنة وعن نحوِ خمسِ مئةِ مجلَّدٍ تأليفاً، كان لا يُمكنُ أن يُفوِّتَ من وقتِهِ ساعةً دون تعليم أو تأليفٍ أو عبادة، حتى بلغَتْ مؤلفاتُهُ المئات، بل لم يُمكن حصرُها للمتتبعين حتى ولا للشيخ نفسِهِ رحمه الله.

جاء في ترجمته عند ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات»[٢]: «إن تصانيفه تبلغ ثلاث مئة مجلد، قال الذهبي: وما يَبعُدُ أن تصانيفه إلى الآن تبلغُ خمس مئة مجلد». انتهى.

وقد أَلَّف تلميذه الإمام ابن القيم في أسماء كتبه رسالةً، بلغت صفحاتها

---

(١) ١: ١١٧.

(٢) ١: ٣٨ ـ ٤٢.

٢٢ صفحة، وذكر فيها ما يقارب **٣٥٠** مؤلف، بين كتاب كبير ورسالة وقاعدة[١].

وقال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «الوابل الصَّيِّب من الكَلِم الطيِّب»[٢]: «الحادية والستون من فوائد الذكر: أنه يُعطي الذاكرَ قُوَّةً حتى إنه ليفعلُ مع الذكر ما لم يُظَنَّ فِعلُهُ بدونه.

وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية، في سَنَنِهِ، وكلامه، وإقدامِهِ، وكتابتِهِ: أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمعةٍ وأكثر، . . . ». انتهى.

والصحيح في عدد تآليف الشيخ ابن تيمية، ما قاله الحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»[٣]: «وأما تصانيفه فقد امتلأت بها الأمصار، وجاوزت حد الكثرة، فلا يمكن لأحد حصرها». انتهى.

هذا أيها القارىء الكريم جهد إنسان واحد من العلماء حفظ وقته، قال العارفون به: لا يمكن حَصْرُ مؤلفاته، وهو كذلك.

الشيخ ابن تيمية يُطالع ويُقرِّرُ العلمَ حالَ مرضه وسفره

قلت: وسبَبُ هذا الثَّرَاءِ العجِيب في التآليف، أن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى، كان لا يَنفَكُّ عن المطالعةِ والكلامِ في العلمِ وتقريرِهِ، في حال

---

(١) وطُبِعَتْ هذه الرسالة بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، في المجمع العلمي بدمشق سنة ١٣٨٠، ثم طبعها الدكتور في بيروت أكثر من مرة.

(٢) ص ١٠٨.

(٣) ٢: ٤٠٣.

حضرِهِ وسفرِهِ وصحتِهِ ومرضِهِ، قال تلميذه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، في كتابه «روضة المحبين»[1]:

«وحدثني شيخُنا ــ ابنُ تيمية ــ قال: ابتدأَني مَرَضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ، فقلت له: لا أصبرُ على ذلك، وأنا أُحاكِمُك إلى علمِك، أليست النَّفْسُ إذا فرِحَتْ وسُرَّتْ قَوِيَتْ الطَّبيعةُ، فَدَفَعَتْ المَرَض، فقال: بلى، فقلتُ له: فإنَّ نفسِي تُسَرُّ بالعلم، فتقوَى به الطبيعةُ، فأجِدُ راحةً، فقال: هذا خارجٌ عن عِلاجنا».

الحافظ المُعمَّر ابن الشِّحْنة الحَجَّار يُقرأ عليه قبل موته بقليل وهو ابن مئة سنة

قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»[2]: «الحافظ شهاب الدِّين أبو العباس أحمد بن أبـي طالب، المشهور بابن الشِّحْنَة الحَجَّار الدمشقي الصالحي الحنفي، ولد في حدود سنة ٦٢٢، وعُمِّر أكثر من مئة سنة، حتى ألحَقَ الأحفادَ بالأجداد، وحدَّث بالصحيح أكثرَ من سبعين مرة[3] بدمشق وغيرِها.

وانتخَبَ عليه الحفاظ ورحلوا إليه من البلاد وتزاحموا عليه، وقد صام رمضان وهو ابنُ مِئةِ سنة وأتبعَهُ ستاً من شوال، شَرَع محبُّ الدين بنُ المحب في قراءة الصحيح عليه قبلَ موتِهِ بيوم، ثم قرأ عليه الميعادَ الثاني في يوم وفاتِهِ إلى الضحى، فمات قُبَيلَ الظهر سنة ٧٣٠ رحمه الله تعالى».

---

(١) ص ٧٠.

(٢) ١: ١٤٢ ــ ١٤٣.

(٣) كذا جاء في «الدرر»، وتعليق العلامة الكوثري على «لحظ الألحاظ» ص ١٣٥، وجاء في «معجم الشيوخ» للذهبي ١: ١١٨ ــ ١١٩ و «البداية والنهاية» لابن كثير ١٨: ٣٢٧: «أكثر من ستين مرة» وأُراه الصواب.

حفيدة سلطان العلماء
يُقرأ عليها الحديثُ يومَ موتها

قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»[(١)]، في ترجمة العالمة المحدِّثة الراوية المعمَّرة زينب بنت يحيى السُّلَميَّة، المولودة سنة ٦٤٨، والمتوفاة سنة ٧٣٥ رحمها الله تعالى، ما يلي:

«زينب بنت يحيى ابن الشيخ عِزّ الدِّين بن عبد السَّلام السُّلمي ـ سلطان العلماء ـ، وُلِدَتْ في سنة ٦٤٨، وأجاز لها في سنة ٦٥٠ سِبطُ السِّلفي ـ عبد الرحمن بن مكي الإسكندراني المتوفى سنة ٦٦١ ـ، وحضرَتْ في الخامسةِ على عثمان ابن خطيب القَرافَة، وعمر بن عَوَّة، وإبراهيم بن خليل، وغيرهم. وتفرَّدتْ برواية «المعجم الصغير» للطبراني بالسماع المتصل.

قال الذهبي: كان فيها خيرٌ وعبادةٌ وحُبٌ للرواية، بحيث إنه قُرِىءَ عليها يومَ موتها عِدَّةُ أجزاء». رحمها الله رحمةً واسعة.

الشمسُ الأصبهاني يُقلِّلُ طعامَهُ
لئلا يَضيع الزمانُ بدخوله وخروجه

وجاء في «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر، و «البدر الطالع» للشوكاني[(٢)]، في ترجمة الإمام العلامة شَمْس الدين أبي الثناء الأصبهاني (محمود بن عبد الرحمن بن أحمد)، الشافعي الأصولي الفقيه المفسِّر، المولود بأصبهان سنة ٦٧٤، والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٩ رحمه الله تعالى[(٣)]، ما يلي:

---

(١) ٢: ٢٥٤. ترجم لها الصفدي في «الوافي بالوفيات» ١٥: ٦٨، وترجم لها الاستاذ عمر كَحَّالَة في «أعلام النساء» ٢: ١٢٢، ترجمة مطولة.

(٢) «الدرر الكامنة» ٦: ٨٥، و «البدر الطالع» ٢: ٢٩٨.

(٣) ووقع في «البدر الطالع» للشوكاني قَلْبٌ في تأريخ وفاته، فأرَّخه بقوله: «ومات =

«اشتغل في بلاده، ومَهَر وتقدَّم في الفنون، وقدِمَ دمشق بعد زيارة القدس في صفر سنة ٧٢٥، فبَهَرَتْ أهلَها فضائلُه، وسَمِعَ كلامَهُ الشيخُ تقيُّ الدين ابنُ تيمية، فبالَغَ في تعظِيمه، قال مرةً: اسكتوا حتى نَسمَعَ كلامَ هذا الفاضلِ الذي ما دَخَل البلادَ مِثلُه. ثم انتقل إلى القاهرة، وفيها توفي.

ومما يُحكَى عنه من حِرصِهِ على العلم وشُحِّهِ بضَيَاع أوقاتِهِ، أنَّ بعض أصحابه كان يَذكُرُ أنه كان يمتنع كثيراً من الأكل، لئلا يَحتاجَ إلى الشُّرب، فَيحتاجَ إلى دخول الخلاء، فيَضِيعَ عليه الزمان». انتهى. فانظر إلى غلاء الوقت عند هذا الإمام الجليل، وما غلاءُ الوقت عنده إلاَّ من غلاءِ العلم، فللَّه دَرُّهُ ما أبصَرَه.

شدةُ انهماك ابن رجب في الاشتغال بالعلم

جاء في «ذيل يوسف بن عبد الهادي الحنبلي على طبقات ابن رجب»[1]، في ترجمة الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي (عبد الرحمن بن أحمد بن رجب)

= سنة ٧٩٤ أربعٍ وتسعين وسبع مئة بالطاعون العام». انتهى. وهو خطأ صِرْف، وصوابُهُ كما أثبته (سنةَ ٧٤٩)، كما أَرَّخَهُ غيرُ واحد، ومنهم التاج السبكي تلميذُهُ في «الطبقات الكبرى» ١٠: ٣٨٤.

قال صاحبُ كتاب «روضات الجَنَّات» فيه ٨: ١٢٨، في ترجمته: «ومرادُهم (بالأصبهاني) عند الإطلاق في كتب الحكماء والأصوليين من المتأخرين، هو هذا الرجل، وإن كان قد يطلق على جماعة أخرى، وعلى لَقِيبِ هذا الرجل: شمس الدين مُحَمَّد بن محمود بن محمد بن عبد الكافي، الأصوليّ الأصبهانيّ الشارح لمحصول فخر الدين الرازي، ولد بأصبهان سنة ٦١٦، ومات بالقاهرة سنة ٦٧٨». انتهى.

قلت: وهذا العالمُ الأصبهاني (محمَّد بن محمود) هو صاحبُ «العقيدة الأصفهانية»، التي شرحها الإمام الشيخ ابن تيمية رحمهما الله تعالى، وطُبِعَتْ في آخر المجلد الخامس من «الفتاوى الكبرى» له في ١٥١ صفحة.

(١) ص ٣٧ و ٣٩.

البغدادي ثم الدمشقي، المولود سنة ٧٣٦، والمتوفى سنة ٧٩٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«وكان لا يعرف شيئاً من أمور الدنيا، فارغاً من الرياسة، ليس له شُغل إلا الاشتغالَ بالعلم، حدثنا شيخنا شهاب الدين بن زيد: أنَّ زوجَته مرَّةً دَخَلَتْ الحمَّامَ، وتزيَّنَتْ، ثم جاءَتْهُ فلم يَلتفت إليها، فقالت: ما يُريد الواحدُ منكم إلاَّ مَنْ يَتركُهُ مِثلَ الكلب!! وقامَتْ وتركَتْهُ». انتهى.

قلت: ولا أظنُّ إلاَّ أنه كان مُستغرَقاً في مُتعةِ العلم والمراجعةِ والبحث، فلم يَلتفت إلى متعةٍ سواها، ولم يُغْرِهِ التزيُّنُ وطِيبُ الحمَّام، ولم يُبال بسِهام المَلام، وقَوَارص الكلام، رحمه الله تعالى.

وفي ذلك قيل:

تغــارُ مــن الكتــاب إذا رأتنــي ... أطــالِعُــه وأتــركُ وَجْنَتَيْهــا

وقيل:

سهـري لتنقيـح العلـومِ ألـذُّ لـي ... مـن وصل غانيـةٍ وطيب عنـاقِ[١]

الحافظ ابن حجر وحرصه على الوقت

وتجتمع في حياة الإمام الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني المولود سنة ٧٧٣، والمتوفى سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى، كثير من الخصال التي أوردتها في أساليب المحافظة على الوقت، يقول تلميذه الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى»[٢]: «إنّما كانت همَّتُه المطالعة والقراءة، والسماع، والعبادة،

---

(١) وانظر في معنى ذلك «العلماء العزاب» ص ٢٠ ت، أو «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» ص ٢٥٦ ت. س.

(٢) «الجواهر والدرر» ١: ١٧٠ ـــ ١٧١. والنص من إضافة العبد سلمان.

والتصنيف، والإفادة، بحيث لم يكن يُخْلي لحظةً من أوقاته عن شيء من ذلك، حتى في حال أكله وتوجهه وهو سالك، كما حكى لي ذلك بعض رفقته الذين كانوا معه في رحلته. **وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه**».

وقال البقاعي عنه في «عنوان الزمان»[1]: «وهو كثير الصوم، قليل الأكل جداً...».

«وقد سمعته رحمه الله يقول غير مرة: إنني لأتعجب ممن يجلس خالياً عن الاشتغال.

ويدل على مصداق قوله، ما أخبرني به بعض أصحابنا، أنه شاهده يوماً بالمدرسة الصالحية النجمية [التي أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب وتتكون من أربع مدارس واحدة لكل مذهب]، وهو جالس في بعض بيوتها، ولم يكن عنده إذ ذاك شيء من الكتب، فاستدعى مِنْ بعض مَنْ حضره مصحفاً، فبادر لذلك، فأخذ في التلاوة منه، فمرَّ على سورة أخطأ الكاتب في عدِّ آيها، فكتب مقابلها بالهامش: الصواب كذا، أو: بل عدتها كذا. فلم يسهل به رضي الله عنه أن يجلس بطّالاً، ولم يخلِ المصحف مع ذلك من فائدة، وهكذا كان دأبه في غالب ما يقف عليه من الكتب العلمية والأدبية وغيرها.

ومما يدلُّ على عدم تضييع وقته بدون عبادة: أنه توجه مرة للمدرسة المحمودية فلم يجد مفتاحها، كان قد سها عنه بمنزله، فَأَمَرَ بإحضار نَجّار، وشَرَعَ هُوَ في الصلاة إلى أن انتهى النجار من فتح الباب. وقيل له: لو أرسلت أحضرت المفتاح مِنَ البيت كان أقلَّ كلفة؟ فقال: هذا أسرع، ويحصل الانتفاع بالمفتاح الثاني.

---

(١) ١: ٤٧

وتـوجـه مـرة هـو وصهـره القـاضـي محـب الـديـن ابـن الأشقـر فـي السَّماسـم بالخانقـاه، فأخـرج مـن جيبـه مصحفـاً حمائليـاً، وشرع في التلاوة فيـه.

وكان رحمـه الله إذا جلس مـع الجماعـة بعـد العشاء وغيرهـا للمذاكـرة تكـون السُّبْحَـة داخـل كمِّـه بحيـث لا يـراهـا أَحَـدٌ، ويَسْتَمِـرُّ يُـديـرهـا وهـو يُسَبِّح أو يذكُر غالب جلوسـه. وربما تسقـط من كمِّـه، فيتأثـر لذلك رغبـة في إخفائه.

وكان حين يُصَلِّي الشيخ غرس الدِّين خليل الحسيني بجانبه التراويح؛ يستخبر منه عن المتشابه في القرآن، حتى لا يخلو جلوسه بين الترويحتين من فائدة». انتهى.

العلاَّمة ابن الضِّياء وعظيم رغبته في العلم

وهذا العلامة أبو البقاء محمد بن أحمد ابن الضِّياء القُرشي العُمَري المولود سنة ٧٨٩ والمتوفى سنة ٨٥٤ بمكة المكرمة رحمه الله تعالى، يقول عنه السخاوي في «الضوء اللامع»[١] قال: «كان إماماً علامة متقدِّماً في الفقه والأصلين (أصول الدين والفقه) والعربية، مُشاركاً في فنون، حَسنَ الكتابةِ والتَّقْيِيدِ، عظيمَ الرغبةِ في المطالعةِ والانتقاءِ، بحيثُ بلغني عن أبـي الخير ابن عبد القوي أنه قال: أعرفه أزيدَ من خمسينَ سنةٍ، وما دخلتُ إليه قَطُّ إلاَّ ووجدته يطالعُ أو يكتبُ». انتهى.

---

(١) ٧: ٨٥. والنص من إضافة العبد سلمان، وقد استفاده من مقدمة تلميذ والده نرجس البحرين (جزيرة أُوَال) الشيخ نظام يعقوبـي لكتاب «مختصر تنزيه المسجد الحرام عن بدعِ الجهلةِ العوام».

الحافظ الإمام العلامة السيوطي
الملقَّبُ بابن الكتب وحفاظه على وقته[١]

وهذا الحافظ المتفنن السيوطي المولود سنة ٨٤٩، والمتوفى سنة ٩١١ يعتزل الناس في الأربعين وينصرف للعلم والتأليف، ولا يفتح لكائن من كان أيّاً كان شأنه.

جاء في ترجمته في «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» لعبد القادر العيدروسي[٢]:

«وفي يوم الجمعةِ وقت العصر ١٩ جُمادى الأولى سنة ٩١١: توفي الشيخ العلامة الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدِّين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن خِضْر بن أيوب بن محمد ابن الشيخ الهمام الخُضَيْري السيوطي المصري الشافعي، وصُلِّي عليه بجامع الأفاريقي تحت القلعة، ودفن بشرقي باب القَرَافة.

وكان مولده بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩ بالقاهرة، وكان يلقب بابن الكتب لأن أباه كان من أهل العلم واحتاج إلى مطالعة كتاب، فأمر أمه أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه، فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعته.

ثم سماه والده بعد الأسبوع عبد الرحمن، ولقبه جلال الدين، وكناه شيخه قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني لما عُرِض عليه وقال له: ما كنيتك؟ فقال: لا كنية لي. فقال: أبو الفضل، وكتبه بخطه».

---

(١) هذا الخبر أضفته بإشارة الوالد رحمه الله. سلمان.

(٢) ص ٥١.

وقال فيه نجم الدِّين الغَزِّي في «الكواكبُ السائرة بأعيان المئة العاشرة»[١]: «وكان في سرعةِ الكتابةِ والتأليفِ آيةً كبرى من آياتِ الله تعالى، قال تلميذُه الشمسُ الدَّاوودي: عاينتُ الشيخَ وقد كتب في يومٍ واحدٍ ثلاثةَ كراريسٍ تأليفاً وتحريراً، وكان مع ذلك يُملي الحديثَ ويجيبُ عن المتعارضِ منه بأجوبةٍ حسنةٍ، وكان أعلمَ أهلَ زمانِه بعلمِ الحديثِ وفنونِ ورجالِهِ وغريبِهِ واستنباطِ الأحكامِ منهُ، وأخبرَ عن نفسِهِ أنه يحفظُ مئتي ألفِ حديثٍ قال: ولو وجدتُ أكثرَ لحفظتُه. قال: ولعلَّهُ لا يُوجد على وجهِ الأرضِ الآنَ أكثرَ من ذلك.

ولمَّا بَلَغَ أربعينَ سنةً من عُمُرِه أخذَ في التجرُّدِ للعبادةِ والانقطاع إلى الله تعالى، والاشتغال به صِرْفاً والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنّه لم يعرفْ أحداً منهم، وشَرعَ في تحرير مؤلفاته وتَرْكِ الإفتاءِ والتدريسِ واعتذر عن ذلك في مؤلَّفٍ ألَّفه في ذلك وسمَّاه بـ «التَّنْفِيس»، وأقام في روضةِ المقياس فلم يتحول منها إلى أن ماتَ لم يفتح طاقاتِ بيتِه التي على النِّيلِ من سُكْنَاه، وكان الأمراءُ والأغنياءُ يأتون إلى زيارتِهِ، ويَعْرِضونَ عليه الأموالَ النفيسةَ فيرُدَّها، وأهدى إليه الغُوريُّ خَصِيّاً وألفَ دينارٍ فردَّ الألفَ وأخذ الخَصِيَّ فأعتقَهُ وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقال لقاصد السلطان: لا تَعُدْ تأتينا قطُّ بهديةٍ، فَإنَّ الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك.

وكان لا يتردَّدُ إلى السلطانِ ولا إلى غيره، وطلبَه مِرَاراً فلم يحضُر إليه، وقيل له: إنَّ بعضَ الأولياءِ كان يتردَّدُ إلى الملوكِ والأمراءِ في حوائج الناس، فقال: اتِّباعُ السَّلَف في عدمِ ترددهم أسلمُ لدينِ المُسْلِمِ، وألَّف كتاباً سماه: «ما رواه الأساطين، في عدمِ التردد إلى السلاطين» . . . ».

---

(١) ١: ٢٢٨

وجاء في «النور السافر»[١] في ترجمة الحافظ العلامة أحمد بن محمد القَسْطَلاَّني: «ويُحكى أنَّ الحافظَ السيوطيَّ كان يَغُضُّ منهُ، ويزعُمُ أنه يأخذُ من كُتُبِهِ ويستَمِدُّ مِنْها ولا ينسُبُ النقلَ إليها، وأنّه ادعى عليه بذلك بين يدي شيخِ الإسلام زكريا، فألزمه ببيان مُدَّعَاهُ فعدَّدَ عليهِ مواضعَ قال: إنَّه نَقَلَ فيها عن البيهقي وقال: إنَّ للبيهقي عدةَ مؤلفاتٍ فليذْكُر لنا ما ذَكَرَ في أيِّ مؤلفاتِه، ليُعلمَ أنَّه نَقَل عن البيهقي، ولكنَّهُ رَأَى في مؤلفاتي ذلك النَّقلَ عن البيهقي فَنَقَلَهُ برُمَّتِهِ، وكان الواجبُ عليه أن يقول: نَقَل السيوطيُّ عن البيهقي.

وحكى الشيخ جارُ اللهِ بنُ فهدٍ رحمه الله أن الشيخ رحمه الله تعالى قصد إزالةَ ما في خاطرِ الجلالِ السيوطي، فمشى من القاهرة إلى الروضة، وكان الجلالُ السيوطيُّ معتزِلاً عن الناس بالروضةِ، فوصلَ صاحبُ الترجمة إلى بابِ السيوطي ودَقَّ البابَ. فقَالَ له: مَنْ أنت؟ فقال: أنا القَسْطَلاَّنِي جِئْتُ إليكَ حافياً مكشوفَ الرأسِ ليَطيبَ خاطِرُكَ عليَّ، فقال له: قَدْ طَابَ خاطِرِي عليكَ، ولم يفتح له الباب ولم يقابله». انتهى.

فانظر غلاء العلم لديه، وانصرافه إليه!

إبراهيم الحلبي لا يُرَى إلاَّ مشتغلاً بالعلم[٢]

جاء في «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لطاشكبري زاده[٣]، و«الطبقات السنية في تراجم الحنفية» للتميمي[٤]، في ترجمة الإمام الفقيه الحبر البحر إبراهيم بن محمد الحلبي ثم القسطنطيني، المتوفى سنة ٩٥٦، ما يلي:

---

(١) ص ١٠٧.
(٢) أضفته بإشارة من الوالد رحمه الله. س.
(٣) ص ٢٩٥ و ٢٩٦.
(٤) ١: ٢٢٢.

«كان ورعاً تقيّاً نقيّاً زاهداً متورعاً عابداً ناسكاً، وكان يُقرىء الطلبة، وانتفع به كثيرون، وكان ملازماً لبيته مشتغلاً بالعلم، ولا يراه أحد إلاَّ في بيته أو في المسجد، وإذا مشى في الطريق يغض بصره عن الناس، ولم يسمع منه أحد أنه ذكر واحداً من الناس بسوء، ولم يتلذذ بشيء من الدنيا إلاَّ بالعلم والعبادة والتصنيف والكتابة». انتهى.

أميرٌ يصنِّف وهو في ميادين القتال

وهذا الحسين ابن الإمام القاسم بن محمد بن علي، الأمير المولود سنة ٩٩٩، والمتوفى سنة ١٠٥٠ رحمه الله تعالى. من فقهاء الزيدية في اليمن. له تصانيف كثيرة، منها: «غاية السول في علم الأصول»، وشَرْحه «هداية العقول»، و«آداب العالم والمتعلم». كان يصنِّفُ كتبه وهو يقود الجيوش ويَشُنُّ الغارات[١].

الشوكاني بلغتْ دروسُه
في اليوم والليلة نحوَ ثلاثة عشر درساً

وقال العلامة القاضي الشَّوكاني (محمد بن علي)، المفسِّر المحدِّث الفقيه الأصولي المشهور ذو التصانيف، المولود سنة ١١٧٣ ببلدة شَوكان في اليمن، والمتوفى سنة ١٢٥٠ رحمه الله تعالى، في ترجمته لنفسه في كتابه «البدر الطالع»[٢] متحدِّثاً عن حالِه ونشأتِه بصيغةِ الخبر عن الغائب تواضعاً منه:

«وكان تَبلُغُ دروسُه في اليوم والليلة إلى نحو ثلاثة عشر درساً،

---

(١) «الأعلام» للزركلي ٢: ٢٥٢. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٢) ٢: ٢١٨.

منها ما يأخذه عن مشايخِهِ، ومنها ما يأخذه عنه تلامذتُهُ، واستمرَّ على ذلك مدة. ثم إنه فرَّغ نَفْسَه ــ من التلقي عن شيوخه ــ لإفادة الطلبة، فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادةً على عشرة دروس، في فنون متعددة، واجتمع منها في بعض الأوقات: التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض». انتهى.

وقد كان من زمنِ قراءتِهِ على الشيوخِ وإقرائِهِ لتلامذته: قائماً بالإفتاء للمستفتين من أهل صنعاء وغيرها نحوَ عشرين سنة، ثم وَلِيَ قضاءَ صنعاءَ في سنة ١٢٢٩، إلى وفاته ٢١ سنة، ومات رحمه الله تعالى وله ١١٤ مؤلَّف، سَمَّى هو كثيراً منها في ترجمته.

الإمام محمد عابد السندي يؤلِّف وينسخ في سفره

وهذا الإمام المحدث الفقيه محمد عابد السندي الأنصاري المولود سنة ١١٩٠ تقريباً والمتوفى سنة ١٢٥٧ رحمه الله تعالى، اتفق له ترتيب «مسند الإمام الشافعي» واختصاره وتهذيبه في طريق السفر، أوقات نزوله للراحة والاستقاء، فقد قال في ختام كتابه «ترتيب مسند الإمام الشَّافعي»: «وكان الشروع في جمعه في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٩ بعد ما ركبت في ساعيةٍ لسفر الحج، وكان تمامه والفراغ منه بعد العصر، يوم الخميس، ليلة عشرين من ربيع الأوَّل سنة ١٢٣٠، وذلك عند رجوعي من أرض الحرمين في مسجد القنفذة وجامعها. وما كان يمكنني كتابته إلَّا في السواقي والمنازل[1]، وما هذا إلَّا نعمة من الله تعالى، حيث شغلني بالسُّنَّة النبويَّة على صاحبها أفضل الصَّلاة وأكمل التحية في أوقات لا تسمح لمثل هذا العمل...».

كما اتفق له نسخ نصف «لسان الميزان» وهو في طريقه من المدينة للعمرة،

---

(١) السواقي حيث يقف المسافرون في طريق السفر لاستقاء الماء، والمنازل هي أماكن استراحتهم بعد قطعهم مراحل معينة من السفر.

وقد جاوز الستين، فقد جاء في نهاية الجزء الأول بخط يده المحفوظ بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنوَّرة على ساكنها أزكى الصَّلاة والتسليم: «تمَّ الجزء الأول في ٢٨ شعبان سنة ١٢٥١، ونحن نازلون بمستورة شادون إلى رابغ للاعتمار في رمضان إن شاء الله تعالى، ويتلوه الجزء الثاني...».

ومعلوم كيف كان حال السفر في تلك الأزمان وحال رواحلهم ومنازلهم، فلولا رؤيته أنَّ الاشتغال بنسخ الكتب وتأليفها مِن أعظم العبادات، لما ملأ به وقت راحته في السفر[١].

العلامة عبد الله باعلوي ينهمك في المطالعة ليلة عرسه ولا يلتفت إلى عروسه[٢]

قال العلامة محمد أحمد عمر الشاطري في رسالة أرسلها إلى الوالد رحمهما الله تعالى عقب قراءته لهذا الكتاب في طبعته الخامسة: «وتذكرتُ ما وقع للعلامة المفتي الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي المتوفى بحضرموت سنة ١٢٦٥. وقد زُفّت إليه زوجته، ولمّا دخل غرفة الزفاف وجد عندها بعض الماشطات، وذلك أثناء الليل، فتناول كتاب «الإرشاد» للشيخ إسماعيل بن المقري اليمني الشافعي المتوفى سنة ٨٣٧، وخرجت الماشطات، ولكنه استغرق في مطالعة ذلك الكتاب عدة ساعات إلى أذان الفجر، والعروسة مسندة، ولم يلتفت إليها طوال تلك المدة لانشغاله بالعلم الذي هو أهم عنده من العروس، ولله درُّ الزمخشري حيث يقول:

---

(١) من كتاب الشيخ الكريم سائد بكداش «الإمام الفقيه المحدث الشيخ محمد عابد السندي الأنصاري رئيس علماء المدينة المنوَّرة في عصره» ص ٢١١ ــ ٢١٣، وهو الذي دلَّني على النصّ.

(٢) الخبر من إضافتي. سلمان.

سهـري لتنقيـح العلـوم ألـذُّ لـي ... مـن وصـل غـانيـةٍ وطيـبِ عنـاقِ
وألـذُّ مـن نقـر الفتـاة لـدُفِّهـا ... نَقْري لأُنْقِي التّرْبَ عـن أوراقي»[١] . اهـ

الآلُوسيُّ ألّفَ تفسيرَه بالليل
ويُدرِّس بالنهار ثلاثة عشر درساً

وكان الإمام المفسر الآلُوسي (أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلُوسِيّ) البغدادي، مفتي بغداد وخاتمة المفسرين، المولود سنة ١٢١٧، والمتوفى سنة ١٢٧٠ رحمه الله تعالى: «حريصاً على أن يَزيد عِلْمُهُ في كل لحظة، لا يَفْتُرُ عن اكتساب الفوائد، واقتناص الشوارد، فكان نهارُهُ للإفتاء والتدريس، وأوَّلُ ليلِهِ لمنادمةِ مستفيدٍ أو جليس، ويكتُبُ بأواخر الليل ورقات ــ من «تفسيره» ــ، فيُعطيها صباحَ اليوم التاليْ للكُتَّابِ الذين وظَّفهم في داره، فلا يُكمِّلُونها تبييضاً إلاَّ في عشرِ ساعات.

وكان يُدَرِّسُ في اليوم أربعةً وعشرين دَرْساً ــ كذا ــ، وكان أيامَ اشتغالِهِ «بالتفسير» والإفتاء يُدَرِّسُ في اليومِ ثلاثةَ عشر درساً في كتبٍ مطوَّلة، وكان يؤلِّفُ حتى في مرضِهِ الأخير»[٢].

و «تفسيرُهُ» أعجوبة فريدةٌ لدى العلماء من بين التفاسير، وكفاه به إمامة وفضلاً وعلماً، وقد ألَّفه في الليل كما علمتَ، وقد قيل:

---

(١) انظر هذه الأبيات المطربة الرفيعة في كتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، ص ١٣٩. وما علَّقه الوالد رحمه الله حول قائلها وناظمها. س.

(٢) من كتاب «الآلوسي مفسِّراً» للدكتور محسن عبد الحميد، ص ٤٣ و ٧٩ و ١٥٩، نقلاً عن كتاب «المسك الأذفر» لحفيد الإمام المفسِّر الآلوسي وسَمِيِّهِ محمود شكري الآلوسي، ص ٧ ــ ٨ و ١٩.

انْصَبْ نهاراً في طِلاب العُلا　　واصبِرْ على فقدِ لقاءِ الحبيبْ
حتى إذا الليل بدا مُقْبِلاً　　واكتحَلَتْ بالغمضِ عينُ الرقيبْ
فقابِلِ الليل بما تشتهي　　فإنّما الليلُ نهارُ الأريبِ[1]

وقيل:

ويَسْهَرُ في ذِكْرٍ وفِكْرٍ وفي عُلاَ　　ومَنْ بات صبّاً بالعُلاَ جَانَبَ الغَمْضَا

وقيل:

وليلُكَ شَطْرُ عُمرِكَ فاغتنمْهُ　　ولا تذهَبْ بنصف العمر نوما!

وقال الإمام الأديب أبو هلال العسكري:

وساهِرُ الليل في الحَاجَاتِ نائمُهُ　　ووَاهِبُ المالِ عندَ المَجْدِ كاسِبُهُ

وقال الفَقْعَسيُّ الحَمَاسِيُّ:

كأنك لمْ تُسْبَق من الدهرِ ليلةً　　إذا أنتَ أدركتَ الذي كنتَ تَطلُبُ

وقال الإمام عمر بن الوردي الحَلَبي:

إنما يَعرِف قَدْرَ العلمِ مَنْ　　سَهِرَتْ عيناهُ في تحصيلِهِ

وقال ابن نُباتَة السَّعْدِي:

أعاذِلَتي على إتعابِ نفسي　　ورَعْيِي في الدُّجَى رَوضَ السُّهادِ
إذا شامَ الفتى بَرْقَ المعالي　　فأهوَنُ فائتٍ طِيْبُ الرُّقَادِ

---

(١) الأبيات من «المُنْتَحل» المنسوب للثعالبي رحمه الله ص ١٩٠، وكان سيدي العلامة الوالد رحمه الله أثبت البيت الأخير، فأحببت إضافة البيتين الأوليين لجمالهما، مع إثبات البيت الأخير كما جاء في «المنتحل»، وكان الوالد رحمه الله أثبته: وبادر الليل. . . سلمان.

وقال غيرُه:

يَهْوَى الدَّياجِي إذا المغرورُ أغفلَهَا ... كأنَّ شُهْبَ الدَّياجي أعيُنٌ نُجْلُ

ولا غرابة إن كان اشتغال أهل العلم في الليل، فإن النهار لكونه مملوءاً بانتشار الهَمّ وتفرّق القلب بالشواغل والهُموم وتوزُّع الخواطر والتقلُّب في حوائج المعاش، صار الليل أعونَ على جمع الهم والخاطر والذهن، لأن الإنسان في الليل يفرغ من ضجيج الحياة وصَخَبها ونَوازِعها، فيصفو له الوقتُ والفكرُ والإبداع، ويكون أضمَّ لنشر الهم من النهار لحلول الهُدوء والسكينة فيه، فيكون الليلُ نهار الأريب، وقد كان كذلك عند علمائنا المتقدمين ومن سار بعدهم سيرهم.

عبدُ الحي اللَّكْنَوِي
مات عن ٣٩ سنة وجاوزت مؤلفاته ١١٠

ولا نبعد بعيداً، فهذا الإمام عبد الحي اللَّكْنَوِي الهندي المتوفى من نحو مئة وبضع عشرة سنة، عام ١٣٠٤ عن ٣٩ سنة من العمر، قد زادت مؤلفاته على مئة وعشرة كتب، ما بين كتاب في عدة مجلدات كبار ورسالة في صفحات، وكل كتبه في المباحث المفيدة والمشكلات العصيبة.

جمال الدين القاسمي يموت عن ٤٩ سنة تاركاً
أكثر من ١٠٠ مصنَّف لاستفادته من وقته وحرصه عليه

وهذا العلامة المفسر المحدث الفقيه الحبر الشيخ محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي الدمشقي، المولود سنة ١٢٨٣، والمتوفى سنة ١٣٣٢ عن ٤٩ سنة، حرص على وقته، واستثمره وتحلَّى بالهمة العالية، فأثمر ذلك أكثر من ١٠٠ مصنَّف بين كتاب ورسالة.

قال الأستاذ عاصم البيطار في ترجمته المدرجة في أول كتاب الشيخ القاسمي «الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين»[١]: «ترك الشيخ رحمه الله كتباً ورسائل تجاوزت المئة على صغر سنه وكثرة أعماله، فقد باشر التدريس وهو في الرابعة عشرة من عمره، ولم ينقطع عنه حتى اختاره الله إليه، وكان لتلاميذه الكثيرين مجالس مرتبة في المسجد والدار، في الليل والنهار، وهو على ذلك كله ألّف وصنّف، ولخّص ونسّق، واستفاد من كل دقيقة من وقته.

وقد تحسَّر مرة وهو واقف أمام مقهى امتلأ بأناس فارغين يُزْجُون الوقت في اللهو والتسلية، فقال لبعض محبيه: آه، كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشتري من هؤلاء جميعاً أوقاتهم».

وقال القاسمي عن نفسه[٢]: «وقد حبّب المولى إليّ من حداثتي القراءة والمطالعة ونسْخ الكتب وتأليف الرسائل»، ويقول أيضاً: «وأذهب المولى بفضله عن عُبَيْدِه حبَّ البَطَالة وصرف الأوقات سدى، فطالعت من كتب الأدب والتاريخ ما لا أحصي».

وقال في مقدمة «الفضل المبين»[٣]: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة «صحيح مسلم» بتمامه في أربعين يوماً، وقراءة «سنن ابن ماجه» كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة «الموطأ» في تسعة عشر يوماً، وقراءة «تقريب

---

(١) ص ٢٥، [وقد أُدرجت هذه الترجمة بعينها في أول كتاب القاسمي الآخر «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين»].

(٢) ص ٢٠ من الترجمة المذكورة، نقلاً عن كتاب «جمال الدين القاسمي» لولده الأستاذ النقيب ظافر القاسمي، ص ٣٠.

(٣) ص ٥٣.

التهذيب»[١] مع تصحيح سهو القلم فيه وتحشيته في نحو عشرة أيام، فَدَعْ عنك أيها اللائم الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل».

[وقال ابنه الأستاذ ظافر القاسمي في كتابه الذي ألَّفه عن والده[٢]: «أقدمُ ما وقعتُ عليه من آثاره مجموع لطيف سمَّاه «السفينة»، جمعه عام ١٢٩٩هـ، وله من العمر ست عشرة سنة، فيه مختارات من مطالعاته في كتب شتى. . .، ومضى رحمه الله يكتب دون انقطاع في الليل والنهار، في القطار، في النزهة، في العَرَبة، في المسجد، في سُدّته، في بيته، وأظن أن الطريقَ وحدَه هو الذي خلا من قلمه. . .، وقد كان في جيبه دفتر صغير وقلم يُقَيِّد الفكرة الشاردة إذا عنّت له حيثما كان. . .».]

محافظةُ الشيخ طاهر الجزائري على الوقت وسهره الليلَ كله بشأن العلم والتحصيل

وجاء في ترجمة العلامة المفسِّر المحدِّث الفقيه الحنفي المتفنِّن الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي، المولود سنة ١٢٦٨، والمتوفى سنة ١٣٣٨ رحمه الله تعالى، ما حكاه تلميذاه العلامة الأستاذ الشيخ محمد سعيد الباني في «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر»، والعلامة الأستاذ محمد كرد علي في «كنوز الأجداد» و «المعاصرون» رحمهما الله تعالى في مواضع متعددة فيهما[٣]:

---

(١) هكذا جاء اسم الكتاب في تقدمة الأستاذ عاصم البيطار، ص ٢٠، وفي صورة المخطوطة الأصل، ص ٤٦. ووقع في مقدمة المؤلف، ص ٥٣: «تهذيب التهذيب»، وهو سبق قلم، صوابه ما أُثبتُ، لأنه كذلك جاء في المخطوطة، وبالنظر إلى أحجام الكتب السابقة ومدد قراءتها، والله أعلم. س.

(٢) ص ٦٣٢، كما في مقدمة «الفضل المبين»، ص ٢٦ للأستاذ عاصم البيطار.

(٣) كنوز الأجداد ص ٩ ــ ٤٨، «المعاصرون» ص ٢٦٨ ــ ٢٧٨.

«أنه كان عَزَباً لم يتزوج أبداً، ويتساهل في شأن مظهره وملبسه مختاراً البذاذةَ والرَّثاثة، توفيراً لوقته والانتفاع به في مطالعة أو تأليف، ويسهر الليل كلَّه، في أوله مع بعض أصحابه، ومع كتبه وتأليفه ومراجعاتِه إلى آخره، ولا ينام إلا بعد صلاة الصبح، محافظاً على أداء الصلوات كلها في أول وقتها سفراً وحضراً في مسجد الحي أو في السوق أو في الطريق أو في ضيافةِ مُضِيف أو في محاضرةٍ أو حفلةٍ عامة، أو مجلس خاصٍ، ولا يبالي بشيء ولا إنسان إذا حانت الصلاة حتى يؤديها في أول وقتها».

ولم يكن وقته إلا للعلم تحصيله أو تعليمه، قال تلميذه العلامة الشيخ محمد سعيد الباني رحمه الله تعالى: «وكيف يتفرغ للزوجة والبنين والكسبِ الطيّب لإعاشتهم، من كان يقضي ليله سهراً، ويواصلُه بالنهار في الدرس والبحث والتنقيب والتأليف والدعاية. وكان يَحمِلُ بعضَ ما لَطُفَ من الكتب وخَفَّ حملُهُ في كُمِّه أو جَيْبِهِ، ليقرأ فيه حيث تيسَّرت له القراءة، لئلا يَضِيعَ شيء من وقته دون فائدة، كما يَحملُ أشياءَ أخرى من ضرورياته.

وكان الشيخ حريصاً على وقته، فمن مظاهر ذلك: أنه كان يحب شرب القهوة ويُجهِّـزُ منها مـا يكفيه أسبوعاً، حتى لا يَضيع وقتُـه بطبخهـا كلما أراد تنـاول فنجان منهـا، وهكـذا يشربهـا باردةً بائتـةً أيامـاً، لئـلا يشتغـل بها كـل ساعة عن مطالعتِه، **وكان شربه لها للاستعانة بها على السهر والنشاط، لا للتفكه بها**.

وكان لا يذَر مزاولة العلم في كل وقت وحين، ما بين تصنيف وتنقيح، أو بحث وتنقيب، أو مذاكرة أو مطالعة، **وإذا استحسن كتاباً يعاودُ مطالعتَه مراراً عديدة**، ولهذا استولى عليه الجدُّ في حياتِه وأموره كلها، فما عُرِفَ عنه الهَزْلُ ولا التصابـي.

ووقع له أنه مرةً ابتاع أرطالاً من البرتقال وضعها في بيته، ومن الغد بَدَا له أنه يسافر، وتذكر وهو على أذرع قليلة من البيت، أنه يجب أن يستصحب في حقيبته شيئاً من البرتقال، وتذكر ما اشتراه منه بالأمس، فآثر أن يبتاع برتقالاً من الطريق، لئلا يضيع وقتُه بالرجوع إلى الدار بعد إزماعِهِ الخروجَ منها، ولم يَعُد الشيخ إلى داره إلاَّ بعد ستة أشهر، وفرِحَ أن رأى برتقالاته تضمَر وتنشَف!» رحمة الله تعالى عليه.

حكيمُ الأُمّة التهانوي زادت مؤلَّفاتُه على الألف

وهذا شيخ الهند مولانا (حكيم الأمة) أشرف علي التهانوي المتوفى من نحو خمسين سنة، عام ١٣٦٢ عن ٨١ سنة، قد زادت تآليفه على ألف مؤلَّف. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وكُلُّ ذلك بحفظ الوقت. وإنما يَعْرِف قيمةَ الوقت والزمن: النوادرُ الموفقون، فيأتون في أعمارهم القصيرة بالأعداد الهائلة من التآليف الكثيرة.

الشيخ الزهاوي والشيخ الطباخ
يطالعان قبل موتهما بساعة[1]

وقد وقفتُ على خبرينِ مماثلين لخبرِ الإمام أبـي يوسف المتقدم وغيره حصلا لشيخين جليلين من شيوخ والدي رحمهم الله جميعاً وألحقني بهم على خير، وهما الشيخان العالمان العاملان: أمجد الزَّهَاوي الموصلي البغدادي، ومحمد راغب الطباخ الحلبـي.

فقد جاء في ترجمة الشيخ أمجد الزهاوي المولود سنة ١٣٠٠ والمتوفى

---

(١) من إضافة العبد سلمان.

سنة ١٣٨٧ رحمه الله تعالى أنه «كان كثيرَ المطالعةِ حتى في أيامِ مرضه، وكان يطالع قبل وفاته بساعة»[١].

وجاء في كتاب «حديث الروح» لسيدي العلامة محمد رواس قلعجي حفظه الله ورعاه[٢]، وهو يتحدث عن شيخه الأعجوبة محمد راغب الطباخ المولود سنة ١٢٩٣ والمتوفى سنة ١٣٩٠ رحمه الله تعالى:

«دخلتُ على الشيخ في اليومِ الذي تُوفيَ فيه، وقد أُحيطَ بالحشايا (يعني المَسَانِد التي تَسندُه ليستطيع الجلوس) فرأيتُه وقد ثَقُل لسانُه وتَهَدَّلَتْ جفونُه حتى لا يقوى على فتح عينيه إلاَّ بصعوبة، والنظاراتِ المكبِّرةُ على عيونه، والكتاب في يده، يقرأ فيه سطراً أو سطوراً، فيأخذُ منه التعبُ مأخذاً، ويضعُف عن المقاومة، فيسندُ رأسَهُ هُنَيْهَةً ثم يعود إلى القراءة ثانية، فقلت له: يا أستاذُ، لو تركتَ القراءةَ الآن، وأرحت نفسَك لكان أحسنَ، فإنّك تُعاني شِدةً. فرَدَّ عليّ بكلامٍ لم أستطع أن أفهمَهُ بتفاصيله لِما في لسانِهِ من الثِّقل، ولكنِّي فهمتُ منه أن هناك مسألةً، ولا يريد أن يموت قبل أن يطَّلِعَ على ما قيل فيها، فذرَفتْ عينايَ الدمعَ، وقلت له: إن كانت هذه رغبتُك فاسمحْ لي أن أقرأ لك، وأخذتُ الكتاب من يدِهِ، وشرعتُ بالقراءة... ورفعتُ نظري إليه، فإذا هو مسنِدُ الرأسِ، مُغْمِضُ العينين، فظننت أنه يسمعني، وتابعتُ قراءتي... فدخل ابنُه ووجد أباه في غَيْبوبة، فرجاني أن أُغادرَ الغرفةَ فغادرتها، وما هي إلاَّ ساعةٌ حتى بلغني نبأُ وفاته». رحم الله تلك الهمم وتلك القِمم وجعلنا على منوالهم.

---

(١) «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري» ليونس السامرائي، ص ١٠٥.

(٢) ٢: ٩٠.

تآليفُ الأئمة السابقين تَدُلُّ على حِفظِهم للأوقات

وأذكر هنا كلمةً لشيخنا العلامة محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، تعرَّض فيها لبيانِ جملةٍ من التفاسير الكبيرة الضخمة للقرآن الكريم خاصةً دون سائر العلوم، تدلُّ بضخامتها على اهتمام أصحابها بالعلم ومحافظتِهم على الوقت، فتمكنوا من التآليف الكبيرة، بحيث يدهَشُ الإنسانُ لسماع أخبارها فضلاً عن رؤيةِ ذواتها، وكم للهِ في خلقه من عجائب؟

قال شيخنا في كتابه «مقالات الكوثري»[1]، وهو يتحدث عن بعض الجوانب التي خُدِمَ بها القرآن الكريم:

بعضُ المؤلَّفاتِ الكبارِ الضخامِ للسابقين في التفسيرِ وعلومِه

«وما ألَّفه أهلُ العلم في اجتلاء روائع المعاني من القرآن الكريم، مما لا يكاد يُحصيه العَدّ، على اختلاف مسالكهم في العناية بالرواية أو الدراية، وفنونِ الأفنان من علوم القرآن، وعلى تفاوت أذواقهم ومشاربهم في الاهتمام بجهة خاصة من مزايا القرآن المجيد.

وأرجو القارىء الكريم أن يسمح لي أن أذكر بعضَ مؤلفات علماء هذه الأمة في هذا الصدد، مما يكون أنموذجاً لمساعيهم الجبارة في مضمار تدوين المؤلَّفات، فها هو تفسيرُ الإمام أبـي الحسن الأشعري، المسمَّى: «المختزَن» في سبعين مجلداً على ما يذكره المقريزي في «الخِطط»، وتفسيرُ القاضي عبد الجبار الهَمَذَاني، المسمَّى: «المحيط» في مئة سِفر.

وتفسيرُ أبـي يوسف عبد السلام القَزْويني، المسمَّى: «حدائقَ ذاتَ

---

(١) ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣.

بهجة»، أقلُّ ما يقال فيه: إنه في ثلاثِ مئة مجلد، وكان مؤلِّفُهُ وقَفَه وجَعَل مقرَّه مسجدَ الإمام أبي حنيفة ببغداد، ثم صار في عِداد الكتب التي ضاعت في أثناء استيلاء المغول على دار الخلافة ببغداد! إلا أني سمعت من أحد أدباء الهند، أنه رأى قطعةً منه في أحد فهارس الخِزانات.

وللحافظ ابن شاهين «تفسيرٌ» في ألف جزءٍ حَدِيثي، وللقاضي أبي بكر بن العربي «أنوار الفجر» في التفسير، في نحو ثمانين ألفَ ورقة، والمعروف أنه موجود في بلادنا ـ أي في مكتبات إصطنبول وتركيا ـ، إلاَّ أني لم أظفر به مع طول بحثي عنه. ولابن النَّقيب المَقْدِسي أحدِ مشايخ أبي حيان «تفسيرٌ» يقارب مئة مجلد، يوجد بعضُ مجلدات منه في خزانات إصطنبول، ويوجد من تلك التفاسير بعضُ مجلدات في بعض الخزانات فيما أعلم.

وأما أضخمُ تفسير تام يوجد اليوم ـ على ما نعلم ـ فهو تفسير «فتح المَنَّان» المدعو بالتفسير العلاَّمي، المنسوب إلى العلامة قطب الدين الشيرازي، وهو في أربعين مجلداً، فالمجلد الأول منه موجود بدار الكتب المصرية، وبه تظهر خِطَّتُه في التفسير، وفي مكتبَتَيْ محمد أسعد وعلي باشا ـ حكيم أُوغلي ـ في إصطنبول من مجلَّداته ما يَتِمُّ بها نسخةٌ كاملة.

وللعلامة محمد الزاهد البخاري نحوُ مئةِ مجلد في التفسير، كما في «المنهل الصافي». ولعلماء هذه الأمة تفاسيرُ لا تُحصَى سوى ما تقدم، على اختلاف مسالكهم. ولهم أيضاً مثلُ هذه الخِدمة المشكورة، في تدوين السُّنَنِ الشارحةِ للكتاب، المبيِّنةِ لوجوه الإجمال فيه». انتهى.

الأئمةُ المكثرون من التآليف

وقد تعرض العلامة الفقيه الأصولي الباحث محمد الحسن الحَجْوي الفاسي المغربي رحمه الله تعالى، في كتابه العُجَاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي»[١]، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري، إلى (المكثرين من التأليف)، فذكر منهم ابن جرير وابنَ الجوزي وغيرَهما، وأقطفُ من كلامه ما يلي، وفيه بعضُ التكرار لما ذكرته فيما سبق، ولا يضر، قال:

ابنُ جرير أعظَمُ مؤلِّفٍ في الإسلام كثرةَ تأليف وحُسنَ تصنيف

«أحرَزَ الإمامُ ابنُ جرير الطبري قَصَبَ السَّبْق في التصنيف[٢]، كثرةً في إتقان، مع عموم النفع، وقد خلَّف في مصنَّفاتِهِ ما يَقرُبُ من ثلاثِ مئةِ ألفِ ورقةٍ وخمسين ألفَ ورقة. وهذه أغنَى التَّركاتِ العلميةِ فيما بلَغَنا، فتبارك اللهُ أحسَنُ الخالقين.

---

(١) ٣: ٤١ ــ ٤٥ من طبعة المغرب، و٢: ٤٥ ــ ٤٨ من طبعة النمنكاني.

(٢) القَصَبُ: اسمُ جنس، والمرادُ به هنا القَصَبُ الفارغُ الجوف، ذو الأنابيب والكُعُوب في ساقِه، يُزرَعُ في الأرض الكثيرةِ المياهِ وعلى شُطوطِ الأنهار، والمفرَدُ منه: قَصَبَة.

وقالت العرب للسابق: أحرَزَ قَصَبَ السَّبْق، أو أحرَزَ القَصَبَ، أو أحرَزَ القَصَبَةَ، وذلك أنهم كانوا ينصبون في حَلْبَةِ السِّبَاق قَصَبَةً، فمن سبَقَ إليها اقتَلَعها وأخَذَها، ليُعلَمَ أنه السابقُ من غير نزاع. والفَرَسُ المُبرِّزُ الذي يَسْبِقُ الخيلَ في الحَلْبَة، يقالُ له: المُقَصِّبُ كمُحدِّث، أي: السابقُ. ويقال للمُراهِن إذا فاز: أحرَزَ قَصَبَ السَّبْق. ويقال: فلان حازَ قَصَبَ السبق، أي: استَولَى على الأمَدِ والغاية.

ويقال: إن الغاية التي يَسبِقُ إليها السابق، كانت تُذرَعُ بالقَصَبَةِ، وتُركَزُ تلك القَصَبَةُ عند منتهى الغاية، فمن سَبَقَ إليها حازها واستحقَّ الخَطَرَ، أي: الرهنَ والجُعْلَ المرصودَ للسابق. انتهى ملخصاً من «أساس البلاغة» و« لسان العرب» و «تاج العروس».

فبذلك حاز المُعَلَّى والرَّقِيبَ[1]، فلم يكن أحَدٌ من المتقدمين يَبلُغُ مداهُ في الكثرةِ مع الإتقان وعمومِ النفعِ لوقتنا هذا، فلم يتفق هذا لغيره فيما أظن، فيصحُّ أن يقال: إنه أعظمُ مؤلِّفٍ في الإسلام.

الباقلاني لا ينامُ حتى يكتُبَ خمساً وثلاثين ورقةً تأليفاً

وفي «الديباج المُذْهَب»[2] أن القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الباقِلاَّني، كان وِرْدُه كلَّ ليلةٍ عشرين ترويحةً، [ما تركها في حَضَرٍ ولا سفر]،

---

(١) أي: حاز الفضلَ كلَّه. والمعلَّى والرَّقِيبُ سَهْمانِ من سِهام المَيْسرِ وقِداحِهِ التي كانت عند العرب في الجاهلية، لهما نصيبٌ وافر، فلذلك يُضرَبُ بهما المَثَل، فيقال لمن بَلَغ الغايةَ في الشيء: حاز المُعَلَّى والرَّقيب.

قال الزَّبِيدي في «تاج العروس» في (رقب) ١: ٢٧٤ «ذَكَرَ شيخنا ــ هو الإمام اللغوي الفَذُّ، أبو عبد الله محمد بن الطيِّب الفاسي، المتولِّدُ بفاس سنة ١١١٠، والمتوفَّى بالمدينة المنوَّرَة سنة ١١٧٠، فيما كتبه على القاموس ــ رحمه الله تعالى:

قِداحُ المَيْسرِ عَشَرَةٌ، سَبْعَةٌ منها لها أَنْصِبَاء، وثلاثةٌ لا أَنْصِبَاءَ ولا غُنْمَ لها، إنما جعلوها للتكثير والتثقيل بها فقط اتقاءَ التهمة، فَذَوَاتُ الأنصِبَاءِ أوَّلُها: الفَذُّ، وفيه فُرْضَةٌ واحدة، وله نصيبٌ واحد. والثاني: التَّوْأَمُ، وفيه فُرْضَتان، وله نصيبان، والثالثُ: الرَّقِيبُ، وله ثلاث فُرَض، وله ثلاثةُ أَنْصباء، والرابعُ: الحِلْسُ، وفيه أربَعُ فُرَض، وله أربعةُ أنصباء، والخامسُ: النَّافِسُ، وفيه خَمْسُ فُرَض، وله خمسةُ أنصباء، والسادسُ: المُسْبِل، وفيه سِتُّ فُرَض، وله سِتَّةُ أنصباء، والسابعُ: المُعَلَّى، وهو أعلاها، وفيه سَبْعُ فُرَض، وله سبعةُ أنصباء. وهذه الأنصباءُ لهذه الأسهم عند فوزها، أمَّا عند خَسَارِها فعلى كل سَهْم منها من الغُرْمِ مِثْلُ ما لَهُ. وأما التي لا سَهْمَ لها ولا غُنْم، ولا عليها غُرْم فهي: السَّفيحُ، والمَنِيحُ، والوَغْدُ». انتهى بزيادة يسيرة.

(٢) ٢: ٢٢٨. س.

ولا ينامُ حتى يكتب خمساً وثلاثين ورقةً من حفظِهِ[١].

كثرة تآليف ابن أبي الدنيا وابن عساكر وابن شاهين

وتَرَكَ ابنُ أبي الدنيا أَلْفَ تأليف، وابنُ عساكر أَلَّف «تاريخه» في ثمانين مجلداً، وقال السيوطي: منتهى التصانيف في الكثرة ابنُ شاهين، صنَّف ثلاثَ مئةٍ وثلاثين مصنَّفاً، منها «التفسير» في ألف جزء، و «المسند» خمسة عَشَرَ مئة ـ أي ألفٌ وخمسُ مئة جزء ـ، قال السيوطي: **وهذا من بركاتِ طيِّ الزمان كالمكانِ، من وراثة الإسراء وليلة القدر**. نَقَلَه في «المِنَح البادية».

كثرةُ مؤلَّفات ابن حزم وابن أبي حاتم الرازي

وقد تَرَكَ الإمام أبو محمد علي بن حزم أربعَ مئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألفَ ورقة. وألَّف الإمام أبو محمد عبد الرحمنِ بن أبي حاتم الرازي عِدَّةَ كتب، في الفقه والحديث والتاريخ، منها كتابه «المسند» في ألف جزء، ذكره في «الطبقات السُّبْكِيَّة».

كثرةُ مؤلَّفات الحاكم النيسابوري

وألَّف أبو عبد الله الحاكم المعروف بابن البَيِّع صاحبُ «المستدرك على الصحيحين»، ما يبلغ ألفاً وخمسَ مئة جزء، منها «تخريج الصحيحين»، و «العِلَل»، و «الأمالي»، و «فوائد الشيوخ» ـ و «تاريخ نيسابور» ـ وغيرُها.

---

(١) وجاء في ترجمته في «جمهرة تراجم السادة الفقهاء المالكية» لقاسم سعد ٣:١٠٩٨: «قال المَيُورقي: حُسِبَت تآليف القاضي وإملاءاته، فقُسمت على أيام عمره من مولده إلى موته، فوُجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها». س.

كثرةُ مؤلفات أبـي الحسن الأشعري

وبلغَتْ كتب الإمام أبـي الحسن الأشعري خمسين كتاباً بين صغير وكبير، وأكثَرُها في الرد على الطوائف الضالَّة. وهذا من أصعب شيءٍ في التأليف، يَحتاجُ إلى زمن كثير.

كثرةُ مؤلفات ابن تيمية وابن القيِّم والبيهقي

وألَّف تقي الدين ابن تيمية ثلاثَ مئة مؤلَّف، في فنون مختلِفة، ضِمْنَ نحو خمس مئة مجلَّد. وتلميذُه ابن قيم الجوزية نحوَ الخمسين مجلداً بين ضخم ولطيف. وألَّف الإمام البيهقي ألفَ جزء، كلُّها تآليفُ محرَّرة نادرةُ المثال، كثيرة الفوائد، وأقام يصومُ ثلاثين سنة.

كثرةُ مؤلفات محمد بن سُحْنُون المالكي

وتَرَكَ محمد بن سُحْنُون الإفريقي الشهير كتابَه الكبير في مئة جزء، في الفقه والسِّيَر والتاريخ وفنونٍ من العلم، وكتابَ «أحكام القرآن» أيضاً، وغيرَه من الكتب.

كثرةُ مؤلَّفات أبـي بكر ابن العربـي المَعَافري

وألَّف الإمام أبو بكر ابن العربـي المَعَافري دفينُ فاس: «تفسيرَه» الكبير في ثمانين جزءاً، وله تآليف أخرى كشرح «الترمذي» و«الموطأ» و«أحكام القرآن» الكبرى والصغرى، و«العواصم من القواصم» و«المحصول» في الأصول، كلُّها تصانيف من أعلى طبقة، وهذا غريبُ الوجود.

كثرةُ مؤلَّفات أبي جعفر الطحاوي

وألَّف الإمام أبو جعفر الطحاوي تآليف كثيرة، وكَتَبَ في مسألةٍ واحدة، وهي: هل كان حَجُّهُ عليه الصلاة والسلام بِقِرانٍ أو إفرادٍ أو تمتُّع: ألفَ ورقة. وكم لهذا من نظير في علماءِ الإسلام.

كثرةُ مؤلَّفات أبي عُبَيدة
وابن سُرَيج وابن حبيب الأندلسي

وقد بلغَتْ تآليفُ أبي عُبَيْدة ـ مَعْمَر بن المُثَنَّى ـ مئتين في علوم مختلفة. وبلغَتْ مؤلفاتُ ابن سُرَيْج أربعَ مئة، والقاضي الفاضل: مئةً واحدةً. وبلغَتْ مؤلفاتُ عبد الملك بن حبيب عالِم الأندلس: ألفَ كتاب، ذكره في «نفح الطيب».

كِبَرُ تَوَالِيف جملةٍ من العلماء السابقين

وكانت تواليِفُهم تحوي مجلدات، فكتابُ «مِرآة الزمان» في التاريخ لسِبْط ابن الجوزي أربعونَ مجلداً، و «تاريخ بغداد» للخطيب أربعةَ عشر مجلداً، و «الأغاني» عشرون مجلداً، و «كامل» ابن الأثير ١٢ مجلداً، و «شرح النبات» لأبي حنيفة الدِّيْنَوَرِي بَلَغ ستين مجلداً. وبلغَتْ تآليفُ يعقوب بن إسحاق الكِنْدي فيلسوفِ العرب ٢٣١ كتاباً ـ بل تزيدُ على ثلاثِ مئة كتاب ـ، في الفلسفة والطب والهندسة وعلوم كثيرة.

لكنْ مجلَّداتُهم تختلِفُ من عشر ورقاتٍ إلى مئة، هذا مع صُعوبةِ نيل مَوادّ الكتابةِ في تلك الأزمان.

كثرةُ مؤلَّفاتِ بعضِ المتأخرين
لا تبلُغُ كثرةَ مؤلَّفاتِ السابقين

أما المتأخرون فتوفَّرَتْ الموادُّ لديهم، ومع ذلك لم يبلغوا مبلَغَ من تقدم، مثلُ الحافظ ابن حجر صاحبِ «فتح الباري»، و «الإصابة» وغيرهما، والذَّهبيّ، وكالسيوطي الذي نافتْ تآليفُهُ على أربع مئة، فإنَّ جُلَّها صغيرُ الحجم إلى الورقة والورقتين.

وأكثَرُ منه الشيخ أبو الفيض محبُّ الدين محمد مرتَضَى الحُسَيني الواسطي الزَّبِيدي الحنفي ــ الهندي المولد والمنشأ ــ نزيلُ مصر، وكفى «شرح القاموس» و «شرح الإحياء» دليلاً على ذلك، وقد عمَّ نفعُهما، ووقع إقبالُ العالم الإسلامي عليهما، مع تحرير وإتقان». انتهى كلام العلامة الحَجْوي باختصار.

قال عبد الفتاح: هذه كلمةٌ عَجْلَى بشأنِ المكثرين من التأليف، غيرُ محرَّرةٍ ولا مستوفاة، كتبها العلامة الحَجْوي رحمه الله تعالى، استطراداً دون تتبع واستقراء، بمناسبة ذكره: كثرةَ مؤلَّفات الإمام ابن جرير الطبري.

مراعاةُ حفظِ الوقت تُطِيلُ الأعمار وتُكْثِرُ الآثار

والذي دعاني إلى إيرادها بيانُ هذا السَّيْل الضخم من التآليف الكثيرةِ المدهشة، كيف كُتِبَتْ؟ ومتى تجمَّعت؟ إنما كان ذلك كلُّه بمراعاة الوقتِ وكَسْبِه واهتبالِه، دون أن تَضيعَ منه ساعةٌ أو سُوَيعة. وبالحِفَاظِ على الوقتِ تَزْخَرُ الآثار، وتطُول الأعمار، ويُبارِكُ الله تعالى في الأزمانِ الوجيزةِ والأعمار القصيرة، والله يُؤتي فضلَه من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم[1].

---

(١) قلتُ: وحَذَارِ أن تَظُنَّ مما ذكرتُه لك، من ضخامةِ المصنَّفات، وكثرةِ المؤلَّفات، لأولئك العلماء الكبار: أنهم أعلَمُ من العلماءِ السابقين والسلفِ المتقدمين، =

. . . .

= فهذا ظنٌّ خاطىء، فليست كثرةُ المؤلَّفات ولا ضخامةُ المصنَّفات وما فيها من الكلام الطويل الكثير، مِعياراً لأعلميَّةِ هؤلاء وتقدُّمِهم بالعلم على من سَبَقَهم، فالسَّلَفُ أعلَمُ بشرع الله ودينِهِ من الخَلَف، ولكنَّ الكلام في السلف قليل، وفي الخَلَف كثير! وهذا الذي قد يَغُرُّ بذلك!

كلماتُ طائفةٍ من التابعين
في أعلميَّةِ السَّلَف من الخَلَف

١ ــ قال مجاهدُ بنُ جَبْر المكي، التابعي الجليل، وشيخُ القُرَّاء والمفسِّرين، الحافظُ المحدِّثُ الإمام، الفقيه العابد، المولود سنة ٢١، والمتوفَّى سنة ١٠٤ رحمه الله تعالى: «ذَهَبَ العلماء! فلم يَبْق إلاَّ المتعلِّمون، وما المجتهدُ فيكم اليومَ، إلاَّ كاللاعِبِ فيمن كان قبلكم». من «التاريخ الكبير» لابن أبـي خيثمة [ص ١٧٧، وهو بنحوه في «العلم» لأبـي خيثمة ص ٣١].

٢ ــ وقال بلال بن سعد الأشعري الدمشقي، التابعي الجليل، والإمامُ الرَّبَّانيُّ الواعظ، شيخُ أهلِ دمشق، أَحَدُ الثقات الزهاد، والعلماء العُبَّاد، المتوفى بحدود سنة ١٢٠ رحمه الله تعالى: «زاهدُكم راغب، ومجتهدُكم مُقَصِّر، وعالمكم جاهل، وجاهلكم مُغْتَرّ». من «كتاب الزهد» للإمام عبد الله بن المبارك ص ٦٠، [وهو بنحوه في «العلم» لأبـي خيثمة ص ٣٢].

٣ ــ وقال حَمَّادُ بن زيد: قيل لأيوبَ السَّخْتياني ــ البصريِّ، التابعيِّ الجليل، والحافظِ الإمام، أَحَدِ الأعلام، سيدِ الفقهاءِ والعلماء، المولود سنة ٦٨، والمتوفَّى سنة ١٣١ رحمه الله تعالى ــ : «العلمُ اليومَ أكثَرُ أم أقلُّ؟ قال: الكلامُ اليومَ أكثر، والعلمُ كان قبلَ اليومِ أكثر». من «المعرفة والتاريخ» للفَسَويِّ ٢ : ٢٣٢.

٤ ــ وقال أبو عَمْرو بنُ العلاء البصري، التابعي الجليل، المولود سنة ٧٠، والمتوفَّى سنة ١٥٤ رحمه الله تعالى، أَحَدُ القراء السبعة، وأعلَمُ أهل عصره بالقرآن والقراءاتِ والعربية والأدب والشعر والنحو، وكانت كُتُبُهُ التي كتبها عن العرَب الفصحاء، الذين خالطهم ولقِيَهم، قد مَلأَتْ بيتاً له إلى قريب من السقف: «ما نحن فيمن مَضَى، إلاَّ =

. . . .

= كَبَقْلٍ في أصولِ نَخْلٍ طوال». من كتاب «مُوضح أوهام الجَمْع والتفريق» للحافظ الخطيب البغدادي ١ : ٥.

٥ ــ وقال الإمام العَلَم الجليل مالك بن أنس المولود سنة ٩٣ أو بعدها والمتوفى سنة ١٧٩ رحمه الله تعالى: «مَنْ لم يُعَدَّ كلامُه مِنْ عمله كثُر كلامُه، ولم يكونوا يهذرُونَ الكلامَ هكذا، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يتكلم بكلامِ شهرٍ في ساعةٍ، وكان الرَّبيعُ بنُ خُثَيم أقلَّ الناس كلاماً». من كتاب «الجامع» للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، ص ١٧٠.

فهؤلاء الأئمة التابعون الأربعة، من بلدانٍ متباعدة، وفي أزمانٍ مختلفة، قد اتفقَتْ عباراتُهم على مضمونٍ واحدٍ هو أعلميَّةُ السلفِ السابقين على مثلِهم السَّلَفِ الخالفين، فكيف من تأخَّرَ زمانُهم عنهم قليلاً أو كثيراً، فَالبَوْنُ بينهم شديدٌ وكبير وإن كانوا أئمة كباراً.

وقد نبَّه إلى هذا غيرُ واحد من العلماء الكبار، ولولا طول كلامهم وضيقُ المقام لنقلت كلام عِدَّة من الأئمة في هذا الموضوع، وأكتفي هنا بنقل جُمَلٍ من كلام الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي، رحمه الله تعالى ــ وقد تقدم ذكره ص ١٣٨ ــ، فقد قال في كتابه النفيس «فضل علم السلف على الخلف» في ص ٦٢ و ٦٥ ما يلي: «وقد فُتِنَ كثير من المتأخرين بهذا ــ أي بكثرة الكلام ــ فظنوا أن من كَثُرَ كلامُه وجدالُه وخِصامُهُ في مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهلٌ محض!

وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر وعمر ــ وعثمان ــ وعلي، ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت، كيف كانوا: كلامُهم أقلُّ من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه.

وكذلك كلامُ التابعين أكثرُ من كلام الصحابة، والصحابةُ أعلَمُ منهم، وكذلك تابعو التابعين كلامُهم أكثَرُ من كلام التابعين، والتابعون أعلَمُ منهم.

فليس العلمُ بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نُورٌ يُقذَفُ في القلب، يَفهَمُ به العبدُ الحقَّ، ويُميِّزُ به بينَهُ وبين الباطل، ويُعبِّرُ عن ذلك بعبارات وجيزة مُحَصِّلةٍ للمقاصد.

وقد كان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أُوتِيَ جوامعَ الكَلِم، واختُصِرَ له الكلامُ اختصاراً، ولهذا =

وأختم حديثي عن العلماء المراعين للأوقات، الحافظين للحظات، المستفيدين المانحين أطيب الثمرات، بإيراد ترجمة مختصرة للحافظ أبي القاسم ابن عساكر الدمشقي، فقد جاء فيها ما يحرك العزائم ويوقظ النائم، فأقول:

ضَخامَةُ ما قدَّمه الحافظ ابن عساكر للمكتبة الإسلامية

كان الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي (علي بن الحسن) المولود بدمشق سنة ٤٩٩، والمتوفى بها سنة ٥٧١ رحمه الله تعالى، يحافظ على اللحظات من وقته، فجادَ على المكتبة الإسلاميةِ بتآليف، تَعْجِزُ المجامعُ العلميةُ اليومَ عن طبعها! وقد كتبها وحده، وألَّفها بيدِهِ وقَلَمِه، وحرَّرها وحقَّقَها، وجَمَع أصولَها، وانْتَخَب منها، ونسَّقها ورتَّبها، وأخرجها للناس آيةً باقيةً ناطقةً بأنَّهُ كان أُعجوبةَ الأعاجيب في سَعَة الحفظ، ووفرة المعرفة، ونَفاذِ الهِمَّةِ في القدرة على التأليف وكثرة المصنفات المدهشة.

= ورد النهيُ عن كثرةِ الكلام، والتوسُّعِ في القِيلِ والقال.

وقد ابتُلينا بَجَهَلةٍ من الناس! يعتقدون في بعضِ من توسَّعَ في القولِ من المتأخرينَ أنه أعلمُ ممن تَقَدَّم! فمنهم من يظنُّ في شخصٍ أنه أعلَمُ من كلِّ مَنْ تقدَّم من الصحابة ومن بعدَهم، لكثرةِ بيانِهِ ومقالِه! ومنهم من يقول: هو أعلَمُ من الفقهاء المشهورين المتبوعين!

وهذا يَلزَمُ منه ما قَبْلَهُ! لأنَّ هؤلاء الفقهاءَ المشهورين المتبوعين أكثَرُ قولاً ممن كان قبلَهم، فإذا كان مَنْ بعدَهم أعلَمَ منهم لاتساعِ قوله، كانوا هم أعلم ممن كان أقلَّ منهم قولاً بطريقِ الأَولى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممن قبلَهم من التابعين والصحابة أيضاً، فإنَّ هؤلاء كلَّهم أقلُّ كلاماً ممن جاء بعدَهم.

وهذا تنقُّصٌ عظيم بالسلف الصالح! وإساءةُ ظن بهم! ونسبةٌ لهم إلى الجهل وقصورِ العلم! ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله». انتهى باختصار وإيجاز، وكلامُهُ في هذا الموضوع طويلٌ، لا يتسعُ المقامُ لاستيفائه هنا.

وأسوقُ هنا طَرَفاً وجيزاً من ترجمته عن ثلاثة كتب، مقتصراً منها على ما يتعلق بكثرةِ التطواف، ووفرةِ المؤلفات، وشدةِ الحفاظ على الأوقات واللحظات.

١ ــ قال المؤرخ القاضي ابنُ خَلِّكان في «وَفَيَات الأعيان»[1] في ترجمته: «كان محدِّثَ الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غَلَبَ عليه الحديثُ فاشتَهَرَ به، وبالَغَ في طلبه إلى أن جَمَعَ منه ما لم يتفق لغيره، ورحَلَ وطَوَّف وجابَ البلاد، ولقي المشايخ، وكان رفيق الحافظ أبي سعْد عبد الكريم ابنِ السمعاني في الرِّحلة ــ وقد بَلَغَ تعدادُ شيوخِ السَّمعاني الذين لقيهم في دار الإسلام سبعةَ آلاف شيخ ــ.

وكان حافظاً دَيِّناً، جَمَعَ بين المتون والأسانيد، سَمِعَ ببغداد، ثم رجع إلى دمشق، ثم رَحَلَ إلى خراسان، ودخل نيسابور وهَراة وأصبهان والجِبال، وصنَّف التصانيف المفيدة، وخَرَّج التخاريج، وكان حسنَ الكلام على الأحاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف، صَنَّف «التاريخ لدمشق» في ثمانين مجلداً، أتَى فيه بالعجائب، وهو على نَسَق «تاريخ بغداد» ــ للخطيب البغدادي، من حيث شَرْطُه فيمن ذكرهم فيه، ولكنه أضعافُهُ حجماً واتساعاً وشُمولاً وإفاداتٍ متنوعة ــ.

قال لي شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري حافظُ مصر، وقد جَرَى ذكرُ هذا التاريخ، وأَخْرَجَ لي منه مجلداً، وطال الحديثُ في أمرِهِ واستعظامِهِ: ما أظنُّ هذا الرجلَ إلاَّ عَزَمَ على وضع هذا التاريخ من يومِ عَقَلَ على نفسه، وشَرَعَ في الجمع من ذلك الوقت، وإلاَّ فالعُمرُ

---

(١) ١: ٣٣٥.

يَقصُرُ عن أن يَجمعَ فيه الإنسانُ مثلَ هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبُّه[١].

ولقد قال الحقَّ، ومن وَقَفَ عليه عَرَفَ حَقِّيَّةَ هذا القول، ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثلَه، وهذا الذي ظَهَرَ ــ أي من التاريخ ــ هو الذي اختاره، وما صَحَّ له هذا إلاَّ بعدَ مُسَوَّداتٍ ما كادَ ينضبطُ حَصْرُها، وله غيرُه تَوَاليفُ حسنة، وأجزاء ممتعة». انتهى كلام القاضي ابن خلِّكان. وقد زادتْ

(١) وقع لفظ (التنُّبه) محرفاً إلى (التنبيه) في «وفيات الأعيان» من طبعة مصر الميمنية سنة ١٣١٠. وتصويبه من طبعة صادر في بيروت بتحقيق إحسان عباس ٣: ٣١٠. والمراد (بالاشتغال) في لغة أهل القرن الخامس وما بعده: قيامُ العالم بالتدريس أو التحديث. والمراد بالتنبُّه: حصولُ نباهةِ الذكر والشُّهرةِ، الناشىء عنها قصدُ الناس والمستفيدين إليه بالسؤال والاستفادة، وفي هذا وذاك مَشْغَلَةٌ كبيرةٌ يَصْعُبُ معها تفرُّغُ العالم للتأليف والتحقيق والإنتاج الكثير.

والحافظ ابن عَساكر قد (اشتَغَلَ) و (نَبَّهَ) ذكره في الآفاق، ومع هذا جاء بتآليف خِصبة وكثيرة، أوسَعَ من العمر الذي عاشه، وما ذلك إلا لحِفاظِه على الوقتِ واللَّحظاتِ، فللَّه درُّه ما أمضى عزيمته! وما أشدَّ جَلَدَه وشوقَه للعلم! وما أقواه على الدخولِ فيما يريد، حين يُريد، وكما يريد، رحمةُ الله تعالى عليه.

[وقد عَلَّق العلامة جمال الدين القاسمي في «الفضل المبين»، ص ٣٦٣ على مقولة الحافظ المنذري بقوله:

«أقول: هذا من المبالغة في الاستعظام، ومن بقايا التوكؤ على عُكَّاز الراحةِ والخُمولِ، وفي الحقيقة هي الهمةُ، فمن صان وقته عن الضياع وضنّ به، وَجَدَّ في التفرغ والانجماعِ على مطلوبه ظَفِر بمراده.

وقال بعض الحكماء: نستغربُ كثيراً حينما نرى أو نسمع بعدد المجلدات الضخمة التي ألَّفها كُتَّابُ العصور الماضية، ولكن إذا علمنا أنّ **سرَّ تلكَ الأعمالِ هو استعمالُ الأوقات بالاجتهاد** زال استغرابنا، **لأن الحياةَ المشغولةَ بالأعمال تستطيعُ أنْ تَملأَ العالَمَ من الفوائد**». انتهى. س].

مؤلفاتُ الحافظ أبـي القاسم ابن عساكر على خمسين كتاباً، أحدُها «تاريخ مدينة دمشق» في ثمانين مجلداً، كما سبق ذكره.

عُلوُّ هِمَّةِ ابن عساكر وسعَةُ طوافِهِ بُلدانَ الإسلام

٢ ــ وقال الحافظ الذهبـي في «تذكرة الحفاظ»[١]، في ترجمته: «الإمامُ الحافظُ الكبير، محدِّث الشام، فخر الأئمة، أبو القاسم ابن عساكر، صاحب التصانيف و «التاريخ الكبير»، ولد في أول سنة ٤٩٩، وسَمِعَ في سنة ٥٠٥، باعتناء أبيه وأخيه الإمام ضياء الدين هبة الله، فسمع... بدمشق، ورَحَلَ في سنة عشرين، فسمع... ببغداد، و... بمكة، و... بالكوفة، و... بنيسـابـور، و... بـأصبهـان، و... بمـرو، و... بهَـراة، وعَمِـلَ «الأربعين البُلدانية» ــ أربعين حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين بَلَداً ــ، وعدَدُ شيوخِهِ ألفٌ وثلاثُ مئة شيخ، ونيِّفٌ وثمانون امرأةً.

وحدَّث عنه خلقٌ كثير، ومنهم صاحبُهُ في الرحلة أبو سَعْد السمعاني، ــ ثم عدَّد الذهبـيُّ تواليفَهُ، فبلغَتْ نحو خمسين كتاباً ــ، وأملَى في أبواب العلم أربعَ مئة مجلس وثمانية ــ وكل إملاءِ مجلسٍ منها بمثابة تأليف ــ.

قال ولَدُه المحدِّث بهاء الدين القاسم: كان أبـي رحمه الله مواظباً على الجماعة والتلاوة، يختِمُ كلَّ جمعة، ويختِمُ في رمضان كلَّ يوم، ويعتكفُ في المَنَارةِ الشرقية ــ من جامع دمشق ــ، وكان كثير النوافل والأذكار، ويُحيـي ليلةَ النصف ــ من شعبان ــ والعيدين بالصلاة والذكر، وكان يُحاسِبُ نفسَه على لحظةٍ تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة ــ أي منذ أَذِنَ له شيوخُهُ بالرواية والتحديث ــ إلاَّ بالجمع والتسميع حتى في نُزْهتِهِ وخلَوَاتِهِ.

---

(١) ٤: ١٣٢٨.

قال الحافظ أبو العلاء الهَمَذَاني: ما كان يُسمَّى أبو القاسم ابن عساكر في بغداد إلَّا شُعلةَ نار، من ذكائِهِ وتوقُّدِهِ وحُسْنِ إدراكه. وقال أبو المواهب بن صَصْرَى: قلتُ له: هل سيدُنا رأى مثلَ نفسه؟ قال: لا تقُلْ هذا، قال الله تعالى: ﴿لا تُـزَكُّـوا أنفسَكـم﴾[١]. قلـتُ: فقـد قـال الله تعـالـى: ﴿وأمـا بِنِعْمَـةِ ربِّـك فَحَدِّثْ﴾[٢]، فقال: لو قال قائل: إنَّ عَيْني لم تَرَ مثلي لصَدَقَ.

ثم قال أبو المواهب: وأنا أقول: لم أرَ مثلَه، ولا من اجتَمَع فيه ما اجتَمَع فيه، من لزومِ طريقةٍ واحدة مدةَ أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلَّا من عُذر، والاعتكافِ في شهر رمضان وعشرِ ذي الحجة، وعَدَمِ التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناءِ الدُّور، قد أَسقَطَ ذلك عن نفسه، وأَعرَض عن طلب المناصب من الإمامة والخِطابة، وأباها بعد أن عُرِضَتْ عليه، وأَخَذَ نَفْسَهُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةُ لائم». انتهى.

انقطاعُ ابن عساكر للعلم
وكثرةُ شيوخِهِ وشَيْخَاتِهِ وقُوَّةُ إتقانه

٣ ــ وقال الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٣] في ترجمته: «الإمامُ الجليل، حافظُ الأمة، أبو القاسم ابن عساكر، ولا نعلم أحداً من جُدُودِهِ يُسمَّى عساكر، وإنما هو اشتَهَر بذلك، وهو ناصِرُ السُّنَّة وخادمُها، إمامُ أهل الحديث في زمانه، وخِتامُ الجهابذةِ الحفاظ، مَحَطُّ رِحالِ الطالبين.

---

(١) من سورة النَّجْم، الآية ٣٢. ولفظ الآية بما قبلها وبعدَها: ﴿فلا تُزَكُّوا أنفسَكم هو أعلَمُ بمن اتَّقَى﴾.

(٢) من سورة الضُّحى، الآية ١١.

(٣) ٧: ٢١٥.

جَمَع نَفْسَه على أشتات العلوم، لا يتخذ غيرَ العلم والعمل صاحِبَين له، وهما منتهى أَرَبِهِ، حِفظٌ لا تغيبُ عنه شارِدَة، وضَبْطٌ استوَتْ لديه الطَّريفَةُ والتالِدَة[1]، وإتقانٌ ساوَى به من سَبَقَهُ إن لم يكن فاقَه، وسَعَةُ علمٍ أَثْرَى بها وتَرَكَ الناسَ كلَّهم بين يديه ذَوِي فاقَة.

سَمِـعَ خلائق، وعِدَّةُ شيوخه ألفٌ وثلاث مئة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة، وارتحل إلى العراق، ومكة، والمدينة، وارتحل إلى بلاد العجـم، فسَمِـعَ بـأصبهـان، ونيسـابـور، ومَـرْو، وتِبْـريـز، ومِيْهَنَـة، وبَيْهَـق، وخُسْرُوجِرْد، وبِسطام، ودامِغان، والريّ، وزَنْجَان، وهمَذَان، وأَسَدَاباذ، وجَيّ، وهَراة، وبَوَن، وبَغ، وبُوْشَنْج، وسَرَخْس، ونُوقَان، وسِمْنان، وأَبْهَر، ومَرَند، وخُوَيّ، وجَرْباذَقان، ومُشْكَان، ورُوذْرَاوَر، وحُلوان، وأَرْجِش.

وسَمِـعَ بالأنبار، والرافِقة، والرَّحبَة، وماردين، وماكِسين، وغيرها من البلاد الكثيرة، والمدنِ الشاسعة، والأقاليم المتفرقة، لا ينفكُّ نائي الدار، يُعْمِلُ مَطِيَّهُ في أقاصي القِفارِ، وحيداً لا يَصحبه إلاَّ تُقًى اتخَذَهُ أنيسَه، وعَزْمٌ لا يرى غيرَ بلوغ المآرِب درجةً نفيسة.

وقال شيخه الخطيب أبو الفضل الطُّوسي: ما نَعرِفُ من يَستحق هذا اللَّقَبَ اليوم سواه، يعني لَقَبَ (الحافظ). وقال ابن النجار: هو إمامُ المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرياسةُ في الحفظِ والإتقان، والمعرفة التامة بعلوم الحديث، والثقة والنُّبل، وحُسنِ التصنيف والتجويد، وبه خُتِمَ هذا الشأن.

قال ابن النجار: وسمعتُ شيخنا عبد الوهاب بن الأمين، يقول: كنتُ يوماً مع الحافظ أبـي القاسم ابن عساكر وأبـي سعد ابن السَّمعاني، نمشي في

---

(١) الطَّرِيْف: المستفاد من المال حديثاً، ويقابله التَّليدُ أو التَّالد. «المعجم الوسيط». أي أن الحافظ رحمه الله ضبط الحديث والقديم. س.

طلب الحديث ولقاءِ الشيوخ، فلقينا شيخاً، فاستوقَفَه ابنُ السَّمعاني ليقرأ عليه شيئاً، وطاف على الجزء الذي هو سماعُه في خَرِيطته[1]، فلم يجده وضاق صَدْرُه، فقال له ابن عساكر: ما الجزء الذي هو سماعُه؟ فقال: كتاب «البعث والنشور» لابن أبـي داود، سَمِعَهُ من أبـي نصر الزَّيْنَبـي، فقال له: لا تحزن، وقرأهُ عليه من حفظِه أو بعضَه. قال ابنُ النجار: الشكُّ من شيخنا.

وقال فيه الشيخ محيـي الدين النووي، ومن خَطِّهِ نَقَلْتُ: هو حافظُ الشام بل هو حافظ الدنيا، الإمامُ مطلقاً، الثقةُ الثَّبْت.

تأخُّرُ مسموعاتِ ابن عساكر عليه وقَلَقُهُ عليها حتى وَصَلَتْ

وحكى ولدُه الحافظ أبو محمد القاسمُ، قال: كان أبـي قد سَمِعَ كتباً كثيرة لم يُحصِّل منها نُسَخاً، اعتماداً منه على نُسَخِ رفيقِهِ الحافظ أبـي علي ابن الوزير، وكان ما حَصَّله ابنُ الوزير لا يُحَصِّله أبـي، وما حصَّله أبـي لا يُحصِّله ابنُ الوزير.

---

(١) الخريطة: وعاء من جلد أو نحوه يُشدُّ على ما فيه. «المعجم الوسيط». وأما اصطلاح أهل العصر على إطلاق لفظ (خريطة) على: ما يُرسم عليه سطح الكرة الأرضية أو جزء منه، فلفظ مولَّد. قال الأستاذ حسين مؤنس رحمه الله في كتابه القيّم «أطلس تاريخ الإسلام»، (مدخلٌ في علم الخرائط عند المسلمين)، ص ٢٧: «وقبل أن نختم هذا المدخل إلى علم الخرائط عند المسلمين، نضيف أن العرب لم يكونوا يقولون خريطة، بل كانوا يقولون: «الصورة، أو الرسم، أو لوح الرسم. والإدريسي يقول: لوحة الترسيم».

أما لفظ خريطة، فقد أخذه المصريون عن الفرنسيين عندما تعلموا الفرنسية على أيدي الفرنسيين، وأخذوا منها لفظ Carte وعرَّبوها على خريطة أو خريتة، كما نجد عند إبراهيم باشا رفعت في «مرآة الحرمين»، وربما كان أول من استعمل لفظ الخريطة رفاعة الطهطاوي عندما نشر هو وتلاميذه كتاب جغرافية العالم للعلامة مالطبرون». اهـ. س.

فسمعتُه ليلةً من الليالي، وهو يتحدث مع صاحب له في ضوء القمر في الجامع، فقال: رَحَلتُ وما كأني رحلت! وحَصَّلتُ وما كأني حَصَّلت! كنتُ أحسبُ أن رفيقي ابنَ الوزير يَقدَمُ بالكتب التي سَمِعتُها، مثل «صحيح البخاري» و «مسلم»، وكتب البيهقي، وعَوالي الأجزاء، فاتفقَتْ سُكناه بمَرْوَ وإقامتُهُ بها.

وكنتُ أؤمل وصولَ رفيقٍ آخر، يقال له: يوسف بن فاروا الجَيَّاني، ووصولَ رفيقنا أبي الحسن المُرادي، فإنه يقول لي: ربما وَصَلتُ إلى دمشق، وتوجهت منها إلى بلدي الأندلس، وما أرى واحداً منهم جاء إلى دمشق، فلا بدَّ من الرحلةِ ثالثاً، وتحصيلِ الكتب الكبار، والمهماتِ من الأجزاء والعوالي.

فلم يمضِ إلاَّ أيامٌ يسيرة حتى جاء إنسانٌ من أصحابِه إليه، ودَقَّ عليه الباب، وقال: هذا أبو الحسن المُرادي قد جاء، فَنَزَلَ أبي إليه، وتلقاه وأَنزلَهُ في منزله، وقَدِمَ علينا بأربعة أسفاطٍ مملوءةٍ من الكتب المسموعات، ففرِحَ أبي بذلك فرحاً شديداً، وشكر الله سبحانه على ما يسَّره له من وصول مسموعاته إليه، من غير تعب، وكَفَاه مؤونةَ السفر، وأقبَلَ على تلك الكتب فَنَسَخَ واستنسخ، حتى أتى على مقصودِهِ منها، وكان كلما حَصَلَ على جزء منها، كأنه حَصَلَ على مِلْكِ الدنيا، رحمه الله تعالى ورضي عنه». انتهى.

هذه لَمَعاتٌ من سيرة هذا الإمام الفذ: الحافظِ ابن عساكر الدمشقي، وفيها ما رأيتَ من العجائب الغرائب، والمدهشاتِ المطربات. ولولا محافظتُهُ على الأوقات، واغتنامُهُ الدقائق واللحظات، ما كانت تتأتَّى له تلك التآليف الضخمةُ الجامعةُ الماتعةُ، التي تَعجزُ المجامعُ العلمية اليومَ عن طبعها فضلاً عن تأليفِ مثلِها. فالحِفاظَ الحفاظَ على الأوقاتِ واللحظات، فهي كنز البركاتِ والخيرات.

رداءة خطوط العلماء توفيراً للوقت

ولغلاءِ الوقتِ عند العلماء وشَرَفِه قَلَّ اعتناءُ كثير منهم بتحسين خطه وتجميله، فلم يُحسِّنه ولم يُجمِّله، ليكون الكلامُ فصيحاً بيِّناً، لا تَدخُلُ عليه آفَةُ الاشتباه والتوقف في قراءته وصحةِ تراكيبه وفهم معانيه، قال الإمام أبو الحسن الماوَرْدِي رحمه الله تعالى، في كتابه النفيس العُجَاب: «أدب الدنيا والدين»[1]، وهو يتحدث عما يَمنَعُ من معرفة الكلام وفهمِ معانيه وهو الخَطّ:

«وكانت العرب تُعظِّمُ قَدْرَ الخَطّ، وتَعُدُّهُ من أجَلِّ نافع، وتقول: الخَطُّ أحَدُ اللسانين، وحُسْنُهُ إحدى الفصاحتين، غيرَ أنَّ العلماء اطَّرَحُوا صَرْفَ الهمة إلى تحسين الخط، لأنه يَشغلهُم عن العلم، ويقطعهم عن التوفُّر عليه، ولذلك تجدُ خطوط العلماء في الأغلب رديئةً، لا يَخُطُّ ــ الخَطَّ الحسنَ الجميل ــ إلاَّ من أسعده القَضَاء، وقد قال الفضلُ بن سَهْل ــ وزيرُ المأمون وصاحبُ تدبيرِهِ الملقَّبُ بذي الرياستين: الحربِ والسِّيَاسَة ــ : مِن سعادةِ المرء أن يكونَ رديء الخط، لأن الزمان الذي يُفْنِيه بالكتابة ــ أي بتحسينها وتجميلها ــ يَشغَلُه بالحِفْظِ والنظر.

وليست رداءةُ الخط هي السعادةَ، وإنما السعادةُ أن لا يكون له صارفٌ عن العلم. وعادَةُ ذِيْ الخَطِّ الحَسَن أن يتشاغَلَ بتحسين خَطِّهِ عن العلم، فمن هذا الوجه صار برداءَةِ خَطِّه سعيداً، وإن لم تكن رداءةُ الخط سعادة». انتهى.

قال عبد الفتاح: ومِصداقُ قوله: (إنَّ خطوط العلماء على الأغلب رديئة): خَطُّ الحافظ ابن حَجَر وخَطُّ الحافظ السيوطي، وهما من هما في كثرة التآليف، وتنوُّع التصانيف، رحمهما الله تعالى، وأمثالُهما في رداءةِ الخَطِّ غيرُ قليل.

---

(١) ص ٨٢ ــ ٨٥.

ذكرُ مَنْ قرأ كتاباً مرّاتٍ كثيرةً

ومن نتائج محافظةِ العلماء السالفين على الأوقات، ومراعاتِهم للحَظَات، أن تمكَّنُوا من قراءة كتاب واحد مرات كثيرة تُدهِش الناظرَ في أخبارِهم وسيَرِهم، ولا يتأتى النبوغُ في العلم والرسوخُ فيه إلاَّ بإدامةِ النظرِ وتكرارِ المطالعةِ، لا بتلقِّي دُروسٍ محدودةٍ في دقائق وساعاتٍ معدودة مُحدَّدة.

وكان السلفُ يدرُسون ويتلقَّون العلمَ طول النهار وقسطاً كبيراً من الليل، وكان من جليل مَزَاياهم قراءةُ كتاب واحد مرات وكرَّات، لإتقانِ الكتابِ المقروء وضبطِه وللتثبُّت في أمور العلم وأخذ الحِيْطة بشأنه.

وقد تقدم أن الإمام النووي رحمه الله تعالى طالع «الوسيط» ٤٠٠ مرةٍ. وإليك أخباراً أخرى من هذا الباب وعلى هذا المِنْوال:

١ ــ جاء في «طبقات علماء إفريقية وتونس» لأبـي العَرَب القَيْرَواني[١] في ترجمة المحدِّث الكبير الرحَّال (عباس بن الوليد الفارسي)، تلميذِ سفيان بن عيينة، والفُضَيلِ بن عِيَاض: «قال أبو العرب: ولقد حدَّثَني أبـي أحمَدُ بنُ تميم رحمه الله، أنهم ربما وجدوا في آخر بعض كُتُبِ عباسِ بن الفارِسِيّ: دَرَسْتُهُ ألفَ مرة، وكان قد قُتِلَ سنة ٢١٨ رحمه الله تعالى».

٢ ــ وحكى القاضي المؤرخ الأديب ابن خلِّكان رحمه الله تعالى في كتابه «وفيات الأعيان»[٢]، في ترجمة (أبـي نصر الفارابـي محمد بن محمد بن طَرْخان)، الحكيم المشهور، وأحد أذكياء العالم، المولود سنة ٢٦٠، والمتوفى سنة ٣٣٩ رحمه الله تعالى:

---

(١) ص ٢٢٤.

(٢) ٢: ٧٦.

قرأ علوم الفلسفة، وتناول جميعَ كتبِ أَرَسْطَاطَالِيْس (أرسطو)، وتمهَّر في استخراج معانيها، والوقوف على أغراضه فيها.

ويقال: إنه وُجِدَ كتاب «النَّفْس» لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبـي نصر الفارابـي: إني قرأتُ هذا الكتاب مئةَ مرة. ونُقل عنه أنه كان يقول: قرأتُ «السماع الطبيعي» لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة، وأرى أني محتاج إلى معاودةِ قراءته».

٣ ــ وجاء في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لابن مخلوف[١]، في ترجمة (أبـي محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان)، إمام الفقهاء الراسخين، المولود سنة ٣١١، والمتوفى سنة ٣٧١ رحمه الله تعالى: «أخَذَ عن ابن اللبَّادِ وغيره، دَرَس «المُدَوَّنةَ» نحوَ الألفِ مرة».

٤ ــ وقال الإمام العلامة، القاضي المحدث، شيخ المالكية أبو بكر الأبْهَري (محمد بن عبد الله التميمي البغدادي المالكي) المولود سنة ٢٨٩ والمتوفى سنة ٣٧٥ رحمه الله تعالى: «قرأتُ «مختصر ابن عبد الحكم» خمسَ مئة مرة، و «الأسَدِيَّة» سبعين مرة، و «الموطأ» خمساً وأربعين مرة، و«مختصر البَرْقي» سبعين مرة». انتهى من ترجمته في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض[٢].

وهنا أذكر ما كنت سمعته في دمشق من الأستاذ أحمد عُبيد رحمه الله تعالى صاحب المكتبة العربية فيها[٣]، أنه سأل بعضَ العلماء المعاصرين

---

(١) ص ٩٥.

(٢) ٦: ١٨٣ ــ ١٩٢.

(٣) وُلِد سنة ١٣١٠، وتوفي سنة ١٤٠٩ رحمه الله تعالى. س.

المنقطعين للعلم عن مسألة، وجاء له بكتاب من المكتبة ليراجع فيه، وبدأ الأستاذ أحمد عبيد يبحث عن الفهرس ليستخرج منه موضع المسألة ليراها الشيخ، فاستبعد الشيخ الرجوع إلى الفهرس واستغربه، ثم قال له: لا حاجة للفهرس! وقلَّب صفحات يسيرة ورأى المسألة المطلوبة.

فتبيَّن أن الشيخ إنما استغرب واستبعد الاعتماد على الفهرس، لأنه كان قد قرأ ذلك الكتاب مرات كثيرة، فصارت مواضعُ المسائل فيه على ذهنه ومحفوظِ نظره، فلا يَحتاج إلى الفهرس.

ساقني إلى ذكر هذه الحكاية هنا أن (أبا بكر الأبهري المالكي) قرأ (مختصر ابن عبد الحكم) ٥٠٠ مرة، و (الأَسَدية) ٧٠ مرة، و (الموطأ) ٤٥ مرة، و (مختصر البَرْقي) ٧٠ مرة. فقُلْ لي بربِّك: هل يحتاج العالم الذي يقرأ الكتاب نحو أقل هذه المرات أو ربعها إلى فهرس!!

وكيف لا يصير محدِّثاً أو فقيهاً أو أديباً أو لغوياً أو . . . من يقرأ الكتاب بنحو ربع هذا العدد الأقل؟ وإذا وازنت حالة متخرجي اليوم بحالِ العلماء المتقدمين رأيتَ العجب! يقرأ أحد المتخرجين أحاديث مختارة من «سبل السلام» نحو الخمسين حديثاً مرة واحدة في السنة، ثم يوصف بأنه قرأ الحديث. . . ويقرأ من النحو عدة أبواب مختارة فيوصف بأنه درس النحو. . . وهكذا في الفقه والتفسير وغيرها، فإنا لله!

لا تَعْرِضَنَّ لذكرنا مع ذكرهِم   ليس الصحيح إذا مشى كالمُقْعَدِ!

٥ ــ وجاء في «صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغَلَط»[1] للإمام ابن

---

(١) ص ١٠٥ ــ ١٠٦. [والنص المذكور غير موجود في «المنتخب من السياق». س].

الصلاح، عند ذكر إسناده في «صحيح مسلم» ما يلي: رَوَى «صحيح مسلم» عن أبـي أحمد محمد الجُلُودي أبو الحُسين عبد الغافر الفارسي ــ المتوفى سنة ٤٤٨ عن ٩٥ سنة ــ ، ذكره حفيدُه عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر في «سِيَاق تاريخ نَيْسَابور»، فذَكَر: «أنه كان شيخاً ثقةً صالحاً صائناً، مَحْظُوظاً من الدين والدنيا، مَجْدُوداً في الرواية على قلة سماعاته، مشهوراً مقصوداً من الآفاق.

سَمِع منه الأئمةُ والصُّدُور، وقرأ الحافظ الحسن السمرقندي عليه «صَحيحَ مسلم» نَيِّفا وثلاثين مرةً، وقرأه عليه أبو سعيد البَحِيري نيفاً وعشرين مرةً».

٦ ــ وقال الإمام أبو إسحاق الشيرازي (إبراهيم بن علي) المولود سنة ٣٩٣ والمتوفى سنة ٤٧٦ رحمه الله تعالى، ــ وهو أحد أفذاذ العلماء الكبار ــ : «كنت أُعيدُ كلَّ قياسٍ ألفَ مرة، فإذا فرغتُ أخذتُ قياساً آخر، وهكذا. وكنتُ أعيدُ كلَّ درس ألفَ مرَّة، فإذا كان في المسألة بيتٌ يُستشهَدُ به حفظتُ القصيدة كلَّها لأجله»(١).

٧ ــ وفي «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي(٢)، في ترجمة الإمام إلْكِيَا الهَرَّاسي ــ أي الكبير الخائفِ ــ (علي بن محمد بن علي) النيسابوري ثم البغدادي، المولود سنة ٤٥٠، والمتوفى سنة ٥٠٤ رحمه الله تعالى، تلميذِ إمام الحرمين ومُعِيدِ دَرْسِه، وأجلِّ تلامذتِه بعدَ رفيقِهِ الغزالي: «عن إلْكِيَا قال: كانت في مدرسة سَرْهَنْك بنيسابور قَناةٌ لها سبعون درجة، وكنت إذا حفظتُ الدرسَ

(١) من ترجمتي له في «العلماء العزاب» الترجمة ١٣، وفيها مصادر ترجمته.
(٢) ٧: ٢٣٢.

أَنزِلُ القناة وأُعيدُ الدرس في كل درجة مرةً، في الصعود والنزول، قال: وكذا كنتُ أفعلُ في كل درس حفظتُه».

٨ ــ وجاء في «الصلة» لابن بَشْكوَال الأندلسي[١]، في ترجمة الحافظ المحدث (أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الأندلسي)، المولود سنة ٤٤١، والمتوفى سنة ٥١٨، والد الإمام ابن عطية عبدِ الحق المفسِّر صاحبِ «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، ما يلي: «كان حافظاً للحديث وطُرُقِهِ وعِلَلِه، عارفاً بأسماءِ رجالِه ونَقَلَتِه، منسوباً إلى فهمِهِ، ذاكراً لمتونِهِ ومعانيه، أديباً شاعراً لغوياً، ديِّناً فاضلاً، قرأتُ بخط بعض أصحابنا أنه سَمِعَ أبا بكر بنَ عطية يذكُرُ أنه كرَّر البُخَاريَّ سَبْعَ مِئَةِ مرة».

٩ ــ وفي «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي[٢] في ترجمة الإمام (أبي عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفَرَاوي النيسابوري)، المولود سنة ٤٤١، والمتوفى سنة ٥٣٠ بنيسابور:

«قال أبو سعد السمعاني ــ تلميذُ الفَرَاوي ــ سمعتُ عبد الرزاق بن أبي نصر الطَّبَسِي يقول: «قرأتُ «صحيح مسلم» على الفُرَاوي سَبْعَ عشرة نوبةً، ففي آخر الأيام قال لي: إذا أنا مُت أُوصيك أن تحضُرَ غَسْلي، وأن تُصلِّيَ أنت بمن في الدار، وأنت تُدخِلَ لِسانَك في فيَّ، فإنك قرأتَ به كثيراً حديثَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم»[٣].

---

(١) ص ٤٣٣.

(٢) ٦: ١٦٩.

(٣) هذا من باب (اسمعْ واسكت) كما كان الوالد رحمه الله يقول نقلاً عن الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفّاظ»، أي خُذ العبرة منه ولا تعمل به. سلمان.

١٠ ــ وجاء في الكتاب الماتع «المثل السائر» للأديب الناقد ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد ابن الأثير المولود سنة ٥٥٨ والمتوفى سنة ٦٣٧ رحمه الله[١]: «وكنت جرَّدتُ من الأخبار النبوية كتاباً يشتَمِلُ على ثلاثةِ آلافِ خبرٍ، كلُّها تدخُلُ في الاستعمال، وما زلتُ أواظبُ على مطالعَتِه مدةً تزيد على عشرِ سنين، فكنتُ أُنهي مطالعَتَه في كلِّ أسبوعٍ مرةً، حتى دارَ على ناظري وخاطري ما يزيد على خمس مئة مرة، وصار محفوظاً لا يشذُّ عنِّي منه شيء».

١١ ــ وتقدم عن الحافظ ابن الشِّحْنَة الحجَّار أنه حدَّث بالصحيح أكثر من ستين مرة[٢].

١٢ ــ وفي «فهرس الفهارس والأثبات» لشيخنا الحافظ عبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى[٣]، في ترجمة ابن السنوسي (محمد بن علي السنوسي): «وفي «الحِطَّة» نقلاً عن السيد جمال الدين المحدِّث، عن أستاذِهِ السيدِ أَصِيلِ الدينِ أنه قَالَ: قرأتُ صحيحَ البخاري نحوَ مئةٍ وعشرين مرة. . .

١٣ ــ وفي ترجمة الحافظ برهان الدين الحلبي من «الضوء اللامع» للسخاوي[٤]: أنه قرأ «البخاري» أكثَرَ من ستين مرة، و «مسلماً» نحوَ العشرين، سوى قراءته لهما في الطلب أو قراءتهما من غيرِهِ عليه.

---

(١) ١ : ٢٢٣. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٢) ص ١٣٦.

(٣) ٢ : ١٠٤٥ ــ ١٠٤٦.

(٤) ١ : ١٤١. [والكلام ما يزال للحافظ الكتاني].

١٤ ــ وقال الحافظ السخاوي: حكى الحافظ الذهبـي، عن الحافظ شرف الدين أبـي الحسن اليُوْنِيني أنه سَمِعَهُ يقول: إنه قابَلَ نسختَهُ من «صحيح البخاري»، وأسمَعَهُ في سنةٍ: إحْدَى عَشْرَةَ مرة.

١٥ ــ وفي «طبقات الخَوَاصّ» للشهاب أحمد الشَّرْجِي اليَمَني، في ترجمة سليمان بن إبراهيم العَلَوِي: أنه أتَى على «البخاري» نحواً من مِئتينِ وثمانين مرة، قِراءةً وسَماعاً وإقراءً.

١٦ ــ ووَجَدْتُ في «ثَبَتِ الشهاب أحمد بن قاسم البُوْني»: رأيتُ خَطَّ الفيروزآبادي، في آخر جزء من «صحيح الإمام البخاري»، قال: إنه قرأ «صحيحَ البخاري» أزيدَ من خمسين مرة». انتهى كلام شيخنا الكتاني.

هكذا كان حالُ السلف في المعاناة والصبرِ على تحصيل العلم، وهكذا كان تعبُهم في تكوين أنفسِهم، حتى غَدَوا بحقٍّ أئمةً في علومهم، وما تيسَّر لهم كلُّ ذلك إلاَّ بمراعاة الوقت وكسبِه، وبحفظ كلِّ نَفَسٍ من أنفاس الحياة ولحظاتها، وفقنا الله تعالى لاتباع هَدْيهم واقتفاء أثرهم في اغتنام الدقائق واللحظات، والحِفَاظ على الثواني والسُّوَيعات.

حُسنُ توزيع كل عمل على ما يناسبه من الأوقات

ومما يَحسُنُ لفتُ النظر إليه في شأن الزمن: أن العمل العلمي يُنَزَّلُ منزلتَه من الوقت الملائم له، فمن الأعمال العلمية ما يَصلح له كلُّ وقتٍ وذهن، لِخفَّتِهِ ويُسرِ القيام به، مثلُ النَّسْخ والمطالعةِ الخفيفةِ والقراءةِ العابرة ونحوِها، مما لا يحتاج إلى ذهنٍ صافٍ ويَقَظَةٍ تامة وتفكير دقيق عميق.

ومن الأعمال العلمية ما لا يَكتملُ حصولُه على وجهه الأتم، إلاَّ في الأوقات التي تصفو فيها الأذهان، وتَنشَطُ فيها القرائحُ والأفهام، وتكثُرُ فيها

البركات والنفحات، كساعات الأسحار والفجر والصباح، وساعاتِ هدأةِ الليل والفراغ التامِّ والسكونِ الكامل للمكان.

قال الإمام الخليل بن أحمد الفَراهيدي أَحَدُ عقلاء بني آدم: «أصفَى ما يكونُ ذهنُ الإنسان في وقتِ السَّحَر». وقال الزمخشري في «أساس البلاغة» في (وضع): «وفي كلام بعضهم: إذا كان وجهُ السَّحَر، فاقْرَع عليَّ بابـي حتى تَعرفَ مَوضعَ رأيـي».

قال عبد الفتاح: إنما قال الخليلُ والزمخشريُّ ما قالاه عن وَقْتِ السَّحَر وفَضْلِه، حِينَ كان الفجرُ وما قبلَ الفجر هو وَقْتَ ذِرْوَةِ النشاطِ العقلي والارتياح الجِسمي في حياةِ أولئك الناس، أما اليومَ فتغيَّرَتْ الحالُ! فصار هذا الوقتُ عِند أكثر الناسِ أثقَلَ الأوقاتِ بالنومِ والارتخاء! وذهبَتْ عنهم ساعاتُ الصفاءِ والسكون، وذَهَبَتْ معَها نَسَمَاتُ الأسحار ونَفَحات الأبرار!

وقال الإمامُ الأديبُ أبو علي الحسن ابنُ رَشِيق القَيْرَواني، في كتابه «العمدة، في محاسِن الشعر، وآدابه، ونقدِه»[1]، في الباب الذي عَقَدَه بعنوان (باب عَمَلِ الشِّعْرِ، وشَحْذِ القريحةِ له)، ما يصلح أن يَستفيدَ منه طالبُ العلم، لحلِّ المعضِلات، وفَتْح المُقْفَلات، واستظهار المحفوظات، قال رحمه الله تعالى:

«ومما يَجمَعُ الفِكرةَ استلقاءُ الرجل على ظهره، وعلى كل حال فليس يَفتَحُ مُقْفَلَ بِحارِ الخواطرِ مِثْلُ مُباكَرَةِ العَمَل بالأسحار، عند الهُبوبِ من النوم، لكونِ النَّفسِ مجتمعةً لم يَتفرَّق حِسُّها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غيرِ ذلك مما يُعييها، وإذْ هي مُستريحةٌ جديدةٌ كأنما أُنْشِئَتْ نَشأةً أخرى، ولأنَّ السَّحَر ألطفُ هواءً وأرقُّ نَسِيماً، وأعدَلُ مِيزاناً بين الليل والنهار.

---

(١) ١:٢٠٨ أو ١:٣٣٤.

وإنما لم يكن العَشِيُّ كالسَّحَر ــ وهو عَدِيلُهُ في التوسُّطِ بين طَرَفَيْ الليل والنهار ــ لدخول الظُّلْمَةِ فيه على الضياء، بضدِّ دخولِ الضياء في السَّحَر على الظُّلْمَةِ. ولأنَّ النَّفْسَ فيه كالَّةٌ مريضةٌ من تَعَب النهار وتصرُّفها فيه، ومُحتاجةٌ إلى قُوْتِها من النوم مُتَشَوِّقةٌ نحوَه.

فالسَّحَر أحسَنُ لمن أراد أن يَصْنَع ــ أي يَصْنَعَ الشِّعْرَ أو يُؤَلِّفَ أو يُنشِىءَ أو يَدْرُسَ المُعْضِلاَتِ والمُشْكِلات ــ وأما لمن أراد الحفظَ والدراسةَ وما أشبهَ ذلك فالليلُ، قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: **﴿إنَّ ناشِئةَ اللَّيْلِ هي أشدُّ وَطْأً وأقومُ قِيلاً﴾**[1] ». انتهى.

فينبغي أن تُنْتَهَز هذه الساعاتُ الصافية، والأوقاتُ المباركة، لحل المشكلات العويصة، والمعضِلات الصعبة، وتنقيحِ المسائل المتشابكة، وتصويبِ التصحيفات والتحريفات المستعصية، واستفتاح العبارات المغلقَة الغامضة، وحفظِ النصوص المستظهرة، وأمثالِ ذلك.

أبو هلال العسكري يمدح طول ليل الشتاء

ومما ينبغي انتهازه من الأزمان ليل الشتاء، فإنه ممتدٌ وطويل. ولذا كانت له مكانة عند العباد والعلماء، فهو أثمن ما يكون عندهم، فأما العباد فيعمرونه بالقرآن والصلاة والاستغفار، وأما العلماء فيقطعونه بالقراءة والتحصيل والتصنيف والمذاكرة.

وللعلامة الأديب اللغوي أبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله المنسوب إلى عسكر مُكْرَم من كور الأهواز والمتوفى بعد سنة ٣٩٥ رحمه الله

---

(١) من سورة المزمل، الآية ٧.

تعالى، أبيات من قصيدة له يفضل فيها الشتاء على غيره من الأزمنة، ويمدح طول ليل الشتاء[١]، قال:

وليـالٍ أطَلْـنَ مُـدَّةَ درسـي　　مثلما قد مَدَدْنَ في عمر لهوي
مـرّ لـي بعضُهـا بفقـهٍ، وبعـضٌ　　بيـن شِعـرٍ أخـذتُ فيـه ونَحْـوِ
وحـديـثٍ كـأنـه عِقْـدُ رَيَّـا　　بِـتُّ أرويـه للـرجـال وتـروي
في حديث الرجال روضةُ أنس　　بـات يُـرْعَـى بـأهـلِ نُبْـلٍ وسَـرْوِ

ذكرُ أفضلِ أوقاتِ الحفظِ وأماكنِهِ

قال الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه»[٢]، وهو يتحدث عن أفضل أوقات الحفظ، وأجود الأماكن المساعدة عليه: «اعلم أنَّ للحِفْظ ساعاتٍ ينبغي لمن أراد التحفُّظَ[٣] أن يراعيها، وأنَّ للحفظ أماكنَ ينبغي للمتحفِّظِ أن يَلزَمَها.

فأجوَدُ الأوقاتِ: الأسحارُ، ثم بعدَها وقتُ انتصاف النهار، وبعدَها الغَدَوَات دون العَشِيَّات. وحِفظُ الليل أصلحُ من حفظ النهار، وأوقاتُ الجوع أحمَدُ للتحفظ من أوقاتِ الشِّبَع. وينبغي للمتحفِّظِ أن يتفقد من نفسِهِ حالَ الجوع، فإنَّ بعض الناس إذا أصابه شِدَّةُ الجوع والتهابُه لم يحفظ، فليُطفِىء ذلك عن نفسِه بالشيء الخفيف اليسير، ولا يُكثر الأكل.

وأجوَدُ أماكن الحفظ: الغُرَف[٤] دُونَ السُّفْل، وكلُّ موضع بَعُدِ عما

---

(١) «معجم الأدباء» ٨: ٢٦٧.
(٢) ٢: ٢٠٧ ــ ٢٠٨.
(٣) تحفَّظَ الكتابَ: بَذَل جهداً في حفظهِ جزءاً بعدَ جزء.
(٤) أي: الحُجَرُ العاليةُ المرتفعةُ.

يُلهي، وخلا القلبُ فيه مما يَقْرَعُهُ[١] فيَشغَلُه، أو يَغْلِبُ عليه فيَمْنَعُه. وليس بالمحمود أن يتحفَّظَ الرجلُ بحَضْرةِ النَّبَاتِ والخُضْرَةِ، ولا على شطوطِ الأنهار، ولا على قوارع الطرق، فليس يَعدَمُ في هذه المواضع غالباً ما يَمنعُ من خُلوِّ القَلْبِ وصَفَاءِ السِّرِّ». انتهى كلام الخطيب. بتصرف.

قلتُ: وعلى غيرِ هذا التوجيهِ في الأماكن كان أبو نصر الفارابي. فقد حكى القاضي ابنُ خَلِّكان في ترجمته في «وَفَيَات الأعيان»[٢]، قال: «كان منفرداً بنفسِه، لا يُجالسُ أحداً من الناس، وكان مُدَّةَ مُقامِهِ بدمشق لا يكون غالباً إلاَّ عند مجتَمَع ماء، أو مشتَبَك رياض، ويُؤلِّفُ هناك كتبَهُ، ويَتناوبُهُ المشتغلون عليه». انتهى.

وقد فعل الفارابي ذلك لأن النفسَ تنشرح عند لون الخُضرة أكثَرَ من غيره، ولأن لون الخضرة ـ في اعتقاد السابقين ـ يزيد في قوة البصر، جاء في «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور[٣]، في ترجمة الإمام النسائي صاحب «السنن»، ما يلي: «قال أبو بكر محمد بن موسى: كان أبو عبد الرحمن النسائي، يُؤثرُ لباسَ البرودِ النَّوْبِيَّة الخُضْرِ، ويقول: هذا عِوَضٌ عن النظر إلى الخُضرة من النبات، فيما يُرادُ لقوة البصر».

وقال الإمام ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع والمتكلِّم»[٤]: «الخامس في آداب المتعلم في نفسه: أن يُقَسِّمَ أوقاتَ ليلِهِ ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقيَّة العمر لا قيمةَ له ـ أي لا يُقَوَّمُ بشيء لنفاسَتِه وعِزَّتِهِ ـ!

وأجودُ الأوقاتِ للحفظ: الأسحارُ، وللبحثِ: الأبكارُ ـ جَمْعُ الجَمْعِ

---

(١) في طبعة الرياض: «يُفزعه»، والصواب: «يَقْرَعُهُ».

(٢) ٥: ١٥٦.

(٣) ٣: ١٠١.

(٤) ص ٧٢.

لبُكْرَةِ وهي أوَّلُ النهار ــ ، وللكتابةِ وسَطُ النهار، وللمطالعةِ والمذاكرة: الليل». انتهى.

ترك المعاصي تقويةٌ للحفظ

واعلم ــ أيها القارىء الكريم ــ أنَّ قوَّةَ الحافِظَةِ موهبةٌ مِن اللهِ يختصُّ بها من يشاء، فإذا أردتَ أن تَحْظَى بهذه النعماءِ، فاجتنبْ غضب الربِّ باطِّراحِ المعاصي، وتركِ الذنوبِ، ليبقى قلبُكَ نقيّاً وذِهنُكَ خَلِيّاً. جاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر وغيره، في ترجمة الإمام وكيع بن الجراح[١]، شيخ الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل: «قال علي بن خشرم: رأيتُ وكيعَ بن الجراح الكوفي وما رأيت بيده كتاباً قط، إنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: تَرْكُ المعاصي، ما جربتُ مثله للحفظ»[٢]. ومن هنا جاء ما يُنسَبُ إلى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

شَكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظِي فأرشدَني إلى تركِ المعاصي
وأخبَرَني بأنَّ العلمَ نورٌ ونورُ الله لا يُهدَى لعاصي

ومما ورد في شأنِ الحفظ، ما جاء في «مناقب الإمام أبي حنيفة» للموفق المكي[٣]، وللكردري[٤]: «قال وكيعُ بنُ الجراح: سمعتُ رجلاً يسأل أبا حنيفة: بِمَ يُستعانُ على الفقهِ حتى يُحفَظ؟ قال: بجَمْعِ الهِمَّةِ، قال: قلتُ: وبِمَ يُستعانُ على جمعِ الهِمَّةِ؟ قال: بحَذْفِ العلائقِ، قلتُ: وبِمَ

---

(١) ١١: ١٢٩.

(٢) قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إني لأحسَبُ الرجلَ ينسى العلمَ كان يعلمُه للخطيئة كان يعمَلُها». «سنن الدارمي» ١: ٣٧٩ وغيره. س.

(٣) ١: ٣٥٢.

(٤) ٢: ٣٥٠. [والنص بنحوه في «الفقيه والمتفقه» ٢: ١٨٤].

يُستعانُ على حذفِ العلائقِ؟ قال: بأخذِ الشيءِ عندَ الحاجةِ ولا تَزِدْ»[١].

وجاء في ترجمة الإمام البخاريِّ في «سير أعلام النبلاء»[٢]: «قال النَّجْم بن فُضَيل: بلغني أن أبا عبد الله شربَ دواءَ الحفظِ يُقال له: بَلاذُر، فقلت له يوماً خلوةً: هل من دواءٍ يشربُه الرجلُ، فينتفعُ به للحفظِ؟ فقال: لا أعلمْ، ثم أقبل عليَّ، وقال: لا أعلم شيئاً أنْفعَ للحفظِ من نَهْمَةِ الرجلِ، ومداومةِ النظر». انتهى.

والتكرارُ سُنَّةُ العلماء للحفظِ والضبطِ والمعرفةِ كما تقدم آنفاً في (ذكرُ مَنْ قرأ كتاباً مراتٍ كثيرةً).

مذاكرةُ العِلْم تثبتُ المحفوظ

واسمع هذه النصائحَ الذهبيةَ من الإمام النووي رحمه الله، قال في «شرح صحيح مسلم»[٣]: «وليسَ المرادُ مِن هذا العلم مجرَّدَ السماعِ ولا الإسماعِ ولا الكتابةِ، بل الاعتناءُ بتحقيقِهِ، والبحثُ عن خَفِيِّ معاني المتونِ والأسانيدِ، والفِكْرُ في ذلكَ ودوامُ الاعتناءِ بهِ، ومراجعةُ أهلِ المعرفةِ به، ومطالعةُ كُتُبِ أهلِ التحقيق فيه، وتقييدُ ما حصَّل مِن نفائسِهِ وغيرِها، فيحفظها الطالبُ بقلبِهِ، ويُقَيِّدُها بالكتابةِ، ثم يُديمُ مطالعةَ ما كتَبَهُ، ويتحرَّى التحقيقَ فيما يكتبُهُ ويتثبتُ فيه، فإنَّهُ فيما بعدَ ذلك يصيرُ معتَمداً عليه.

---

(١) قال محمد بن خُشْنَام الهروي:

لئن رُمتَ تحصيلاً بصادق نية ... فأكثر له درساً وفرِّغ له قلبا
وصدِّق له قولاً وشمِّر لحفظه ... وجرِّدْ له وَهْماً ونقِّح له لُبَّا
وإن شئت أن تحظى بمكنون سرِّه ... فعظِّم له قدراً وأخلص له حبَّا

«المحمدون من الشعراء» للقفطي ص ٤١٢. سلمان.

(٢) ١٢: ٤٠٦.

(٣) ١: ٤٧ و ٤٨. والنص من إضافة العبد سلمان.

ويُذاكِرُ بمحفوظاتِهِ مِن ذلِكَ مَن يشتَغِلُ بهذا الفنِّ، سواءٌ كان مثلَه في المرتبةِ، أو فوقَه أو تحتَه، **فإنّ بالمذاكرةِ يَثْبُتُ المحفوظُ ويتحرَّرُ، ويتأكَّدُ ويتقرَّرُ، ويزدادُ بحسَبِ كثرةِ المذاكرةِ.**

ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنِّ سَاعةً أنفعُ من المطالعةِ والحفظِ ساعاتٍ بل أياماً.

وليكُنْ في مذاكرتِهِ متحرياً الإنصافَ، قاصداً الاستفادةَ أو الإفـادةَ، غيرَ مترفِّعٍ على صاحبِهِ بقلبِهِ ولا بكلامِهِ، ولا بغيرِ ذلك من حالِهِ، مخاطباً له بالعبارةِ الجميلةِ الليّنَةِ، فبهذا ينمُو علمُه، وتزكُو محفوظاتُه، والله أعلم». انتهى كلام هذا الإمام النّوراني الرباني رحمه الله وطيب ثراه.

وجاء في «سير أعلام النبلاء»[١]، في ترجمة الإمام (محمد بن شهاب الزهري) التابعي، الإمام، حافظ زمانه، الذي قال عن نفسه: ما قُلتُ لأحدٍ حدَّثَني بحديثٍ: أعِده عليَّ، ولا استفهمتُ عالماً قط، وما استَودعتُ قلبـي شيئاً قط فنسيتُه: «رَوَى الأوزاعيُّ عن الزهري قال: إنما يُذهِبُ العلمَ النسيانُ، وتَرْكُ المذاكرة».

استحباب البُعد عن الضوضاء عند الحفظ والدرس

وإنما استحبوا لطلبة العلم: الخلوةَ والبعدَ عن الناس والضَّوْضَاء، لأنَّ الخلوةَ تُعينُ على صفاءِ الفِكْرِ، وإذا صَفَا الفكرُ صَحَّ النظرُ والفهمُ في طلب المعلومات، وهم يَطلبون العلم من ميزان العقل، وهذا الميزان في غايةِ اللَّطَافَةِ، يتأثَّرُ بأدنى هَوَى أو شاغلٍ، فيخرُجُ عن الاستقامةِ، فلذا راعَوْا في تحصيل دقيق العلم والمسائلِ وصِعابِها: الزمانَ والمكانَ، ليَتِمَّ لهم الفَهْمُ، ويَستقيمَ منهم التصوُّرُ والحُكْمُ.

---

(١) ٥: ٣٣٧.

قال الإمامُ المحدِّثُ الفقيهُ الأديبُ أبو سليمان حَمْدُ بن محمد الخَطَّابـي، البُسْتي، المولود سنة ٣١٩، والمتوفى سنة ٣٨٨ رحمه الله تعالى[١]:

إذا ما خَلَوْتُ صَفَا ذِهْني وَعارَضَني ... خَـوَاطِـرٌ كطِـرازِ البَـرْقِ فـي الظُّلَـمِ

وإن تَـوَالَـى صِياحُ النـاعِقِيـنَ علـى ... أُذْنِـي عَـرَتْنِـي منـه حُكْلـةُ العَجَـمِ[٢]

استحسانُ أن يُخادِعَ المرءُ نفسَهُ عند المَلَلِ والفتور

جاء في كتاب «الحثّ على طلب العلم» لأبـي هلال العسكري[٣]: «قال ابنُ جَرْوٍ المَوْصِلي[٤]: ينبغي أن يُؤَخِّرَ الإنسانُ دَرْسَهُ للأخبارِ والأشعارِ لوقتِ مَلَلِهِ. وقال ابنُ المَرَاغي[٥]: ينبغي أن يُخادِعَ الإنسانُ نَفْسَهُ في الدرس». انتهى.

قلتُ: يعني بهذا أنَّ الإنسانَ إذا أدركه مَلَلٌ أو لحِقَهُ فُتُور، فلا يَحسُنُ به أن يَستَجيبَ له ويَقِفَ عن متابعةِ الدرس والتحصيل، بل يُعالِجَ فتورَهُ ويغالبَ مَلَلَهُ حتى يتغلَّبَ عليه، فَيَنْقَشِعَ الفُتُورُ والمَلَل، ويأتيَ النشاطُ والانبساطُ.

---

(١) كما في ترجمته في «يتيمة الدهر» لصاحبه الثعالبـي ٤ : ٣٨٥.

(٢) الحُكْلَةُ: العُجْمَةُ، وهي هنا أن لا يستطيع المرءُ البيانَ عما في نفسه، لتشتُّتِ ذهنه.

(٣) ص ٦٦.

(٤) هـو أبـو القـاسـم عُبيـد الله بـن محمـد الأسـدي المعتـزلـي، الأديـب النَّحْـوي العَروضي، أحَدُ الأذكياء الحُذَّاق، توفي سنة ٣٨٧، كما في ترجمته في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ١٢ : ٦٢.

(٥) هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهَمَذَاني ثم البغدادي، الأديب النَّحْوي اللغوي، توفي سنة ٣٧١، كما في «بغية الوعاة» للسيوطي ٢ : ٧٠، وله ترجمة في «معجم الأدباء» ١٨ : ١٠١.

وقال العلامة الشيخ علي القاري رحمه الله في كتابه: «شرح شرح النخبة» في علم المصطلح[١]: «الفتورُ يؤدي إلى القصور، والتعطيلُ يُنسِي التحصيل».

بعضُ ما يُعَالَجُ بِهِ المَلَل ويُطْرَدُ به النُّعاسُ والكَسَل

إذا جاءك النعاسُ، ودَغْدَغَكَ الفتورُ منهُ فلا تستقبلْه بالتَّرْحَابِ والقيامِ إلى النومِ، أو أن تنامَ حيثُ أنتَ! ولكنْ تحوَّل أنتَ عليه واعمل عملاً آخرَ غيرَ الذي وَرَدَ النومُ أو النعاسُ عليكَ فيه، فينشطُ الذهنُ من فتوره، وتتبددُ النَّعْسَة التي أحاطتْ بكَ في جملةِ التحرُّكِ والتحوُّلِ الذي قُمتَ به، وبهذا ونحوه يبتعِد عنك تيارُ النعاسِ والكسلِ، وما هي إلاَّ دقائقُ معدودةٌ فتنشَطُ من جديد وتستقبلُ العلمَ بذهنٍ صاحٍ شَغِفٍ بفضل الله تعالى.

ويَحْصُلُ ذلك حيناً بمَضْغ اللُّبان[٢]، أو الخروجِ قليلاً من المكان المسقوف إلى الفضاءِ والهواء، أو بالانتقال والتحول من غرفة إلى غرفة، أو القيامِ إذا كنت قاعداً، أو الجلوسِ إذا كنت مضطجعاً، أو الارتفاعِ عن المستنَد إذا كنتَ مستنداً، أو الاستحمامِ الخفيف بالماء البارد أو الحار، أو تناولِ شرابٍ لطيف، أو طعامٍ خفيف، أو المُحادثةِ مع صديق أو جليس، أو إنشادِ شعر، أو تلاوةِ قرآنٍ بصوتٍ جاهر، أو تغيير هَيْئَةِ الجلوس، أو بالمَشي أو الصُّعود، أو تبديلِ الكتاب المقروءِ أو الموضوع، أو نحوِ ذلك من صوارف الفُتُورِ والمَلَل.

---

(١) ص ١٢.

(٢) اللُّبان بضم اللام، هو العِلك، يقال له: العلك الرومي، والمَصْطكا، ويقال لِلُّبان: الكُنْدُر بالفارسية، ومضغُ هذه الأثمار الصَّمْغية مَطْرَدةٌ للنوم والسآمة، فضلاً عن منافعها الطبية. وانظرها إذا شئت في كتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» للملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول اليمني ص ٣٣٣ و ٤٣٤ و ٤٥١ و ٥٠٠.

واعلم أنّ لكل جسمٍ صلاحاً، ولكل نشاطٍ مفتاحاً، ولا يَخفَى ذلك على الحريصين النبهاء(١).

فمعالجةُ النعاسِ أو النومِ عند طالبِ العلمِ الغالي وقتُه: مطلوبةٌ، وإذا طرقتَ للنعاسِ طريقه يوماً عليك فنمتَ كما جاءك، فسيطرِّق عليك غداً وبعدَ غَدٍ حتى تُصبحَ الحالةُ (عادةً محكَّمةً!) وتصبحَ أسيرَ هذه الساعةِ بالنعاسِ، فبدِّدِ النعاسَ بالمشي في المكانِ أو الخروجِ منه أو تغييرِ العمل الذي أنت فيه، أو بالحديث مع رفيقٍ أو صديقٍ أو غيرِ ذلك من الوسائلِ القاطعةِ لتَسَلُّلِ سُلْطَان النعاسِ على سُلْطَانِ العلم والطلبِ فتفوزَ بلا ريب.

[قال أبو العتاهية:

لن يُصْلِحَ النفسَ إذْ كانتْ مُدَبِّرَةً إلا التنقُّلُ من حالٍ إلى حالِ]

وقد أوردت سابقاً خبر الإمام محمد بن الحسن ومغالبته للنوم، وأورده هنا لتمام المناسبة، فقد حكى العلامة حافظ الدين الكَرْدَري رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام محمد بن الحسن الشيباني في «مناقب الإمام أبي حنيفة»(٢)، ما يلي: «قال محمد بن سَمَاعة ـ تلميذُ الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ كان محمد بن الحسن جزَّأ الليلَ ثلاثة أجزاء، جزءاً ينام، وجزءاً يصلي، وجزءاً

---

(١) **قال سلمان**: وقد كان سيدي الوالد رحمه الله يفعل أكثر ما ذكر مما يمنع النعاس، ويساعد على تنشيط الذهن والبدن، فقد تجده أوقف الكتابة أو المطالعة وأخذ يتلو القرآن جهراً، أو ينشد أبياتاً من الشعر، أو شَرِب قهوة، أو عصير برتقال، أو أكل فاكهة، أو مشى عدة خطوات، أو مضغ لُباناً، أو تملَّح بِبِزْر ونحوه.

فللَّه دَرُّه من عاقل عامل محب للعلم ناصح لأهله، يُهدي لطلابه ومحبيه خلاصة علمه وثمرة تجربته، ثم يأتي أناس فيأخذون ذلك ويعزونه لأنفسهم!

(٢) ٢: ٤٣٥.

يَدْرُس، وبَلَغ من شُغلِه بالعلم أنه كان يتَّسِـخُ لباسُه ولا يتفرغ لنزعِه، حتى يؤتَى بثوبِ غيرِه فيلبَس ويَنزع.

وكان يجلسُ وقد خَلَع قميصَه وحوله الكراريس، فكان يَرفعُ كُرَّاساً ويضعُه ثم يرفعُ آخر، وبَيْنَ يديه طَسْتٌ من ماءٍ، ولا ينام إلاَّ قليلاً.

فقيل له: لِمَ لا تنام؟ فقال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين توكلاً علينا، ويقولون: إذا وقع لنا أمرٌ رفعناه فيكشِفُه لنا، وإذا نِمْتُ ففيه تضييعٌ للدين، فقيل: ما لك نزعتَ القميص؟ فقال: النومُ من الحرارة، والحرارةُ من الثوب، فإذا أتاني النوم صببتُ الماء على جسدي، وأما كثرةُ الكراريس فلأن العلم ثقيل، فأنظرُ في هذا فإذا ثَقُل أخذتُ بآخر». انتهى باختصار وتصرف يسير.

وكان الإمام العلامة الفقيه القاضي أحمدُ بنُ عمرَ المُزَجَّد اليمنيُّ الزَّبيديُّ إذا سَئِم من القراءة والمطالعة استدعى بـ«مقامات الحريري»، فيطالعُ فيها ويسميها: طبَقَ الحلوى، كما في ترجمته في كتاب: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر»[1].

لزومُ الاشتغالِ بالمهم وتقديمِهِ على غير المُهِمّ

ومـن العلم مـا يكون خفيـفَ العائدة، قليـلَ الفائـدة، تحصيلُـه كمال، وفَقْدُه ليس بنقص، ونفعُه قليل، والحاجةُ إليه أقل، فمثلُ هذا لا تُصرَفُ فيه الأوقات، ولا تُشْغَلُ به النفوسُ والأذهان، فإنَّ الاشتغالَ بالمفضولِ عائقٌ عن الوصول إلى الفاضِلِ والأفضل، ومستهلِكٌ من الوقتِ ونشاطِ الجسم ما يَقْعُدُ

---

(١) ص ١٣٠.

بالمرء عن بلوغ ما يُحبُّ ويُريد. قال صالحُ بنُ عبد القدوس[١]:

وإذا طَلَبتَ العلمَ فاعلَمْ أنه   حِمْلٌ، فأبصِرْ أيَّ شيءٍ تَحْمِلُ
وإذا علمتَ بأنه متفاضلٌ   فاشْغَلْ فؤادَك بالذي هو أفضلُ

فينبغي للعاقل أن يصرفَ ذلك الذهنَ القويَّ، والوقتَ الغاليَ النفيس، في العمل الأفضل والمحصول الأطيب، ليكسب الأغنم والأمثل.

ولذا قال لنا مشايخنا: تعلَّموا كيف تتعلمون، فإنَّ العلمَ ليس له نهاية.

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: «لا يكون إماماً في العلم، مَنْ أَخَذ بالشاذِّ من العلمِ، **أو رَوَى عن كُلِّ أحدٍ**، أو رَوَى كلَّ ما سَمِعَ»[٢].

[وقال رحمه الله أيضاً: «لا ينبغي للرجل أن يَشْغَل نفسَه بكتابةِ أحاديثِ الضِّعَاف، فإنَّ أقلَّ ما فيهِ أن يفوتَه بقَدْرِ ما يكتبُ من حديثِ أهلِ الضعفِ، يفوتُه من حديثِ الثقات»[٣].

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى موضحاً حال من ترك المهم واشتغل بغير المهم: «تركوا الحديث وأقبلوا على الغرائبِ، ما أَقَلَّ الفقه فيهم!»[٤]، أي ما أقلَّ الفهم فيهم، لأنهم تركوا مشهور الحديث وصرفوا جهدهم لغريبه وشاذه.

وقال أبو عُبَيدة مَعْمر بن المثنى: «من شغل نَفْسَه بغير المُهِمّ أضرَّ بالمُهِمِّ»[٥].

---

(١) كما في ترجمته في «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر ٤ : ٢٩٣.

(٢) «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» لابن أبي شامة، ص ١٧٩.

(٣) «الكفاية» للخطيب، ص ١٣٣.

(٤) «الكفاية»، ص ١٤٢.

(٥) «توجيه النظر» ٢ : ٧٢٠.

قال ابن سيرين ــ فيما نُسِبَ إليه ــ : «العلمُ أكثرُ من أن يُحاط به، فخذوا من كلِّ شيء أحسَنه»(١).

وقال الشَّاعر:

لن يبلغ العلمَ جميعاً أحدٌ ... لا ولو حاوله ألفَ سَنهْ

إنما العلم عميق بحره ... فخذوا مِن كلّ شيء أحسنه]

وقال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: «والعلمُ كالبحارِ المتعذِّر كيلُها، والمَعَادِنِ التي لا يَنْقَطِعُ نيلُها، فاشتَغِلْ بالمهمِّ منه، فإنه من شَغَل نفسَه بغير المهمِّ، أَضَرَّ بالمهمِّ». انتهى.

وهذا ما أشار إليه العباس بن الحسن العلوي، ــ وكان أحد العلماء العقلاء النبهاء، والأذكياء البلغاء الشعراء، وكان في صَحَابَةِ الخليفة هارون الرشيد والخليفة المأمون بعده(٢)ــ في نصيحته الغالية التي أستحسنُ أن أوردها بتمامها، لما حوت من عميق الفكر وبليغ القول:

---

(١) «مختار العقد الفريد»، ص ١١. ونُسب ذلك لابن عباس في «الموشَّى» للوشَّاء.

(٢) قال الخطيب في «تاريخ بغداد» ١٢: ١٢٦: «وهو من أهل المدينة، قَدِمَ بغداد في زمن هارون الرشيد، وأقام في صَحَابتِهِ، وصَحِبَ المأمون بعده، وكان عالماً شاعراً فصيحاً. ــ ولم يذكر سنة وفاته ــ ، قال عبد الله بن مسلم: جاء العباس بن الحسن إلى باب المأمون، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال له العباس: لو أُذِنَ لنا لدخلنا، ولو اعْتُذر إلينا لقَبِلْنا، ولو صُرِفنا لانصرفنا، فأما اللفتة بعد النظرة فلا أعرفها! ثم أنشد:

وما عن رضاً كان الحِمارُ مَطِيَّتي ... ولكنْ من يَمْشي سيرضَى بما رَكب!»

ثم ذكر الخطيب في ترجمته وصيتَهُ ونصيحتَهُ هذه، وهي من أبلغَ النصائح وأنفعها.

قال سلمان: وجدتُ هذه النصيحة بنحوها في أوائل كتاب ابن المقفَّع «الأدب الكبير»، وهو متقدّم على العباس العلوي، فتأمّل.

وصية العباس العَلَويّ في تقديم الأهمّ على الهامّ

قال العباس رحمه الله تعالى: «اعلم أنَّ رأيكَ لا يتَّسِعُ لكلِّ شيءٍ، ففرِّغه للمُهِمِّ. وأنَّ مَالَكَ لا يُغني الناسَ كُلَّهم، فخُصَّ به أهلَ الحقِّ. وأنَّ كرامَتَكَ لا تُطَبِّقُ العامَّة ـ أي لا تعُمُّهُم وتتسِعُ لهم ـ، فتوَخَّ بها أهلَ الفضل. وأنَّ ليلكَ ونهاركَ لا يستوعبان حاجتك وإن دأبتَ فيهما، فأحسِنْ قِسمتهما بين عَمَلِك ودَعَتِكَ من ذلك.

فإنَّ ما شَغَلتَ من رأيك في غيرِ المُهِمِّ إزراءٌ بالمُهِمِّ[١]، وما صَرفتَ من

(١) قلتُ: وكثيراً مَّا يُزَيِّنُ لطالب العلم ويَحْلُو له أيامَ الامتحان، قراءةُ العلم، الذي ليس مُطالَباً به في الاختبار، ويأتيه العُزُوفُ عن العلم المطالَبِ به (المُهِمِّ)، وهذا من مَرَض النَّفْسِ وضعفِ الهِمَّة والنشاط، فإن العلم المطالبَ به فيه تكليفٌ وإلزام وتحمُّلٌ وأداء، فهو ثقيل على النَّفْس الوانية، والعلمُ غيرُ المطالب به لا تكليفَ به، فهو خفيف على النفس، فليحذر العاقِلُ الاستجابةَ لهوى نفسه، فإن هذا من سَرِقَةِ الشيطان له وانحرافِهِ به عن الصواب والمُهِمِّ، والله الهادي.

قال العبد سلمان: وبلاءٌ آخر رأيته في بعض طلبة العلم، ولا سيما الجامعيين، وهو عدم اهتمامهم بمقرراتهم الدراسية بزعمهم أن ليس فيها علم، وانصرافهم إلى كتب أخرى أو دروس ومحاضرات المشايخ العامة.

وحالهم حال من ترك الفرض واهتم بالنفل!

وقد قيل في الحكمة: من علامات اتباع الهوى المسارعةُ إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات.

وزعمهم أن مقرراتهم ليس فيها علم مغالطة، فلو كان فيهم حِرْص وجدٌّ لختموها ثم توجهوا للمشايخ، لكن لما ثقلت عليهم وتهاونوا بها لكسلهم، غالطوا أنفسهم بأنها لا تحوي علماً!

نعم ليس فيها كل العلم، وليست العلم كله، وإنما هي مفاتيح للعلم لمن كان متقناً مُجِدًّا، فخذ المفاتيح بحقٍّ وأتِ البيوت من أبوابها. =

مالك في الباطل، فَقَدتَه حين تريدُه للحقِّ. وما عمَدتَ مِن كرامتِك إلى ــ أهلِ ــ النقصِ، أضَرَّ بك في العجزِ عن أهلِ الفضلِ. وما شغلتَ من ليلِك ونهارِك في غيرِ الحاجة، أزرى بك في الحاجة». انتهى.

هذه لمَحَات وقَبَسات من بيان قيمة الزمن، عند أولئك العلماء والأئمةِ الفضلاء، الذين اجتزأتُ بذكر بعضهم عن ذكر الكثير منهم، ولقد كانوا فَخْرَ الإسلام بل فخرَ الإنسانية.

أولئك قومٌ شَيَّد اللهُ فَخرَهُم ... فما فوقَه فَخْرٌ وإن عَظُمَ الفخرُ
هكذا هكذا تكون المعالي ... طُرُقُ الجِدِّ غيرُ طُرُقِ المزاحِ
فأكرمْ بفرعٍ هؤلاءِ أصولُه ... وأعظمْ ببيتٍ هؤلاء قواعِدُه[١]

فليس لك بعد هذا ــ أيها القارىء الكريم ــ أن تستغرب إذا سمعتَ أو قرأتَ: أنَّ للعالم الفلاني أكثرَ من مئة كتاب، وأنَّ تآليفه قد شَارَكَتْ في كل علمٍ بأوفرِ نصيب، فإنَّ مَرَدَّ ذلك وسببَه أنهم قد حفظوا الوقت، وتخَلَّوا عن الفضول والغفلةِ عن مُضيِّ الزمان، فبادروا اللحظات والدقائق والساعات، فكانت لهم تلك المآثِرُ الباقيات.

= والعلمُ الحقُّ في مزاحمةِ العلماء بالرُّكَب، والجلوس بين أيديهم الساعات الطوال، والقراءةُ عليهم الكتابَ تلوَ الكتاب، واستنزافهم السؤالَ تلوَ السؤال، إلاَّ أن الدراسة الجامعية من مفروضات ومتطلبات العصر، وإهمالها يؤذي ويضر، ويجعلك في ذَنَبِ القافلة، وخير الأمور الوسط، فاجمع بين الجامعة والمشايخ، وكن في رأس القافلة، والله الهادي والموفق.

(١) البيتان الأخيران من إضافة العبد سلمان. والأول لأبي بكر بن النطَّاح، كما في «السِّحْر والشِّعْر» للسان الدِّين ابن الخطيب، ص ٧٠، والآخر للبحتري كما في «المُنْتَحَل» المنسوب للثعالبي، ص ٥٥.

مُتَنَزَّهات القلوب

كما أنهم تَعَشَّقوا العلم وعشقوه، وتفانوا في طلبه وأحبّوه، فكان في رِيَاضِهِ نُزُهَاتُ قلوبهم، وفي كتبه ترويحات أرواحهم، قال العلامة ياقوت الحموي رحمه الله تعالى، في «معجم الأدباء»[(١)]، في ترجمة الإمام اللغوي أبـي بكر محمد بن الحسن ابن دُرَيد، ما يلي:

«قرأتُ في كتاب «التحبير» لأبـي سَعْد السمعاني ــ والنص الآتي لم أجده في النسخة المطبوعة منه ــ قال أبو سعد السمعاني: سمعتُ الأميرَ أبا نصر أحمد بن الحسين المِيْكَالي يقول:

تذاكرنا المُتَنَزَّهاتِ يوماً وابنُ دُرَيد حاضر، فقال بعضهم: أنزَهُ الأماكن غُوطةُ دمشق، وقال آخرون: بل نَهْرُ الأُبُلَّة، وقال آخرون: بل سُغْدُ سَمَرْقَنْد، وقال بعضهم: نَهْرَوانُ بغداد، وقال بعضهم: شِعْبُ بَوَّان بأرض فارس، وقال بعضهم: نوبهار بَلْخ.

فقال ابن دريد: هذه متنزهاتُ العُيون، فأين أنتم من متنزهاتِ القُلُوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «عُيونُ الأخبار» للقُتَبـي[(٢)]، و «الزَّهْرة» لابن دَاوُد، و«قَلَقُ المشتاق» لابن أبـي طاهر، ثم أنشأ يقول:

ومن تَكُ نُزهَتَهُ قَيْنَةٌ ... وكأسٌ تُحَثُّ وكأسٌ تُصَبْ

فنزهتُنا واستراحَتُنا ... تَلاقِي العُيونِ ودَرْسُ الكُتُبْ»[(٣)]. انتهى.

---

(١) ١٨: ١٤٢، و ٦: ٢٤٩٨.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوري، الكاتب العلامة ذو الفنون، والقُتَبـي نسبةً إلى جدِّه قتيبة، كما في «الأنساب» للسمعاني ١٠: ٣٤٠. س.

(٣) وانظر حول عشقهم العلم وصبرهم على شدائد تحصيله كتابـي «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، ففيه الكفاية.

«وقيل لبعض العلماء: ما بلغَ من سرورك بأدبكَ وكُتُبك؟

فقال: هي إنْ خلوتُ لذّتي، وإن اهتممتُ سَلْوَتي. وإن قلتَ: إن زهرَ البُسْتَان، ونَوْرَ الجنَان، يجلوانِ الأبصار، ويُمتِعانِ بحسنِهما الألحاظَ، فإن بُستانَ الكتبِ يَجلُو العقلَ، ويشحذُ الذهنَ، ويُحيِي القلب، ويقوِّي القريحة، ويُعينُ الطبيعة، ويبعثُ نتائجَ العقول، ويستثيرُ دفائنَ القلوب، ويمتعُ في الخلوةِ، ويؤنِسُ في الوحشة، ويضحكُ بنوادِره، ويَسُرُّ بغرائبه، ويفيدُ ولا يستفيد، ويعطي ولا يأخذ، وتصِلُ لذَّته إلى القلب، من غيرِ سآمةٍ تُدْرِكُكْ ولا شقةٍ تعرضُ لك». اهـ من «زهر الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحاق الحُصْرِي[1].

ذكرُ جملةٍ من العلماء ألَّفوا خمسين مؤلَّفاً فمئةً فأكثر

وقد ألَّف الأستاذ جميل العظم الدمشقي، المتوفى سنة ١٣٥٢ رحمه الله تعالى كتاباً أسماه: «عقود الجوهر، في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فمئةٌ فأكثر»[2]، وذَكَر فيه خلقاً كثيراً من العلماء الذين عُرفوا بكثرة التآليف والمصنفات.

فَذَكر ابنَ جرير الطبريَّ، وابنَ الجوزيِّ، والنوويَّ، وابنَ سينا، والغزاليَّ، وابنَ حجرِ العسقلانيَّ، والبدرَ العينيَّ، والسيوطيَّ، وابنَ تيميةَ، وابنَ القيِّم، وعليًّا القاريَ، والمُناويَّ، وعبدَ الغنيِّ النابلسيَّ، وعبدَ الحيِّ اللَّكْنَويَّ، وآخرينَ ممن زادت مؤلفاتُ الواحد منهم على مئةِ كتابٍ أو على الخمسين كتاباً.

---

(١) ١: ١٨٤، والنص من إضافة العبد سلمان.

(٢) وطُبع منه الجزء الأول فقط في بيروت سنة ١٣٢٦.

فإذا وقفتَ على تراجِم هؤلاء الأفاضلِ الأعلام وأمثالهم، حَفَزَتْك تراجمُهم إلى أن تُحِسَّ بقيمة الوقت والزمن، فتَلحَقَ بهم إن كنت من أهل الهِمَمِ، فلا تبرح من هذه الدار، إلاَّ وقد خلَّفتَ من بنات الأفكار، ما يزيد على الثلاثين والأربعين والخمسين. . . ويزيد الله في الخلق ما يشاء، ويختصُّ برحمته من يشاء، والله واسعٌ عليم(١).

انتبه أيها الطالب لسريان الزمان والعُمْر

وانتبه ــ أيها الطالبُ ــ لسريان الزمان والعُمُر، فالغفلة على القلوب والأبصار شديدة مديدة! وكأنَّ الناسَ في معْزِلٍ عن الموت، لا يرون ميتاً، ولا يدفنون صاحباً ولا عزيزاً، ورحم الله تعالى العالم الجليل والعابد الفاضل شهاب الدين أبا العباس أحمد بن سليمان الصِّقِلِّي ثم المدني المتوفى سنة ٧٧٨ رحمه الله تعالى، إذْ كان يقول:

يــا غفلــةً شــاملــةً للقــومِ   كــأنَّمــا يــرونَهــا فــي النــومِ
مَيْتُ غَدٍ يحملُ مَيْتَ اليومِ(٢)

---

(١) قال سلمان: وقد بارك الرحمن في عمر وعلم وآثار سيدي العلامة الوالد رحمه الله، فأربت مؤلفاته ومحققاته على بضع وستين ــ تجد أسماءها في آخر الكتاب ــ ، عدا ما خلَّفه من كتب كان ينوي نشرها ــ يسَّر الله إخراجها ــ وعدا ما كان ينوي نشره ثم عدل عنه، وما ذاك إلاَّ لهمته العالية، وحرصه على وقته، ومسابقته للزمن، وقد كان يذكر أنه ما كان يتصوّر أن تبلغ محققاته ومؤلفاته ذلك العدد، وأنه من فضل الله عليه، فالله يجزيه عني وعن العلم وأهله خير الجزاء.

(٢) من ترجمته في «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر ١ : ١٦٢.

الأذانُ يُذَكِّرُ بانقضاءِ العمرِ

واعلم يا أخي طالبَ العلم المسلم ــ علمني الله وإياك ــ أنك لو انتبهتَ إلى انقضاء العمرِ وقُرْبِ الأجلِ بسماع الأذانِ للصلواتِ يتكرر بتكررها، فأذانُ الصبح يؤذنُك بانقضاءِ قِسْطٍ من عمرك انتهى بانتهاء الليل، وأذانُ الظهر يؤذنُك بانقضاءِ قسط من عمرك بانتهاء ارتفاعِ النهار، وأذانُ العصرِ يؤذنك بدنوِّ انتهاءِ اليومِ، وأذان المغرب يؤذنُكَ بانقضاءِ يومٍ من عمرك ودخولك في ليل يوم جديد، وأذانُ العشاء يؤذنك بانشطارِ جزءٍ من ليل اليوم الذي تستقبله يومَ الغد، وهكذا كُلُّ أذانٍ تسمعه يُسْمِعُكَ انقضاءَ قسطٍ من الأجل المحدود والعمر المعدود، فلا تغفُل عن أثرِ سماعِ الأذانِ عليكَ فإنه نعمَ المُذَكِّر بانقضاءِ الآجال، فإذا دعوت دعاءَ إجابةِ المؤذِّنِ فاستَشْعِر بعده هذا المعنى الذي ألمحتُ إليه تكن مُنْتَبِهاً يَقِظاً، ولا تكن من الغافلين.

ذكرُ الروافدِ المُعينةِ على كسبِ الوقتِ والانتفاع به

ولحفظِ الوقتِ وكسبه ذكروا قديماً في أوصاف طالب العلم الذي يُؤَهَّلُ لتحصيل العلم، ويُرجَى له النبوغ فيه: أنه ينبغي أن يكون سريعَ الكتابة، سريعَ القراءة، سريعَ المشي.

جاء في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى[1]، في ترجمة الحافظ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهَرَوي الأنصاري الحنبلي (عبد الله بن محمد)، المتوفى سنة ٤٨١ رحمه الله تعالى، ما يلي: «قال الحافظُ محمد بنُ طاهر المقدسي: سمعتُ أبا إسماعيل الأنصاري يقول: المحدِّث يجبُ أن يكون سريعَ المشي، سريعَ الكتابة، سريعَ القراءة».

---

(١) ١: ٥٩.

وسُرْعَةُ مَشْيه ليتمكَّنَ من الطوافِ على الشيوخ في وقتٍ قليل، ولاختصار الوقتِ وحِفظِهِ لأعمالٍ أخرى[١]، وكذلك سرعةُ كتابتِهِ وقراءتِه، فلاختصار الوقتِ وحِفظِه لأعمالٍ أخرى، وللازدياد من العلم فيه أيضاً. وهذه الأوصافُ لا شك أنها تساعد على زيادة التزوُّد من العلم والشيوخ، بأقلِّ مدة من الزمنِ والعمر[٢].

---

(١) جاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي، ص ٣٢ «قال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفراتي ببغداد، فمرَّ بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ــ أي يسير سيراً سريعاً ــ ونعلاه في يده، فأخذ أبـي هكذا بمجامع ثوبه فقال: يا أبا عبد الله: ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟ قال: إلى الموت».

[وأما ما ورد من حديث أبـي هريرة وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً: «سرعةُ المشي تُذْهبُ بهاءَ المؤمن»، ومن حديث ابن عمر وأنس مرفوعاً: «سرعةُ المشي تُذْهِبُ ببهاء الوجه»، فلا يصح البتة، كما في «فيض القدير» للمناوي ٤: ١٠٤ و ١٤٠. سلمان].

(٢) ومما جاء في شأن السرعة في الشريعة الغرّاء، ما ذكره الإمام العز بن عبد السلام في كتابه «القواعد الكبرى» المعروف باسم «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» ١: ٨٤، قال: «وقد جاءت الشريعة بمدحِ السرعةِ في أمور كالذبح والنحر وضربِ الرقاب في القِصَاص، لما في السرعة في ذلك من تهوين الموت، وقد كتب الله الإحسانَ على كل شيء، وأَمَر بإحسان القِتْلَةِ والذِّبْحة، وكذلك أيضاً قِصاصُ الأطراف تُحمد فيه السرعة.

ولو صِيْلَ على مسلم في نَفْسٍ أو بُضْعٍ أو مالٍ، بحيث لو اقتصرنا في الدفع عنه لتحققت المفسدة، فإن السرعة في هذا وأمثاله واجبةٌ لا يَسَعُ تركها، وكذلك السرعة في القتال ومكافحة الأبطال.

وقد مَدَح الله المسارعة في الخيرات، وأثنى على المسارعين فيها، وقال موسى عليه السلام: ﴿وعَجِلْتُ إليك رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [من سورة طه، الآية ٨٤].

وقد جُعِلَ لمن قتل الوزَغَ بضربة واحدة مئة حسنة، ولمن قتله بضربتين سبعون =

ومما يساعد طالبَ العلم على زيادة التزوُّد من العلم والمشايخ ما رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه»[١]، بسنده إلى الشافعي رحمهما الله تعالى، قال: «يحتاج طالبُ العلم إلى ثلاثِ خصال: أوَّلُها طولُ العُمُر، والثانية سَعَةُ اليَد، والثالثة الذكاء»[٢].

قال الخطيب: قلتُ: أمَّا طولُ العُمُر فإنما يقصد به دوام الملازمةِ للعلم، وأراد بسعةِ اليد ألَّا يشتغل بالاحترافِ وطلبِ التكسب، فإذا استَعمَل القناعةَ أَغْنَتْهُ عن كثير من ذلك. انتهى.

ومما ينسبُ إلى الإمام الشافعي رحمه الله من الشعر في ذلك، قوله:

أخـي لَـنْ تنـالَ العلـمَ إلا بستـةٍ سـأُنبيْـكَ عـن تفصيلهـا ببيـانِ
ذكـاءٌ، وحِـرصٌ، واجتهـادٌ، وبُلْغَـةٌ وصحبـةُ أستـاذٍ، وطـولُ زمـانِ

وكان شيخنا العلامة محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى يقول: العلمُ يحتاجُ إلى ثلاثة أمور: مالُ قارونَ، وعمرُ نوحٍ، وصبرُ أيوبَ.

= حَسَنَةً، لما في الضربة الواحدة من المسارعة إلى إزهاق رُوحِهِ، ودفعِ ضرره، وإحسان قِتْلَته».

(١) ٢: ١٨٧.

(٢) حِدَّةُ الذكاءِ والفطنةِ، وقوةُ الحفظِ تقوم مقام الزمن الطويل، وتذلُّل الصِّعَاب، وتيسُّرُ الوصولَ إلى دقائق العلوم.

[كما أنَّ للبركةِ والمدد الرباني والعون الإلـٰهي تأثيرَهُ وسِرَّهُ، قال العارف ابن عطاء الله في «حكمه»: «رُبَّ عُمُرٍ اتسعتْ آمادُه، وقلَّتْ أمداده، ورُبَّ عمر قليلَةٌ آمادُه، كثيرةٌ أمداده».

وقال: «من بُورِكَ له في عمرِه أدرك في يسير من الزمنِ مِن مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخُلُ تحت دوائرِ العبارة، ولا تلحقه الإشارة». انتهى].

قال عبد الفتّاح: وأزيد رابعاً، وهي: دارُ السلطان. أي الدار الكبيرة لتتّسع للكتب.

بيتان للسيوطي
فيما يَلزَم طالب العلم لكسب الوقت

وقد أشار الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى إلى حاجة طالب العلم للسرعةِ في الأكل أيضاً، مع السرعة في المشي والكتابة، كسباً للوقت، في بيتين لطيفين قالهما[١]، وهما:

حـدَّثَنـا شيخُنـا الكِنـانـي عـن أبـيهِ صـاحـبِ الخِطَـابَـهْ
أسـرِعْ أخـا العلـم فـي ثـلاثٍ الأكـلِ والمشـي والكتـابَـهْ

وشيخُهُ الكناني المشارُ إليه هنا هو: الإمام قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني المصري الحنبلي، رحمهما الله تعالى.

لأن طالب العلم إذا لم يكن كذلك، وكان بطيءَ الطعام طويلَ الغرام به، فاتَهُ الوقت الذي جمعه بسُرعةِ القراءة والكتابة والمشي، بطولِ وقتِ دخولِ الطعام وخروجه! ولم يُحسن التصرّفَ في وقتِهِ، ولا عَرَفَ كيف يستفيدُ من امتثال النصيحة على وجهها.

قال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى، في كتابه: «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى»[٢] صلّى الله عليه وسلّم، في الفصل السابع من الباب الثاني: «لم تزل العَرَبُ والحُكَمَاء تتمادحُ ــ أي تتفاخر ــ بِقلَّة الغِذاء والنوم، وتَذُمُّ

(١) كما في ترجمته في «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» لنجم الدين الغَزّي ١: ٢٢٩.

(٢) ١: ١٠٩.

بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليلٌ على النَّهم والحِرص والشَّرَه، وجالبةٌ لأدواءِ الجَسدِ وخَثَارَة النَّفْس ــ أي ثِقَلها وعَدَم نشاطها ــ وامتلاء الدماغ. وقِلَّتهما دليلٌ على القناعةِ ومِلْكِ النَّفْس، ومسبِّبةٌ للصحةِ وصفاءِ الخاطر وحِدَّةِ الذهن.

كما أن كثرة النوم دليلٌ على الضعف والفُسُولةِ ــ أي عدم الهِمَّةِ في أمور الدنيا والآخرة ــ ومسبِّبةٌ للكسل وقساوَة القلب وغفلتِهِ وموْتِهِ، وتضييعِ العُمر في غير نفع. وكثرةُ النوم من كثرة الأكل والشرب، وفي حكمة لقمان: يا بُنيَّ، إذا امتلأتْ المَعِدةُ نامَتْ الفِكرة، وخَرِسَتْ الحكمة، وقَعَدَت الأعضاءُ عن العبادة.

وقال سفيان الثوري: بقلَّةِ الطعام يُملَكُ سهَرُ الليل. وقال سُحنون: لا يَصْلُحُ العلمُ لمن يأكلُ حتى يشبع». انتهى[1].

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إياكم والبِطْنَة، فإنها مَكْسَلَةٌ عن الصلاة، مَفْسَدةٌ للجِسْم، مُؤَدِّيَةٌ إلى السَّقَم، وعليكم بالقَصْدِ في قُوَّتكم. فهو أبعَدُ من السَّرَف، وأَصَحُّ للبَدَن، وأقوى على العبادة، وإنَّ العبدَ لن يَهلِكَ حتى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ على دِينِهِ».

والطعام عند الفضلاء من العلماء وسيلةٌ وأداةٌ لإمداد القوة والحياة،

---

(١) «وقال الأصمعي: نعم الإدامُ الجوع، ونعم شعار المسلمين التخفيف.

وقال الشاعر:

فإن تأتياني في الشتاء وتَلْمسا ... مكانَ فِراشي فهو بالليلِ باردُ

وقال الآخر:

أبيضُ بسّامٌ بَرُودٌ مَضْجَعُهْ ... اللقمةُ الفَرْدُ مِراراً تُشْبِعُهْ».

انتهى من «البخلاء» للجاحظ ص ١٩١ و ٢١٩. سلمان.

ولا يَدْنُو أطيبُ ما فيه من أقلِّ نكتةٍ علمية يُحصِّلُها طالبُ العلم، أنشد الحافظ أبو بكر بن السُّنِّي رحمه الله تعالى في كتابه: «القناعة»[١] الأبيات التالية:

رَضِيتُ من الدنيا بقُوتٍ يُقيمني ... فلا أبتغي من بعدِهِ أبداً فَضْلا
ولستُ أَرُومُ القُوتَ إلا لأنَّهُ ... يُعينُ على عِلْمٍ أرُدُّ به جَهْلا
فما هذه الدنيا بِطِيْبِ نَعِيمها ... لأيسَرِ ما في العلم من نُكْتَةٍ عِدْلا

الأكلُ والنومُ والاستراحةُ لطالبِ العلم بقَدْر الضرورة

قال الإمام الغزالي في «بداية الهداية»[٢]: «واعلَمْ أنَّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرون ساعةً، فلا يكوننّ نومُك بالليل والنهار أكثرَ من ثماني ساعاتٍ، فيكفيكَ إن عشتَ ستينَ سنةً أن تضيِّعَ منها عشرين سنة، وهو الثلث».

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى، في المقدمة الحافلة لكتابه العظيم «المجموع»[٣]: «وينبغي أن يكون حريصاً على التعلُّم، مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً، حَضَراً وسفراً، ولا يُذهِبَ من أوقاته شيئاً في غير العلم، إلاَّ بقدر الضرورة، لأكلٍ ونومٍ قَدْراً لا بُدَّ منه، ونحوهما كاستراحةٍ يسيرة لإزالة الملل، وشِبْهِ ذلك من الضروريات».

أبو الوفاء بن عَقِيل يقول:
أُقصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي

وتقدَّم في خبر الإمام أبي الوفاء بن عَقِيل الحنبلي[٤]، قولُه رحمه الله تعالى: «وأنا أُقصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختارُ سَفَّ الكعكِ وتحسِّيَهُ

---

(١) ص ٤٧.
(٢) ص ١٢٦.
(٣) ١: ٦٨.
(٤) في ص ٩٦.

بالماءِ على الخبز، لأجلِ ما بينهما من تفاوتِ المَضْغ، توفراً على مطالعة، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدركها فيه، وإنَّ أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاء، بإجماع العلماء: هو الوقتُ، فهو غنيمةٌ تُنْتَهَزُ فيها الفُرَص، فالتكاليف كثيرة، والأوقاتُ خاطفة». انتهى.

اصطحاب القرطاس والقلم
من لوازم كسب الوقت

وليكُنْ معك على الدوام دفترٌ وقلمٌ تقيِّدُ به سوانحَ الخاطرِ، وتقتنِصُ به شواردَ الأفكارِ، وتكتبُ فيه ما تسمعُه من فوائدَ ونكتٍ، ففي ذلك توفير للوقتِ الثمين، فلا يضيعُ في تذكُّرٍ وتخمينٍ، وظنٍ لا يغني عن اليقين، وقديماً قيل: «العلم صيدٌ والكتابةُ قَيْدُه».

قال العلَّامة المربِّـي برهان الدِّين الزَّرْنُوجي رحمه الله تعالى: «وينبغي أن يكونَ طالبُ العلم مستفيداً في كلِّ وقتٍ، حتى يحصلَ له الفضلُ، وطريق الاستفادة أن يكون معه في كلِّ وقتٍ مِحْبَرَةٌ حتى يكتبَ ما يسمعَ من الفوائد. قيل: ما حُفِظَ فَرَّ، وما كُتِبَ قَرَّ. وقيل: العلم ما يؤخذُ مِن أفواه الرجال (العلماء)، لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون. . . ، وينبغي أن يستصحب دفتراً على كلِّ حال ليطالعه، وقيل: مَن لم يكُنْ له دفترٌ في كُمِّه لم تثبت الحكمةُ في قلبِهِ. وينبغي أن يكونَ في الدفترِ بياضٌ، ويستصحبَ المحبرة ليكتب ما يسمع». انتهى[١].

وكان شيخنا العلَّامة الشيخ محمد نور سيف، المكي رحمه الله تعالى[٢]

---

(١) من «تعليم المتعلم» ص ٨٩ و ٩٥. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٢) وُلِد رحمه الله سنة ١٣٢٤ وتوفي سنة ١٤٠٣، وكان عالماً مربِّياً ربانيًّا، خلَّف =

يردد الكلمة المتوارثة في شأن ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في تسجيل الفوائد وصيد الفرائد:

لا بـد للطـالـب مـن كُنَّـاشِ يكتب فيـه قـائمـاً أو مـاشـي[١]

وجاء في «السير»[٢] في آخر ترجمة الحافظ حمزة بن محمد الكناني، صاحب مجلس البطاقة، عن ابن معين قوله:

«إذا رأيتَ الرجلَ يخرجُ من منزله بلا مِحْبَرة ولا قلم يطلب الحديث، فقد عَزَم على الكِذْبة»[٣]. اهـ.

أصول ومراحل تلقي العلم

واعلم أنَّ لتلقي العلم والترقي فيه أصولاً لا بُدَّ من التزامها، ومراحلَ لا بُدَّ من المرور بها، فَبِهَا يتأسَّسُ التعلُّمُ لَبِنَةً لَبِنَةً، فلا تكن مُنْبَتّاً متعجلاً قبلَ الأوانِ فيكونُ نصيبُكَ الحرمانُ.

روى ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»[٤] عن يونس بن يزيد قال: قال لـي ابـنُ شهـاب الـزهـري: «يـا يـونـسَ، لا تُكـابِـد العلـمَ، فـإنَّ العلـم أَوْدِيـةٌ،

= اثنين من العلماء، هما الشيخان أحمد وإبراهيم. س.

(١) هكذا كان شأن سيدي العلامة الوالد رحمه الله، يقتنص الفوائد ويقيد الشوارد مقيماً مسافراً ماشياً أو جالساً، واسأل إن شئت مئات القُصَاصَات من أوراقه وجُذاذاته.

والكُنَّاش والكُنَّاشَة لفظ مولَّد معناه الأوراق تجعل كالدفتر تُقَيَّدُ فيها الفوائد والشوارد. «المعجم الوسيط». سلمان.

(٢) ١٦ : ١٨١. والنص من إضافة العبد سلمان.

(٣) فانظر كم يُستقبح أن يطلب منك طالب علم ـ من غير عذر ـ قلماً أو ورقة! فيكون كالجندي الماشي بغير سلاح! سلمان.

(٤) ١ : ١٠٤ أو ١ : ٤٣١.

فأيُّها أخذت فيه قَطَع بك قبلَ أن تَبلُغَه، ولكن خُذْه مع الأيام والليالي، ولا تأخُذِ العلمَ جملةً، فإنَّ من رام أَخْذَهُ جملة ذَهَب عنه جملةً، ولكنْ الشيءَ بعدَ الشيء مع الليالي والأيام».

[وتقدم قول بهاء الدين ابن النحاس الحلبي[١]:

اليومَ شيءٌ وغداً مِثلُهُ ... من نُخَبِ العلم التي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّلُ المرءُ بها حِكمةً ... وإنما السَّيْلُ اجتمَاعُ النُّقَطْ]

وروى ابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم» أيضاً[٢]، عن غيرِ واحد من السلف، منهم الفُضَيل بن عياض وابنِ المبارك ومحمد بن النَّضْرِ الحارثي، وسفيانَ الثوري، واللفظُ له، قال: «كان يقالُ: أوَّلُ العلم الاستماعُ، ثم الإنصاتُ، ثم الحفظُ، ثم العَملُ، ثم النشرُ».

الفائتُ من الزمان لا يعودُ أبداً!
والغدُ ليس في اليد!

فعليك أيها الأخ الفاضل، والفَهِمُ الذكيُّ العاقل، أن تحفظ على نفسِك: وَقْتَكَ من أن يَذْهَبَ هَدَراً وَسُدًى، فإنَّ الزمان الذي تعيشُ فيه ظرفٌ عابر لا يتجدَّدُ ولا يعود، وقد قيل:

ما مَضَى فاتَ والمؤمَّلُ غيبٌ ... ولكَ الساعةُ التي أنتَ فيها

وقال محمود بن الحسن الورَّاق:

مَضَى أمسُكَ الماضي شهيداً معدّلا ... وأعقبَهُ يومٌ عليكَ جديدُ
فإن كنتَ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فَثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

---

(١) ص ٩٩.

(٢) ١: ١١٨ أو ١: ٤٧٦ ـ ٤٧٨.

فيـــومُـــك إن أعقبتَـــه عـــادَ نفعُـــهُ عليـكَ ومـاضـي الأمـسِ ليـس يعـودُ
ولا تُـرْجِ فِعْـلَ الخيـرِ يـومـاً إلـى غـدٍ لعـلَّ غـداً يـأتـي وأنـتَ فقيـدُ

[وقيل للحسن: صِفِ الدنيا، فقال: أمسِ أجل، واليومَ عمل، وغداً أمل، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: الأيام ثلاثة: معهود، ومشهود، وموعود. فالمعهودُ أمس، والمشهود اليوم، والموعودُ غداً](١).

وقال عمر بنُ ذرٍّ: الأيامُ إذا فكَّرتَ فيها ثلاثة: يومٌ مضى لا ترجُوه، ويومٌ أنت فيه ينبغي أن تَغْنَمه، ويومٌ في يدكَ أملُه، فلا تغترَّ بالأملِ فتُخِلَّ بالعملِ. فإنما اليومُ وأمسُ كأخوين نزل بك أحدُهما فأسأت نُزُلَه وقِرَاه، فرحلَ عنك وهو ذامٌّ لك، ثم نزل بكَ أخوه، فقال: إنْ أسأتَ إليَّ كما أسأتَ إلى أخي فما أَخْلَقَكَ أن تُعْدَمَ شهادتَنا.

وقال الإمام ابن الجوزي: يا هذا، الأيام ثلاثة: أمسٌ قد مضى بما فيه، وغدٌ لعلّك لا تدركه، وإنما هو يومُك هذا، فاجتهد فيه. ولله درُّ من تنبَّه لنفسه، وتزوَّد لرسمه، واستدرَك ما مضى مِن أمسه قبلَ طولِ حبسه(٢).

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري: أمسِ قد مات، واليومَ في النَّزْعِ، وغداً لم يولد.

وقال أبو حازم سلمة بن دينار: ما مضى من الدنيا فحُلم، وما بقي فأماني.

---

(١) «كلام الليالي والأيام لابن آدم» لابن أبـي الدنيا، ص ١٧ و ١٨. س.

(٢) «التبصرة» ١: ١٥٣. والنص مستفاد من مقدمة الأخ الفاضل الشيخ محمد العجمي لكتاب: «تنبيه النَّائم الغَمْر على مواسم العمر» لابن الجوزي. سلمان.

وقيل:

ألـم تَـرَ أنَّ اليـومَ أسـرعُ ذاهـبٍ   وإن غـداً للنـاظـريـنَ قـريـبُ](١)

فـالـوقـت لا يتجـدَّد ولا يعـود، وينبغـي الانتبـاه لهـذا والمـداومـة علـى استحضاره، فإنه يَحفِزُ على حفظ الوقت.

فاحرِصْ على كسب الزمن والانتفاع به بتنظيم نفسك وأعمالك وأوقاتك: متعلماً أو معلِّماً أو مؤلِّفاً أو مُطالعاً أو مستمعاً أو قارئاً تالياً أو عابداً زاكياً، ولا تكن ظالمَ نفسِك في قتل الوقت، مبدِّداً لساعاتِ حياتك ولحظاتِ وجودِك! غابِناً مغبوناً في عمرك!! تَصْبُو إلى الراحةِ والكَسَل، وتزهَدُ في الفضائل والمَقَامِ الجَلَل.

تأخير الأعمال وتأجيلها من الآفات

وانظر كيف يُضيع المُلْكَ تأخيرُ عمل اليوم إلى الغد ويقتضي التماس عذر عـن ضيـاعـه فيـزيـد أسًـى وألمـاً، فقـد جـاء فـي «لبـاب الآداب» لأُسـامـة بـن

(١) قال الأستاذ المفكر الأديب السيد أحمد الهاشمي رحمه الله في كتابه الممتع اللطيف «ديوان الإنشاء» أو «أسلوب الحكيم في منهج الإنشاء القويم» في مقالته (٣٨ ــ الغَدُ ليس باليد) ص ٤٨: «الغَدُ أقدارٌ مكتوبة، وغيوبٌ يعلمها الله سبحانه وتعالى، وأعمارٌ موهومة أو مَنْهُوبة، وأرزاقٌ مقدّرة أو مسلوبة، وآجالٌ محدودة، وموعده أول النهار، وقُبيل الأسحار، فترى فيه الفُجَاءَات والأخبار، وفيه يُقضى المحتوم، ويَظْهر المكتوم، وينفجر المختوم، وهو مصدر الآمال، ومُظْهِر الأعمال، ومصرِّف الأموال، وميدان سباق الرجال، يدأبون ويسرحون ويمرحون، في نوره الساطع وبهائه وجماله، فالغدُ اليومُ الثاني، وفيه المخبآت. قال تعالى: **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾**.

وقال الشاعر ــ زهير بن أبـي سُلمى ــ:

وأعلـم علـمَ اليـومِ والأمـسِ قبلَـه   ولكنَّني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ». س.

منقذ[١]: «وقيل لملِكٍ قد زال عنه مُلكُه: ما الذي سَلَبَك ما كنتَ فيه! قال: دَفْعُ عَمَلِ يومٍ إلى غَدٍ، والتماسُ عُذْرٍ بتضييعِ عَمَل».

تشاغلتُ بالدنيا، ونِمتُ مُفَرِّطاً وفي شُغْلي أو نَوْمَتي سُرِقَ العُمْرُ[٢]

وتقدم[٣] قول سيدنا عمر إلى سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «إنَّ القوةَ في العملِ أن لا تؤخِّرَ عملَ اليومِ إلى الغدِ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال ــ أي تتابعت وتكاثرت ــ فلم تدروا بأيها تأخذون، فأضعتم».

وقال العارف ابن عطاء الله السكندري في «حِكَمه»: «إحالتُكَ الأعمالَ على وجود الفراغ من رُعُونَاتِ النَّفْسِ».

والمراد برعونات النفس هنا: حظوظها.

وقال أبو علي بن الشِّبْل[٤]:

خُذْ ما تعجَّلَ واترُكْ ما وُعِدتَ بِهِ وكُن لبيباً فللتأخير آفاتُ

وللسعادةِ أوقاتٌ مُقَدَّرَةٌ فيها السرور وللأحزان أوقاتُ[٥]

---

(١) ص ٣٩.

(٢) البيت لابن الخطيب، كما في كتابه «السحر والشعر»، ص ٢٧٠، وهو من إضافة العبد سلمان.

(٣) ص ٤٦.

(٤) كما في ترجمته في «معجم الأدباء» ١٠: ٣٣. والبيتان، ومقولة ابن عطاء من إضافتي، وستأتي ترجمة ابن الشِّبْل ص ٢٢٥. سلمان.

(٥) قال الأستاذ السيد أحمد الهاشمي الأديب المفكر رحمه الله في كتابه المفيد «ديوان الإنشاء» في مقالته (**٩٧ ــ لا تؤخر عمل يومك إلى غدك فلكل يوم عمله**)، ص ١٠٣: «لا بد لكلّ إنسانٍ من مزاولةِ أعمالٍ كثيرة تتجدد بتجدد الأيام وتدوم حاجته إليها ما دامت الحياة. =

وقد سمعت غير مرة من شيخي بالمغرب في مدينة الرباط العلامة القاضي المعمَّر الشيخ أبو بكر بَنَّاني أحسن الله إليه: «**من حَصَّل وقت التعطيل، عطَّل وقت التحصيل**».

وهي كلمة يقولها ساداتنا المغاربة كالمَثَل، وفيها حكمةٌ وإرشاد بالغ، وهي أنَّ الأوقات إذا شُغِلت بغير ما يُلائمها، أو حُمِّلَت الأجسامُ غيرَ ما ينسجِم معها في وقت، اقتضى ذلك أنْ تُعَطَّل أو تُقَصِّر في وقت الاستفادة والتحصيل، فيكون ما فات أكثر نفعاً مما حُصِّل مع تحمُّلِ الجسمِ للمشقة ومخالفة الوقت[1].

= فعلى العاقل أن يُلزمَ نفسَه تأديةَ كلِّ عملٍ في وقتِهِ المناسب له، فإنه إذا فعل ذلك أحسَّ من نفسِهِ الراحةَ واستشعرَ السرور كُلَّمَا فرغَ من عمله وجنى ثمرةَ تعبه، ووجد من وقتِهِ نصيباً للدَّعَةِ والراحة، فأمّا إذا تراخت همَّتُه فتَرَت عزيمتُه، فإنَّ الأعمال تتراكمُ عليه فيضعُف عن القيام بها جملة واحدة، ولا يستطيع إجادةَ صُنعها وإحكامَ وَضْعها.

ومَن ضَيَّع الأوقاتَ ضاعتْ حياتُهُ وعاشَ فقيراً جاهلاً ليسَ يُشْكَرُ
فدَعْ غائباً من فائتٍ ومؤملٍ فوقتُكَ سيفٌ قاطعٌ ليسَ يَعْذُرُ

إنّ من عَوَّدَ نفسَه القيامَ بكلِّ عمل في زمانِهِ يعتادُ النشاطَ والجدَّ، وتنشرحُ نفسُه للعمل وتزيدُ رغبتُها فيه كُلَّمَا جَنَت ثمارَه، وأما مَنْ أهملَ وقصَّر فإنه يعتادُ البَطَالةَ والكسلَ ويكونُ كَلًّا على الناس، لا يجدُ للعيشِ لَذَّةً ولا للحياة سروراً.

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصتهِ حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القدرا
ولا أُؤَخِّر شغلَ اليومِ عن كسلٍ إلى غدٍ إنّ يومَ العاجزينَ غَدُ». س

(١) ومما وقفت عليه في ذلك ما قاله محمد بن العزيز النسفي في رئيس كان ينام بالنهار ويسهر الليلَ:

ينامُ إذا ما استيقظ الناسُ بالضحى فإنْ جُنَّ ليلٌ فهو يقظانُ حارسٌ=

وتقدّم قول العلامة المُلاَّ علي القاري رحمه الله[١]: «التعطيل يُنسي التحصيل».

ولذا أوصيك أيها الأخ: أيقظْ نهارك لأعمالك تنم في ليلك لراحتك، أمَّا إذا نِمْتَ في نهارك عن أعمالك فلا تنم في ليلك من همومك.

الكسَلُ بئس الرفيق وحُبُّ الراحةِ يُورِثُ الندم

قال الإمامُ المربِّي أبو الفرج ابنُ الجوزي رحمه الله تعالى، في رسالته اللطيفة الناصحة لوَلَدِهِ، المسمَّاة: «لَفْتَة الكَبِد في نصيحة الولَدَ»:

«الكَسَلُ عن الفضائل بئس الرفيقُ! وحُبُّ الراحةِ يُورِثُ من الندم ما يربو على كل لَذَّة، فانتبِهْ واتْعَبْ لنفسِك، وانْدم على ما مضَى من تفريطك، واجتَهِدْ في لَحَاق الكاملين ما دام في الوقتِ سَعَة، واسْقِ غُصْنَك ما دامَتْ فيه رُطُوبة، واذكُرْ ساعتك التي ضاعت، فَكَفَى بها عِظَةً، ذهبَتْ لَذَّةُ الكَسَل فيها، وفاتَتْ مراتبُ الفضائل!

وإنما تُقَصِّرُ الهِمَمُ في بعضِ الأوقات، فإذا حُثَّتْ سارت، وما تَقِفُ هِمَّةٌ إلاَّ لِخَساسَتِها! وإلاَّ فمتى عَلَتْ الهِمَّةُ فلا تَقنَعْ بالدُّون.

إذا مـــا عَــــلا المــــرءُ رامَ العُــــلا ... ويَقنَــعُ بــالــدُّونِ مــن كــان دُونــا[٢]

= وذاك كمِثْـلِ الكلـبِ يسهــرُ ليلَــه ... فـإنْ لاحَ صبـحٌ فهـو وسنـانُ نـاعـسُ

وجاء في «المنتحل» المنسوب للثعالبي، ص ١٩٠:

وإنّ كـلامَ المــرءِ فــي غيــرِ وقتِــهِ ... لكالنَّبْلِ تهوِي ليس فيها نِصَالُها. س.

(١) ص ١٩٠.

(٢) قال قتادة بن دِعَامة السدوسي: «ابنَ آدم، إن كنتَ لا تريد أن تأتي الخير إلاَّ بنشاط، فإنَّ نفسَك إلى السآمةِ والفَتْرَةِ والمللِ أَمْيَلُ، ولكنّ المؤمنَ هو المُتَحَاملُ (على =

. . . .

= نفسه) والمؤمن المتقوِّي». اهـ من «روضة الزاهدين» للشيخ الصالح عبد الملك الكُلَيب، ص ٥٣.

ومما استحسنته في هذا الباب من أشعار:

قَالَتْ مسائل سُحنون لقارِئها ... بالدَّرْسِ يُعرَفُ منَّا كُلُّ ما اسْتَتَرا
لا يُدرِكُ العلمَ بَطَّالٌ ولا كَسِلٌ ... ولا مَلُولٌ ولا مَنْ يألفُ البَشَرا

* * *

يا نفسُ ذوقي لذَّةَ العملِ ... وواظبي لذةَ العدلِ والإحسانِ في مَهَلِ
فكلُّ ذي عملٍ بالخير مغتبطٍ ... وفي بلاءٍ وشؤمٍ كلُّ ذي كَسَلِ

* * *

دَعي نفسي التكاسُلَ والتواني ... وإلاَّ فالبسي ثوبَ الهوانِ
فلمْ أرَ للكُسالى الحظَّ يَجني ... ثماراً غيرَ حرمانِ الأماني

* * *

وكم حياءٍ وكم عجزٍ وكم ندمٍ ... جَمٌّ تولَّدَ للإنسان من كسلِ

* * *

ومن أرادَ العُلا عفواً بلا تعبٍ ... قَضَى ولم يقضِ من إدراكِها وَطَرا
لا يُبْلَغُ السُّؤْلُ إلاَّ بعدَ مؤلمةٍ ... ولا تتمُّ المُنى إلاَّ لمن صَبَرا

صفي الدين الحِلِّي

دعِ التكاسُلَ في الخيراتِ تطلبُها ... فليس يسعد بالخيراتِ كسلانُ

أبو الفتح البُسْتي

والبيتان الأولان من «الصُّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات» لجميل العظم ص ٧٥، والبقية من «ديوان الإنشاء» للسيد أحمد الهاشمي ص ١٤٣ و ١٤٤ و ١٨٢.

=

سُمُوُّ النفس إلى الفضائلِ والكمالِ عُنوانُ شَرَفِها

ثم اعلَمْ أنَّ طلَبَ الفضائلِ منها نهايةُ مُرادِ المجتهدين، ثم الفضائلُ تتفاوَتُ، فمن الناسِ من يَرى الفضائلَ: الزُّهدَ في الدنيا، ومنهم من يَراها التشاغُلَ بالتعبُّد.

وعلى الحقيقة فليسَتْ الفضائلُ الكاملةُ إلاَّ الجمعَ بين العلم والعمل، فإذا حَصَل رفَعَا صاحِبَهُما إلى المقام الأسمَى، فتلك الغايةُ المقصودة، وعلى قَدْرِ أهلِ العَزْم تأتي العزَائم، فينبغي أن تسمُوَ هِمَّتُك إلى الكمال، فإنَّ خَلْقاً وقفوا مع الزهد، وخَلْقاً تشاغَلُوا بالعلم، ونَدَرَ أقوامٌ جَمَعُوا بين العلمِ الكاملِ والعَمَلِ الكامل.

وليس كلُّ ما يُرادُ مُراداً، ولا كلُّ طالبٍ واجِداً، ولا كلُّ مبتدىءٍ بأمرٍ محمودٍ مُكْمِلاً ما بَدَأ به! وما كلُّ ما يَهوَى امرؤٌ هو نائِلُهُ، وكما قال أبو الطيِّب:

وما كلُّ هَاوٍ لِلْجَميلِ بفاعِلٍ ... ولا كلُّ فَعَّالٍ لهُ بمُتَمِّمِ!

ولكن على العبدِ الاجتهادُ، وكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له، واللهُ المستَعَانُ سبحَانه». انتهى بزيادة يسيرة وتصرُّف يسير.

= ومما أورده السيد رحمه الله في كتابه الجميل هذا من حِكَم حكمةٌ جميلة بليغة: (إذا قعدتَ وأنتَ صغيرٌ حيث تُحِبُّ قعدتَ وأنت كبيرٌ حيثُ تكره)، ص ٢١٢.

وهي حِكمة تُذَكِّر بحكمة ابن عطاء الله السكندري: (من لم تكن له بدايةٌ محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة)، ومقولة الزمخشري في «الكلم النوابغ»: (ما ذو هِمَّةٍ مُشْمَعِلَّة، كمن يتشبَّثُ بكل علة).

ولسوء الكسل وعظيم أذاه وسوء عاقبته كان النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوّذ منه كما ورد في الصحيح، نسأل الله السلامة والعافية. س.

الثبات أصل التحصيل

قال الإمام الفقيه المربي برهان الاسلام الزَّرْنُوجي في كتابه التربوي النفيس «تعليم المتعلم طريق التعلُّم»[١]:

«واعلم أن الصبر والثبات أصلٌ كبير في جميع الأمور، ولكنه عزيز، كما قيل:

لكلٍّ إلى شَأْوِ العُلَى حركاتُ ولكن عزيزٌ في الرجالِ ثَبَاتُ

فينبغي للطالب أن يَثْبُتَ ويصبرَ على أستاذٍ، وعلى كتابٍ حتى لا يتركه أبترَ، وعلى فَنٍّ حتى لا يَشتغل بفن آخر قبلَ أن يتقنَ الأولَ، وعلى بلدٍ حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كلَّه يُفرِّقُ الأمور، ويَشغَلُ القلب، ويُضيع الأوقات، وينبغي أن يصبر عما تريده نفسُهُ وهواه، ويَصبِرَ على المحن والبلِيَّات، فقد قيل: خزائن المِنَن على قناطير المحن. وقيل: الشجاعة، صبر ساعة». انتهى.

وقال أبو العلاء المَعَرِّي في آخر «رسالة الملائكة»[٢]: «وإنما يَنالُ الرُتَبَ من الآداب من يباشرها بنفسه، ويُفني الزَّمَنَ بدَرْسِه».

تفاوت الهمم والآمال

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى أيضاً، في كتابه الماتع النفيس «صيد الخاطر»[٣]، وهو يتحدث عن تفاوت الهِمَم والآمال:

---

(١) ص ٧٤.

(٢) ص ٦٤.

(٣) في ص ٢٣٨ ــ ٢٤٢، في الفصل ١٧٠ و ١٧١.

فَصْـلٌ

ما ابتُلي الإنسانُ قط بأعظمَ مِن عُلُوِّ هِمَّتِهِ[١]، فإنَّ مَن عَلَت هِمَّتُه يَختارُ

(١) عُلُوُّ الهِمَّة يُقلِقُ الإنسان، ويُركبُه المخاطرَ والأهوال في بعض الأحيان، ويَشُطُّ بالولد عن أمّه وأبيه، وبالأخ عن صديقه وأخيه، وبالمقيم عن بلده التي تؤويه!

وقد كان للصحابيَّةِ الجليلة أمِّ الفضل لُبَابةَ بنتِ الحارث الهلالية لبابةَ الكبرى، زوجةِ الصحابـي الجليل العباس بن عبد المطلب عمّ النَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم ورضي عنها وعن العباس، كان لها منه سِتُّ بنين، انتثروا وانتشروا في البلاد، وباعَدتْ بينهم الأسفارُ والديار، فسُئلت أمُّ الفضل: ما الذي باعَدَ بين بنيك وهم إخوة أبرار؟ قالت: باعَدَتْ بينهم الهِمَم! وهذا جوابٌ رفيع وتعبيرٌ بديع.

نعم: باعَدتْ بينهم الهِمَمُ الشَّمَّاء في طلب العَلْياء وكلُّهم من الصحابة رضي الله عنهم وأكرمهم بالإحسان العظيم والنعيم المقيم، وهم:

١ ــ الفضلُ، استُشهِدَ في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما بناحية الأُرْدُنّ سنة ١١ أو١٢.

٢ ــ وعبدُ الله، وكان يُسمَّى البَحْرَ والحَبْرَ لسعةِ علمه، مات بالطائف سنة ٦٨ رضي الله عنه.

٣ ــ وعُبَيْدُ الله، مات سنة ٥٨ بالمدينة وقيل بعدَها بدهر رضي الله عنه.

٤ ــ ومَعْبَد، وله رُؤية للنَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، استُشهد سنة ٣٥ في إفريقيَّة في خلافة عثمان رضي الله عنهما.

٥ ــ قُثَم، وكان أشبهَ الناس برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، خرج في الفتوحات، واستشهد بسمرقند، وكان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمنَ معاوية رضي الله عنهم.

٦ ــ عبد الرحمن، وُلِدَ في عهد النَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، واستُشهِدَ في إفريقية رضي الله عنه.

قال عبد الفتاح: وقد أكرمني الله تعالى بزيارة قبر قُثَم بن العباس رضي الله عنهما في دعوتي إلى سمرقند في مساء يوم الجمعة ٦ من جمادى الأولى سنة ١٤١٤.

قال سلمان: ويذكرني تباعد الرموس لتباعد الهمم بقول سلمى بنت الأحجم ترثي إخوتها، كما في «الحماسة» للبحتري ٢: ٣٠٣:

=

المعالي[١]، وربما لا يُساعِدُ الزمانُ، وقد تَضعُفُ الآلةُ فيَبقَى في عذاب.

وإني أُعطِيتُ من عُلُوِّ الهِمَّة طَرَفاً فأنا به في عذاب، ولا أقولُ: ليته لم يكن، فإنه إنما يَحْلُو العيشُ بقَدْرِ عَدَمِ العقل! والعاقلُ لا يَختارُ زيادة اللّذة بنقصان العقل.

ولقد رأيتُ أقواماً يَصِفون عُلُوَّ هِمَمِهم، فتأمَّلتُها فإذا بها في فَنٍّ واحد. ولا يُبالون بالنقصِ فيما هو أَهَمُّ، قال الرَّضِيُّ[٢]:

ولكـلِّ جِسـمٍ فـي النُّحـولِ بَلِيَّـةٌ ... وبَلَاءُ جِسمي من تفاوُتِ هِمَّتي!

فنظرتُ فإذا غاية أمَلِهِ الإمارة.

وكان أبو مسلم الخُرَاساني[٣] في حالِ شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في

= رعـوا مـن المجـدِ أكنـافـاً إلـى أمـدٍ ... حتـى إذا كمُلـت أظمـاؤهـم وردوا

مَيْـتٌ بمصـرَ وميْـت بـالعـراق وميْـتٌ ... بـالحجـاز منـايـا بينهـم بَـدَدُ

كـانـت لهـم همـم فـرَّقْـنَ بينهُـمُ ... إذا القعـادِدُ عـن أمثـالهـا قعـدوا

(١) نعم، والهمةُ القَعْساء هي التي ترفع صاحبها إلى أعلى الرُّتب في العلم مع طبيعة الاستعداد، وأذكر على سبيل المثال سيبويه (أبا بشر عَمْرو بن عثمان بن قَنْبَر) مولى بني الحارث بن كعب، الذي كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يُوضَع في النحو مثلُ كتابه الذي سمَّاه الناس قديماً: «قرآن النحو»، كما قال ذلك أبو الطيب اللغوي الحلبي في «مراتب النحويين» ص ٦٥ من الطبعة الأولى.

هذا الفردُ الفَذُّ الأعجوبة ولد في قرية البيضاء من قرى شيراز وعاش ٣٢ سنة على أحد الأقوال، وقيل: نيَّف على الأربعين، قال ياقوت: وهو الصحيح.

(٢) هو الشريفُ الرضي محمد بن الحُسَين العلوي الحُسَيني البغدادي أبو الحَسَن، أشعَرُ الطالبيين، ونقيبُ الأشراف في حياة والده، شاعر أديب، له مؤلفات حسنة في الأدب وديوان شعر ورسائل. توفي في بغداد سنة ٤٠٦.

(٣) هو عبد الرحمن بن مُسْلِم مؤسِّسُ الدولة العباسية، وأحَدُ كبار القادة، ولد في قرب =

ذلك فقال: ذِهْنٌ صَافٍ، وهَمٌّ بَعِيد، ونَفْسٌ تَتُوقُ إلى مَعالي الأمور، مع عيشٍ كعيشِ الهَمَجِ الرَّعَاع.

قيل: فما الذي يُبرِدُ غَلِيلَك؟ قال: الظَّفَرُ بالمُلك، قيل: فاطْلُبْه، قال: لا يُطلَبُ إلاَّ بالأهوال.

قيل: فاركبِ الأهوال، قال: العقلُ مانع، قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعَلُ مِن عقلي جَهْلاً، وأُحاوِلُ به خطراً لا يُنالُ إلاَّ بالجهل، وأُدبِّرُ بالعقل ما لا يُحفَظُ إلاَّ به، فإنَّ الخُمولَ أخو العَدَم!.

فنظرتُ إلى حالِ هذا المسكين، فإذا هو قد ضيَّع أهمَّ المُهِمَّات وهو جانب الآخِرة، وانتصب في طلب الوِلايات. فكم فتَك وقَتَل؟ حتى نال بعضَ

= البصرة سنة ١٠٠، دخل خراسان شاباً داعيةً عُمرُه ١٩ سنة، فاستمال أهلَها، ثم استولى على نيسابور بعد أن قَتَل أميرَها عليَّ بن الكَرْماني، وسُلِّم عليه بإمْرتها، فخَطَب باسم السَّفَّاح العباسي، ثم سيَّر جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد آخِرِ ملوك بني أمية، فقاتله بالزَّابِ بين المَوصِل وإربِل، وتغلَّب عليه وانتصر، وانهزم مروان إلى مصر، وزالت الدولة الأموية الأُولى سنة ١٣٢.

ثم مات السفاح وخَلَفَهُ أخوه أبو جعفر المنصور، فرأى المنصورُ من أبـي مسلم ما أخافه أن يَطمع بالمُلك، وكانت بينهما ضغينة فقتله سنة ١٣٧، وكان قد بَلَغ منزلةَ عظماء العالَم، حتى قال فيه المأمون: أجَلُّ ملوكِ الأرض ثلاثة، وهم الذين قاموا بنَقْلِ الدُّوَلِ وتحويلها: الإسكندر، وأَزْدَشِير، وأبو مُسْلِم الخراساني.

وكان فصيحاً بالعربية والفارسية، مِقداماً حازماً داهيةً، يقول الشعر، ويرويه، حُلوَ المنظر، لم يُرَ ضاحكاً ولا عَبُوساً، تأتيه الفُتُوحُ فلا يُعرَفُ بِشْرُه في وجهه، ويُنكَبُ فلا يُرى مكتئباً، خافضَ الصوتِ في حديثه، قاسي القلب، سَوْطُهُ سيفُه، وكان أقلَّ الناس طَمَعاً، مات وليس له دار ولا عقار ولا عبدٌ ولا أمةٌ ولا دينار، قال الذهبـي: قَلَب دولةً وأقام دولة، وذَلَّتْ له رِقابُ الأمم، وراح تحت سيفه سِتُّ مئةِ ألفٍ أو يزيدون. انتهى من ترجمته في «الأعلام» للزركلي ٣: ٣٣٧، ولله در القائل:

تبنـــي المنـــازلَ أعمـــارٌ مهـــدَّمـــةٌ ... مـــن الـــزمـــانِ، بـــأنفـــاسٍ وســـاعـــاتِ

مُرادِهِ من لذَّاتِ الدنيا، ثم لم يتنعم في ذلك غيرَ ثمانِ سنين، ثم اغتِيل، ونَسِيَ تدبيرَ العقل، فقُتِلَ ومَضَى إلى الآخِرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول:

وفي الناسِ من يَرْضَى بميسورِ عَيْشِهِ ... ومَرْكُوبُهُ رِجلاهُ والثَّوبُ جِلْدُهُ

ولكنَّ قلباً بين جَنْبَيَّ ما لَهُ ... مَدَى ينتهي بي في مُرادٍ أحُدُّهُ

يَرى جِسْمَهُ يُكسَى شُفُوفاً تَرُبُّهُ ... فيَختارُ أن يُكسَى دُرُوعاً تَهُدُّهُ

فتأمَّلتُ هذا الآخَرَ فإذا نَهْمَتُهُ[١] فيما يتعلق بالدنيا فحسب.

ابن الجوزي يتحدث عن همته العالية

ونظرتُ إلى علو هِمَّتي فرأيتُها عَجَباً، وذلك أنني أَرُومُ من العلم ما أتيقَّنُ أني أصِلُ إليه، لأنني أُحِبُّ نَيْلَ كلِّ العلومِ على اختلافِ فنونها، وأريدُ استقصاءَ كلِّ فن، هذا أمْرٌ يَعجزُ العُمرُ عن بعضِه.

فإنْ عَرَضَ لي ذو هِمَّة في فن قد بَلَغ منتهاه رأيتُه ناقِصاً في غيرِه. فلا أَعُدُّ هِمَّتَهُ تامَّة. كالمُحدِّث فاته الفِقهُ، والفقيهِ فاته عِلمُ الحديث، فلا أرى الرِّضا بنُقصانٍ من يوم إلاَّ حَادِثاً عن نَقْصِ الهِمَّة.

ثم إني أرومُ نهايةَ العَمَلِ بالعِلم، فأتُوقُ إلى وَرَع بِشْر[٢]، وزَهادةِ معروف[٣]. وهذا مع مطالعةِ التصانيفِ وإفادةِ الخلقِ ومُعاشرتِهم بعِيدٌ. ثم إني

---

(١) أي: حاجَتَه وأرَبَه.

(٢) أي: بِشْرِ الحافي، أحد العلماء العباد الزهاد، الورعين العقلاء المحدِّثين، من كبار أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وأقرانه، عاش عَزَباً، وترجمتُ له في كتابي: «العلماء العُزَّاب» ترجمة ماتعة، في ص ٤٩ ـ ٥٣.

(٣) هو معروف بن فيروز الكَرْخي البغدادي أبو محفوظ، أحَدُ أعلام الزهاد =

أرومُ الغِنَى عن الخلق، وأستشرِفُ الإفضالَ عليهم. والاشتغالُ بالعلم خيرٌ من الكسب. وقبولُ المِنَنِ مما تأباه الهِمَّةُ العالية.

ثم إني أَتُوقُ إلى طلبِ الأولاد، كما أتوقُ إلى تحقيق التصانيف، ليَبقى الخَلَفانِ نائبين عني بَعْدَ التَّلَف. وفي طلب ذلك ما فيه من شغلِ القلب المحبِّ للتفرُّد.

ثم أني أرومُ الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناعٌ من جهةِ قلةِ المال، ثم لو حَصَل فرَّق جَمْعَ الهِمَّة.

وكذلك أطلُبُ لبَدَني ما يُصلِحُه من المطاعم والمشارب، فإنه متعوِّدٌ للترفُّهِ واللطف، وفي قلةِ المال مانع، وكلُّ ذلك جَمْعٌ بين أضداد. فأين أنا وما وَصَفتُهُ من حالِ من كانت غايةُ هِمَّتِهِ الدنيا؟!

وأنا لا أحب أن يَخدِشَ حُصولُ شيء من الدنيا وَجْهَ دِيني بسبب، ولا أن يؤثّر في علمي ولا في عملي.

فواقَلَقِي من طلب قيام الليل، وتحقيقِ الورع مع إجادةِ العلم، وشغلِ القلبِ بالتصانيف، وتحصيلِ ما يلائم البَدَن من المطاعم.

وواأسَفي على ما يفوتني من المُناجاةِ في الخلوة مع ملاقاة الناسِ وتعليمهم، ويا كَدَرَ الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة[1].

= والمتصوفين، ولد في كَرْخ بغداد، وعاش فيها وتوفي سنة ٢٠٠، اشتُهر بالصلاح، وقَصَده الناس للتبرك به، حتى كان الإمام أحمد في جملة من يختلِفُ إليه. ولابن الجوزي كتاب في أخباره وآدابه. انتهى من «الأعلام» للزركلي ٧: ٢٦٩.

(١) استعمل الإمام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ رحمه الله تعالى: لفظَ (العائلة) في كتابه «صَيْدَ الخاطر» في مواضع ص ٤٢ في الفصل ٢٤، وفي ص ٢٤٠ في الفصل ١٧٠ =

غيرَ أني قد استسلمتُ لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن علوَّ الهمةِ تَطْلُبُ المعاليَ المقرِّبةَ إلى الحق عز وجل. وربما كانت الحَيْرةُ في الطلب دليلاً إلى المقصود. وها أنا أحفَظُ أنفاسِي من أن يَضِيع منها نَفَسٌ في غير فائدة، وإن بَلَغ هَمِّي مُرادَه... وإلاَّ فنيَّةُ المؤمنِ أبلَغُ من عمله».

التلطف بالنفس مرقاة العمل المتواصل

ثم تحدث الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن الترويح عن النفوس فقال:

لما سَطَّرتُ هذا الفصل المتقدِّم، رأيتُ ادِّكارَ النفس بما لا بُدَّ لها في الطريقِ منه، وهو أنه لا بُدَّ لها من التلطُّف، فإنَّ قاطعَ مرحلتين في مرحلةٍ خليقٌ بأن يقف، فينبغي أن يُقطَعَ الطريقُ بألطفِ ممكن.

وإذا تَعِبَت الرواحلُ نَهَض الحادي يُغَنِّيها[١]، وأَخْذُ الراحةِ للجِد جِدٌّ، وغَوْصُ السابح في طلب الدُّرِّ صُعُود. ودوامُ السَّير يَحْسُرُ الإبلَ[٢]، والمفازَةُ صَعْبَة.

ومن أراد أن يَرى التلطُّفَ بالنفس فلينظر في سِيرةِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنه كان يتلطَّفُ بنفسه، ويُمازحُ ويُخالط النساء، ويَختارُ

= هنا، وفي ص ٤٥٧ في الفصل ٣٥٢، وهذا لفظٌ مولَّد ليس بأصيلٍ عربيةً، ومعناه: الأُسرة التي يكلِّفُ المرءُ برعايتها.

وهذا الاستعمال موجودٌ في كلام من قبله كالإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ في مواضع من كتابه «المستصفَى من علم الأصول». فهي كلمة مولَّدة قديمة الاستعمال.

(١) الغِناءُ للناقة هو الحُدَاء، ومنه قولُ الشاعر:

وغَنِّها وهي لكَ الفِداءُ ... إنَّ غِناءَ الإبِلِ الحُداءُ

(٢) أي: يُتعبها حتى تَهْزُل. س.

المستحسنات، ويُستعذَبُ له الماء ويَختارُ الماءَ البارد، والأوفَقَ من المطاعم كلحمِ الظَّهْرِ والذِّرَاع والحَلْوَى، وهذا كلُّه رِفقٌ بالناقَةِ في طريق السَّير.

فأما من جَرَّد عليها السَّوطَ فإنه يُوشِكُ أن لا يقطع الطريق، وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ، فأوغِلُوا فيه برِفْق، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَع، ولا ظهراً أبقَى»(١).

واعلم أنه ينبغي للعاقل أن يُغالِطَ نفسه فيما يَكشِفُ العقلُ عن عُواره ـ مما يدعو إلى الفُتُور عن العمل، كالتفكيرِ بِقصرَ الأجل، وفواتِ الأمَل ـ ولو فكَّر في قُربِ الموت وما يَجري عليه بعدَه، لبَغَضَ عاجِلَ لَذَّته، فلا بُدَّ من

---

(١) (إن هذا الدين متينٌ) أي صُلْبٌ شديد. ومعنى (أوْغِلُوا فيه برِفْق) أي سيروا فيه بأناةٍ ولطف وتدرُّج، من غير تكلُّف، ولا تَحْمِلُوا على أنفسكم ما لا تُطيقونه فتعجِزُوا وتتركوا العمل. والإيغالُ: السَّيْرُ الشديد. و (المُنْبَتُّ) هو الذي انقطع في السفر عن متابعةِ سفره، وعُطِّلَتْ راحلتُه ولم يقضِ وَطَره.

فلا هو قَطع الأرض التي يمَّمها، ولا هو أبقَى الظَّهْرَ، أي دابَّتَهُ التي أنهكها السيرُ حتى تعطَّلتْ!

وهذا الحديث رواه البَزَّارُ عن جابرٍ رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف روي مرفوعاً إلى النَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم ورُوي موقوفاً، وموصولاً ومرسلاً، وله شاهد من حديث يَشُدُّه ويقويه. انتهى ملخصاً من «فيض القدير» للمُناوي ٢ : ٥٤٤.

[قال هارون الرشيد لخلف الأحمر مؤدّب ولده الأمين: «امنعه من الضحك إلاَّ في أوقاته، ولا تَمُرَّنَّ بكَ ساعةٌ إلاَّ وأنتَ مغتنمٌ فائدةً تفيدُه إياها، من غير أن تحزنَهُ فتُميتَ ذِهْنِه، ولا تُمعن في مسامحته فيستحلي الفراغَ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة». اهـ من «مقدمة ابن خلدون»، ص ٦٩٢، مستفاداً من كتاب «تربية الأولاد في الإسلام» للشيخ عبد الله علوان طيّب الله ثراه ١ : ١٤٤].

مغالطةٍ تجري لينتفع الإنسانُ بعَيْشِه كما قال لَبِيد[١]:

واكْـذِبِ النَّفْـسَ إذا حَـدَّثْتَهـا   إنَّ صِـدْقَ النَّفْـسِ يُـزرِي بـالأمَـلْ[٢]

وقال البُسْتِي[٣]:

أَفِـدْ طبعـك المَكْـدُودَ بـالهَـمِّ راحـةً   تَجِـمَّ وعلِّلـه بشـيءٍ مـن المَـزْحِ

---

(١) هو لَبِيدُ بن ربيعة بن مالك العامري، الصحابي المخضرم المعمَّر: أدرك الجاهلية والإسلام، أحَدُ الشعراء الفُرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، توفي سنة ٤١ من الهجرة، وَفَد على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَرَكَ الشعر ولم يقل في الإسلام إلاَّ بيتاً واحداً، قيل هو:

مـا عـاتَـبَ الحُـرَّ الكـريـم كنفسِـهِ   والمـرءُ يُصلحـه الجليسُ الصـالـحُ

وقيل: البيتَ التالي:

الحمـدُ لله إذْ لـم يـأتنـي أجلـي   حتـى اكتسَيْـتُ مـن الإسـلام سِـرْبـالا

والسِّرْبالُ: القميصُ، أو كلُّ ما لُبِس، أو الدِّرْع. من «الأعلام» للزركلي ٥: ٢٤٠ بزيادة يسيرة.

(٢) أي: لا تُحَدِّث نفسَك أنك لا تَظفَرُ بمَرامِك، فإنَّ ذلك يُثَبِّطُكَ عن نيل المراد، بل اكذِبْها وأمِّلْها بالوصول إلى ما تريد، حتى تَنشَطَ وتَسعَى لبلوغه، **فجلائل الأعمال سبيلُ بلوغها توجُّهُ الآمال**.

(٣) هو أبو الفتح البُستي: علي بن محمد بن الحُسَين، الكاتب الشاعر المبدع الحكيم، ولد نحو سنة ٣٣٠، وتوفي سنة ٤٠٠. وهو صاحبُ القصيدة الحِكَمِية العصماء، التي كلُّها حِكمٌ وأمثال كالدُّرَر، وأوَّلُها:

زيـادةُ المـرءِ فـي دنيـاهُ نقصـانُ   وربْحُـهُ غيـرَ محـضِ الخيـر خُسـرانُ

وهي ٦٣ بيتاً، عُرفت باسم (قصيدة عُنوان الحِكم)، شرحتُها بإيجاز مع دراسة وترجمة له مختصرة، وطبعت في بيروت سنة ١٤٠٤، ثم أعيدت طباعتها سنة ١٤١٢ مفردة، ومضمومة إلى رسالتي «من أدب الإسلام» التي تضمَّنَتْ توجيهات في السلوك والأخلاق.

ولكـــن إذا أعطيتَـــه ذاك فليكُـــنْ　　بمقدارِ ما يُعطَى الطعامُ من المِلحِ[١]

وقال أبو علي بن الشِّبْل[٢] :

وإذا هممتَ فناجِ نفسَك بالمُنَى　　وَعْداً، فَخَيرَاتُ الجِنانِ عِدَاتُ
واجعَلْ رجاءَك دون يأسِك جُنَّةً　　حتـى تَـزُولَ بهمِّـكَ الأوقـاتُ
واستُرْ عن الجُلَساءِ بَثَّك، إنما　　جُلسـاؤك الحُسَّـادُ والشُّمَّـاتُ
ودع التـوقُّـعَ للحـوادِث إنـه　　للحَيّ ـ من قَبْلِ المماتِ ـ مَمَاتُ!
فـالهَـمُّ ليس لـه ثباتٌ مِثـلَ ما　　فـي أهلِـهِ مـا للسُّـرُورِ ثَبَـاتُ
لـولا مغـالَطَـةُ النفـوسِ عقـولَها　　لـم تَصْـفُ للمُتَيَقِّظيـنَ حَيَـاةُ

وقال أيضاً :

بحفظِ الجسم تَبْقَى النفسُ فيه　　بَقَـاءَ النـارِ تُحفَـظُ بـالـوِعـاءِ
فبـاليَـأسِ المُمِـضِّ فـلا تُمِتْهـا　　ولا تَمْـدُدْ لهـا طِـوَلَ الـرَّجـاءِ[٣]
وعِـدْهـا فـي شـدائِـدها رَخَـاءً　　وذكِّـرْهـا الشـدائـدَ فـي الـرَّخـاءِ
يُعَـدُّ صـلاحُهـا هـذا وهـذا　　وبـالتـركيـبِ مَنفعَـةُ الـدَّواءِ

---

(١) وقال آخر :

أُعَلِّـلُ النفـسَ ببعـضِ الهـزلِ　　تجـاهـلاً منـي بغيـرِ جهـلِ
أمـزحُ فيـه مـزحَ أهـلِ الفضـلِ　　والمـزحُ أحيـانـاً جِـلاءُ العقـلِ

من كتيب «من بدائع الحِكَم» للعلامة أحمد قلاش، ص ١٠٠ . سلمان.

(٢) هو أبو علي محمد بن الحسين بن الشِّبْل البغدادي، الشاعر الحكيم، أقرأ علومَ الفلسفة والأدب، ونَظَم الشعرَ الجيِّد، وكان ظريفاً نديماً، له ديوان شِعر، توفي سنة ٤٧٣ . وترجم له ابن أبي أُصَيْبعة في «طبقات الأطباء»، انتهى من «الأعلام» ٦ : ١٠٠ .

(٣) الطِّوَلُ للدابّة : رَسَنُها. يعني لا تستجب لمطالب النفس كلها، فيَعْسُرُ عليك كَبْحُها وردُّها إلى الاعتدال.

وقد كان عمومُ السلف يَخضِبون الشَّيبَ لئلا يَرى الإنسانُ منهم ما يَكره، وإن كان الخِضَابُ لا يُعدِمُ النفسَ عِلمَها بذلك، ولكنه نوعُ مُخادعةٍ للنفس[1].

وما زالت النفوسُ تَرى الظاهر، وإنما الفِكرُ والعقلُ مع الغائب، ولا بد من مغالطة تجري لِيَتِمَّ العيشُ، **ولو عَمِلَ العالمُ بمقتَضَى قِصَرِ الأمَل ما كَتَب العلمَ ولا صَنَّف.**

فافهم هذا الفصل مع الذي تَقدَّمه، فإن الأوَّلَ في مقام العزيمة، وهذا في مكانِ الرخصة.

ولا بُدَّ للتعَبِ من راحةٍ وإعانة، والله عز وجل معك على قَدْرِ صِدقِ الطَّلَب، وقوةِ اللَّجَأ، وخَلْعِ الحَوْلِ والقوة، وهو الموفِّق».

المبادرة بالتصنيف خيرٌ من التدريس

وتحدَّث رحمه الله تعالى في فَصْلٍ سابق عن الاشتغال بالتأليف واغتنام العُمر[2]، فقال:

«رأيتُ من الرأي القويم أنَّ نفعَ التصانيف أكثرُ من نفع التعليم بالمشافهة، لأني أشافِهُ في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافِهُ بتصنيفي خلقاً لا تُحصَى

---

(١) وكان الصحابي الجليل سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه يَخضِبُ بالسَّوَاد ويقول:

أُسَوِّدُ أعلاها وتأبَى أصولُها ... فليتَ ما يَسْوَدُّ منها هو الأصلُ

انتهى من كتاب «الشيب» للأستاذ سعيد كامل الكوسا ص ٦٤، الذي طبعته دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٤، في ١٦٠ صفحة.

(٢) في ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩، الفصل ١٦٥. [وتقدم ص ٨٠ كلمة عن بقاء الذكر وخلود الأثر بالتصنيف، و ص ١٠٥ ت].

ما خُلِقُوا بعد، ودليلُ هذا أن انتفاع الناس بتصانيفِ المتقدمين أكثرُ من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفَّر على التصانيف إن وُفِّق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صَنَّف صنّفَ.

وليس المقصود جَمْعَ شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يُطْلِعُ الله عز وجل عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيَجمَعُ ما فُرِّق، أو يُرتِّبُ ما شُتِّت، أو يَشرَحُ ما أُهمِل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنامُ التصنيف في وَسَطِ العُمر، لأن أوائلَ العمر زمَنُ الطلب، وآخِرَهُ كَلالُ الحَوَاس، وربما خان الفهمُ والعقلُ من قُدِّرَ عُمُرُه، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة لا أنه يَعلمُ الغيب، فيكون زمانُ الطلبِ والحفظِ والتشاغلِ إلى الأربعين، ثم يبتدىءُ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم.

هذا إذا كان قد بَلَغَ ما يريد من الجَمْع والحفظ، وأُعِينَ على تحصيل المطالب، فأما إذا قَلَّتْ الآلاتُ عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيفَ الطلب فلم ينل ما يريده في هذا الأوان، أَخَّرَ التصانيفَ إلى تمام خمسين سنة.

ثم ابتدأ بعدَ الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيدُ فيما بعدَ الستين في التعليم ويُسمعُ الحديثَ والعلمَ، ويُعَلِّلُ التصانيف إلى أن يَقَع مُهِمٌّ إلى رأس السبعين، فإذا جاوز السبعين جَعَل الغالبَ عليه ذِكرَ الآخِرة والتهيؤَ للرحيل.

فيوفِّرُ نفسَه على نفسِهِ إلاَّ من تعليمٍ يحتسبه، أو تصنيفٍ يُفتَقَرُ إليه، فذلك أشرف العُدَد للآخرة».

التصنيف والمطالعة
لا يغنينان عن الحفظ والإعادة

وقال أيضاً في فَصْلٍ سابق[١] متحدثاً عما ينبغي أن يُشتغَلَ به من التأليف في العلوم:

«ينبغي لطالب العلم أن يكون جُلُّ همته مصروفاً إلى الحفظ والإعادة، فلو صح صَرْفُ الزمان إلى ذلك كان الأَولى، غير أن البدن مطية، وإجهاد السير مَظِنة الانقطاع.

ولما كانت القوى تَكِلُّ فتحتاج إلى تجديد، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لا بد منه، مع أن المهمَّ الحفظُ، وَجَب تقسيمُ الزمان على الأمرين، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل، ويوزع الباقي بين عمل النسخِ والمطالعة، وبين راحة للبدن وأخذِهِ لحظِّه.

ولا ينبغي أن يقع الغَبْنُ بين الشركاء، فإنه متى أخذ أحدُهم فوقَ حقه أثَّر الغبن وبان أثره، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار لأن ذلك أشهى وأخف عليها.

فليحذر الراكب من إهمال الناقة، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا تطيق، ومع العدل والإنصاف يتأتى كلُّ مراد، ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه، ومن طوى منازل في منزل، أوشك أن يفوته ما جدَّ لأجله، على أن الإنسان إلى التحريض أحوج، لأن الفتور ألصق به من الجد.

وبعد، فاللازمُ في العلم طلبُ المهم، فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث: «من أتى الجمعة فليغتسل» عشرين طريقاً، والحديث قد ثبت من

---

(١) في ص ٢٠٥، الفصل ١٤٦.

طريق واحد، فشَغَلَه ذلك عن معرفة آداب الغسل! **والعمر أقصرُ وأنفسُ من أن يُفَرَّط منه في نَفَس، وكفى بالعقل مرشداً إلى الصواب**، وبالله التوفيق».

ذكرُ أهمِّ ما يُساعدُ على اغتنام الوقت

وإنَّ أهمَّ ما يساعِدُ على اغتنام الوقت: تنظيمُ الأعمال، والانحياشُ عن المجالس الفارغة الخاوية، وتركُ الفضول في كل شيء، ومصاحبةُ المجدين النبهاء الأذكياء المتيقظين للوقت والدقائق، وقراءةُ أخبار العلماء الأفذاذ أصحاب التراجم الحافِزة ــ كالذين سبَقَتْ بعض أخبارهم ــ ، والتذاذُ المرء بحلاوةِ كسب الوقت في الإنتاج العلمي، والانغمارُ في متعة المطالعةِ والاستزادةِ من المعرفة والاطلاع وتنقيحِ المعلومات.

فإنَّ ذلكَ يُعرِّفك بقيمة الزمن، ويُلهِبُ فيك الحِفاظَ عليه، ويجعلك تَكْسِبُه ولا تُبيده، وتحافظُ عليه ولا تُضِيعه.

الإمام الغزالي ينبِّه إلى تنظيم الأوقات

وإلى تنظيم الأوقات يُنَبِّهُ الإمام الغزالي رحمه الله تعالى بكلمة نفيسة في كتابه «بداية الهداية»[١]، قال: «ولا ينبغي أن تكونَ أوقاتُك مهملةً، فتشتغلَ في كل وقتٍ بما اتَّفَق كيف اتَّفَق، بل ينبغي أن تحاسبَ نفسَك، وتُرتِّب وظائفَك في ليلك ونهارِك، وتُعَيِّن لكلِّ وقتٍ شُغْلاً لا يتعدَّاه ولا تُؤْثِرُ فيه سواهُ، فَبِهِ تظهرُ بركةُ الأوقاتِ.

فأمَّا مَنْ تَرَكَ نفسَه مهملاً سُدًى، إهمال البهائمِ، لا يدري بمَ يستقبل كُلَّ وقت، فتنقضي أكثرُ أوقاتِه ضائعةً».

---

(١) ص ١٢٠. والنص من إضافة العبد سلمان بإشارة من والده رحمه الله تعالى.

ابن بَرْهَان ينظم ساعات نهاره وليله

جاء في «طبقات الشافعية الكبرى»[١] لتاج الدين السبكي رحمه الله تعالى، في ترجمة الإمام أبي الفتح ابنِ بَرْهَان (أحمد بن علي) البغدادي، الأصولي الحنبلي ثم الشافعي، المولود سنة ٤٧٩، والمتوفى سنة ٥١٨ رحمه الله تعالى:

«كان حنبليَّ المذهب أولاً، ثم انتَقَل ــ إلى المذهب الشافعي ــ وتفقَّه على الشاشي، والغزالي، وإِلْكِيَا ــ الهَرَّاسِي ــ.

وكان حاذِقَ الذهن، عجيبَ الفِطرة، لا يكاد يَسمَعُ شيئاً إلاَّ حَفِظَه وتعلَّق بذهنِه، ولم يَزَل مواظباً على العلم حتى ضُرِبَ المَثَلُ باسمه.

وكانت الرِّحلةُ قد انتهت إليه، وتزاحمَتْ الطُّلاَّبُ على بابِه، حتى انتَهَى حالُه إلى أن صار جميعُ نهارِهِ وقِطْعَةٌ من ليلِهِ مُستَوْعَباً في الاشتغال، يَجلِسُ من وقتِ السَّحَر إلى وقتِ العِشاءِ الآخِرة، ويتأخَّرُ أيضاً بعدَها.

وحُكي أنَّ جماعةً سألوه أن يَذْكُرَ لهم ــ أي يُدَرِّسَ لهم ــ دَرْساً من كتابِ «الإحياء» للغزالي، فقال: لا أجِدُ لكم وقتاً، فكانوا يُعيِّنون الوقتَ، فيقولُ: في هذا الوقتِ أذكُرُ الدَّرْسَ الفلانيَّ، إلى أن قرَّروا مَعَه أن يَذكُرَ لهم دَرْساً من «الإحياء» نِصفَ الليل». انتهى.

وهذا يفيد أنه كان قد نَظَّم أوقاتَهُ للعبادةِ والطعامِ والمَنَام، وللمطالعةِ والحفظِ، والتدريسِ والقراءةِ عليه، وهذا شيء هامٌّ جداً، يَتمكَّنُ بِه العالِمُ وطالبُ العلم من بلوغ مرغوباتِهِ العلمية جميعاً، بحيث لا يَطْغَى مرغوبٌ على مرغوبٍ فيُحرَمَ منه.

---

(١) ٦: ٣٠.

الوقتُ هو الحياةُ

وقد قال الأستاذ الناصحُ الراشدُ المرشدُ حسن البنا رحمه الله تعالى: «من عَرَف حقَّ الوقت، فقد أدرك الحياة، فالوقت هو الحياة»[١].

وقال الفقيه الشاعر الأديب عُمَارةُ اليمني، المتوفى سنة ٥٦٩ رحمه الله تعالى، ــ في قصيدة له في ترجمته في كتاب «وَفيَات الأعيان» للقاضي ابن خَلِّكان[٢] ــ:

إذا كان رأسُ المالِ عُمرَك فاحتَرِزْ	عليه من الإنفاقِ في غيرِ واجبِ
فَبَيْن اختلافِ الليلِ والصُّبْحِ مَعْرَكٌ	يكُرُّ علينا جيشُهُ بالعجائبِ!

وقال الشاعر الأديب المصري أحمد شوقي رحمه الله تعالى:

دَقَّاتُ قَلْبِ المرءِ قائلةٌ له:	إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثَوانِ
فارْفَعْ لنفسِكَ بعدَ مَوْتِكَ ذِكرَها	فالذِكْرُ للإنسانِ عُمْرٌ ثاني[٣]

---

(١) لأنه المساحة من الزمن، أو المدة التي تبدأ بالولادة وتنتهي بالوفاة.

الحياة: الوقت

الولادة ــــــــــــــــــــــــ الوفاة

الوقت: الحياة

استفدته بتصرف من كُتيِّب: «كيف تُدير وقتك» للدكتور صلاح الدين محمود. وهو على وجازته وصغره جميل ومفيد. سلمان.

(٢) ١: ٣٧٧.

(٣) وفي أمر بقاء الإنسان ما بقي الثناء.

يقول المتنبي:

ذِكْرُ الفتى عمره الثاني، وحاجتُه	ما فاتَه، وفضول العيشِ أشغالُ

من «زهر الآداب» للحُصْري ١: ٣١٢.

=

وللشاعر الأديب صَفيِّ الدين الحِلِّي البغدادي عبد العزيز بن سَرَايا، المولود سنة ٦٧٧، والمتوفى سنة ٧٥٠ رحمه الله تعالى أبياتٌ لطيفة في قيمة الزمن والحِرص عليه، يقول فيها:

حياتُك رأسُ المالِ والعلمُ رِبحُهُ ... وأخلاقُ أشرافٍ بهنَّ تَصَدَّرُ
وموسمُك الأيامُ فَلْتَكُ حازماً ... وإلا فذو التفريطِ لا شكَّ يَخْسَرُ
ومن ضيَّع الأوقاتَ ضاعَتْ حياتُه ... وعاش فقيراً جاهلاً ليس يُشكَرُ
ودَعْ غائباً من فائتٍ ومؤمَّلٍ ... فوقتُك سيفٌ قاطعٌ ليس يَعْذُرُ[1]

التفقه في الحداثة أرسخ وأثبت

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، في كتابه «الفقيه والمتفقه»[2]: «بابُ التفقه في الحَدَاثةِ وزمنِ الشَّبِيبة»، ثم روى بإسنادِهِ

= ويقول الوزير أبو عبد الله محمد بن الخطيب الأندلسي:

وما العمرُ إلاَّ زينةٌ مستعارةٌ ... تُردُّ، ولكنَّ الثناءَ هو العمرُ
ومَنْ باع ما يفنى بباقٍ مخلَّدٍ ... فقد أنجح المَسْعى وقد رَبِح التُّجْرُ

من «العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» للمقريزي ١ : ١٢٠.

وقيل:

اصرِفْ حياتَك في جدٍّ وفي عَمَلِ ... تُعَدُّ حيًّا ولا تركَنْ إلى الكسلِ

وقيل:

إنّ المآثِرَ في الورى ذُرِّيةٌ ... يفنى مؤثِّرُها ويبقى ذكرُها
فترى الكريمَ كشمعةٍ من عَنْبرٍ ... ضاءت فإن طُفئت تضوَّع نَشْرُها

من «ديوان الإنشاء» للسيد أحمد الهاشمي، ص ١٧٢. سلمان.

(١) قال عبد الفتاح: ولو كان آخر البيت الثالث: (ليس يُذْكَرُ) لكان حسناً أيضاً.

(٢) ٢ : ١٧٧ ـ ١٨٢.

«عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلاَّ شاباً، وما أوتي العلمَ عالمٌ خيرٌ له منه وهو شاب.

وعن قابوس بن أبي ظَبْيَان قال: صَلَّينا يوماً خَلْفَ أبي ظَبْيَان صلاةَ الأُوْلى ونحن شبابٌ كلُّنا من الحيِّ إلاَّ المؤذِّنَ فإنه شيخ، فلما أنْ سَلَّم التفتَ إلينا ثم جَعَل يَسألُ الشابَّ: مَنْ أَنْتَ؟ فلما سألهم قال: إنه لم يُبعَث نبيٌّ إلاَّ وهو شاب، ولم يُؤتَ العلمَ خيرٌ منه وهو شاب.

وعن موسى بن علي ــ بن الحسين بن علي بن أبي طالب ــ، عن أبيه، أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بُنيَّ ابتغِ العلم صغيراً، فإنَّ ابتغاءَ العلم يَشُقُّ على الكبير، يا بُنَيَّ إنَّ الموعظة تَشِقُّ على السفيهِ، كما يَشِقُّ الوَعْرُ الصَّعُودُ على الشيخ الكبير.

وقال هشام بن عُرْوَةَ: كان أبي يقول: إنَّا كنا أصاغرَ قوم، ثم نحن اليوم، كبارٌ، وإنكم اليومَ أصاغرَ، وستكونون كباراً، فتعلَّموا العلم تَسُودُوا به قومكم، ويحتاجوا إليكم.

وقال أحمدُ بن يحيى، عن سلمة، عن الفَرَّاءِ قال: يقالُ: خيرُ الفقهِ القَبَليُّ، وشَرُّ الفقهِ الدَّبَرِيُّ، قال الفراءُ: الدَّبَرِيُّ، ما كان في آخِرِ العُمُر بعد تَقَضِّي الشباب. قال أحمد بن يحيى وقال غيرُ الفراء: الفقهُ القَبليُّ ما حاضرتَ به وحَفِظَته، والدَّبَرِيُّ ما كان في كتابك وأنت لا تحفظُه.

قال أبو بكر ــ الخطيب البغدادي ــ: قلتُ: التفقهُ في زمن الشَّبيبةِ وإقبالِ العُمُر، والتمكُّن منه بقلةِ الأشغالِ وكمالِ الذهن وراحةِ القريحة: يَرسَخُ في القلب، ويَثْبُت، ويتمكَّنُ ويَستحكم، فيَحصلُ الانتفاع به والبركةُ إذا صَحِبَه من الله حُسنُ التوفيق، وإذا أُهمِلَ إلى حالةِ الكِبَر المغَيِّرةِ للأخلاق، الناقِصَةِ للآلات: كان كما قال الشاعر:

إذا أنـتَ أعيـاكَ التعلُّـمُ نـاشئـاً فمَطْلَبُـهُ شيخـاً عليـك شَـدِيـدُ

قال الحسن البصري: الحفظُ في الصِّغَر كالنقش في الحجر. وعنه أيضاً أنه قال: التعلمُ في الصغر كالنقش في الحجر.

وعن القاسم بنِ أبـي بَرَّة قال: العلمُ في الصغر كالنقش في الحجر.

وقال بعضُ الشعراء:

ومـا الحِلْـمُ إلاَّ بـالتحلُّـم فـي الكِبَـرْ ومـا العِلـمُ إلاَّ بـالتعلُّـم فـي الصِّغَـرْ

ولـو ثُقِـبَ القلـبُ المعلَّـمُ فـي الصِّبَـا لألفَيتَ فيه العِلمَ كالنقشِ في الحَجَرْ

وقال علقمة: ما حفظتُ وأنا شابٌ فكأني أنظرُ إليه في قِرطاسٍ أو ورقة.

وعن مَعْمَر قال: جالستُ قتادة وأنا ابنُ أربعَ عَشْرَةَ سنة، فما سَمعت منه شيئاً وأنا في ذلك السِّنِّ إلاَّ وكأنه مكتوبٌ في صدري». انتهى ما أورده الخطيب رحمه الله تعالى. باختصار وتصرف يسيرين.

قولُ حفَصة بنتِ سيرين: ما العمَلُ إلاَّ في الشباب

والعُمرُ الحقيقيُّ الفعَّالُ هو في سِنِّ الشباب، ذلك أنَّ الشَّبَابَ هو مَيدانُ العملِ والتحصيل، كما هو مَيدانُ الإنتاج والإعطاء، فالقوَّةُ وافية، والهِمَّةُ عالية، والأمراضُ والعِلَلُ والعوائقُ ــ لقلة العلائق ــ نائية، وقد كانت التابعيَّةُ الجليلةُ حفصة بنتُ سيرين تقول: «يا معشَرَ الشباب، خُذُوا من أنفسكم وأنتم شباب، **فإنِّي ما رأيتُ العَمَلَ إلاَّ في الشباب**»[١].

---

(١) كما في ترجمتها العَطِرَة الحافلة في «صِفَة الصفوة» لابن الجوزي ٤: ٢٤، ولها ترجمةٌ في «تهذيب التهذيب» لابن حجر ١٢: ٤٠٩. وهي بَصْرِيَّةٌ تابعيَّةٌ جليلة، ومحدِّثةٌ فقيهةٌ حُجَّةٌ نبيلة، وهي أُختُ الإمام التابعيِّ الجليل محمد بن سيرين، =

وقال مالك بن دينار: **إنما الخير في الشباب**[١].

وقال الزمخشري في «الكَلِم النوابغ»: **المرءُ عُنوانُ أمره عُنْفُوان عمره**[٢].

قال الإمام النووي في المقدمة الحافلة لكتابه الجليل «المجموع»[٣]: «وينبغي للمتعلِّم أن يغتنمَ التحصيلَ في وقتِ الفراغِ والنشاط، وحالَ الشبابِ وقُوَّةِ البَدَن، ونباهةِ الخاطرِ، وقِلَّةِ الشواغل، قبلَ عوارِض البَطَالة».

وقال الإمام بدر الدين ابن جماعة محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى، في كتابه النافع المفيد: «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»، وهو يتحدث عن آداب المتعلم في نفسه[٤]:

«الثالث: أن يُبادِرَ شبابَهُ وأوقاتَ عُمُرِه، إلى التحصيل، ولا يَغترَّ بخُدَعِ التسويف والتأميل، فإنَّ كُلَّ ساعةٍ تمضي من عمره لا بَدَلَ لها ولا عِوَضَ عنها، ويَقطَعَ ما يَقدِرُ عليه من العلائقِ الشاغلة، والعوائقِ المانعة، عن تمامِ الطلب، وبذلِ الاجتهاد، وقوة الجِدّ في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق.

ولذلك استَحَبَّ السلفُ التغرُّبَ عن الأهل، والبعدَ عن الوطن، لأن الفكرة إذا توزَّعَتْ قَصُرَتْ عن دَرْكِ الحقائق، وغموضِ الدقائق، ولذلك يقال: **العلمُ لا يُعطيك بعضَه حتى تعطيه كلَّك**».

= عاشت ٩٠ سنة، وُلِدَت سنة ١١ من الهجرة، وماتت سنة ١٠١ رحمها الله تعالى.

(١) «حفظ العمر» لابن الجوزي، ص ٦٦. والنص من إضافة العبد سلمان، وكذا الذي يليه.

(٢) أي أن حاله في الشباب الذي هو حال القوة والنشاط هي عنوان وعلامة لحاله بقية حياته. سلمان.

(٣) ١: ٦٩.

(٤) ص ٧٠.

وقال في حَضِّه لطالبِ العلم على اغتنام العلم والازدياد منه في وقت الشباب وقلةِ العوائق عند التحصيل[١]:

«ولتكن هِمَّتُه في طلب العلم عاليةً، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيره، ولا يقنع من إرثِ الأنبياء صلوات الله عليهم بيسيره، ولا يؤخِّرُ تحصيل فائدة تمكَّن منها، أو يَشْغَلُهُ الأمَلُ والتسويفُ عنها، فإن للتأخير آفات، ولأنه إذا حَصَّلها في الزمن الحاضر، حَصَّل في الزمن الثاني غيرَها.

ويغتنمُ وقتَ فراغه ونشاطه، وزمنَ عافيتِهِ وشَرْخِ شبابه ونباهةِ خاطره وقلةِ شواغله قبلَ عوارضِ البطالة، أو موانع الرئاسة، قال عمر رضي الله عنه: تفقَّهوا قبلَ أن تُسَوَّدوا. وقال الشافعي رضي الله عنه: تفقَّهْ قبل أن ترأس، فإذا رأستَ فلا سبيل إلى التفقه».

وكان الإمام محمد بن الحسين الفقيه الشافعي المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ ينشد:

تعلم يا فتى والعودُ رَطْبٌ ... وطينُكَ لينٌ والطبعُ قابل

قولُ الإمام أحمد:
ما شبَّهتُ الشبابَ إلاَّ بشيءٍ كان في كُمِّي فَسَقَط

وإنَّ العُمرَ الطويلَ ينقضي يوماً بعد يوم، وكثيراً ما تَنْسى أنه يمضي مُسْرِعاً ولا يعود، فَتَغْفُلُ عن اكتسابِهِ والانتفاع به، وتَظُنُهُ مديداً طويلاً، مُقيماً بطيئاً، وحقيقتُهُ غيرُ ذلك، قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ــ وقد عاش ٧٧ سنة ــ : «ما شبَّهْتُ الشبابَ إلاَّ بشيءٍ كان في كُمِّي فَسَقَط»[٢].

---

(١) ص ١٣٣.

(٢) من «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص ١٩٨ من الطبعة الأولى، وص ٢٥٧ =

وإلى قول الإمام أحمد ينظر قول القائل:

لله أيـــامُ الشبـــابِ وعَصْـــرُهُ — لـــو يُستعـــارُ جـديـدُهُ فيُعـــارُ
مـــا كـــان أقصَـــرَ ليلَـــهُ ونهـــارَهُ — وكــذاك أيـــام الســـرورِ قِصـــارُ

فالشبابُ وإن امتدَّ يسير، والعُمرُ وإن طال قصير، ورحم الله القائل:

أذانُ المَـرْءِ حِيـنَ الطِّفْـلُ يـأتـي — وتـأخيـرُ الصـلاةِ إلـى المَمَـاتِ
دليـــلٌ أنَّ مَحْيَـــاهُ يَسيـــرٌ — كمـا بيـن الأذانِ إلـى الصـلاةِ

وقال آخر:

ومـا بيـنَ مِيـلادِ الفَتَـى وَوَفـاتِـهِ — ـ إذا نَصَحَ الأقوام أنفُسَهُمْ ـ عُمْرُ
لأنَّ الذي يأتي شَبِيهُ الذي مَضَى[1] — ومـا هُـوَ إلاَّ وَقْتُـكَ الضَّيِّـقُ النَّـزْرُ

وقال آخر:

ألا إنمـا الإنسـانُ ضيـفٌ لأهلـه — يُقيـمُ قليـلاً عنـدهـم ثـم يَـرْحـلُ

وقال المتنبـي:

ومـا مـاضـي الشبـابِ بمستـردٍ — ولا يـــومٌ يَمُـــرُّ بمستعـــادِ

وجاء في مرثية الشاعر الشهير أبو الحسن علي بن محمد التهامي المولود في حدود عام ٣٦٠، والمتوفى سنة ٤١٦، لولده الصغير أبياتٌ حكيمة في أهمية الاستفادة من الوقت ولا سيما زمن الشباب:

= من الطبعة الثانية المحققة. وقد وُلِدَ الإمامُ أحمد سنة ١٦٤، وتوفي سنة ٢٤١ رحمه الله تعالى.

(١) أي: في سُرعةِ مُضِيِّهِ وانقضائِهِ.

فـاقضُـوا مـآربكـم عجـالاً إنمـا ... أعمـارُكـم سَفْـرٌ مـن الأسفـارِ
وتراكضوا خيلَ الشباب وبادروا ... أن تُسْتَـردَّ فـإنَّهـنَّ عـواري
فالدهرُ يخدعُ بالمُنَى ويُغِصُّ إن ... هَنَّى ويهـدمُ مـا بنـى ببـوارِ
شيئـان ينقشعـانِ أوَّلَ وَهْلَـةٍ ... ظِـلُّ الشبـابِ وخِلَّـةُ الأشـرارِ
لا حَبَّـذَا الشيـب الـوفـي وحبَّـذَا ... ظِـلُّ الشبـابِ الخـائـنِ الغَـدَّارِ
وَطَرِي من الدنيا الشبابُ وَرَوْقُهُ ... فإذا انقضى فقد انقضت أوطاري
قَصُـرَت مسـافتـه ومـا حسنـاتُـه ... عنـدي ولا آلاؤه بقصـارِ[1]

انتشار الكسل العقلي
في صفوف طلبة العلم اليوم!

ومن المؤسف أنه قد انتشر في صفوفِ طلبة العلم اليومَ: الكَسَلُ العقلي، وغَلَبَ عليهم إيثارُ الراحَةِ والدَّعَةِ على الجِدِّ والدَّأب، وصارت الرفاهيةُ وأنواعٌ من الفُضُولِ مَقْصِداً من مقاصد الحياة عندهم، وغَدَتْ المُتَعُ مطلباً من مطالبهم، فلم يَبقَ لديهم وقتٌ للدرسِ والتحصيل[2] وصارَتْ حالُهم تُشْبِهُ حالَ من عَنَاه الإمامُ أحمدُ بن فارس الرازيُّ اللغويُّ، المولود سنة **٣٢٩**، والمتوفى سنة **٣٩٥** رحمه الله تعالى بقوله:

إذا كـان يُـؤْذِيـكَ حَـرُّ المَصِيـفِ ... وَيُبْـسُ الخَـريـفِ وبَـرْدُ الشِّتَـا
ويُلْهِيـكَ حُسْـنُ زَمـانِ الـرَّبيـعِ ... فَـأَخْـذُكَ للعِلْـمِ قُـلْ لـي: مَتَـى؟!

---

(١) «ديوانه» ص ٣٠٩ و ٣١٥ و ٣١٦. والأبيات من إضافة العبد سلمان.

(٢) بل صارت أُمنيَّتُهم من طلب العلم النجاح فحسب، وأما طلبة العلم سابقاً فكانت أمنيَّتُهم التفوق والتبريزُ في العلم.

الآلوسيُّ الحفيد
وحرصُهُ الشديدُ على الدرس والعلم

وكان العلامة الكبير أبو المعالي محمود شكري الآلوسي البغدادي، الحفيد الأديب المتوفى سنة ١٣٤٢ رحمه الله تعالى، يمتاز بالجدِّ الشديد والحرص على الوقت، فكان لا يَثنيه عن دروسه حَمَارَّةُ القَيْظ، ولا يُؤَخِّرُه عنها قَرْصُ بَرْدِ الشتاء، وكثيراً ما تعرَّض تلاميذُه ـ بسبب تأخرهم عن موعد الدرس ـ إلى النقد والتعنيف.

قال عنه تلميذه العلامة الشيخ بهجة الأثري: أذكُرُ أنني انقطعتُ عن حضور درسه في يوم مُزْعِجٍ، شديد الريح، غزير المطر، كثير الوَحْل، ظناً مني أنه لا يَحْضُرُ إلى المدرسة، فلما شَخَصتُ في اليوم الثاني إلى الدرس، صار يُنْشِدُ بلهجةِ غضبان:

ولا خيرَ فيمن عاقَهُ الحَرُّ والبَرْدُ»[(١)]

أنت في الكِبَر
أشغلُ وأضعَفُ منك في الشبابِ والصِّغَر

وقد يُخَيَّلُ لبعضهم أنَّ الأيامَ سَتفرُغُ له في المستقبَل من الشواغل، وتَصْفُو له من المكدِّراتِ والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغَ منه في الماضي أيامَ الشباب، ولكنَّ الواقعَ المُشاهَدَ على العكسِ من هذا أيها الأخُ العزيز، فأُخبِرُك خبَرَ من بَلَغ ذلك وعرفَهُ:

كلما كَبِرَتْ سِنُّك، كَبُرَتْ مسؤوليَّاتُكَ، وزادَتْ علاقاتُك، وضاقتْ

---

(١) من مقدمة الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدُّوري لكتاب: «إتحاف الأمجاد فيما يَصِحُّ به الاستشهاد» للآلوسي محمود الحفيد ص ١٥.

أوقاتُك، ونَقَصَتْ طاقاتُك، فالوقتُ في الكِبَرِ أضيق، والجسمُ فيه أضعف، والصحةُ فيه أقلّ، والنشاطُ فيه أدنى، والواجباتُ والشواغِلُ فيه أكثرُ وأشدّ! فبادر ساعاتِ العمر وهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكلُّ ظرفٍ مملوءٌ بشواغله وأعمالِه ومُفاجآته.

ولا تغرنَّك يُفوعة الشباب فتدفعك إلى التسويف والتأجيل، بل اغتنم شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، واسمع أول شعر قاله ابن دريد (محمد بن الحسن بن دريد) الإمام اللغوي، المولود سنة ٢٢٣، والمتوفى سنة ٣٢١ عن ٩٨ سنة، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة[١].

ثوبُ الشباب عليَّ اليومَ بهجتُهُ ... فسوف تنزِعُهُ عني يَدُ الكِبَرِ
أنا ابنُ عِشرين ما زادتْ ولا نقصَتْ ... إنَّ ابنَ عِشرين من شَيْبٍ على خَطَرِ

وذكر الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه النفيس «الآداب الشرعية»[٢] قول بعض الحكماء:

بادر إذا الحاجاتُ يوماً أمكنتْ ... بورودِهِنَّ مواردَ الآفاتِ
كم من مؤخِّرِ حاجةٍ قد أمكنتْ ... لغدٍ وليس غدٌ له بمُواتِ
تأتي الحوادثُ حين تأتي جَمّةً ... ونرى السرور يجيء في الفلتاتِ

ولبعضهم يُشيرُ إلى قِلَّةِ أيام السرور، وكثرةِ أيام المكروه:

يقولون إنَّ الدهرَ يومانِ كلُّهُ ... فيومُ مَسَرَّاتٍ ويومُ مَكَارِهِ
وما صَدَقُوا والدهرُ يومُ مَسَرَّةٍ ... وأيامُ مكروهٍ كثيرُ البَدَائِهِ

---

(١) كما في ترجمته من «معجم الأدباء» ١٨: ١٢٧.

(٢) ١: ٢٤٤، طبعة المنار ١٣٤٨.

ثم ما يدريك أن تطالك يد المنون وقد مضى من العمر ما مضى هباءً خواءً، وكم من شاب عاجله الموت، وشيوخ عاشوا إلى أرذل العمر، وإلى هذا أشار أبو الفتح البستي في نونيته المسمَّاة: «قصيدة عنوان الحكم» فعليك بقراءتها واستِظهارها فإنها لآلىء منثورة وجواهر منظومة:

لا تَغْتَــرِرْ بشبــابٍ رائــقٍ نضِــرٍ   فكــم تقـدَّم قبـل الشَّيْـبِ شُبَّـانُ

واعلم أنه لا أمان من الموت، فبادر بالعمل والتحصيل قبل الفوت:

وكلٌّ سيَفْنَى والشَّبابُ مُعَار

بادر إلى طلب العلم في الحداثة

فبادر إلى طلب العلم في حداثتِكَ وزمنِ شبيبتِكَ وأنت مُتمتِّع بصحتك وشبابك، وإياك والتسويف.

فإن الضّعفَ رفيقُ الشيوخ، والشبابَ صديقُ الفِتْيان، والصديقُ أوفى من الرفيق، وفي الشيخوخة غربةُ الإنسان عن زمانه، لذَهابِ أقرانه، فيَعيشُ بين أناس غرباء عنه، وُلِدوا بعده، ونشأوا غيرَ نشأته، فلا هُمْ لِدَاتُه، ولا هو من أقرانهم، فبينه وبينهم غربةُ العمر والزمان والذهن والعِرْفان.

فإذ كَبِرتَ ستعيشُ بينهم وهم في قوة ومتانة، وأنت في وَهْن وزَمَانةٍ، لا يبقى عزمُك شديداً، ولا بصرُك حديداً، ولا سمعُك حميداً، ولا جسمُك سويّاً نقياً، ولا يداك تكتُب خطّاً نضِراً جلياً.

فلا تُحِل أعمالَ شبابك ونشاطِك، إلى فراغ شيخوختك في آخر حياتك، ففيها تَختَلُّ القُوى بأنواعها ــ بقدر يسير أو كثير ــ صحةً وبصراً وسمعاً، وقياماً وقعوداً، وحملاً للكتاب، واهتزازاً للقَلَم، ورَقَّة للعين، ونفادَ صبر في حلِّ المعضلات، أو جَمْع المُشَتَّتات، فذلك مني هدية من هدايا الآباء للأبناء، فـاعلَمْـهُ وتمثَّلْـهُ جيـداً، ولا تَقُـل فـي داخـل نفسـك: أنـا لـن أكـون كـذلـك،

فأقول لك: أنت (ذلك) نَفْسُه لا (كذلك).

سئل أحد الشيوخ عن الذي بقي منه، فأجاب: «يَسبقُني مَنْ أمامي، ويُدركني مَنْ خلفي، وأذكُر القديم وأنْسَى الحديث، وأنعَسُ في المَلا، وأسهَرُ في الخَلا، وإذا قمتُ قَرُبَتْ الأرضُ مني، وإذا قعدتُ تباعَدَتْ عنِّي»[١].

سَلْنــي أنبِّــكَ بــآيــات الكِبَــرْ   نــومُ العشــاءِ وسعــالٌ بــالسَّحَــرْ
وقِلَّــةُ النــوم إذا الليــلُ اعتكَــرْ   وقِلَّــةُ الطَّعْــمِ إذا الــزاد حَضَــرْ
وحَــــذَراً ازداده إلــــى حَــــذَرْ   والنـاسُ يَبْلَـوْن كمـا تَبلَـى الشَّجَـرْ[٢]

وينبغي لك أيها الأخ العزيز والمحب للعلم الشريف، والواهب راحتَك ومنامَك للازدياد منه والإتقان له، والنشر لنشره، والتوجيهِ لطيبه وعطرِه، أن تبادر الساعات والأنفاس برعايته ودعايته، وتسجيله وإشاعته، فإن الزمان سريعُ الانقضاء، والسنواتُ فيه كاللَّمَحات واللَّحَظات، فلا تدري متى يُحال بينك وبينه، وتقعُدُ حسيراً محروماً من مُزاوَلتِه ومباشرَته!

ولك في السالفين عبرة ونذير، حتى سجلوا ذلك في أشعارهم، وفيما سَجَّلُوه الندمُ الشديد على مفارقتهم له وانقطاعهم!

ولـم يَتَّفِـق حتـى مضـى لسبيلِـهِ   وكم حَسَراتٍ في بُطونِ المقابرِ[٣]!

---

(١) «الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام» لعبد الإله الصائغ، ص ١٥٨.

(٢) الأبيات للمستوغر بن ربيعة، كما في «قضية الزمن في الشعر العربي» للدكتورة فاطمة محجوب، ص ١١٢، وهي من إضافة العبد سلمان.

(٣) قال الحافظ ابن الصلاح رحمه الله تعالى في مقدمته «معرفة أنواع علم الحديث»، في النوع الثامن والعشرين: آداب طالب الحديث، ص ٢٢٨: «حدَّث الحافظ الصُّوري محمد بن علي ــ المتوفى سنة ٤٤١ ــ قال: رأيت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الأَزْدي =

فحَذَارِ ــ أيها الأخ العزيز ــ أن تَظُنَّ أنك سَيسنَحُ لك في المستقبل عَامٌ أو شهرٌ، أو أسبوعٌ كلُّهُ فَراغٌ رائق، وهُدوءٌ كامل، وفيك نَشاطٌ مشبوب، وذِهْنٌ صافٍ مُتَّقد، وصِحَّةٌ تامَّةٌ كاملة، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب، ولا مَرَض ولا عَرَض، ولا حُزْنَ ولا أَسَى، ولا . . . ، ولا . . . ، فهذا من خيالاتِ الأماني ومَتَاهاتِ الأحلام!

الشّبابُ مَظِنَّةُ الجِدِّ واللَّذاذات
والشيخوخةُ مَظِنَّةُ الضعفِ والمنغِّصات

فالعَملُ والجِدّ، والقُوَّةُ والمَجْد، ونَيْلُ الغايات، وصَفَاءُ اللَّذاذات، إنما هو في سِنِّ الشباب، لا في سِنِّ الشيخوخة، فإنها مَسْرحُ الأمراضِ والأعراض، والمكدِّراتِ والمنغِّصات[1]، وقد صدق القائل:

= الحافظ في المنام ــ بعدَ موته ــ ، فقال لي: يا أبا عبد الله، خَرِّجْ وصنِّفْ قبلَ أن يحال بينك وبينه، ها أنا ذا تراني قد حِيلَ بيني وبين ذلك».

وقد أوصى الشريفُ المحدِّثُ الرحَّال أبو محمد جعفر بن محمد العباسي، البغداديُّ ولادةً، الحَمَوِيُّ وفاةً سنة ٥٩٨ رحمه الله تعالى، أن يُكتَبَ على قبره: (حَوَائجُ لم تُقْضَ! وآمالٌ لم تُنَلْ!! وأنفُسٌ ماتت بحَسَراتها!). انتهى من ترجمته في «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار» انتقاء الحافظ الدمياطي، ص ٩٦.

[ودخل بعض العلماء مقبرةً فقال: لا إله إلاَّ الله، ما فيهم أحدٌ إلاَّ وله حوائج ما قضاها، يقول: سأفعل. اهـ من «حفظ العمر» لابن الجوزي، ص ٥٩].

(١) **أمراض الشيخوخة:**

الشيخوخة تبدأ من بعد بلوغ العمر خمسين سنة، وقد قالوا: الخمسون دَقَّاقةُ العُمر، أي هي السِّنُّ التي يَبدأ بها تقهقر العمر وردُّه إلى الضعف والأعراض المرَضية المؤثرة في كِيان الإنسان وجسمِه. فالخمسون هي مبدأ ساحة الأمراض والأعراض، وتخلُّفِ القوى عامة. =

. . . .

= ويكون فيها وفيما يتلوها من السنين أعراض كثيرة، منها ما يستقر إلى نهاية الحياة، ومنها ما يطول مكثه أو يَقْصُر ثم يرحل ويَخْلُفُه غيره أشد منه أو أخف منه، إذ البَدَنُ صار مستقراً لألوان من العوارض المرضية، يتقبلها بأيسر الأسباب، وفي مختلِف الظروف.

وأذكر هنا تلك الأمراض سرداً كما وردت على خاطري حين أكتب هذه السطور، دون ترتيب لها بحسب وقوعها في حياة الإنسان (الخَمْسِيني)، فلا يُفهم مِنْ سَبْقِ ذِكْرِ بعضها على بعض أنها تردُ على الجسم كذلك، فما ذِكْرُها كذلك إلَّا للتذكرة بها.

١ ـ مرض المفاصل والأوجاع فيها، ومنها ما يعطل المشيَ الطليق، أو يعطل طلاقة حركة بعض الأعضاء كاليد والكتف والأصابع.

[قال الشاعر:

وجـــعُ المفــــاصـــــلِ وهـــــو أيـ ـــســـــرُ مــــا لقيـــتُ مـــن الأذى
جعــــــلَ الـــــذي استحسنتـــــه والنــــاس مـــــن حظـــي كـــــذا
والعمـــــرُ مثــــلُ الكـــأسِ يـــر ســـبُ فـــي أواخــرهـــا القـــذى

من «المُنْتحل» المنسوب للثعالبي، ص ١٨٥].

٢ ـ مرض الاكتئاب، وهو مرض يَشُلُّ خاطر الإنسان أن يكون مع الفرح حيناً، ومع المرح حيناً، ومع المزاج العادي حيناً، فيجعلُ الإنسان في شبه ذهول وحزن دائم، لا يستطيع أن يجاري الناسَ فيما هم عليه من سَرَّاء أو انبساط أو اختلاط. . .! وهو مرض عُضالٌ يلغي وجود الإنسان طبيعياً!

٣ ـ تقاصُرُ السمع وخِفَّتُه إن لم يكن ذهابُ أكثره. وما أكثر هذا المرض في الإنسان (الخمسيني) وما فوقه، فلو ذهبت إلى مستشفى السمعيات لرأيتَ فيه ما يدهشك، من أناس لا تتوقع أنهم مصابون بتقاصر السمع! والسمعُ من أعلى نعم الله تعالى على الإنسان، فهو فوق البصر نفعاً وأثراً. . .، ولذا قُدِّم في الذكر عليه غيرَ مرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن ذلك قول الله تعالى: **﴿إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾**، وقوله تعالى: **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشاوة﴾**، ومن ذلك قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللَّهُمَّ عافني في بدني، اللَّهُمَّ عافني في =

. . . .

= سمعي، اللَّهُمَّ عافني في بصري، لا إله إلاَّ أنت».

٤ ــ تقاصر البصر وضعفه، وقد ينتهي ببعضهم إلى شبه فقده، أو إلى فقده تاماً وهو العَمَى نسأل الله العافية. وقد وُجدَتْ وسائل حديثة لتقوية السمع والبصر والحمد لله، وهي مفيدة جداً ومسعفةٌ كثيراً، ولكن الإنسان في تلك الحال صار يسمع بغيره، ويبصر بغيره، فإذا ابتعد هو عن ذلك الغير أو بَعُد عنه ذلك الغير، وهو (سَمَّاعة الأذن) و (نَظَّارة البصر) فقد توقف العمل واحتجبت الفائدة من الحاسة التي تعمل بغيرها.

٥ ــ ارتفاع الضغط أو هبوطه، وكل واحد منهما يمنعُ الاستيفاء من مواهب الإنسان بكمالها وصحتها.

٦ ــ ضعف القلب وتمرضه بأسباب شتى، وما أكثر هذا في الناس رجالاً ونساء، وهو مرض مصاحب لا يفارق إلى آخر الحياة غالباً.

٧ ــ تكسُّرُ الأسنان وتآكلها وعوارض آلامها الموجعة جداً!

٨ ــ الرُّعاف وتكرره في اليوم أو بين اليوم واليوم. . .

٩ ــ آلام الرقبة بداء يسمى (المناقير) يمنع الإنسان من حرية تحرك رقبته يميناً وشمالاً كما يريد، ويقسِرهُ على وضع واحد!

١٠ ــ الدُّوارُ في الرأس، وهو يلوي الإنسان عن تحريك خاطره وتقليب نظره وإبداء رأيه في الأمر الذي يهمه.

١١ ــ النسيان، وهو داء من أمراض الشيخوخة، لا ينفك عنه إلاَّ القليل من الناس، حتى قال بعضهم في وصف حاله ونسيانه:

فصِرتُ أنسى الطرس في راحتي وصرت أنسى أنني أنسى!

وقال ابن الجزَّار الطبيب المغربي العشَّاب في أول كتابه «الأدوية المفردة»: «كان أفلاطون يسمي الشيخوخة: أُمَّ النسيان».

١٢ ــ الوَهْنُ في العزم والإرادة، والميل إلى التسليم للواقع المخالف للرغبة والرأي، فيصير الإنسان متساهلاً مسايراً لوهن عزمه وضعف إرادته. =

إنَّ الشبَابَ الـذي مَجْـدٌ عـواقِبُـهُ فيــه نلَــذٌ ولا لَــذَّاتِ للشِّيْــبِ

والقائل:

ولَـذَّةُ عيـشِ المـرءِ قبـلَ مشيبـه وقد فَنِيَتْ نفسٌ تولَّى شبابُها!

بعد الشيخوخة تتقاصر القوى وتتراجع

قال الله تعالى: ﴿**اللهُ الذي خلقكم من ضَعْفٍ، ثم جَعَلَ من بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثم جَعَلَ من بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً**﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿**ومَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ**﴾(٢)، أي: مـن نُطِـلْ عُمْـرَهُ نَقْلِبْـهُ مـن حـالِ القـوةِ إلـى حـالِ

= [قال الشريف الرضي:

وقـد كنـتُ أَبَّـاءً علـى كُـلِّ جـاذبٍ فلمَّا عَلاَني الشيبُ لانت شكائمي]

وقد ينقلب هذا في بعض الأفراد إلى عكسه من المشاكسة والتدخل والمعارضة في صغير الأمور وكبيرها وتافهها وجليلها، فيكون ذلك أنكد للحياة وأمرَّ في التعايش!

١٣ ــ الخَرَفُ ووهن العقل، وقد يكون هذا الداء أقل من غيره انتشاراً وشيوعاً في الناس، ولكنه قد يُبكِّرُ في بعض الأفراد، فيُقلق حياتهم وحياة من يعيش معهم!

١٤ ــ قلة النوم وتقطعه والأرق الدائم، وهو مَهْرَمةٌ للجسم مَهْدَمَةٌ للبدن ونضارته! فالنوم غذاء ودواء للأجسام الحيوانية.

١٥ ــ شدة النزق من أدنى سبب خفيف وأمرٍ يسير، فيرتفع بالإنسان نزقه إلى درجة الغضب والحمق في التصرف الشاذ!

١٦ ــ حُبُّ العزلة والانفراد وكراهيةُ الضجيج والجمع الكثير، وفقدُ الصبر على تصرفات بعض الأولاد الصغار والشباب!

١٧ ــ مرض السكري الذي يهبط بالجسم والقوة والبصر!

[اللَّهُمَّ عافنا في أبداننا وأسماعنا وأبصارنا وقوّاتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا. وأجرنا من الجنون والبرص والجذام وسيِّىء الأسقام].

(١) من سورة الروم، الآية ٥٤.

(٢) من سورة يس، الآية ٦٨. وقرئت الآية أيضاً في المتواتر: ونَنْكُسْهُ، وفي غيره: =

الضعف، ومن حالِ النشاطِ إلى حالِ العجز، فكلَّما امتدَّ به العُمرُ تزايَدَ ضَعْفُهُ ووَهْنُه[(١)].

وبعد بلوغ الشيخوخة تتقاصَرُ القُوى وتَتَراجع، في السمع والبصر، والحفظِ، والعقلِ، والصبر، والطاقة الجسميةِ عامةً، وسائر المَلَكات التي نَعِمَ بها المرءُ في شبابه وكهولته، وقد يَفقِدُ المرءُ بعضَ تلك الحواس والمَلَكات بالمرة، فالعملُ إنما هو في الشباب وقبل الشيخوخة وأمراضِها، إلاَّ من أكرمه الله وأمدَّه بسلامةِ الشيخوخة ومتانتِها وتَماسُكِها، فذلك فضلُ الله يختص به من يشاء.

= نُنْكِسْهُ، ونَنْكِسْهُ. قال في «القاموس»: «يقال: نَكَسَهُ ــ من باب نَصَرَ يَنصُرُ ــ ونكَّسَهُ ــ بالتشديد ــ قَلَبَهُ على رأسه». انتهى.

(١) قال الزمخشري في تفسيره: «الكشاف» ٣: ٢٩١، عند قوله تعالى: ﴿ومَنْ نُعَمِّرهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ﴾: «أي نَقْلِبْهُ فيه، فنَخلُقُهُ على عكس ما خلقناه من قبلُ، وذلك أنا خَلَقْنَاهُ على ضعفٍ في جَسَدِه، وخُلُوٍّ من عقلٍ وعلم، ثم جعلناه يَتَزايَدُ وينتقلُ من حالٍ إلى حال، ويرتقي من درجةٍ إلى درجة، إلى أن يَبْلُغَ أشُدَّه ويَستكمِلَ قُوَّتَهُ، ويعقِلَ ويَعلمَ ما لَهُ وما عليه.

فإذا انتهى نَكَّسناه في الخلق فجعلناه يتناقَصُ حتى يَرجِعَ في حالٍ شَبيهةٍ بحالِ الصَّبِيِّ في ضعفِ جَسدِه، وقلةِ عقلِه، وخلوِّهِ من العلم، قال الله تعالى: ﴿ومنكم مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لكي لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ علمٍ شيئاً﴾». انتهى.

قال الإمام الخليلُ بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى: «**أكمَلُ ما يكون الإنسانُ عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السنُّ التي بَعَثَ الله فيها محمداً صلَّى الله عليه وسلَّم، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السن التي قُبض فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم**». وكانت ولادة الخليل سنة ١٠٠ من الهجرة، وتوفي سنة ١٧٠ أو ١٧٥ رحمه الله تعالى. انتهى من ترجمته في «وفيات الأعيان» ١: ١٧٣.

وإذا كنت الآن في شبابك وكهولتك تنظرُ بعينيك متى شئت دون نظارة أو مشقة، أما بعد دخولك في الشيخوخة فتصبح عيونك من زجاج! كما قال الشاعر[١]:

أتى بعدَ الصِّبا شيبي، وظهري رُمي بعد اعتدال باعوجاجِ!

كَفَى أن كان لي بَصَرٌ حَدِيدٌ وقد صارت عيوني من زجاجِ!

وإني أخبرك أيها القارىء الكريم عن نفسي ولِدَاتي، فإني كنت في عصر الشباب وعهده أنشطَ من النحلة الدؤوب، وإني الآن في عشر الثمانين ــ تجاوزتُ السبعين أربع سنين ــ أجدني مَخْزناً لألوان من الضعف: ضعفاً في الجسم عامة، وفي السمع شديداً، وفي البصر أشد، وفي نبضات القلب، وآلام تُعاوِدني في الرقبة والكتف والأسنان والمفاصل والقدمين، وأجد الحفظ عندي أضعف والنسيان فيَّ أقوى، والتحامل ضعيفاً متقاصراً، وماذا بقي؟!

ولكني أمشي سليماً، وأقعد مستقيماً، وآكل باشتهاء وهضم، ويداي لا ترتعشان، والحمد لله على ما أنعم وكرَّم[٢].

وأجد لِدَاتي على ألوان الضعف غير التي عندي، فنظر بعضهم أصح،

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محمد الدُّنَيْسَري القاهري الشافعي، ولد سنة ٧٤٦، وتوفي سنة ٧٩٤، وله شعر كثير، ومنه هذان البيتان، أوردهما له ابن العماد الحنبلي في ترجمته في «شذرات الذهب» ٦: ٣٣٣.

(٢) كتب الوالد رحمه الله هذا المقطع في نحو سنة ١٤١١، وكتب في وريقة له أخرى: يقول عبد الفتاح أبو غدة: كان لي ذهن ذهين فأكلته المصائب، وكان لي حفظ سريع فعصفت به النوائب، والحمد لله الذي أبقى لي قوة الحفظ في النظر، وأكرمني بالعافية والصحة مع بلوغي الكبر (٧٠) سنة، فالحمد لله على فضل الله. في ٤ من رمضان سنة ١٤٠٧ بالرياض.

ولكنه لا يستطيع المشي فهو شبه قَعيد، وسمعُ بعضهم أوفى مني ولكن الضعف في ركبته شديد لا يستطيع الوقوف، والرَّعشة في يديه لا تُمكِّنه من تقليب الكتاب وتصريف القلم كما يريد.

وآخر لا يسمَعُ ولا يرى، إلاَّ بصوت شديد، وعصا من حديد، تهديه إلى الطريق، وهكذا آخر: آلام في المعدة، وصداع في الرأس، ووجع في الحشايا، وارتفاع في ضغط الدم، وهكذا وهكذا وهكذا، كل واحد ممن جاوز الستين نزل به التنكيس بشكل من الأشكال يَجْعَله أشلَّ، وصبرَه على المتاعب أقلَّ، وصدق الله العظيم: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلا تَعْقِلُون**﴾[١].

وهكذا كل من جاوز قنطرة الستين دخل في عتمة بوابة السبعين والثمانين، والعتمة شلَل وكَلَل! ولا يتم فيها للمرء كمال العمل.

فإلى جانب الوهن والآفات، ستعتريك أزمات الحياة، ويتجاذبك إصلاح البنين والبنات، فيكون جسمك في ضعف، ووقتك في نزف، والله المستعان، وانظر واعتبر بما قاله الإمام النحوي ابن يعيش (موفق الدين يَعِيشُ بن علي بن يعيش الحلبي)، المتوفى عن تسعين عاماً في سنة ٦٤٣ رحمه الله تعالى، في مقدمة «شرحه» لكتاب «المفصَّل في النحو» للزمخشري[٢]:

«وكنتُ ابتدأتُ بهذا الكتاب، ثم عَرَض دون إتمامه موانع، منها اعتراضُ الشواغل، ومنها ما أحدثته السبعون بين القلم والأنامل، ومنها أن الزمان فَسَد حتى علا باقِلُهُ على درجة قُسّ، وانحطَّ قُسُّه عن درجة باقل!».

---

(١) من سورة يس: الآية ٦٨.

(٢) ١: ٢.

وقال الشيخ العالم أحمد الديربي الغنيمي الشافعي المتوفى سنة ١١٥١ في آخر كتابه المفيد «غاية المقصود لمن يتعاطى العقود»[١]:

«واعلم أنّه قد حَصَل الشروعُ في تأليف هذا المؤلَّف في السنة السادسة الكائنة بعد المائة والألف، ثم حَصَل لي موانعُ في أثنائه منعتني عن إتمامه منها التزوّج في السنة المذكورة والهمومُ في طلب المعيشة وحصول الغلاء الشديد الذي لم نرَ كغيرنا من أهل عصرنا مثلَه في السنةِ التي بعدها، حتى مات غالب الناس فيها جوعاً، لا أعاد الله مثلَها.

ثم شرعتُ في إتمامه بعد تركه سنوات، ثم حصَل لي موانعُ أيضاً منعتني عن إتمامه، منها: موت أكثر الأولاد والزوجة التي تزوّجتها قبل الشروع في تأليفه. فتركته مدة من السنوات أيضاً، ثم شرعتُ فيه حتى وصلتُ إلى ما يتعلق بالأولياء على مذهب المالكية.

ثم تركته مدة من السنوات أيضاً لشغل القلب والبال لوجود موانع منها: ضعف البصر، ومنها: وقوع فتنة شديدة بين المالكية بعضهم مع بعض ناشئة عن حب الرياسة حتى وصل شرُّها للشافعية وغيرِهم. ووقع الضربُ بالسيف والبندق في الجامع الأزهر حتى مات بعض الناس بسبب ذلك.

ثم منَّ الله عليَّ بنور البصر شيئاً قليلاً فشرعت في إكماله بعد أن نقله بعض الأنام، والحمد لله الذي أقدرني على إتمامه.

وكان الفراغ منه يوم الجمعة المبارك ثامن عشر شهر صفر الكائن من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائة والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام». اهـ.

---

(١) ص ١٩٢ ــ ١٩٣، والخبر من إضافة العبد سلمان.

ولو استقصيتُ لك ذكرَ عوارض الشيخوخة التي ذُكرت في تراجم المحدثين لهالك الأمر من كثرتها وشدّتها . . .

ولمَّا أدركَتْ الشيخوخةُ وأمراضُها أبا عثمان الجاحظَ الأديبَ المشهور، كان يُنْشِدُ هذين البيتين مُتَحسِّراً متألماً من تقاعُدِ الضعفِ والكِبَرِ والمرض به:

أترجو أن تكونَ وأنت شيخٌ　　كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذَبَتْكَ نفسُكَ ليس ثَوْبٌ　　دَرِيسٌ كالجديد من الثيابِ[1]

وقال العالم الحافظ اللغوي الأديب ابن مكي الصِّقِلِّي:

أَيَرُومُ من نزل المشيبُ برأسه　　ما قد تعوَّدَ قبله من فِعْلِهِ
من لم يميِّز نقصه في جسمه　　في الأربعينَ فإنه في عَقْلِهِ[2]

وقال العالم الحكيم الأديب أبو الفتح البُستي:

خمسينَ عاماً كنتُ أمَّلْتُها　　كانت أمامي ثم خلَّفتُها
كنزُ حياةٍ لي أنفقتُهُ　　على تصاريفَ تصرَّفْتُها
لو كان عمري مئةً هدَّني　　تذكُّري أني تَنَصَّفْتُها[3]

وللحافظ أبي سعد السمعاني رحمه الله تعالى صاحب كتاب «الأنساب»، ضمن مؤلفاته الكثيرة تأليفٌ في ارتحال الشباب ونزول المشيب، سمّاه: «ذكرى حبيب رَحَل، وبُشرى مشيبٍ نَزَل».

وقال الشيخ الإمام الصالح ابن أبي شريف الأندلسي يشرح مراحل العمر وحالاته:

---

(١) دَرِيس: بالٍ. والبيتان من ترجمته في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ١٢ : ٢١٩ .

(٢) «قضية الزمن في الشعر العربي» للدكتورة فاطمة محجوب، ص ١٠٠، والبيتان من إضافتي. س.

(٣) «ديوان أبي الفتح البستي» ص ٤٧ . والأبيات من إضافتي. س.

ابنُ عشرٍ من السنينِ غلامُ　　رُفِعتْ عن نظيره الأقلامُ
وابن عشرين للصِّبَا والتصابي　　ليس يثنيه عن هواهُ سلامُ
والثلاثون قوةٌ وشبابٌ　　وهُيامٌ ولوعةٌ وغرامُ
فإذا زاد بعد ذلك عشرٌ　　فكمالٌ وشدَّةٌ وتمامُ
وابنُ خمسين مرَّ عنه صباهُ　　فيراه كأنَّه أحلامُ
وابنُ ستينَ صيّرته الليالي　　هدفاً للمنونِ وهي سهامُ
وابن سبعين لا تسلني عنه　　فابن سبعينَ ما عليه كلامُ
فإذا زاد بعد ذلك عشراً　　بلغ الغاية التي لا تُرامُ
وابن تسعين عاش ما قد كفاه　　واعترته وساوسٌ وسِقَامُ
فإذا زاد بعد ذلك عشراً　　فهو حيٌّ كميِّتٍ والسلامُ[1]

الإمام الغزالي يحذر من التسويف

وأسُوقُ لك هنا كلمةً نفيسة قالها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، في كتابه: «الإحياء»[2]، في تحذير النفس من تسويف العمل للدار الآخرة، ينطبقُ مضمونُها على حالِ طالب العلم أو العالم المُسوِّفِ في التحمُّل والتحصيل أو في الأداء والتأليف، وفيها عِبْرةٌ بالغة، وتَبْصِرَةٌ وتَوْعِيَة.

قال رحمه الله تعالى مخاطباً النَّفْسَ المُسَوِّفة: «أفتَنْتَظِرينَ يوماً يأتيك لا تَعْسُرُ فيه مُخالفةُ الشهوات؟ هذا يومٌ لم يَخْلُقْهُ الله قَطُّ، ولا يَخْلُقُه، فلا تكونُ

---

(١) «فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان»، للسيد الشريف مسعود القَنَاوي ص ١٩. والأبيات من إضافتي. سلمان.

(٢) ١٥ :٤٨ من طبعة دار الثقافة الإسلامية، في أواخر «الإحياء» في كتاب المراقبة والمحاسبة، في (المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها).

الجنَّةُ قَطُّ إلاَّ محفوفةً بالمكارِه، ولا تكونُ المكارهُ قَطُّ خفيفة على النفوس، وهذا مُحالٌ وجودُه.

أما تتأمَّلين منذ كم تَعِدِينَ نَفْسَكِ، وتقولين: غَدًا غَدًا؟! فقد جاء الغَدُ وصار يوماً، فكيف وجدتِهِ؟ أما علمتِ أن الغَدَ الذي جاءَ وصَارَ يَوْماً، كان له حُكمُ الأمس، لا بل ما تَعجزين عنه اليومَ فأنتِ غداً عنه أعجَزُ وأعجَز!

لأنَّ الشهوة كالشجرةِ الراسخةِ التي تُعُبِّدَ فيها العبدُ بقَلْعِها، فإذا عَجَز العبدُ عن قلعها للضَّعْفِ وأخَّرها، كان كمن عَجز عن قَلْع شجرةٍ وهو شابٌ قَوِيّ، فأخَّرها إلى سَنَةٍ أخرى، مَعَ العلم بأنَّ طولَ المدة يَزيدُ الشجرةَ قُوَّةً ورُسُوخاً، ويَزيدُ القالعَ ضَعْفاً ووَهْناً.

فما لا يُقْدَرُ عليه في الشباب، لا يُقْدَرُ عليه قَطُّ في المشِيب، بل من العَناءِ رياضَةُ الهَرِمِ! ومن التعذيب تهذيبُ الذِّيْب! والقَضِيبُ الرَّطْبُ يَقْبَلُ الانحناء، فإذا جَفَّ وطالَ عليه الزمان لم يَقْبَلْ ذلك». انتهى كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى[١].

الأمير أسامة بن منقذ يذكر بعض آثار الشيخوخة

قـال الأميرُ العالـمُ الأديب، الشاعـرُ الأريب الفـارسُ الشُّجـاعُ المِغوار صيَّادُ الأسود في غاباتهـا: أسامةُ بـنُ مُنْقِذ أميرُ قَلْعَـةَ شَيْزَر ـ حِصـن قديم باقٍ إلى الآن في مدينة حَمَاة في بلاد الشام[٢]ـ، المولودُ سنة ٤٨٨، والمتـوفى

---

(١) وتقدم قول قتادة بن دعامة السدوسي التابعي الجليل: «ابنَ آدم! إنْ كنتَ لا تريد أن تأتيَ الخير إلاَّ بنشاط، فإنَّ نفسَك إلى السآمة والفَتْرَة والملل أميل، ولكنَّ المؤمنَ هو المتحامل (على نفسه)، والمؤمن المتقوِّي». اهـ من «روضة الزاهدين» المستفاد من «حلية الأولياء» للشيخ الصالح عبد الملك الكُلَيب، ص ٥٣. س.

(٢) زرته ـ بفضل الله وكرمه ـ مع مجموعة من الأحباب في أوائل ١٤١٧ وصيف ١٩٩٦، فوجدته قد جَنَت عليه يد العادية فما بقيت منه إلاَّ أطلال خاوية.

سنة ٥٨٤ عن ٩٦ سنة رحمه الله تعالى، لمَّا بلَغَ سِنَّ التسعين من العُمُر [١]:

«لم أدرِ أنَّ دَاءَ الكِبَرِ عامٌّ، يُعدِي كلَّ من أغفَلَه الحِمَامُ، فلمَّا توقَّلْتُ ــ عَلَوْتُ وَبَلَغْتُ ــ ذِرْوَةَ التسعين، وأبلاني مَرُّ الأيام والسِّنِين، صِرتُ كَجَوادِ العَلَّاف، لا الجَوَادِ المِتْلاف، ولَصِقتُ من الضعفِ بالأرض، ودَخَل من الكِبَرِ بَعْضِي في بعض، حتى أَنكرتُ نفسي، وتحسرتُ على أَمْسِي، وقلتُ في وَصْفِ حالي:

لمَّا بَلَغْتُ من الحياةِ إلى مَدَى ... قد كنتُ أهواهُ تَمنَّيتُ الرَّدَى
لم يُبْقِ طُولُ العمرِ منِّي مُنَّةً [٢] ... أَلْقَى بها صَرْفَ الزمانِ إذا اعتَدَى
ضَعُفَتْ قُوايَ وخانَني الثِّقَتَانِ من بَصَري وسَمْعِي حين شَارَفْتُ المَدَى
فإذا نَهَضْتُ حَسِبتُ أني حامِلٌ ... جَبَلاً وأمشِي إن مَشَيتُ مُقَيَّدا
وأدِبُّ في كَفِّي العَصَا وعَهِدتُّها ... في الحَرْبِ تَحمِلُ أسْمَراً ومُهنَّدا
وأبيتُ في لِينِ المِهَادِ مُسَهَّداً ... قَلِقاً كأنَّنِيَ افتَرَشْتُ الجَلْمَدَا [٣]
وَالمَرْءُ يُنكَسُ في الحياةِ وبينما ... بَلَغَ الكمالَ وتَمَّ عادَ كَمَا بَدَا

وكنتُ أظنُّ أن الزمان لا يَبْلَى جديدُه، ولا يَهِي شديدُه، وكان ذلك الظنُّ كالسَّرابِ اللامع، فاسترجَعَتْ مني الأيامُ بطُولِ الحياة، سائرَ محبوبَ اللَّذَّات، وشَابَ كدَرُ النَّكد، صَفْوَ العَيْشِ الرَّغَد، فأنا كما قلتُ عند بُلوغِي الثمانين:

مَعَ الثمانين عاثَ الدَّهرُ في جَلَدي ... وساءَني ضَعْفُ رجْلِي واضطرابُ يَدِي

---

(١) في كتابه «الاعتبار» ص ١٦٠ ــ ١٦١ و ١٦٣ ــ ١٦٤. طبع مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، سنة ١٩٣٠، ثم طبعه د. قاسم السامرائي ونشرته دار الأصالة في الرياض عام ١٤٠٧، وهو كتاب نفيس ممتع يؤرخ لحقبة من الحروب الصليبية، فاحرص على قراءته فإنه مفيد.

(٢) أي: قوة، يقال: ليس لقَلْبه مُنَّة، جمعها: مُنَنٌ. «المعجم الوسيط». س.

(٣) الجلمد: الصخر. س.

إذا كتبتُ فخَطِّي جِدُّ مضطربٍ ... كخَطِّ مُرْتَعِش الكفَّينِ مُرْتَعِدِ
فاعجَبْ لِضَعْفِ يَدِي عن حَمْلِها قَلَماً ... مِن بَعْدِ حَطْمِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ
وإن مَشَيْتُ وفي كفِّي العَصَا ثَقُلَتْ ... رِجْلي كأني أَخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فقل لمن يتمنّى طُولَ مُدَّتِه ... هذي عواقِبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ

ضَعُفَتْ القُوَّةُ وَوَهَتْ، وَنَقَصَتْ بُلَهْنِيَةُ العَيْش وانتَهَتْ[1]، ومَلَسَني التعميرُ بين الأنام، وإلى الخُمولِ يؤولُ تَسَعُّرُ الظَّلام، حتى أصبحتُ كما قلتُ:

تنَاسَتْنِيَ الآجالُ حتى كأنَّني ... دَرِيئَةُ سَفْرٍ بالفَلاة حَسِيرُ
ولمَّا تَدَعْ مني الثمانونَ مُنَّةً ... كأني إذا رُمتُ القِيامَ كَسِيرُ
أؤدِّي صَلاتِي قاعِداً، وسُجُودُها ... عليَّ إذا رُمتُ السُّجودَ عَسِيرُ
وقد أَنْذَرَتْني هذه الحالُ أنَّني ... دَنَتْ رِحْلةٌ مني وحَانَ مَسِيرُ»

أشعار في الشيخوخة

وأسوق لك هنا أشعاراً قالها من سَبَقَك إلى طريق الشيخوخة والهرم، وتحسَّرَ على ما فاته من وقت أيام الشباب، وعزيمة هيهات منها الإِياب[2]، **وقد أكثرت من هذه الأقوال، عسى أن يتنبه الغافل، ويتدبرها العامل**، والله الموفق إلى الخير والرشاد.

قال ابن قُزْمَان القرطبي (أبو بكر محمد بن عيسى) المتوفى سنة ٥٥٤ رحمه الله تعالى، كما في «المقتَضَب من كتاب تحفة القادم» اختيار ابن اسحاق البِلِّفيقي[3]:

---

(١) البُلَهْنية: سعة العيش والرخاء. س.

(٢) جاء في «العقد الفريد» لابن عبد ربّه ٣:٤٦: قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكت العرب شيئاً ما بكت الشباب وما بلغت به ما يستحقّه. وقال الأصمعي: أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشباب. اهـ سلمان.

(٣) ص ٩٥.

وعَهْدِي بالشباب وحُسْنِ قَدِّي ... حَكَى أَلِفَ ابنِ مُقْلَةَ في الكتابِ
فصِرتُ اليومَ منحنياً كأني ... أُفَتِّشُ في التُّرابِ على شَبَابي!

وقال الربيع بن ضُبيع الفزاري:

إذا عاش الفتى ستين عاماً ... فقد ذَهَبَ المَسَرَةُ والفَتَاءُ

وللعلامة الأديب أبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله رحمه الله تعالى، قوله في أبيات[١]:

قد تخطَّاكَ شبابٌ ... وتغشاكَ مشيبُ
فأتى ما ليس يمضي ... ومضى ما لا يؤوبُ
فتأهَّبْ لسَقام ... ليس يشفيه طبيبُ
لا توهَّمْهُ بعيداً ... إنما الآتي قريبُ

وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي في «الفنون»[٢]: «الشيب مَرَضُ الموت لولا أنه مألوف». اهـ.

وقيل كذلك: الشيب مطية الأجل، ومَطرِدَةُ الأمل، والشيب رسول المنية، وقيل: المشيبُ غَمَامة تُمطر الأمراض. وقال الشعبي: «الشيبُ عِلةٌ لا يعاد منها، ومصيبةٌ لا يُعزَّى عليها»[٣].

وقال يحيى بن خالد بن برمك:

والشيب إحدى المِيْتَتَيْنِ تقدَّمتْ ... أولاهُما وتأخرت أُخرَاهُما

---

(١) «الشيب» لسعيد كامل الكوسا، ص ١٥٠.
(٢) ٢: ٥٣٩.
(٣) «الشيب» لسعيد كامل الكوسا، ص ١٦ و ١٧.

وقال أبو تمام:

كــلُّ داءٍ يُــرجــى الــدواءُ لــهُ إ   لاَّ الفظيعيــنِ ميتــةً ومشيبــا[1]

وقال محمود الورّاق:

لا تـطـلُـبَــنْ أثــراً بِـعَـيْــنْ   فـالشيـبُ إحـدى المِيْتَتَيْـنْ[2]

وقال أبو العتاهية:

عَرَيتُ من الشباب وكان غضًّا   كما يَعرى من الوَرَقِ القَضِيبُ

ألا ليــتَ الشبــابَ يعــود يــومـاً   فــأخبــرُهُ بمــا فَعَــل المشيــبُ

وقال الحارث بن حبيب الباهلي[3]:

أَلاَ هَـلْ شبـابٌ يُشتـرى بِعَجِيْبِ   بألفِ قَلُوصٍ أو بألفِ نجيبِ[4]؟

وهل من شبابٍ يُشترى بعدَ كَبْرةٍ   يُـدَلُّ عليـه الحـارثُ بـنُ حبيـب!

ومما سمعته من شيخنا العلامة الشيخ ثابت بَهْران اليمني في صنعاء ٢٠ من شعبان سنة ١٣٩٨ أن للأمير الصَّنْعاني محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ١١٨٢ رحمه الله تعالى:

عِلَّــةٌ تُسمَّــى ثمــانيــن عــامــا   منعتنــي لــلأصــدقــاءِ القيــامــا

فــإذا عُمِّــروا وصــاروا مثلــي   صَــحَّ مــا قلتُــه لهــم وقــامــا

---

(١) «أمالي المرتضى» ١ : ٥٧١ ــ ٥٧٢. س.

(٢) «قضية الزمن في الشعر العربي» للدكتورة فاطمة محجوب، ص ٥٤. س.

(٣) «الوحشيات» أو «الحماسة الصغرى» لأبي تمام، ص ٢٩٢. والبيتان من إضافتي. سلمان.

(٤) العجيب: ما يدعو إلى العجب، أي: بثمن عجيب لكثرته. والقَلُوص: الفتيَّة من الإبل المجتمعة الخَلْق، وذلك من حين تُركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة. والنجيب: الفاضلُ على مثله النفيسُ في نوعه. والمراد: الخيار من الإبل.

وللأمير أيضاً ما سمعتُه من شيخنا العلامة ثابت بهران، ورأيته ضعيفاً معمراً، فسألته عن حاله، فأورد لي هذه الأبيات:

وصــديــقٍ لــي صــدوقٍ   جــاء للخيــراتِ يَسعَــى
سَمِــعَ الأنَّــةَ منــي   فــامتلَــتْ عينــاهُ دَمْعــا
قــال: مــا تشكــوه بِــنْ لــي   قلــتُ: سَبْعِيــن وسَبْعــا!

ويشبه هذا ما جاء في «الوَفَيَات» لابن خلكان[1]، في ترجمة (أبي زيد محمد بن أحمد المروزي) من أبياتٍ لبعض الفضلاء، جاء في آخِرها قوله:

قالوا: أنينُك طولَ الليل يُقلقنا   فما الذي تشتكي؟ قلت: الثمانينا

وجاء في «إنباه الرواة على أنباه النحاة»[2] في ترجمة (أحمد بن كامل بن خلف أبي بكر القاضي الشَّجَري) أحد أصحاب الإمام ابن جرير الطبري، المولود سنة ٢٦٠، والمتوفى سنة ٣٥٠، أنه قال: «ولدت في سنة ستين ومئتين، وأنشد:

عَقْدُ الثمانينَ عَقْدٌ ليس يَبلغُه   إلاَّ المؤخَّرُ للأخبارِ والعِبَرِ»

ومن ألطف ما وقفتُ عليه، في ذمِّ التعمير والإشارةِ إلى بعض متاعِبه: قولُ الإمام الأديب المُقرِىء النَّحْوي تاج الدين أبي اليُمْنِ زيد بن الحَسَن بن زيد الكِنْدي البغدادي الدمشقي، المعمَّر، المولود في بغداد سنة ٥٢٠، والمتوفَّى بدمشق سنة ٦١٣، وقد عاش ٩٣ سنة رحمه الله تعالى، وذلك قولُه كما نقله القاضي ابنُ خَلِّكان في كتابه «الوَفَيَات»[3] في ترجمته، قال:

---

(١) ١: ٤٦١.
(٢) ١: ٩٧ ـ ٩٨.
(٣) ١: ١٩٧.

«ومن شِعرِ الشيخ تاج الدِّين ــ وقد طَعَن في السِّنِّ ــ :

أَرى المرءَ يَهْوَى أن تَطولَ حياتُه ... وفي طُولِها إرهاقُ ذُلٍّ وإزهاقُ

تَمنَّيْتُ في عَصْرِ الشبيبةِ أنَّني ... أُعَمَّرُ والأعمارُ لا شكَّ أرزاقُ

فلما أتاني ما تَمنَّيْتُ ساءَني ... من العُمْرِ ما قد كنتُ أهوَى وأشتاقُ

يُخَيِّلُ لي فِكري إذا كنتُ خالياً ... رُكُوبِيْ على الأَعناقِ والسَّيْرُ أَعناقُ

ويُذكِرُني مَرُّ النَّسيمِ ورَوْحُه ... حَفَائِرَ يعلوها من التُّرب أطباقُ

وها أنا في إحدى وتِسعينَ حِجَّةً ... لها فيَّ إرعادٌ مَخُوفٌ وإبراقُ

يقولون: تَرْياقٌ لِمثلِك نافعٌ ... وما ليَ إلَّا رحمةُ اللهِ ترياقُ»

ومن لطائفِ بعضِ باعةِ الثلج في بلدنا حلب حين كانوا يحملون قطع الثلج في الزَّنَابيل في الصيف ويجولون في الأسواق والطرقات لبيعه قولُ بعضهم: ارحموني يا ناس رأس مالي يذوب.

وهكذا حال الإنسان إذا بلغ الكبر وأوشك على نهاية الأجل: يصدق عليه هذا القول، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة وكريم العاقبة.

العمر كله ميدان

وما أوردته لك من الأخبار والأشعار لا يعني أن لا طلب مع الشيخوخة، فقد تقدمت أخبار الأئمة الأعلام، وحرصهم على العلم نشراً وتحصيلاً حتى آخرِ نَفَسٍ لهم في هذه الدنيا، فالعمر كله ميدان للعمل والانتفاع، ولكل مرحلة منه مجالُها وخصائصها. وقد قال أبو الفتح البُستي رحمه الله تعالى[1]:

بقيةُ العمرِ ما عندي لها ثمنُ ... وإن غَدَا غَيرَ محبوبٍ من الثمنِ

يستدرك المرء فيها ما أفاتَ ويحـ ... ـيي ما أماتَ ويمحو السوءَ بالحسنِ

وقد يُنعم الله على بعض الشيوخ بهمم الشباب، وعزائم الفتوة، وعافية

(١) «ديوان أبي الفتح البستي» ص ١٨٥.

البدن، فلا يَحُدُّ من نشاطهم تقدمُ العمر، ولا يكلُّ عزيمتهم تقلبُ السنين[١]، وقد قال أحد شعراء العراق:

عُمُري بروحي لا بِعَدِّ سنينِ ... فلأهزأنَّ غداً من الستينِ

العُمُر للستين يمشي مسرعاً ... والرُّوح باقية على العشرينِ

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي:

والشيبُ إن يحلُل فإن وراءه ... عمراً يكون خلاله مُتَنَفَّسُ

لم ينتَقِص منِّي المشيب قُلامةً ... ولنحن حين بدا ألذُّ وأكْيَسُ[٢]

لا تكن سَبَهْللاً في أمرِ الدنيا أو أمرِ الدين

فالعاقلُ الموفَّقُ من يملأُ كلَّ لحظةٍ وثانيةٍ من حاضرِ عُمرِهِ ووَقْتِهِ بفائدةٍ أو عملٍ صالح، وقد كَرِهَ سيدُنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه التعطُّلَ والبَطَالَةَ وإضاعةَ الزَّمنِ سُدًى! فقال: إني لأكرَهُ أن أرَى أحدَكم سَبَهْللاً ـ أي فارغاً ـ لا في عَمَلِ دُنيا ولا في عَمَلِ آخِرة!

الوقتُ أغلى مملوك وأرخَصُ مُضَيَّع!

ورحم الله الوزيرَ الصالح والعلامةَ الفقيه الأديب الأريب: يحيى بن هُبَيْرة، البغداديَّ الحنبليَّ، المولودَ سنة ٤٤٩، والمتوفى سنة ٥٦٠، شيخَ

(١) يذكرني هذا بقول العالم العابد الجليل شُميط بن عجلان: «إنَّ الله جعل قوة المؤمن في قلبه ولم يجعلها في أعضائه، ألا ترون الشيخ يكون ضعيفاً يصوم الهواجر ويقوم الليل؟ والشاب يعجز عن ذلك!» انتهى من ترجمته في «صفة الصَّفوة» ٣: ٣٤١ مستفاداً من حاشية «قصر الأمل» لابن أبي الدنيا. س.

(٢) «قضية الزمن في الشعر العربي» للدكتورة فاطمة محجوب، ص ٦٦، والبيتان من إضافة العبد سلمان.

الإمام ابن الجوزي، إذ يقول[١]:

والوقتُ أنفَسُ ما عُنِيتَ بحِفظِهِ   وأَراهُ أسهَلَ ما عليكَ يضيعُ!

مقالة للأستاذ أحمد أمين
في حفظ الوقت وآثار ضَياعِه

وقد وقفتُ على مقالةٍ للأستاذ أحمد أمين الكاتب الأديب المصري، المتوفى سنة ١٣٧٣، بعنوان (أوقات الفراغ)، أوردَها في كتابه «فيض الخاطر»[٢]، فرأيتُ إيرادها في ختام هذه الرسالة ـ باختصار مع تصرفٍ وزيادة كلماتٍ يسيرة ـ لمناسبتها المقام رجاءَ الانتفاع بها.

قال: «في المنازل آلافُ آلاف من طَلَبةِ المدارس، يقضون أربعةَ أشهر أو خمسةَ أشهر: إجازةً صيفية، فهل تساءَلَ الآباءُ كيف يُقضَى هذا الوقتُ الطويلُ فيما يعودُ بالنفع على جسمهم وعقلهم وخُلُقِهم وبلادهم؟ وفي البيوت نِصفُ عَدَدِ الأُمَّةِ من النساء، فكيف يقضِين أوقاتَ فراغهن؟

إذا كان الزمنُ هو المادَّةَ (الخامَةَ) لاستغلالِ المال، وتحصيل العلم، وكسبِ الصحة، فكم أضعنا من كل ذلك؟! وكم أعمارٍ تَضِيعُ في عَبَث؟! لا في عمل دنيا، ولا في عمل آخِرة!

ومن نتائج ضَيَاع الزمن ضَياعُ كثيرٍ من منابع الثروة، كان يُمكن أن تُسْتغلَّ لولا إهمالُ الزمان والجهلُ باستعماله، فكم من الأراضي البُوْر كان يمكن أن تُصْلَح، ومن الشركات يمكنُ أن تُؤَسَّس، ومن المؤسَّسات المختلِفةِ يمكنُ أن تُنْشأَ وتُدار بجزءٍ من الزمان الفارغ.

---

(١) كما في ترجمته الحافلة في «ذيل طبقات الحنابلة» للحافظ ابن رجب ١: ٢٨١.

(٢) ٣: ٦٧ من الطبعة الرابعة لمكتبة النهضة المصرية، دون تاريخ.

وإنَّ من نتيجة ضياع الزمن في عالَمِنا كسادَ الكتب وعدَمَ قراءتها، والرضا بالجهل، فليس هناك نفوس تألَمُ من الجهل! ولكن أجسادٌ تُخلِدُ إلى الراحة. والشأنُ في عالَم المال كالشأن في عالَم الكتب، فهناك القناعةُ بالقليل، والرضا بالميسور، والنومُ على الوظيفةِ والعملِ الراتب الذي لا يدعو إلى جُهد، ولا يبعثُ على تفكير. ثم هناك الفِكْر المُضْنَى، وإفساحُ الطريقِ للأجنبيِّ النشيط الذي يَعرفُ كيف يَستغِلُّ زمنَه.

ولستُ أريدُ من المحافظة على الزمن أن يُملأ كلُّهُ بالعمل، وأن تكونَ الحياةُ كلُّها جِدًّا ودَأَباً، لا راحة فيها ولا مَرَح، وأن تكون عابسةً لا ضَحِكَ فيها ولا بِشْر، وإنما أريدُ ألَّا تكون أوقات الفراغ طاغيةً على أوقاتِ العمل، وألَّا تكون أوقاتُ الفراغِ هي صَميمَ الحياة، وأوقاتُ العمل على حاشيتها وطَرَفِها.

بل أريدُ أكثَرَ من ذلك: أن تكون أوقاتُ الفراغ خاضعةً لحكم العقل كأوقات العمل، فإننا في العمل نَعمَلُ لغاية، فيجب أن تُصرَف أوقاتُ الفراغ لغاية كذلك، إمَّا لفائدةٍ صِحِّيَّة كالألعاب الرياضية المشروعة، وإمَّا للذَّةٍ نفسيةٍ كالمطالعاتِ العلمية، وإما لغذاءٍ رُوحي كالقيام بقراءةِ القرآن والحديثِ الشريف ونوافل الطاعاتِ والعبادات.

أمَّا أن تكون الغايةُ هي قَتْلَ الوقت، فليسَتْ غايةً مشروعة، لأن الوقت هو الحياة، فقتْلُ الوقت قَتْلُ الحياة! فالذين يصرفون أوقاتَهم الطويلة في نَرْدٍ أو شِطْرَنْجٍ أو لغوٍ أو لهوٍ غير مشروع، لا يَعملون لغايةٍ يرتضيها العقلُ، وكذلك الذين يتسكَّعون في المقاهي والأندية والطرقات، لا يطلبون إلَّا قَتْل الوقت، كأنَّ الوقت عَدُوٌّ من أعدائهم!

ومفتاحُ العلاج لهذه المشكلة: الاعتقادُ بأنَّ الإنسانَ يستطيعُ أن يُغيِّرَ موضوعاتِ حُبِّه وكُرْهِهِ كما يشاء، ويَستطيعُ أن يُغيِّرَ ذَوقَه كما يشاء، فيستطيعُ أن

يُمرِّن ذوقَه على أشياء لم يكن يتذوَّقُها من قبل، وعلى كراهِيَةِ أشياء كان يُحبُّها من قبل، ففي استطاعة أغلبِ الناس ــ إذا قَوِيَتْ إرادتُهم ــ أن يُقسِّموا أوقاتَ فراغهم إلى ما ينفعهم صحياً، وإلى ما ينفعهم عقلياً، وإلى ما ينفعهم دينياً.

ومن الأسف أنَّ عامة الناس يعتقدون أنَّ قراءة القِصص الخفيفة والمجلات الرخيصة كافيةٌ لغذاءِ عقولهم، فهم يلتهمونها التهاماً، ويكتفون بها في لذَّتهِم العقلية، وهي ليست إلاَّ مخدِّراً للعقل، أو مُنبِّهاً للغرائز الجنسية. **وقليلٌ من الصَّبْرِ وقوَّةِ الإرادة يجعلُ المتعلِّمَ صالحاً للدراسة الجِدِّية والقراءة المفيدة.**

وكلُّ مثقفٍ يستطيع أن يُحرِّكَ في نفسه هَوًى لشيءٍ جِدِّيّ، في نوعٍ من أنواع المعارف، يدْرُسُهُ ويتوسَّعُ فيه ويتعمقه، سواء كان أدباً، أو حَيَواناً، أو أزهاراً، أو ميكانيكاً، أو تاريخَ عصر من العصور، أو أيَّ ضَرْب من ضروب المعارف الإنسانية. ثم يُثيرَ رغبتَهُ فيه، ثم يُخصِّصَ جزءاً من يومِهِ لدراستِهِ والاهتمام به:

فإذا هو إنسان آخَرُ، له ناحيةٌ من نواحي القُوَّة، وله شخصيتُهُ المحترمة، وله نفعهُ لنفسه ولأبناءِ جنسِهِ وسِواهم.

وإذا الأُمَّةُ غنية بأبنائها في شتى فروع العلم والمعارف والفنون، تعتمدُ على كلٍّ فيما تَخَصَّصَ فيه من نواحي الحياة.

وإذا الناسُ في مجالسهم يَرقى حديثُهم، ويَسْمُو تفكيرُهم، وتَنْضُرُ حياتُهم، ويكتسِبُ بعضُهم من بعضٍ ثقافةً وعلماً وأدباً وسلوكاً وتقديراً للزمن.

وإذا الثقافةُ ارتقَتْ، والعقولُ اتَّسَعَتْ، والحياةُ سَمَتْ، والقوَّةُ ازدادت، وسُبُلُ المعيشةِ تيسَّرَتْ وازدهرت.

إذْ ذاك يَشعُرُ الناسُ أن عليهم واجباً أن يُغَذُّوا عقولهم كما يُغذُّون مَعِدَاتِهم، وأنْ لا حياة لهم بدون غذاء، ولا غِذاءَ بدون مُحافظةٍ على الزمن وكسبِهِ والاستفادةِ المُثْلَى فيه، وعندئذٍ يرتقي المجتمعُ وأهلُه بيئةً وفكراً وصناعةً وإنتاجاً وعطاءً ونفعاً.

اجعَلْ شِعارَك دائماً أن تُسائِلَ نفسك: (ماذا عمِلتُ في وقتِ فراغي)؟ هل كَسَبتُ صحةً، أو مالاً، أو علماً، أو نفعاً لنفسي أو لغيري؟ وانظر هل خَضَع وقتُ فراغِك لحكم عقلك؟ فكان لك غايةٌ محمودة، صَرَفْتَ فيها زمَنك؟ إن كان كذلك فقد نجحتَ، وإلاَّ فحاول حتى تنجح.

أَخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أن يَحظَى بحاجتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يلِجا[1]

فقليلٌ من الزمن يُخصَّصُ كلَّ يوم لشيءٍ معيَّن، قد يُغيِّر عندك مَجرَى الحياة، ويَجعلُك أقومَ مما تتصوَّرُ وأرقَى مما تتخيَّل.

إنَّ الأُمَّةَ تعيشُ عُشْرَ ما ينبغي أن تعيش! أو أقلَّ من ذلك!! سواءٌ في إنتاجها المالي، أو ثقافتِها العقلية، أو حالتها الصحية، وباقي حياتها هَدْرٌ، في كسَلٍ أو خمول! أو بين نَرْدٍ وشطرنج ولهو ولغو! أو في لا شيء! ولا ينقُصُها

---

(١) هو لمحمد بن بشير أو يسير الخارجي البصري، كما في «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ٣: ١١٧٥. في قصيدة له جميلة.

وقد قال قبله:

إنّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مَسَالِكُها فالصبرُ يفتُقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا

لا تيأسَنَّ وإن طالتْ مُطَالَبةٌ إذا استعنْتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا

(ارتتجا): أُغْلق، يقال: رتجتُ البابَ وأَرتَجتُه، إذا أغلقتُه، وباب مُرْتَجٌ ومَرْتوجٌ. والرِّتَاج: البابُ نفسه. س.

لتعيش كما ينبغي إلاَّ أن تكتشف طريقة مَلْءِ الزمنِ وخضوعِهِ لحكم الشرع والعقل». انتهى.

الوقتُ هو الحياة وهو أغلى من الذهب

وقال الأستاذ الراشدُ المرشدُ حسن البنَّا رحمه الله تعالى، في مقالةٍ له بعنوان: «الوقتُ هو الحياة»[1]:

«يُقالُ: الوقتُ من ذهب!! وهذا صحيح من حيث القِيَمُ الماديةُ للذين لا يَقيسون الوجودَ إلاَّ بها، ولكنَّ الوقتَ هو الحياةُ للذين يَنظُرون إلى أبعدَ من ذلك.

وهل حياتُك أيها الإنسان في هذا الوجود شيءٌ غيرُ الوقت الذي يمضي بين الوفاةِ والميلاد؟ وقد يَذْهَبُ الذهبُ ويَنْفَدُ، ولكنك تستطيعُ أن يكون معك منه أضعافُ ما فَقَدتَ، ولكنَّ الوقتَ الذاهبَ والزمنَ الفائتَ لا تستطيعُ له إعادةً أو إرجاعاً!! فالوقتُ إذَنْ أغلى من الذهب، وأغلى من المَاس، وأغلى من كل جوهرٍ وعَرَض، لأنه هو الحياة.

وليس النجاحُ متوقفاً على الخِطَّةِ الدقيقة، والظروفِ المُوَاتيةِ فَحسْب، ولكنه متوقفٌ على اللَّحْظَةِ المُنَاسبةِ كذلك، وقد كانوا يَحْذَرُون من الرأي

---

(١) من كتاب «منبر الجمعة للإمام الشهيد حسن البنا» المجموعة الأولى، ص ٥٣، إعداد وتقديم محمد عبد الحكيم خيَّال.

[ومن وصايا الإمام الشهيد للشباب المسلم:

اتلُ القرآن أو طالع أو استمع إلى كتاب الله، ولا تصرف جزءاً من وقتك في غير فائدة.

والواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته، وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها].

الفَطِير، ومن الرأي المتأخِّر أيضاً[١]، والتوفيقُ أن يَقَعَ العمَلُ في لَحْظَتِهِ المُنَاسبة **﴿واللهُ يُقَدِّرُ الليلَ والنهار﴾**[٢].

ولهذا كان أعظَمُ الناسِ تعرُّضاً للخسارة والإخفاقِ أولئك الغافِلِين! **﴿ولقد ذَرَأْنَا لجهنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإنْسِ، لهم قلوبٌ لا يَفقَهون بها، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعون بها، أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أولئك هم الغافِلُون﴾**[٣].

ومن أروع الصُّوَرِ التي عَرَض فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قيمةَ الوقتِ الكريم: «ما من يوم يَنْشَقُّ فَجْرُهُ إلاَّ ويُنادِي: يا ابنَ آدم، أنا خَلْقٌ جديد، وعلى عملِك شهيد، فتزوَّدْ مني، فإني لا أعودُ إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) وفي المَثَل: شَرُّ الرأيِ الدَّبَرِيُّ. وهو الذي يَسنَحُ بعدَ فواتِ الوقت. [والفطير من الرأي: ما خَطَر بالبال وأُبدِيَ بلا تثبُّتٍ].

(٢) من سورة المُزَمِّل، الآية ٢٠.

(٣) من سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٢: ٣٠٣، في ترجمة معاوية بن قرة، من طريق معاوية بن قرة عن معقل بن يسار مرفوعاً بلفظ: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلاَّ يُنادي فيه: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيد، فاعمل فيّ خيراً أشهَدُ لك به غداً، فإني لو مضيتُ لم ترني أبداً. قال: ويقول الليل مثل ذلك».

قال أبو نعيم: غريب من حديث معاوية تفرد به عنه زيد ولا أعلمه روي مرفوعاً عن النَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم إلاَّ بهذا الإسناد. اهـ. [وإسناده ضعيف جداً بسبب سلاَّم الطويل وزيد العمِّي ومعاوية بن قرة].

واللفظ السابق بنحوه عند الديلمي في «الفردوس» ٣: ٣٨٢.

وفي «جمع الجوامع» للسيوطي، اللوحة ٧٣٣: «ما من يوم طَلَعَتْ شَمْسُهُ إلاَّ يقول: من استطاع أن يَعمَلَ فيَّ خيراً فليعمله، فإني غير مُكَرِّرٍ عليكم أبداً، . . .» أخرجه البيهقي في=

إذَنْ ليس في الوجود أغلى من الوقت، وإنَّ الأوقات لتتفاوتُ في يُمنها وبَرَكتِها، وحُسنِ حَظِّها وسعادةِ جِدِّها، فساعةٌ أعظمُ بركةً من ساعة، ويومٌ أفضَلُ عند الله من يوم، وشهرٌ أكرَمُ من شهر:

هو الجَدُّ حتى تفْضُلُ العيْنُ أختَها وحتى يكونُ اليومُ لليومِ سَيِّدا[1]

ولقد وجَّهَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قيمة الوقت وطريق الانتفاع به، فيما ورد عنه في كثير من الأحاديث، مشيراً إلى أنَّ «المؤمن بين مَخَافَتَيْنِ: بين عاجلٍ قد مضى، لا يَدرِي ما اللهُ صانعٌ فيه، وبين آجل قد بقي، لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه»[2]. فليأخذ العبدُ من نفسِه لنفسِه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبِيبة قبلَ الهَرم، ومن الحياةِ قبلَ الموت.

فيـا أيها الأخ العزيـز، اغتنـم الوقت، فالوقتُ كالسيف، ودَع التسويفَ فلا أضرَّ منه، وسَل الله التوفيقَ للعمل المقبول، والوقتِ الفاضل». انتهى.

= «الشُّعَب» [٣:٣٨٦ رقم ٣٨٤٠] عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنسِ مُرْسلاً، والديلمي [٤: ٥١ رقم ٦١٦٠] عنه عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس». اهـ.

[قلت: قال البيهقي: هذا منقطع، وروينا بعضه موصولاً، والمرسل أصح. اهـ.

والمتن لا يصح مرفوعاً من قول النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنما يصح من قول بعض السلف، بنحوه أو بمعناه، كما أخرجه ابن أبـي الدنيا في كتابه «كلام الليالي والآيام لابن آدم» عن الحسن البصري وبكر بن عبد الله المُزَني وعبد الرحمن بن زُبيد اليامي وموسى الجهني وأبـي عمران الجوني بأسانيد حسان. سلمان].

(١) الجَدُّ: الحَظُّ. والبيتُ للمتنبـي في «ديوانه» ١: ٢٧٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» ٢:٢٠٤: «أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» عن الحسن البصري عن رجل من أصحاب النَّبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيه انقطاع». انتهى. [فهو حديث ضعيف].

الوقت نقدٌ وهو سيف قاطع

وقال الأستاذ المربي الحكيم الأديب السيد أحمد الهاشمي رحمه الله في كتابه المفيد «ديوان الإنشاء» في مقالته (٧٢ ــ **الوقت نقد**)[١]:

«الوقتُ نقدٌ: حكمةٌ جليلةٌ ترشدنا إلى أن الوقتَ ثمينٌ وغالٍ، يجب أن نحافظَ عليه، فلا يضيع في اللهو واللعب، بل في الجد والعمل، وطلب العلا، وإدراك المراد، ونيل المطالب، فالعاقل اللبيب من ينفق عمره في الصالحات الطيبات والعمل الخالد، الذي يُكسبه الذكرَ الحسنَ والصيتَ الشريف. . .

لعمري إنَّ الوقت نفيسٌ، وأنفسُ منه أن توجد فيه أعمال الخير، وتُكتسب العلوم والمعارف، وتحصل الإفادة والاستفادة، وتنتشر التجارة لتربح ربحاً وافراً، وترقى الصناعة، وتُؤلف المؤلفات، وتُخترع المخترعات، وتُنجز الأعمالُ، ويتسابق العاملون في ميدان الفخر والعز والمجد.

والمحافظة على الوقت من صفات الصدق والأمانة والوفاء بالوعد وقوة الإرادة والعزيمة والحزم، لأنَّ المُهْمِلَ ضعيفُ النكاية وقليل العزم يضُرُّ نفسَه وغيرَه بإهماله وكسلِه، ويَذهبُ وقته بلا فائدة، وتَحطُّ منزلَته عند رؤسائه وتكرهُه أتباعُه، وتعدُّه الناسُ مُخَاتلاً جباناً خبيثَ النفس كسلانَ، وعيشه نكدٌ لا رغد، فتراه دائماً في شقاء وبؤس، أما من يحافظ على وقته فنشيط وسعيد وفَرِحٌ وعيشته راضية». اهـ بتصرف يسير.

وقال في مقالته (٢٠٦ ــ **الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك**)[٢]:

«ولا أُؤَخِّرُ شُغْلَ اليومِ عن كسلٍ إلى غدٍ إنَّ يومَ العاجزينَ غَدُ

---

(١) ص ٨٣. والمقالتان من إضافتي. سلمان.

(٢) ص ٢٥٠.

نعم، إنَّ الوقت سيف قاطع وبرقٌ لامع، ومن الحزم انتهازُ الفرصة، وترك التواني فيما يُخاف عليه الفوت.

وانتهــز الفُــرْصــةَ إنَّ الفــرصــةْ　　　تصيــرُ إنْ لــمْ تنتهــزْهــا غُصَّــةْ

ومـن أعظـم المصـائب فـوات الـوقـت بـلا فـائـدة، واكتسـاب عـائـدة. قال تعالى: ﴿**وأنفقوا مما رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ أحدَكُم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أَخَّرْتني إلى أجلٍ قريب**﴾[1].

وقال بعض الحكماء: اغتنم بياض النهار قبل العشية، وقال الشاعر:

إذا ضَيَّعــــتَ أوَّلَ كــــلِّ أمــــرٍ　　　أَبَــــتْ أعجــــازُهُ إلاَّ التــــواءَ

فالعمر قصير، وترتيبُ الأوقات يُطيلُه. والناس مبصرون، لكنهم عن قيمة الوقت عُميان.

يَسُــرُّ المــرءُ مــا ذهــبَ الليــالــي　　　وكــان ذهــابُهُــنَّ لَــهُ ذهــابــا

فمن اتخذ اليقظة نبراساً وانتهاز الفرصة أساساً، هانت عليه عظائم الأمور، وعظمت مهابته في الصدور، وخفَّ عنه عبءُ الصعاب، وانفتح له من الخيراتِ كلُّ باب.

ومن نَبَذَ انتهاز الفرصة، فلا شك أنها تنقلب عليه غُصَّة، ويقع في حيرةٍ لا يـدري كيـف العمـل، وقـد سبـق السيـف العَـذل، لأنَّ المـاضـيَ لا يُـرَدُّ، والمستقبلَ ليس في اليد.

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصتِه　　　حتى إذا فات أمرٌ عاتَبَ القدرا

(١) من سورة المنافقون، الآية ١٠.

فالزمانُ إذا مَرَّ على الإنسان بدون فائدة، ولا اكتساب عائدة، لا يحسبه العاقل من عمره. ويظُنُّه الجاهل من سَعْدِهِ وخيره.

إذا فاتني يوم ولم أصطنعْ يداً ... ولم أكتسبْ علماً فماذاك من عمري

قال حكيم: لا تؤخِّرَنَّ عملاً عن وقته، فإن للوقت الذي تؤخِّره إليه عملاً آخر، ولستَ تطيق ازدحام الأعمال، لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل.

وبالجملة: إنَّ ضياعَ الوقت لا يوازيه شيء آخر سواه مهما كان نفيساً، فإذا فرَّطتَ في متاع عزيز أو تحفة ثمينة أمكنك استردادها بضرب من ضروب الحيل[1]، أما إذا فرَّطت في ساعةٍ من عمرك وأضعتها بدون أن تكتسب فيها خيراً أو مَحْمَدةً، لا يمكنك استرداد تلك الساعة، ولو بذلتَ في سبيلها ملءَ الأرضِ ذهباً. فالوقت إذاً أثمنُ من الذهب والجواهر الكريمة، وأعَزُّ من كلِّ غال نفيس». اهـ باختصار يسير.

كلمات غالية للأستاذ محمد الغزالي
في الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن

وللأستاذ الكبير الداعية الموهوب فضيلة الشيخ العلامة محمد الغزالي حفظه الله تعالى، وأمتع المسلمين به[2] مقالة جامعة ماتعة في التنبيه إلى تقدير قيمة الوقت والحرص على الانتفاع به والتحذيرِ من ضياعه، خَتَم بها كتابه النافع المفيد «خُلُق المسلم»[3]، رأيتُ أن أقطِفَ منها ما يلي، قال:

---

(١) لعل الأدق: قد يمكنك استردادها... سلمان.

(٢) كتب الوالد هذه السطور في مكة المكرمة في ١٤١٣/٩/٢٨ قبل وفاة الأستاذ الغزالي بثلاث سنوات. وقد توفي الأستاذ الغزالي بالرياض عام ١٤١٦، ودفن بالبقيع الشريف، رحمهما الله تعالى. س.

(٣) ص ٢٢٣ ــ ٢٣٢ طبع دار القلم بدمشق، الطبعة السادسة سنة ١٤٠٦.

«الانتفاعُ بالوقت والاتعاظُ بالزمن»

«كلُّ مفقودٍ عَسَى أن تسترجعَه إلاَّ الوقت، فهو إن ضاع لم يتعلق بعودتِهِ أَمَل، ولذلك كان الوقتُ أنفس ما يَملِكُه إنسان، وكان على العاقل أن يستقبل أيامَه استقبالَ الضَّنِين للثروةِ الرائعة، لا يُفرِّطُ في قليلها بَلْهَ كثيرَها، ويجتهدُ أن يضع كلَّ شيء، مهما ضَؤُلَ، بموضعه اللائقِ به.

إنَّ المسلم الحقَّ يُغالي بالوقت مغالاةً شديدة، لأن الوقت عُمُرُه، فإذا سَمَح بضياعه، وتَرَكَ العواديَ تَنهَبُه، فهو ينتحِرُ بهذا المسلكِ الطائش.

إنَّ الإنسان ليَسيرُ حثيثاً إلى الله، وكلُّ دورةٍ للفَلَكِ تتمخَّضُ عن صباحٍ جديد: ليسَتْ إلاَّ مرحلةً من مراحل الطريقِ الذي لا تَوَقُّفَ فيه أبداً، أفليس من العقل أن يُدرِكَ المرءُ هذه الحقيقة، وأن يَجعلَها نُصبَ عينيه، وهو يستبِينُ ما وراءَهُ وما أمامَه.

من الخِداع أن يَحسَبَ المرءُ نفسَه واقفاً والزمنُ يسيرُ! إنه خِداعُ النظر حين يُخيَّلُ لراكبِ القطار أن الأشياء تجري وهو جالس، والواقعُ أن الزمن يسيرُ بالإنسان نفسِه إلى مصيره العَتِيد.

الإسلامُ دينٌ يَعرف قيمةَ الوقت، ويُقدِّرُ خطورةَ الزمن، يُؤكِّدُ الحكمةَ الغالية: «الوقتُ كالسيف إنْ لم تَقطعْه قَطَعك»، ويَجعَلُ من دلائل الإيمان وأمَاراتِ التُّقَى أن يَعِيَ المسلمُ هذه الحقيقةَ ويسيرَ على هُداها.

وقد وَزَّع الإسلامُ عباداتِه الكبرى على أجزاءِ اليوم وفُصولِ العام، فالصلواتُ الخمسُ تكتنفُ اليومَ كلَّه، وأوقاتُها تطَّرِدُ مع سَيْرِه، والمقرَّرُ في الشريعة أنَّ جبريل نَزَل من عند الله ليَرسُمَ أوائلَ الأوقاتِ وأواخِرَها، ليكون من ذلك نِظامٌ مُحْكَمٌ دقيق، يُرتِّبُ الحياةَ الإسلامية ويَقِيسُها بالدقائق، من مطلع الفجر إلى مَغِيبْ الشَّفَق.

فـالليـلُ يَخْلُـفُ النهـار، ويَخْلُفُـهُ النهـارُ، مـع حـركـاتِ الأفـلاكِ الـدائـرة السائدة، وربُّ العالمين لم يَخلق ذلك عَبَثاً. وقَبِيحٌ بالناس أن يظنوا مَحيَاهم في هذا الوجود الرَّتيب سُدًى، إنه المَيْدَانُ الذي أُعِدَّ للسِّباقِ الطويل، السباقِ الذي لا يتقدم فيه إلاَّ مَنْ يَعرِفُ ربَّه، ويَذكُرُ حقَّه، ويَشْكُرُ نِعَمه، ومَنْ يَجعَلُ مِن تواصُل السنين تواصُلَ دأْبٍ ونَصَبٍ لِإحرازِ الراحةِ الكبرى.

إنَّ عُمرَكَ رأسُ مالِكَ الضخم. ولسوف تُسأَلُ عن إنفاقِك منه، وتصرُّفِك فيه، قال رسول الله ﷺ: «لا تزولُ قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربع: عن عُمُرِه فيمَ أفناه؟ وعن شبابِه فيمَ أبلاه؟ وعن مالِه من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ وعن علمِه ماذا عَمِلَ فيه؟»[١].

والإِسْلاَمُ ينظر إلى قيمة الوقت في كثير من أوامرِه ونواهيه، فعندما جَعَل الإِعـراضَ عـن اللغـوِ مـن معـالـم الإيمـان، كـان حكيمـاً فـي محـاربـةِ طـوائـفِ المتبطِّلين، الذين يُنادِي بَعْضهم بعضاً: تعالَ نَقتُل الوقتَ بشيء من التسلية!! وما دَرَى الحَمْقَى أن هذا لَعِبٌ بالعمر، وأنَّ قتل الوقت على هذا النحو إهلاكٌ للفـرد، وإضـاعـةٌ للجمـاعـة، ومِـن الحِكـم التـي تغيـبُ عـن بـال الجمـاهيـر: **«الواجباتُ أكثَرُ من الأوقات»، «الزمنُ لا يقِفُ مُحايِداً، فهو إمَّا صَدِيقٌ ودود، أو عَدُوٌّ لَدُود».**

ومِن كلماتِ الحسن البصري: «ما من يومٍ يَنشقُّ فجرُه، إلاَّ نادَى منادٍ من قِبَلِ الحق: يا ابنَ آدم، أنا خَلْقٌ جديد، وعلى عملِك شهيد، فتزوَّدْ منِّي بعملٍ صالح، فإني لا أعودُ إلى يوم القيامة»[٢].

---

(١) رواه الترمذي، وقد تقدم ذكره وتخريجه أول الكتاب ص ٣٨.

(٢) تقدم تخريجه في مقال الأستاذ حسن البنا رحمه الله تعالى، ص ٢٦٦. س.

وهذه الحِكَمُ تَنْبُعُ من رُوح الإسلام، ومن تَفقُّهِ تعاليمِه العظيمة، في الإفادة من الحياةِ الأولى للحياةِ الكبرى، وإنه لمن فضل الله ودلائلِ توفيقه أن يُلهِمَ الرجلَ استغلالَ كلِّ ساعة من عمره في العمل، والاستجمام من جهدٍ استعداداً لجهدٍ آخر.

ومن المؤسف أن العوامَّ لا يُبالون بإضاعة أوقاتِهم سُدًى ويَضُمُّون إلى هذه الجريمةِ السطوَ على أوقاتِ غيرِهم لإراقتها على التراب! وإنَّهم لَيقتحمون على رجال الأعمال خلواتِهم الجادَّة، ليَشغلوهم بالشؤونِ التافهة!.

وصَدَق رسولُ الله ﷺ: «نِعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحَّةُ والفَراغ»[1].

ومن استغلالِ الإسلام للوقتِ بأفضل الوسائل حَثُّهُ على مداومة العملِ وإن كان قليلاً، وكراهيَتُهُ للكثير المنقطع، وذلك أنَّ استدامةَ العمل القليل مع اطِّرادِ الزمن وسَيْرِهِ الموصول، يَجعلُ من التافِهِ الضئيلِ زِنَةَ الجبالِ من حيث لا يَشعُرُ المرء.

أمَّا أن تَهِيجَ بالإنسانِ رغبةٌ سريعة، فتدفعَهُ إلى الإكثارِ والإسراف، ثم تغلِبَ عليه السآمةُ فينقطِع، فهذا ما يكرهُه الإسلام.

ومن محافظة الإسلام على الوقت حَثُّهُ على التبكير، ورغبتُهُ في أن يَبدأ المسلمُ أعمالَ يومِه نشِيطاً طيِّبَ النفس، مكتملَ العزم، فإنَّ الحِرص على الانتفاع من أول اليوم يَستتبعُ الرغبةَ القويَّة في ألا يَضيع سائرُه سُدًى.

ونظامُ الحياة الإسلامية يَجعلُ ابتداءَ اليوم من الفَجْر، ويَفتَرِضُ اليقَظَةَ الكاملةَ قبلَ طلوع الشمس، ويكرَهُ السَّهَرَ الذي يؤخِّرُ صلاةَ الصبح عن وقتها

---

(١) رواه البخاري ومسلم. وقد تقدم ذكره وتخريجه ص ٣٦.

المسنون، وفي الحديث: «اللهم بارِكْ لأُمَّتي في بُكورِها»[١].

وإنَّهُ لمن الغفلةِ والحِرمان أن يألَفَ أقوامٌ النومَ حتى الضحى! فتطلُعَ عليهم الشمسُ وهم يَغُطُّون!! على حِينِ تَطلُعُ على آخَرين وهم منهمِكون في وسائل مَعاشِهم ومصالح مَعادِهم. ورُوي عن فاطمة بنتِ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالَتْ: مَرَّ بي رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأنا مضطجعةٌ مُتَصبِّحة[٢]، فحرَّكني برجله، ثم قال: «يا بُنَيَّة، قُومِي اشهَدِي رِزقَ رَبِّك ولا تكوني من الغافلين، فإنَّ الله يَقسِمُ أرزاقَ الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[٣].

إذْ أنَّ الجادِّين والكُسَالَى يتميَّزون في هذا الوقت، فيُعْطَى كلُّ امرئٍ حسْبَ استعدادِه من خير الدنيا والآخرة[٤].

إنَّ العمرَ قصير، والحاضرُ الذي يَحيا الإنسانُ في نِطاقِه ضيِّق، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تُطيقون، فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإنَّ أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قَلَّ».

إنَّ الزمنَ آيةٌ يُعجِزُ العُقُولَ كُنْهُهَا، وما نعرفُه إلاَّ بما يُخلِّفُه في المادَّةِ من

---

(١) رواه أبو داود. [وسنده ضعيف، لكن معناه صحيح].

(٢) أي: نائمةٌ أولَ النهار.

(٣) رواه البيهقي. [وسنده ضعيف].

(٤) رحم الله شاعر الإنسانية المسلمة الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري وطيب ثراه إذ يقول في قصيدة «مهاجر» التي أتحف بها السيد الوالد رحمه الله بخطه الجميل الرشيق:

وبادر اليومَ بسعي فما ... نالَ نؤومُ الصبح ما أمَّلَهْ

إنّ خُطى الأقدار تمضي إلى ... غاياتِها قَعْسَاءَ مستعجلةْ. س.

آثـار، ولعـلَّ سِـرَّ الخلـودِ والفَنـاءِ مَطـويٌّ فيـه، لا يَعـرفُـه إلاَّ المُحِيـطُ بظـواهـرِهِ وخوافِيه». انتهى.

استثمار العاقلين

ووجدت في مجلة «التدريب والتقنية»(١) مقالاً للدكتورة أسماء بنت محمد باهرمز بعنوان (استثمار العاقلين)، استحسنت إيراده لحسنه وجزالته، قالت أحسن الله إليها:

«ماذا لو أن هناك مَصْرِفاً يضع في حسابك دفعة يومية بعدد ثواني ذلك اليوم أي ٨٦٤٠٠ ريال، إلاَّ أن هذا المصرف يسحب ما تبقى في نهاية النهار ولم تستطع الاستفادة منه بعد. فهو لا يسمح لك بترحيل ما تبقى إلى يوم آخر، ولا يسمـح لـك بـأن تسحـب اليـوم مـن حسـاب الغـد. . مـاذا ستفعـل؟؟ حتمـاً ستسحب كل هللة في الحساب قبل غياب شمس كل يوم.

هل تعلم أن كلاًّ منا لديه مثل هذا المصرف. إنه الوقت يعطيك مع إشراقة كل صباح ٨٦٤٠٠ ثانية، وفي نهاية ذلك اليوم تخسر كل ما لم تستطع تسخيره في عمل مثمر بناء.

لتعرف قيمة سنة واحدة، اسأل طالباً رسب في الامتحان!

لتعرف قيمة شهر واحد، اسأل أُمًّا وضعت وليدها في الشهر الثامن!

لتعرف قيمة أسبوع واحد، اسأل رئيس تحرير مجلة أسبوعية!

لتعرف قيمة يوم واحد، اسأل عاملاً بالأجر اليومي يرعى عشرة أطفال!

لتعرف قيمة ساعة واحدة، اسأل عريساً ليلة زفافه ينتظر لقاء عروسه!

---

(١) العدد السادس عشر، ربيع الآخر سنة ١٤٢١هـ، والمقال من إضافتي. سلمان.

لتعرف قيمة دقيقة واحدة، اسأل شخصاً فاته القطار!

لتعرف قيمة ثانية، اسأل شخصاً نجا لتوّه من حادث سيارة!

لتعرف قيمة جزء من ألف في الثانية، اسأل شخصاً كسب ميدالية فضية في الألعاب الأولمبية!

هذه بعض من مقال كنت نشرته في إحدى الصحف المحلية قبل عامين ومستقاة من رسالة إلكترونية مجهولة الهوية وصلتني عبر الإنترنت. رأيت مشاركتكم إياي تعميقاً للمنفعة، خاصة وأني ما زلت أعتبر كلما قرأتها. فنحن كمسلمين أولى باستثمار الوقت، فواجباتنا كلها محددة ومعروفة بالوقت ابتداء بالصلاة وانتهاء بفريضة الحج.

ترى كم مرة جَلَس أحدُنا إلى نفسه في نهاية النهار وحاسبها؟ كم من تلك الثواني التي أودعت في حسابه ذلك الصباح أحرقها في عمل لا يرضي الله ولا خلقه؟

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وطالما أننا باسم التقنية نتحدث، كم من ليلة قضيتها أمام شاشة الإنترنت تتحاور مع آخرين في لغو الكلام، بينما[1] قطعتَ لغة الحوار مع أهل بيتك؟

---

(١) هذا خطأ لغوي شائع وذائع، حتى إنه سرى إلى بعض اللغويين والأدباء الكبار والصغار من المعاصرين، وصوابه: في حِينِ. لأن بَيْنَا وبَيْنَما ظرفا زمان بمعنى المفاجأة، يكونان في بدءِ الكلام، فلا يأتيان في أثنائه ولا يستعملان للمقارنة. وقد نَبَّه على ذلك اللغوي الضليع الأستاذ محمد العدناني رحمه الله في كتابه القيم «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة»، ص ٩٠، إلاَّ أنه سرى عليه ما سرى على غيره من استعماله هذا اللفظ، ص ١٥٧ و ٢٠٦ وغيرهما. س.

ولن أطيل في سرد كيف أننا نخسر ثروة هائلة تتجدد كل يوم، منحنا إياها الخالق لنسعد بها دنيا وآخرة، دون أن نُلْقِيَ بالاً حتى يأتي يوم يُسأل الفرد منا عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به.

واليوم والحديث موجه لمن هم في إجازة وقد مضى شهر من عطلة الصيف أي ثلاثون يوماً، وذلك يساوي سبعمائة وعشرين ساعة، أي ثلاثاً وأربعين ألفاً ومائتي دقيقة، أما إذا شئت معرفة ذلك بالثواني فإن الرقم يتجاوز المليونين ونصف!!

كيف يا ترى قضيتم هذا الكم الهائل من الوقت؟ كان البعض منكم قبل بدء الإجازة يحلم لو كان لديه الوقت الكافي للتفقه في القرآن؟ وعلوم الفقه؟ أو أن يتعلم بعض علوم الحاسب؟ أو أن يقرأ بعضاً من أمهات الكتب القابعة في مكتبة المنزل فيثري فكره ويغذي بها روحه؟ كم تَمَنَّى أحدنا لو أن لديه الوقت ليزور كافة أقاربه فيبرَّ كبارهم ويُودِ صغارهم؟ هل تمنيتَ لو أن لديك الوقت لتقضيه مع أفراد أسرتك مستمتعاً بصحبتهم؟ لو أن لديك الوقت لتبرَّ والِدَيك وتزورهما يومياً بدلاً من أسبوعياً؟ لتقوم على رعايتهما بنفسك؟

أرجو أن نكون قد أنجزنا شيئاً مما أردنا واستمتعنا به. وإن لم تفعل بعد فافعل الآن وابدأ في استغلال رصيدك المتاح من الوقت، فاستفد من كل دقيقة، لا بَلْ كلِّ ثانية من وقتك، لا تقلل من أي عمل خير تقوم به، أو أي معرفة أو مهارة تستطيع نقلها لمن حولك، ولا تبخل بوقتك على من تحب، وقبل ذلك على من يحبك». انتهى.

وصية الإمام ابن قدامة الحنبلي

وأختم بوصية جامعة نافعة للإمام الرباني موفق الدين ابن قدامة الحنبلي الفقيه الكبير صاحبُ كتاب «المغني» في الفقه الحنبلي (عبدُ الله بن أحمد)، المولود سنة ٥٤١، والمتوفى سنة ٦٢٠. قال رحمه الله تعالى في أول «وَصِيَّته»[١]:

«اغتنم رحمك الله حياتَك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلَمْ أنَّ مُدَّةَ حياتِك محدودة، وأنفاسَك معدودة، فكلُّ نَفَسٍ يَنقُصُ به جُزءٌ منك، والعُمرُ كلُّه قصير، والباقي منه هو اليسير.

وكلُّ جزء من عُمرك جوهرةٌ نفيسة لا عَدْلَ لها ــ أي ليس لها ما يُعادِلُها لنفاستها ــ ، ولا خَلَفَ منها، فإنَّ بهذه الحياةِ اليسيرة خُلودَ الأبد في النعيمِ أو العذاب الأليم[٢].

وإذا عادلتَ هذه الحياةَ بخلودِ الأبد علمتَ أنَّ كل نَفَسٍ يَعدِلُ أكثرَ من ألفِ عامٍ في النعيم المقيم الذي لا حَصْرَ له، أو خلافَ ذلك، وما كان هكذا فلا قيمةَ له ــ أي لنفاسته لا يُقدَّرُ بقيمة ــ ، فلا تُضَيِّعْ جواهرَ عمرك النفيسة بغير عمل، ولا تُذهِبْها بغير عِوَض.

واجتهِدْ أن لا يخلو نَفَسٌ من أنفاسِك إلاَّ في عملِ طاعةٍ أو قُربةٍ تتقربُ بها، فإنك لو كانت معك جوهرةٌ من جواهر الدنيا، فضاعت منك، لحزِنتَ عليها حُزناً شديداً.

بل لو ضاع منك دينار لساءَك، فكيف تُفَرِّطُ في ساعاتِك وأوقاتِك؟!

---

(١) ص ٧٦ ــ ٧٨.

(٢) وتقدم ص ٤١ قول ابن عطاء السكندري: «الأنفاس جواهر». س.

وكيف لا تحزَنُ على عُمرِك الذاهِب بغير عِوَض؟ !». انتهى.

وفقنا الله وإياك أيها القارىء الكريم إلى حفظ الوقت ومَلْئِهِ بالعمل الصالح والعلم النافع، وجعلنا من الذين يعرفون قيمةَ الزمن والحياة، فلا يَغبِنون أنفسَهم ولا أُمَّتَهم وبلادَهم، وأولئك هم الراشدون، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين[١].

* * *

(١) جاء في الطبعة الخامسة وما تلاها من طبعات: يقول العبد الضعيف عبد الفتاح أبو غدة: فرغت من تصحيح هذه الطبعة الخامسة للكتاب في شهر ربيع الأول ١٤٠٩، راجياً أن تَنالني دعوةٌ صالحةٌ ممن يَنتفعُ به، والحمد لله رب العالمين. اهـ.

ويقول ابن العبد الضعيف غفر الله له ولوالديه وأحبابه: فرغتُ من تصحيح هذه الطبعة الثالثة عشر للكتاب في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٤٢٩، راجياً أن تَنالني دعوة صالحة ممَّن يَنتفعُ به، والحمد لله رب العالمين. سلمان.

المحتوى[١]

(١) حرف (ت) يشير إلى أن ما قبله وارد في التعليق.

١ ــ الآيات

* * *

٢ ــ الأحـاديـث

* * *

٣ ـ الآثـــار

الأثــر	الصفحة

الأثـــر	الصفحة

* * *

٤ ـ الأشعار

البيت		الصفحة
لابن دريد:		
ومـن تـك نـزهتـه قَينـة	وكـأس تُحـثُّ وكـأس تُصَـبُّ	
فنـزهتنـا واستـراحتنـا	تـلاقـي العيـون ودرس الكتـبْ	١٩٧
لأحمد الصقلي:		
يـا غفلـة شـاملـة للقـومِ	كـأنمـا يـرونهـا فـي النـومِ	
مـيـتُ غـد يـحـمـل ميـت اليـومِ		١٩٩
للشافعي:		
أخـي لـن تنـال العلـم إلاَّ بستـة	سـأنبيـك عـن تفصيلهـا ببيـان	
ذكـاء وحـرص واجتهـاد وبلغـة	وصحبـة أستـاذ وطـول زمـان	٢٠٢
للسيوطي:		
حـدثنـا شيخنـا الكنـانـي	عـن أبـه صـاحـب الخطـابـهْ	
أسـرع أخـا العلـم فـي ثـلاث	الأكـل والمشـي والكتـابـهْ	٢٠٣
فـإن تـأتيـانـي فـي الشتـاء وتلمسـا	مكـان فـراشـي فهـو بـالليـل بـاردُ	٢٠٤
أبيـضُ بسـامٌ بـرود مضجعـه	اللقمـة الفـردُ مـراراً تُشْبعـه	٢٠٤
رضيـت مـن الـدنيـا بقـوت يقيمنـي	فـلا أبتغـي مـن بعـده أبـداً فضـلا	
ولسـت أروم القـوت إلاَّ لأنـه	يُعيـن علـى علـم أردُّ بـه جهـلا	٢٠٥
لا بـدَّ للطـالـب مـن كنـاشٍ	يكتـب فيـه قـائمـاً أو مـاشـي	٢٠٧
مـا مضـى فـات والمـؤمـل غيـب	ولـك السـاعـة التـي أنـت فيهـا	٢٠٨
لمحمود الوراق أبيات منها:		
مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً	وأعقبـه يـوم عليـك جـديـدُ	
فـإن كنـت بـالأمـس اقتـرفـت إسـاءةً	فثـنِّ بـإحسـان وأنـت حميـدُ	٢٠٨
ألـم تـر أن اليـوم أسـرعُ ذاهـب	وإنَّ غـداً للنـاظـريـن قـريـبُ	٢١٠

❊ ❊ ❊

٥ ــ الكتب

* * *

٦ ـ الأعـــلام

— خ —

— د —

— ش —

* * *

٧ ــ المصـادر والمراجـع

١ ــ **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، لابن مفلح الحنبلي، مطبعة المنار بمصر ١٣٤٨.

٢ ــ **الآلوسي مفسراً**، للدكتور محسن عبد الحميد، مطبعة المعارف في بغداد ١٣٨٨.

٣ ــ **ابن النفيس**، طليعة العهد العلمي في الطب، بول غليونجي، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، مطبعة حكومة الكويت، دون تاريخ.

٤ ــ **إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد**، لمحمود شكري الآلوسي، تحقيق عدنان الدوري ١٤٠٢، وزارة الأوقاف بالجمهورية العراقية.

٥ ــ **أدب الدنيا والدِّين**، للماوردي، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الثانية ١٤١١، الدار المصرية اللبنانية.

٦ ــ **أدب المفتي والمستفتي**، لابن الصلاح، تحقيق موفق عبد القادر، الطبعة الأولى ١٤٠٧، مكتبة العلوم والحكم، وتحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى ١٤٠٦، مع فتاوى ابن الصلاح، دار المعرفة ــ بيروت.

٧ ــ **الأربعون الطائية: إرشاد السائرين إلى منازل المتقين**، للحافظ محمد بن محمد الطائي، تحقيق علي حسين البواب، الطبعة الأولى ١٤١٧، مكتبة المعارف ــ الرياض.

٨ ــ **أساس البلاغة**، للزمخشري، مطبعة أولاد أوزمانده ١٣٧٢.

٩ ــ **أضواء الشريعة**، مجلة كلية الشريعة بالرياض، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس لعام ١٣٩٤.

١٠ ــ **أطلس تاريخ الإسلام**، د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى ١٤٠٧، دار الزهراء ــ القاهرة.

١١ ـ **الاعتبار**، لأسامة بن منقذ، طبعة مطبعة جامعة برنستون ـ أمريكا، سنة ١٩٣٠م، وطبعة دار الأصالة ـ الرياض، السعودية ١٤٠٧.

١٢ ـ **الأعلام**، للزركلي، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٣٨٩، والطبعة الخامسة ١٩٨٨م.

١٣ ـ **أعلام النساء**، لعمر رضا كحّالة، المطبعة الهاشميَّة بدمشق ١٣٧٩.

١٤ ـ **الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب**، لأبي نصر الفارقي، تحقيق سعيد الأفغاني، الطبعة الثانية ١٩٧٤م، جامعة بنغازي ليبيا.

١٥ ـ **الإلماع**، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث ـ القاهرة ١٣٨٩.

١٦ ـ **أمالي المرتضى**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٤٢٥، المكتبة العصرية ببيروت.

١٧ ـ **الإمام الفقيه المحدث الشيخ محمد عابد السندي الأنصاري رئيس علماء المدينة المنورة في عصره**، لسائد بكداش، الطبعة الأولى ١٤٢٣.

١٨ ـ **إنباه الرواة على أنباء النحاة**، للقفطي، دار الكتب المصرية ١٣٧٤.

١٩ ـ **الأنساب**، للسمعاني ـ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٨٢.

٢٠ ـ **الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان**، لابن الرفعة، تحقيق محمد أحمد إسماعيل الخاروف، الطبعة الأولى ١٤٠٠، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

٢١ ـ **البخلاء**، للجاحظ، تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم، طبعة مصورة في دار الكتب العلمية ـ لبنان سنة ١٤٠٣.

٢٢ ـ **بداية الهداية**، للإمام الغزالي، عناية مجموعة من العاملين بدار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٢٥، دار المنهاج جدة.

٢٣ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، مطبعة دار السعادة ـ القاهرة ١٣٥١.

٢٤ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، للشوكاني، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٨.

٢٥ ـ **بستان العارفين**، للنووي، مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ١٤٠٥.

٢٦ ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، للسيوطي، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦.

٢٧ ـ **بهجة النفوس وتحليها**، لابن أبي جمرة الأندلسي، مطبعة الصدق الخيرية بمصر ١٣٤٨.

٢٨ ـ **تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس**، لابن عطاء الله الإسكندري، تحقيق محمد علي مجري وخالد السروجي، الطبعة الأولى ١٤١٩، دار ابن القيِّم ـ دمشق.

٢٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**، للزبيدي، مطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦.

٣٠ ـ **تاريخ الإسلام**، للذهبي، تحقيق د. عمر تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي ١٤٠٧ ـ ١٤١٥.

٣١ ـ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩.

٣٢ ـ **تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري**، ليونس الشيخ إبراهيم السامرائي، الطبعة الأولى ١٤٠٢، وزارة الأوقاف العراقية.

٣٣ ـ **التاريخ الكبير**، لابن أبي خيثمة، تحقيق عادل سعد وأيمن شعبان، الطبعة الأولى ١٤٢٥، غراس للنشر والتوزيع الكويت.

٣٤ ـ **التبصرة**، لابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى ١٣٩٠، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

٣٥ ـ **تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن**، للعلاَّمة علي المهايمي، تصوير المكتبة النعمانية ببشاور، عن الطبعة البولاقية بمصر، دون تاريخ.

٣٦ ـ **تبيين كذب المفتري**، للحافظ ابن عساكر، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧.

٣٧ ـ **تتمة المختصر في أخبار البشر**، لابن الوردي، المطبعة الوهبية ١٢٨٥.

٣٨ ـ **تخريج أحاديث الإحياء**، للحافظ العراقي، دار المعرفة ـ بيروت، دون تاريخ.

٣٩ ـ **تذكرة الحفاظ**، للذهبي، الطبعة الثالثة ١٣٧٥ ـ حيدرآباد الدكن بالهند.

٤٠ ـ **تذكرة السامع والمتكلم بآداب العالم والمتعلم**، لابن جماعة، طبع حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٥٤، وصورة منها ببيروت، دون تاريخ.

٤١ ـ **تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات**، لقدري حافظ طوقان، الطبعة الثالثة ١٣٨٢، دار القلم بمصر.

٤٢ ـ **ترتيب المدارك**، للقاضي عياض، طبعة الرباط ١٣٨٤ وبيروت ١٣٨٧.

٤٣ ـ **الترغيب والترهيب**، للمنذري، تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٣٨٧، المكتبة التجارية بمصر.

٤٤ ـ **التصريح بما تواتر في نزول المسيح**، للإمام أنور شاه الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدَّة، الطبعة السادسة ١٤٢٥، مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٥ ـ **التعريف بالقاضي عياض لولده محمد**، تقديم وتحقيق د. محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دون تاريخ.

٤٦ ـ **التعريفات**، للشريف الجرجاني، الطبعة الأولى ١٤٠٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٧ ـ **تعليم المتعلم طريق التعلم**، للزرنوجي، تحقيق وتقديم صلاح الخيمي ونذير حمدان، الطبعة الثانية ١٤٠٧، دار ابن كثير بدمشق.

٤٨ ـ **تفسير الحافظ ابن كثير**، دار الأندلس في بيروت ١٣٨٥.

٤٩ ـ **تقييد العلم**، للخطيب البغدادي، تحقيق يوسف العش، الطبعة الثانية ١٣٩٥، دار إحياء السنَّة النبوية.

٥٠ ـ **تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر**، بعناية بسام الجابي، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار ابن حزم، وتحقيق مخمد العجمي، الطبعة الأولى ١٤٢٥، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٥١ ـ **تنزيه الأنبياء**، لعلي بن أحمد السبتي، تحقيق محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى ١٤١١، دار الفكر المعاصر.

٥٢ ـ **تهذيب التهذيب**، للحافظ ابن حجر ـ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٢٥.

٥٣ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للمزي، تحقيق بشار معروف، الطبعة الأولى ١٤٠٠ ـ ١٤١٣، مؤسسة الرسالة.

٥٤ ـ **توالي التأنيس بمعالي محمد بن إدريس**، لابن حجر، دار الكتب العلمية في بيروت ١٤٠٦.

٥٥ ـ **توجيه النظر إلى أصول الأثر**، لطاهر الجزائري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى ١٤١٦، مكتب المطبوعات الإسلامية.

٥٦ ـ **الجامع**، لابن أبي زيد القيرواني، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، الطبعة الأولى ١٤٠٢، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥٧ ــ **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبد البر، الطبعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٦، وطبعة دار ابن الجوزي بالدمام الأولى ١٤٠٤، تحقيق أبـي الأشبال الزهري.

٥٨ ــ **جامع الترمذي**، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابـي الحلبـي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٩٨.

٥٩ ــ **الجامع الصغير من حديث البشير النذير**، للسيوطي مع فيض القدير للمناوي، مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٦.

٦٠ ــ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، الطبعة الأولى ١٤٠٣، مكتبة المعارف بالرياض.

٦١ ــ **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**، للنهرواني، تحقيق د. محمد موسى الخولي، الطبعة الأولى ١٩٨١م، دار عالم الكتب ــ بيروت.

٦٢ ــ **جمع الجوامع**، للسيوطي، النسخة المصورة بمصر عن المخطوطة في مجلدين.

٦٣ ــ **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم، دار المعارف بمصر ١٣٨٢.

٦٤ ــ **جمهرة تراجم السَّادة الفقهاء المالكية**، تأليف د. قاسم سعد، الطبعة الأولى ١٤٢٣، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبـي.

٦٥ ــ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشَّافي**، لابن القيم، مطبعة أمين عبد الرَّحمن بمصر ١٣٤٦.

٦٦ ــ **الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية**، للقرشي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابـي الحلبـي بمصر ١٣٩٨.

٦٧ ــ **الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، للسخاوي، تحقيق إبراهيم باجس، الطبعة الأولى ١٤١٩، دار ابن حزم.

٦٨ ــ **الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**، لأبـي هلال العسكري، المكتب الإسلامي في بيروت ١٤٠٦.

٦٩ ــ **حديث الروح**، لمحمد رواس قلعه جي، الطبعة الأولى ١٤٠٩، دار الكوثر ــ الرياض.

٧٠ ــ **حفظ العمر**، لابن الجوزي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، الطبعة الأولى ١٤٢٥، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.

٧١ ــ **حلية الأولياء**، لأبـي نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٣٥١ .

٧٢ ــ **الخطب والمواعظ**، لأبـي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى ١٤٠٦ ، مكتبة الثقافة الدِّينية ــ القاهرة.

٧٣ ــ **خلق المسلم**، لمحمد الغزالي، الطبعة السادسة ١٤٠٦ ، دار القلم ــ دمشق.

٧٤ ــ **الدرر الكامنة**، للحافظ ابن حجر، الطبعة الثانية ١٣٩٢ ــ حيدرآباد الدكن ــ الهند.

٧٥ ــ **الديباج**، للخُتَّلي، تحقيق إبراهيم صالح، الطبعة الأولى ١٩٩٤ ، دار البشائر ــ دمشق.

٧٦ ــ **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، لابن فرحون، تصوير دار الكتب العلمية بيروت، عن طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠ ، وبتحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دون تاريخ، دار التراث ــ مصر.

٧٧ ــ **ديـوان أبـي الفتـح البستـي**، تحقيـق دريـة الخطيب ولطفـي الصقال، مجمـع اللغة العربية ــ دمشق ١٤١٠ .

٧٨ ــ **ديـوان الإنشـاء، أو أسلـوب الحكيـم فـي منهـج الإنشـاء القـويـم**، للسيـد أحمـد الهاشمس، الطبعة الأولى ١٤٢٢ ، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٧٩ ــ **ديوان التهامي علي بن محمد**، تحقيق محمد بن عبد الرحمن الربيع، الطبعة الأولى ١٤٠٢ ، مكتبة المعارف ــ الرياض.

٨٠ ــ **ديوان حاتم الطائي**، صنعة يحيـى بن مدرك الطائي، رواية هشام الكلبـي، دراسة وتحقيـق د. عـادل سليمان جمـال، الطبعـة الأولى، دون تاريـخ، مطبعـة المدني بمصر.

٨١ ــ **ديوان الحلي صفي الدِّين**، ١٤١٠ ، دار صادر ــ بيروت.

٨٢ ــ **ديوان حُميد بن ثور الهلالي**، تحقيق عبد العزيز الميمني ــ مصر ١٣٧١ .

٨٣ ــ **ديوان عليّ رضي الله عنه**، عناية عبد الرَّحمن المصطاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٤ ، دار المعرفة ــ بيروت.

٨٤ ــ **ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب**، مراجعة محمود الحداد، الطبعة الأولى ١٤٠٨ ، دار العاصمة بالرياض.

٨٥ ــ **ذيل تاريخ بغداد**، لابن النجار ــ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٩٨ .

٨٦ ــ **ذيل طبقات الحنابلة**، لابن رجب، مطبعة السنَّة المحمَّدية بمصر ١٣٧٢ .

٨٧ ــ **ذيل الموضوعات**، للسيوطي، المطبع العلوي في لكنو بالهند ١٣٠٣ .

٨٨ ــ **رسالة ابن قيم الجوزية في «أسماء مؤلفات ابن تيمية»**، طبع المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٠ ، ثم طبعت بعدها طبعتين في بيروت.

٨٩ ــ **الرسالة القشيرية**، للقشيري، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ١٩٧٤م، دار الكتب الحديثة بمصر.

٩٠ ــ **رسالة الملائكة**، لأبـي العلاء المعري، مطبوعة مع مجموعة رسائل باسم «إتحاف الفضلاء برسائل أبـي العلاء»، دراسة وإعداد محمد عبد الحكيم القاضي ومحمد عبد الرزاق عرفات، الطبعة الأولى ١٤١٠ ، دار الحديث ــ القاهرة.

٩١ ــ **روضات الجنات**، للخُوَانساري، المطبعة الحيدرية في طهران ١٣٩٠ .

٩٢ ــ **روضة الزَّاهدين**، لعبد الملك الكليب الطبعة الثانية ١٤٠٦ ، دار الأرقم الكويت.

٩٣ ــ **روضة المحبين**، لابن القيم ــ بيروت ١٣٩٧ .

٩٤ ــ **الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام**، لعبد الإله الصائغ، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية ١٩٨٢م.

٩٥ ــ **الزهد**، لابن المبارك، مجلس إحياء المعارف بمالكيون بالهند ١٣٨٥ .

٩٦ ــ **الزهد**، لأبـي حاتم، تحقيق منذر سليم، الطبعة الأولى ١٤٢١ . دار أطلس الخضراء بالرياض.

٩٧ ــ **الزهد**، للإمام أحمد، تحقيق محمد السعيد زغلول، الطبعة الأولى ١٤٠٦، دار الكتاب العربـي ــ بيروت.

٩٨ ــ **الزهد**، للبيهقي، تحقيق عامر حيدر، الطبعة الأولى ١٤٠٨، مؤسسة الكتب الثقافية ــ بيروت.

٩٩ ــ **زهر الآداب وثمر الألباب**، لأبـي إسحاق الحصري، تحقيق زكي مبارك، تصوير دار الجيل ــ بيروت، دون تاريخ.

١٠٠ ــ **السِّحر والشِّعر**، للسان الدِّين ابن الخطيب، تحقيق د. محمد كمال شبانة وإبراهيم الجمل، دار الفضيلة، دون تاريخ طبع.

١٠١ ــ **سنن ابن ماجه**، مطبعة عيسى البابـي الحلبـي بمصر ١٣٧٢ .

١٠٢ ــ **سنن النسائي**، الطبعة المفهرسة، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثالثة ١٤١٥، مكتب المطبوعات الإسلامية.

١٠٣ ــ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٠١.

١٠٤ ــ **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، لابن مخلوف، المكتبة السلفية ومطبعتها بمصر ١٣٤٩.

١٠٥ ــ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، مكتبة القدس بمصر ١٣٥٠.

١٠٦ ــ **شرح ابن يعيش للمفصل**، للزمخشري، تصوير انتشارات ناصر خسرو، طهران، عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

١٠٧ ــ **شرح الإحياء: إتحاف السَّادة المُتَّقين**، للزبيدي، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١١.

١٠٨ ــ **شرح الألفية**، للعراقي، فاس ١٣٠٤، ومصر ١٣٥٥، تصوير دار الكتب العلمية ــ بيروت، دون تاريخ.

١٠٩ ــ **شرح ديوان الحماسة**، للمرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، تصوير دار الجيل ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١.

١١٠ ــ **شرح شرح النخبة**، لعلي القاري، مطبعة صفوت باصطنبول ١٣٢٧.

١١١ ــ **شرح صحيح مسلم**، للنووي، الطبعة المصرية ١٣٤٧.

١١٢ ــ **شعب الإيمان**، للبيهقي، تحقيق أبو هاجر زغلول، الطبعة الأولى ١٤٠١، دار الكتب العلمية ببيروت.

١١٣ ــ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، للقاضي عياض، دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٤٠٤.

١١٤ ــ **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية**، لطاشكبري زاده، تصوير دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٣٩٥.

١١٥ ــ **الشمائل المحمدية**، للترمذي بشرح الباجوري، مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٥٣.

١١٦ ــ **الشوارد**، لعبد الله بن محمد بن خميس، الطبعة الثانية ١٤٠٦، دون ناشر.

١١٧ ــ **الشيب**، لسعيد كامل الكوسا، الطبعة الأولى ١٤٠٦، دار الفكر ــ دمشق.

١١٨ ــ **الصُّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات**، لجميل العظم، عناية رمزي دمشقية، الطبعة الأولى ١٤٢٠، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.

١١٩ ــ **صحيح البخاري بشرح فتح الباري**، المكتبة السلفية بمصر ١٣٨٠.

١٢٠ ــ **صحيح مسلم المطبوع معه شرح النووي**، الطبعة المصرية ١٣٤٧.

١٢١ ــ **الصِّلة**، لابن بشكوال، تحقيق عزت العطار الحسيني ــ القاهرة ١٣٧٤.

١٢٢ ــ **صفة الصفوة**، لابن الجوزي، تحقيق محمد رواس قلعه جي ومحمود فاخوري، دار الوعي حلب ١٣٨٩.

١٢٣ ــ **صفوة البيان**، لحسنين محمد مخلوف، الطبعة الثالثة ١٤٠٧، وزارة الأوقاف بالكويت.

١٢٤ ــ **صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط**، لابن الصلاح، الطبعة الأولى ١٤٠٤، دار الغرب الإسلامي.

١٢٥ ــ **صيد الخاطر**، لابن الجوزي، دار الكتب الحديثة بمصر، دون تاريخ، وطبعة دار الفكر بدمشق ١٣٨٠، في ثلاثة أجزاء.

١٢٦ ــ **الضوء اللامع**، للسخاوي، مكتبة القدسي ــ القاهرة ١٣٥٥.

١٢٧ ــ **طبقات الشافعية**، لابن قاضي شهبة ــ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٩٨.

١٢٨ ــ **طبقات الشافعية الكبرى**، للتاج السبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٢.

١٢٩ ــ **طبقات الشافعية الوسطى**، للتاج السبكي، بالواسطة عن تعليقات «الكبرى».

١٣٠ ــ **طبقات علماء إفريقية وتونس**، للقيرواني، الدار التونسية ١٩٦٨م.

١٣١ ــ **الطبيب العربي ابن النفيس**، د. سلمان قطاية، ١٩٨٤م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت.

١٣٢ ــ **العقد الفريد**، لابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٣٩١.

١٣٣ ــ **عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فمئة فأكثر**، لجميل العظم، المطبعة الأهلية في بيروت ١٣٢٦.

١٣٤ ــ **عُقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد**، للسيوطي، تحقيق أحمد عبد الفتاح تمام وسمير حسين حلبي، الطبعة الأولى ١٤٠٧، دار الكتب العلمية.

١٣٥ ــ **العقود الدرية السلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية**، لمحمد سلطان الخجندي، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار ابن حزم ــ بيروت.

١٣٦ ــ **العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، للمقريزي، تحقيق د. الجليلي، الطبعة الأولى ١٤٢٣، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت.

١٣٧ ــ **العلم**، لأبي خيثمة، تحقيق الألباني، الطبعة الأولى ١٤٢١، مكتبة المعارف بالرياض.

١٣٨ ــ **العلماء العزاب**، لعبد الفتاح أبو غدة، الطبعة السادسة ١٤١٩، مكتب المطبوعات الإسلامية.

١٣٩ ــ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، لابن رشيق المغربي، تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد، الطبعة الثانية ١٣٧٤، مطبعة السعادة بمصر. وتحقيق النبوي شعلان، الطبعة الأولى ١٤٢٠، مكتبة الخانجي بمصر.

١٤٠ ــ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، للعيني، المطبعة المنيرية ١٣٤٨.

١٤١ ــ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، دار الفكر ببيروت ١٣٧٦.

١٤٢ ــ **غاية المقصود لمن يتعاطى العقود**، لأحمد الديربي الغنيمي، تحقيق محمود نصار، الطبعة الأولى ١٤١٠، دار الجيل ــ بيروت.

١٤٣ ــ **فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان**، للسيد الشريف مسعود القناوي، دار الفكر ــ بيروت، دون تاريخ.

١٤٤ ــ **الفتح المواهبي في ترجمة الإمام الشاطبي**، للقسطلاني، تحقيق إبراهيم محمد الجرمي، الطبعة الأولى ١٤٢١، دار الفتح عمَّان.

١٤٥ ــ **الفردوس**، للديلمي، تحقيق السيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى ١٤٠٦، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

١٤٦ ــ **فضائل أبي حنيفة وأصحابه**، لأبي العباس بن أبي العوام (مخطوط).

١٤٧ ــ **فضل علم السلف على الخلف**، لابن رجب، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، الطبعة الأولى ١٤١٦، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.

١٤٨ ــ **الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين**، للقاسمي، الطبعة الأولى ١٤٠٣، دار النفائس ــ بيروت.

١٤٩ ــ **الفقيه والمتفقه**، للخطيب البغدادي، تحقيق عادل العزازي، الطبعة الأولى ١٤١٧، دار ابن الجوزي الدمام.

١٥٠ ــ **الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، لمحمد بن الحسن الحجوي، طبعة الرباط بالمغرب ١٣٤٠، وطبعة النمنكاني بدمشق والقاهرة ١٣٩٦.

١٥١ ــ **الفنون**، لابن عقيل الحنبلي، المكتبة الشرقية في بيروت ١٩٨٦.

١٥٢ ــ **فهرس الفهارس والأثبات**، لعبد الحي الكتاني، الطبعة الأولى ١٤٠٢، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت.

١٥٣ ــ **فوات الوفيات**، لابن شاكر الكتبي، مطبعة بولاق، سنة ١٢٩٩.

١٥٤ ــ **فيض الخاطر**، لأحمد أمين، الطبعة الرابعة لمكتبة النهضة المصرية، دون تاريخ.

١٥٥ ــ **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**، للمناوي، مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٦.

١٥٦ ــ **قصر الأمل**، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولى ١٤١٦، دار ابن حزم ــ بيروت.

١٥٧ ــ **القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف**، لمحمد محمد المدني، الطبعة الأولى ١٣٨٤، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ــ مصر.

١٥٨ ــ **قصيدة عنوان الحكم**، للبستي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الثانية ١٤١٢، مكتب المطبوعات الإسلامية.

١٥٩ ــ **قضية الزَّمن في الشِّعر العربي، الشباب والمشيب**، لفاطمة محجوب ١٩٨٠، دار المعارف ــ مصر.

١٦٠ ــ **القناعة**، لابن السني، دار الرشد بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

١٦١ ــ **القواعد الكبرى**، للعز بن عبد السلام، تحقيق نزيه حماد وعثمان ضميرية، الطبعة الأولى ١٤٢١، دار القلم ــ دمشق.

١٦٢ ــ **الكامل**، لابن الأثير، دار الكتاب العربـي ــ بيروت ١٤٠٣ .

١٦٣ ــ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، للعجلوني، بعناية حسام الدِّين القدسي، الطبعة الأولى ١٣٥١، طبع دار إحياء التراث العربـي ــ بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى.

١٦٤ ــ **كشـف الظنـون مـن أسـامـي الكتـب والفنـون**، لحـاجـي خليفـة طبـع اصطنبـول ١٣٦٠ .

١٦٥ ــ **الكفاية في علم الرواية**، للخطيب البغدادي، الناشر مكتبة النمنكاني بالمدينة المنورة، دون تاريخ.

١٦٦ ــ **كلام الليالي والأيام لابن آدم**، لابن أبـي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار ابن حزم ــ بيروت.

١٦٧ ــ **الكنى والألقاب**، لعباس القُمِّي، مطبعة العرفان بصيدا ــ لبنان ١٣٥٨ .

١٦٨ ــ **كنوز الأجداد**، لمحمد كرد علي، طبعة الترقي بدمشق ١٣٧٠، ودار الفكر بدمشق ١٤٠٤ .

١٦٩ ــ **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، للنجم الغزي، تحقيق جبرائيل سليمان جبُّور، الطبعة الثانية ١٩٧٩، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت.

١٧٠ ــ **كيف تدير وقتك**، د. صلاح الدِّين محمود، الطبعة الأولى ١٤١٧، دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر.

١٧١ ــ **لباب الآداب**، لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد شاكر ١٤٠٠، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

١٧٢ ــ **اللباب في تهذيب الأنساب**، لابن الأثير، مكتبة القدسي ــ القاهرة ١٣٥٧ .

١٧٣ ــ **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، لابن فهد، تعليق الكوثري، مكتبة القدسي ١٣٤٧ .

١٧٤ ــ **لسان العرب**، لابن منظور، طبعة دار صادر ــ بيروت، دون تاريخ.

١٧٥ ــ **لسان الميزان**، للحافظ ابن حجر العسقلاني ــ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٢٩، وبتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى ١٤٢٣، مكتب المطبوعات الإسلامية.

١٧٦ ــ **لفتة الكبد**، لابن الجوزي، بعناية د. مروان قباني، الطبعة الأولى ١٤٠٢، المكتب الإسلامي ــ بيروت، وبعناية بسام الجابي، الطبعة الأولى ١٤١٤، دار ابن حزم ــ بيروت.

١٧٧ ــ **مؤلفات ابن الجوزي**، لعبد الحميد العلوجي، طبع وزارة الثقافة العراقية ببغداد ١٣٨٥.

١٧٨ ــ **المثل السائر**، لابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، الطبعة الثانية ١٤٠٣، دار الرفاعي بالرياض.

١٧٩ ــ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٢.

١٨٠ ــ **المجموع**، للنووي، تحقيق محمد نجيب المطيعي، الطبعة الأولى دون تاريخ، مكتبة الإرشاد جدة.

١٨١ ــ **المحمدون من الشعراء**، للقفطي، تصوير دار ابن كثير ــ دمشق، سنة ١٩٨٨م.

١٨٢ ــ **مختار العقد الفريد**، دون مؤلف، ١٤٠٨، مؤسسة عز الدِّين للطباعة والنشر ــ بيروت.

١٨٣ ــ **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، لابن منظور، الطبعة الأولى ١٤٠٤، دار الفكر ــ دمشق.

١٨٤ ــ **مدارج السالكين**، لابن القيم، مطبعة السنَّة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٥.

١٨٥ ــ **مراتب النحويين واللغويين**، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ القاهرة ١٩٥٥.

١٨٦ ــ **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، لأبي شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاج ١٣٩٥، دار صادر ــ بيروت.

١٨٧ ــ **المزهر في علوم اللغة**، للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد وآخرين، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، دون تاريخ.

١٨٨ ــ **المسارعة إلى قيد أوابد المطالعة**، لجميل العظم، تحقيق رمزي دمشقية، الطبعة الأولى ١٤٢٤، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.

١٨٩ ــ **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري ــ حيدرآباد الدكن بالهند ١٣٣٤.

١٩٠ ــ **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد،** للدمياطي، تحقيق محمد مولود خلف، الطبعة الأولى ١٤٠٦، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

١٩١ ــ **مسند الإمام أحمد بن حنبل،** المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣.

١٩٢ ــ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير،** للفيومي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٦٨.

١٩٣ ــ **المعاصرون،** لمحمد كرد علي، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١.

١٩٤ ــ **المعتمد في الأدوية المفردة،** للملك المظفر يوسف بن عمر الغسَّاني، صححه وفهرسه مصطفى السقا، ١٤٠٢، دار المعرفة ــ بيروت.

١٩٥ ــ **معجم الأدباء،** لياقوت الحموي، دار المأمون بمصر ١٣٥٥، وتحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى ١٩٩٣، دار الغرب الإسلامي ــ بيروت.

١٩٦ ــ **معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة،** لمحمد العدناني، الطبعة الثانية ١٩٨٦، مكتبة لبنان.

١٩٧ ــ **معجم الشيوخ،** للذهبي، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى ١٤٠٨، مكتبة الصدِّيق بالطائف.

١٩٨ ــ **المعجم الكبير،** للطبراني، طبع وزارة الأوقاف في بغداد ١٣٩٨.

١٩٩ ــ **المعجم الوسيط،** تأليف مجموعة من اللغويين، الطبعة الرابعة ١٤٢٤، مكتبة الشروق الدولية ــ مصر.

٢٠٠ ــ **المعرفة والتاريخ،** ليعقوب الفسوي، مطبعة الإرشاد ــ بغداد ١٣٩٤، وتصوير مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

٢٠١ ــ **مفاتيح الغيب،** لفخر الدِّين الرازي، المطبعة البهية المصرية، دون تاريخ.

٢٠٢ ــ **مفتاح السَّعادة ومصباح السِّيادة،** لطاش كبري زاده، الطبعة الأولى ١٤٠٥، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٠٣ ــ **مقالات الكوثري،** مطبعة الأنوار بمصر ١٣٧٣.

٢٠٤ ــ **المقتضب من كتاب تحفة القادم،** للبِلِّفِيقي، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية ١٤٠٣، دار الكتاب اللبناني ــ بيروت.

٢٠٥ ــ **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق د. حامد الطاهر، الطبعة الأولى ١٤٢٥، دار الفجر للتراث ــ القاهرة.

٢٠٦ ــ **مقدمة ابن الصلاح**، تحقيق نور الدِّين عتر، الطبعة الأولى، المطبعة العلمية بحلب ١٣٥٠.

٢٠٧ ــ **من بدائع الحكم**، لأحمد قلاش، الطبعة الثانية ١٤٢٤، مكتبة دار العرفان ــ حلب.

٢٠٨ ــ **من غاب عنه المطرب**، للثعالبي، تحقيق يونس السامرائي، الطبعة الأولى ١٤٠٧، عالم الكتب ــ بيروت.

٢٠٩ ــ **مناقب الإمام أبي حنيفة**، لحافظ الدِّين الكردري، مع «**المناقب**»، للموفَّق المكي، ١٤٠١.

٢١٠ ــ **مناقب الإمام أبي حنيفة**، للموفق المكي، دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٤٠١.

٢١١ ــ **مناقب الإمام أحمد**، لابن الجوزي، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤، ومكتبة الخانجي بمصر، بتحقيق عبد الله التركي ١٣٩٩.

٢١٢ ــ **منبر الجمعة**، لمحمد عبد الحكيم خَيَّال، المجموعة الأولى، دار الدعوة ــ مصر، دون تاريخ.

٢١٣ ــ **المنتحل**، للثعالبي، تصحيح أحمد أبو علي، تصوير مكتبة الثقافة الدِّينية ــ القاهرة، دون تاريخ.

٢١٤ ــ **المنتخب من السِّياق لتاريخ نيسابور**، للإمام عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، انتخاب إبراهيم بن محمد الصريفيني، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، الطبعة الأولى ١٤٠٩، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢١٥ ــ **المنتخب من كتاب الزُّهد والرَّقائق**، للخطيب البغدادي، تحقيق د. عامر صبري، الطبعة الأولى ١٤٢٠، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.

٢١٦ ــ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، لابن الجوزي ــ حيدرآباد الدكن ١٣٥٧.

٢١٧ ــ **المنهج الأتم في تبويب الحكم لابن عطاء السكندري**، لعلاء الدِّين الهندي، عناية حسن السماحي سويدان، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار القادري ــ دمشق.

٢١٨ ــ **الموسوعة الفقهية الميسرة**، د. محمد رواس قلعه جي، الطبعة الأولى ١٤٢١، دار النفائس ــ بيروت.

٢١٩ ــ **الموشى**، للوشاء، دار صادر ــ بيروت ١٤١٨.

٢٢٠ ــ **موضح أوهام الجمع والتفريق**، للخطيب البغدادي ــ حيدرآباد الدكن ١٣٧٨.

٢٢١ ــ **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ــ القاهرة، دون تاريخ.

٢٢٢ ــ **نزهة الألباب في الألقاب**، لابن حجر، تحقيق عبد العزيز السديري، الطبعة الأولى ١٤٠٩، مكتبة الرشد بالرياض.

٢٢٣ ــ **نفح الطيب للمقري**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ــ بيروت ١٣٨٨.

٢٢٤ ــ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٣.

٢٢٥ ــ **النوادر**، لأبي زيد الأنصاري، تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد، الطبعة الأولى ١٤٠١، دار الشروق ــ مصر.

٢٢٦ ــ **النُّور السَّافر عن أخبار القرن العاشر**، لعبد القادر بن شيخ العيدروس، الطبعة الأولى ١٤٠٥، دار الكتب العلمية.

٢٢٧ ــ **نور القَبَس المختَصرِ (المقتبَس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء العلماء)**، لليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، الطبعة الأولى ١٣٨٤، فرانشتس شتانيز ڤيسبادن ــ ألمانيا.

٢٢٨ ــ **نيل الأوطار**، للشوكاني ١٣٤٧، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر.

٢٢٩ ــ **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، لابن قيم الجوزية، المطبعة المنيرية بمصر ١٣٧٥.

٢٣٠ ـ **الوافي بالوفيات**، للصفدي، طبعة فرنز في تركيا ١٣٨١.

٢٣١ ـ **الوحشيات (الحماسة الصغرى)**، لأبي تمام، تحقيق عبد العزيز الميمني، الطبعة الثالثة. دون تاريخ، دار المعارف ـ مصر.

٢٣٢ ـ **وصية ابن قدامة**، تحقيق د. محمد يوسف الشربجي، الطبعة الأولى ١٤١٧، دار الكلم الطيب ـ دمشق.

٢٣٣ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠.

٢٣٤ ـ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد، الطبعة الثانية ١٣٧٥، المكتبة التجارية بالقاهرة.

* * *

٨ ــ الموضوعات والفوائد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

أبياتٌ نفيسةٌ مِن ظُهُورِ الكُتُب[١]

جرت عادةُ بعض العلماء السابقين، أن يسجلوا على ظهور الكتب ما يهمهم معرفتُه أو حِفظُه، من فائدةٍ علمية نادرة[٢]، أو كلمةٍ ناصحة نافعة[٣]، أو جملةٍ مأثورة غالية، أو حقيقةٍ مهولة نفيسة، أو غلطٍ من عالم كبير، أو تصحيحٍ لخطأ خطير.

وأن يسجلوا أيضاً ما يهمهم من تاريخِ ولادةِ وليد[٤]، أو وفاةِ عزيز

---

(١) كان الوالد رحمه الله جعل هذه الأبيات في الطبعة السابقة آخر الكتاب في صفحتين «تسجيلاً لهذه الثروة الأدبية المنتخبة»، ثم زادت هذه الثروة حتى غدت ضميمة مليئة. والحمد لله ربّ العالمين. س.

(٢) ومن تلك الفوائد: قال كُلثُوم بن عَمْرو العَتَّابي: لو سَكَتَ من لا يَعلم عما لا يَعلم، لسَقَط الاختلاف.

(٣) ومن ألطف ما كُتِبَ ووقفتُ عليه من الكلمات الناصحة: قولُ سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «أعقَلُ الناس رجلٌ أذْنَبَ ذَنْباً، فنَصَب ذاك الذنبَ بين عينيه، وبكى عليه، حتى أورده الجنة، وأحمَقُ الناس رجلٌ أُعجِبَ بِعَمَلِه، فَنصبه بين عينيه، حتى أورده النار».

قلت: وما أكثَرُ المَرْضَى المعجَبِين بأنفسهم اليوم؟! [والنص موجود في «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار ٣: ١٢].

(٤) انظر مثالاً لذلك نسخة المتحف العراقي حرسه الله من كتاب «من غاب عنه المطرب» للثعالبي. وهي في المطبوع، ص ٢٨. س.

أو كبير أو قريب، وأن يسجلوا بعضَ الأخبار الطريفة الوجيزة، وبعضَ الأشعار اللطيفة البليغة، أو الغَزَلِيَّةِ البارعة، أو الحِكَمِيَّةِ السائرة، أو نحوَ هذا، وما يسجلون إلاَّ شيئاً منخوباً مختاراً نفيساً عندهم، لسُموٍّ معناه وجودةِ مبناه.

يسجلونها على وجه الكتاب، أو ظهره، أو في ورقته الأولى أو الأخيرة من داخله، لئلا تشرد منهم، أو ليتذكروها، أو يتذكروا قائلها، أو مناسبتها، كلَّما نظروا في الكتاب، أو ليَستظهِرُوها ويحفظوها بتكرارِ النظر إليها، لإعجابهم بها، لأنها أخَذَتْ بشَغَافِ قلوبهم، ولمَسَتْ صادقَ شعورهم، إذْ عبَّرت عما تُكِنُّه نفوسُهم بأوفى التعبير وأبلغ الألفاظ، من حالِ حُزْنٍ أو سُرورٍ، أو هَجْر أو وَصْل، أو يُسر أو فقر، أو مَدْح أو قدح، أو فِراق أو لقاء، أو وصفِ جميلٍ أو ثقيل، أو فقدِ أليف، أو شَوْقٍ إلى خَدِينٍ بعيد...

وإذا استقرَأَ المرءُ هذه المنخوبات المكتوبات على ظهور الكتب ودَوَّنها، وجدها تبلغ في كل موضوع منها جُزْءاً مستقلاً، وقد كان للوزير جمال الدين القِفْطي ثم الحلبي (علي بن يوسف)، المولود سنة ٥٦٨، والمتوفى بحلب سنة ٦٤٦ رحمه الله تعالى، اهتمامٌ بالغ وحُبٌّ عارم باقتناء الكتب ومطالعتها، فكانت تُجبَى إليه من كل مكان، وتُعرض عليه من كل تاجر للكتب، فيَصطفيها ويَقتنيها، ويُطالعها، ويُعزِّزُ علمَهُ ومكتبتَهُ العظيمةَ بها. وقد لَفَتَ انتباهَهُ كثرةُ ما رآه من شوارد الفوائد مكتوباً عليها، فألَّف منها كتاباً سمَّاه «نُهْزَة الخاطر[١]،

---

(١) النُّهْزَة: الفُرْصة.

ونُزْهَة الناظر، في أحسنِ ما نُقِلَ مِن عَلَى ظُهورِ الكتبِ والدفاتر»[١].

[وقد حذا حذوه في قرننا هذا الأديب الأريب جميل بن مصطفى العظم الدمشقي المتوفى سنة ١٣٥٢ رحمه الله تعالى، إذ جمع كتاباً يقرب من ثمانين صفحة أسماه: «الصُّبابات فيما وجدتُه على ظهور الكتب من الكتابات»، وهو موجود بخطه الرشيق وتنسيقه الأنيق في المكتبة الظاهرية بدمشق، وطبع مؤخراً سنة ١٤٢٠ عن دار البشائر الإسلامية العامرة ببيروت، بعناية صاحبها رمزي دمشقية رحمه الله وغفر له].

ومَرَّ بـي ـ ويَمرُّ ـ كثيرٌ من شوارد الفرائد مكتوباً على ظهور بعض الكتب المخطوطة أو في داخلها، وعلى وجوه بعض الكتب المطبوعة أو في آخرها، مكتوباً من قارئيها أو مالكيها، فكنتُ أسجله في دفتر حيناً، وأتركه حيناً، بقدر نشاطي وفراغي، ثم بدا لي أن أُسجِّلَ الأشعارَ منه بوجهٍ أخصَّ ـ لأنها على الغالب تكون منتخبة رائقة، فكم من بيت أغنى عن قصيدة، أو صفحاتٍ من نثر بليغ ـ وأطبَعَها في أواخر بعضِ كتبـي، لتكون في ظهور الكتب من داخلها.

وأوصي إخوتي طلبةَ العلم، أن يحفظوا هذه الأبياتِ وما كان على مثلها، من المفردات، فهي عون لحافظها، وجَمالٌ للافظها، وأدَبٌ لمُورِدها، وشَرَفٌ لعالِمها، فكم من بيتٍ كان الفَيْصَلَ في بابه، والحَكَمَ في مِحرابه، وشَفَى الغليل، وقَطَعَتْ به جَهيزة قولَ كلِّ خطيب، وأغنى في مَوْضِعِهِ وموضوعِهِ عن صفحاتٍ طوالَ.

وهـي غـالبـاً تكـون مـن الحِكـم الغـوالـي، والأقـوالِ البليغـة، والأبيـاتِ

---

(١) «معجم الأدباء» لياقوت ١٥ : ١٨٧ .

السائرة، والغزلياتِ الرقيقة، والمفرداتِ الممتعة. . . ، وفي بعضها من لَمَحاتِ الخواطر وخَلَجات القلوب، ما يَتعجَّبُ الفطِنُ الذكيُّ منه، كيف صِيْغَتْ معانيه الدقيقةُ بألفاظِهِ الرقيقةِ في ذلك البيت، وفي بعضها نَفَحات وعَبَقات، فأبدَأُ هنا ــ في هذا الكتاب ــ بإيراد بعضِ ما وقفتُ عليه من تلك الأشعار، تسجيلاً لهذه الثروة الأدبية المنتخَبَة، والله ولي التوفيق.

فوائد هذه الأبيات

وقال بعض الفضلاء ممن وقفوا على ما نشرته من الأبيات النفيسة في آخر كتابي «قيمة الزمن عند العلماء»، في طبعتِهِ الخامسة: حبذاً لو زدتنا من هذه الفرائد والفوائد، وفيها ما يكبت أعداءك ويسر أصدقاءك، وربما لو لم تخرجها من الخاطر وتسجلها في الدفاتر، لذهبت ونُسيت كأمس الدابر، فوقع مني هذا القول موقع القبول والاستحسان.

وأُورِدُها هنا مضمومة إلى (الطَّاقَةَ الثانية)، مشيراً إلى بعض فوائد هذه الأبيات المفردات، إلى جانب ما أشرتُ إلى بعض فوائدها سابقاً.

فبعضُ هذه الأبيات: يغني إنشادُه أو الاستشهاد به ــ في كثير من الأحيان ــ عن رَدٍّ على مُتَعَالِمٍ مصروع، أو سَخِيفٍ مفقوع، أو يكبتُ الحاسِدَ المصدوع، أو يُسلي الحزين المفجوع، أو يواسي المحروم المقطوع.

وبعضُ هذه الأبيات: مما يُذكي العقل، ويَشحذ الذهن، ويُرهف الذوقَ والشعور، وَيَعْلُو بالسامع أو القارىء إلى الأفق العالي الرفيع، في خَلَجاتِ قَلْبه، ونَبَضَاتِ حُبِّه، فيتعجَّبُ المرءُ من بلاغتها وصياغتها، ورَوْعَةِ معانيها وصُورِتِها، وكثيرٌ منها ما كانت تكونُ لولا لَواعجُ تَفيضُ بها الروح، ويَتدفَّقُ بها الشعورُ الباطن، فتكونُ أدقَّ من الشَّعْر، وأرقَّ من النسيم البليل، وأحْلَى من أَمْنِ

بعدَ خوف وبُرْءٍ بعدَ سُقْم، وخِصْبٍ بعدَ جَدْب، وغِنًى بعدَ فَقْر، ومن إطاعةِ المحبوب، وفَرَجِ المكروب.

وبعضُ هذه الأبيات: مما يُثير البسمةَ والضحك، ويُشيعُ الدُّعابة والمَرَح، وفائدة هذا غاليةٌ مهمة، ذلك أن النشاط الإنساني يَتجدَّدُ بالبَسْمَةِ والفَرْحة، ويَقْوَى بالانشراح والنَّشْوَة، والإنسانُ بطبيعته يميلُ إلى ذلك، لأنه لا يَحتمِلُ الجِدَّ المتواصل «رَوِّحُوا هذه القلوبَ ساعةً فساعة»[١].

أما ذكرُ النساء في بعضها فلم يجد العلماءُ فيه حرجاً، إذا كان في حدود الضوابط الشرعية التي بيَّنها الفقهاء، أخذاً من سيرةِ النبي الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم وسيرةِ أصحابه رضي الله عنهم، فقد سَمِعَ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قولَ الصحابيِّ الجليل كعب بن زهير رضي الله عنه في مسجده الشريف بمحضر من أصحابِهِ الكرام:

بانَتْ سُعادُ فقَلْبِي اليومَ مَتبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكبُولُ

فأقرَّه، ولو كان ذِكرُ النساءِ في الشِّعر ــ ضِمْنَ حدودِهِ المقرَّرة ــ منكراً، لكان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّلَ من أنكره. وكثيرٌ من ذلك الشعر الغَزَلي الرقيق قاله الأئمةُ الأعلام، المشهودُ لهم بالدين والورع والتقوى، من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمؤرخين والأدباء والصوفية والعباد والزهاد...، ولو ذهبتُ أسرُدُ أسماءَهم لما وَسِعَها صفحات.

---

(١) هذه حكمة، لا تصح حديثاً من قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. لكن لها شاهد في «صحيح مسلم» كما ذكر الحافظ العجلوني في «كشف الخفاء» ١: ٤٣٥، قال رحمه الله: «رواه الديلمي وأبو نعيم والقُضَاعي عن أنس رفعه، وفي رواية: (القلب) بالإفراد، ويشهد له ما في «مسلم» وغيره من قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «يا حَنْظَلَة. ساعة وساعة»...». انتهى. س.

وفي بعض الأبيات ما وَقع أو يَقَعُ موقعَ المَثَل، فيحتوي إيجازَ اللفظ، وإصابةَ المعنى، وحُسنَ التشبيه، وفي بعضها تصويرٌ رائعٌ لمرَازِي الدهر وحَدَثَانِه، ودُوَلِه الجالبة للمحبوب والمكروه، وتنقُّلِه بأهلِه، وللرثاء والفراق ودموع اللقاء وللدواهي العِظام تَقَع على الإنسان، فيصبر عليها أو يضجر منها.

وفي بعض الأبيات مبالغاتُ الشعراء وكناياتُهم، وهي مُبالغاتٌ مستعذَبَة، وكناياتٌ مهذَّبة، تُبدِّدُ القَتَامَةَ والخُمولَ في النَّفْس، وتُبدِلُ بهما الارتياحَ والانبساط. . . ، فلذا أخَذتُ منها ما كان شائقاً عند قراءته، نَفَّاذاً عند سَمَاعِهِ، عفيفاً في لفظِهِ، جميلاً في مبناه ومعناه، نافعاً في غَرَضِهِ وموضوعه، وترتاحُ إليه النفس، ويتغذَّى به العقل، وتسمو به العاطفة، ويَزيدُ الذهنَ زَكانَةً وفَطَانَة.

واقتَصرتُ في عملي على جمعِها وتدوينِها، دون تبويب أو تصنيف لها، لتكون ذاتَ أفنان: من كل شَجَرَةٍ ثَمَرة، ومن كل حديقةٍ زَهَرة، واكتفيتُ بضبطِها وشكلِها لتكون من أدواتِ تقويم اللسان العربـي، وما وجدتُ اسمَ قائلِه معه ذكرتُهُ لزيادة الفائدة.

الإحماض ينشط النفس لمعاودة طلب العلم

ولهـذه الأشعـار المختـارةِ وأمثـالِهـا وَقْـعٌ محبَّـب فـي النفـس، تستحبُّـه وتستطيبُه وتَنشَطُ به، ولهذا كان التابعي الجليل الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى، في آخر مجالسه التي يُحدِّثُ بها أحاديثَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ويرويها لأصحابه وتلامذته، يقول لهم: «هاتوا من أشعاركم وأحاديثكم، فإن الأُذُنَ مَجَّاجة، وإنَّ للنفس حَمْضَة»[1].

وقبلَهُ كان الصحابـي الجليل الحَبْرُ البَحْرُ عبد الله بن عباس رضي الله

(١) كما في ترجمته في «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبـي ٥ : ٣٤١.

عنهما، يحدِّثُ أصحابَه ويروي لهم عن النبـي صلَّى الله عليه وسلَّم، ويفسِّر لهم من كتاب الله تعالى، ثم يقول لهم في ختام مجلسه: حَمِّضُونا حمِّضونا. يريد منهم ذكرَ الأشعار والأخبار، فإنها تنزلُ من النفس منزلة الفاكهة بعدَ الطعام.

قال العلامة ابن الأثير رحمه الله تعالى في «النهاية في غريب الحديثِ والأثر»[1]، في (حمض): «في حديث ابن عباس: كان يقولُ إذا أفاض مَنْ عندَهُ في الحديث بعدَ القرآن والتفسير: أَحْمِضُوا. يقال: أَحمَض القومُ إحماضاً إذا أفاضوا فيما يُؤنسُهم من الكلام والأخبار. والأصلُ فيه الحَمْضُ من النبات، وهو للإبل كالفاكهة للإنسان، فإن الإبل إذا مَلَّتْ رعيَ الخُلَّةِ ــ وهو الحُلو من النبات ــ اشتهت الحمضَ فتحوَّلَتْ إليه، لمَّا خاف عليهم المَلالُ أحبَّ أن يُريحهم، فأمَرَهم بالأخذ في مُلَح الكلام والحكايات.

ومنه قول الزهري: الأُذُنُ مَجَّاجة، وللنفس حَمْضة. أي شهوة كما تشتهي الإبلُ الحمض. والمجَّاجَةُ: التي تَمْتَجُّ ما تَسمَعُهُ فلا تَعيه، ومع ذلك فلها شهوة في السماع».

نخب من أذواق الرجال

وهذه الأبيات والكلمات هي نُخَبٌ من أذواق الرجال سطّروها على ظهور الكتب والدفاتر، كما تُحَلَّى الجارية الحسناء بالدُّرِّ والجواهر، حكى العلامة الأديب المعافَى بن زكريا النهرواني رحمه الله تعالى، في كتابه النفيس «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي»[2]، قال: «حدثنا محمد بن

(١) ١: ٤٤١.

(٢) ٢: ٢٣٨. [و «تقييد العلم» للخطيب البغدادي، ص ١٤١].

الحسين بن زياد المُقري، قال: حدثنا أبو خليفة الفضلُ بن الحُبَاب:

أنَّ أبا زيد الأنصاري[١] رأى رجلاً حسَنَ العلم، كثيرَ الرواية، جيِّدَ الحفظِ لمُلَح الأخبار، لا يتمثَّلُ إلاَّ بحَسَن، ولا يَستشهد إلاَّ بجيِّد، فقال: كأنَّ علمه ــ والله ــ من ظهور الدفاتر.

قال المعافى: يريد به أن ظهور الدفاتر لا يكتب عليها إلا الأحسن».

وجاء في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي[٢]، في ترجمة أبـي عُمَر الزاهد غلام ثعلب (محمد بن عبد الواحد بن أبـي هاشم) المطرِّز اللغوي، المولود سنة ٢٦١، والمتوفى سنة ٣٤٥ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«قال الخطيب: حكى لي رئيس الرؤساء، شرف الوزراء أبو القاسم علي بن الحسن، عمّن حدثه، أنَّ أبا عُمَر الزاهد كان يؤدِّبُ ولدَ القاضي أبـي عُمَر محمد بن يوسف، فأملَى يوماً على الغلام نحواً من ثلاثين مسألة في اللغة، وذكَرَ غريبَها، وختَمها ببيتين من الشعر، وحضر أبو بكر بن دُرَيْد، وأبو بكر بن الأنباري، وأبو بكر بن مِقْسَم عند أبـي عُمَر القاضي، فَعَرَض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منها شيئاً، وأنكروا الشعر.

فقال لهم القاضي: ما تقولون فيها؟ فقال له ابنُ الأنباري: أنا مشغول بتصنيف «مُشكِلِ القرآن»، ولستُ أقول شيئاً. وقال ابنُ مِقْسَمٍ في ذلك، واحتَجَّ باشتغاله بالقراءات. وقال ابنُ دُريْد: هذه المسائل من موضوعاتِ أبـي عُمَر، ولا أصلَ لشيءٍ منها في اللغة.

وانصرفوا، وبلغ أبا عُمَر ذلك، فاجتمع مع القاضي، وسأله إحضارَ

---

(١) هو سعيد بن أوس، العلامة النحوي اللغوي، تقدم ذكره، ص ٦١.

(٢) ٢: ٣٥٨.

دواوينِ جماعةٍ من قُدَماءِ الشعراء عيَّنهم له، ففتح القاضي خزائنَهُ وأخرج له تلك الدواوين، فلم يزل أبو عُمَر يعمدُ إلى كل مسألة ويُخرج لها شاهداً من بعضِ تلك الدواوين ويَعرِضُه على القاضي حتى استوفى جميعها.

ثم قال: وهذان البيتان أنشدناهُمَا ثعلبٌ بحضرَةِ القاضي **وكتبَهما القاضي بخطه على ظهرِ الكتاب الفلاني، فأحضر القاضي الكتابَ، فوجد البيتين على ظهره بخطه كما ذكر أبو عُمَر**، فانتهت القصة إلى ابن دريد، فلم يذكر أبا عمر بلفظة حتى مات».

كتابة الأسماء على البساط

ومما يناسب ذكره في هذا المقام ما أورده الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى، في كتابه «ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك»[1]، في ترجمة الإمام الفقيه المحدِّث أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب «الرسالة» الفقهية المالكية المشهورة، المولود سنة ٣١٠، والمتوفى سنة ٣٨٦ رحمه الله تعالى: أنه كان يَجمَعُ إلى العلم صلاحاً تاماً وَوَرَعاً وعفة، وحاز رئاسةَ الدين والدنيا، ثم قال:

«قال أبو القاسم اللَّبِيدي: اجتمع عيسى بنُ ثابت العابد بالشيخ أبي محمد بن أبي زيد، فجرى بينهما بُكاءٌ عظيم وذِكْر، فلما أراد عيسى فراقَ أبي محمد قال له عيسى: أحبُّ أن تكتُبَ اسمي في البِساطِ الذي تحتك، فإذا رأيتَهُ دعوتَ لي، فبكى أبو محمد وقال لعيسى: قال الله تعالى: **﴿إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطيبُ والعمَلُ الصالحُ يَرفعُهُ﴾**، فهَبْنِي دعوتُ لك، فأين العمَلُ الصالحُ يَرفعُه؟!». انتهى.

ما أحلى تواضع العلماء الصالحين، نفعنا الله بحُبِّهم.

---

(١) ٦: ٢٢٠.

هذا الخبر ليس فيه ذكر الكتابة على ظهر الكتاب، وذكرته لما فيه من طلب تسجيل الاسم على البساط ليَتَذَكَّرَ به صاحبه راجي دعائه فيدعو له، وكثيراً ما يكتبون الشيء على ظهر الكتاب لتذكره، فهذا الخبر المرقَّقُ من هذا القبيل.

كتابة الأشعار على الشجر

وإلى جانب الكتابة على ظهور الكتب والدفاتر، نجد كتب الأدب حافلة بما كُتب على الجدران، ولكن بعض المتأدبين كان يكتب الشعر على الشجر، وهو لعمري أعلى من ظهور الدفاتر، فلا يطلع على الكتب إلَّا قليل لا يقارن بمن يمر بالمتنزهات فيتأمل تلك الأشعار ويتدبر هاتيك الأمثال.

قال العلامة ياقوت الحموي رحمه الله تعالى، في «معجم البلدان»[1]، ما يلي:

«بَوّان: بالفتح، وتشديد الواو، وألف، ونون: في ثلاثة مواضع؛ أشهرُها وأسيَرُها ذكراً شِعبُ بوّان بأرض فارس بين أرجان والنُّوبَنْدَجان، وهو أحد متنزهات الدنيا، قال المسعودي، وذكر اختلاف الناس في فارس فقال: ويقال إنهم من ولد بَوَّان بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح، عليه السلام، وبوّان هذا هو الذي ينسب إليه شِعْبُ بَوَّان من أرض فارس، وهو أحد المواضع المتنزهة المشتهرة بالحُسْنِ وكثرةِ الأشجار وتدفقِ المياه وكثرةِ أنواع الأطيار، قال الشاعر:

فشِعْب بوَّانَ فوادي الراهِبْ، فثَمَّ تُلْقَى أرحُلُ النجائِبْ

---

(١) ١: ٥٠٣ ــ ٥٠٤. [وبعض ما أورده العلامة موجود في «الأمالي» لأبي علي القالي ٣: ١٢٨، و «زهر الآداب» للحُصْري ٤: ١٠٢٠].

وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنه من متنزهات الدنيا، وبعضٌ قال: جنانُ الدنيا أربعة مواضع: غُوطة دمشق، وسُغْدُ سمرقند، وشِعْبُ بَوَّان، ونهرُ الأُبُلَّة، وقالوا: وأفضلها غُوطَةُ دمشق[1]. وعن المبرّد أنه قال: قرأتُ على شجرة بِشعْب بَوَّان:

إذا أشرَفَ المحزونُ من رأسِ تلْعةٍ ... على شِعْبِ بَوَّانَ استراحَ من الكَرْبِ
وألهاهُ بَطْنٌ[2] كالحَريرة مَسُّهُ ... ومُطرّدٌ يجري من الباردِ العَذْبِ
وطيبُ ثِمارٍ في رياضٍ أَريضَةٍ ... على قُرب أغصانٍ جَناها على قُرْبِ
فبالله يا ريحَ الجَنُوبِ تحمَّلي ... إلى أهلِ بغدادَ[3] سَلامَ فتًى صَبِّ

وإذا في أسفل ذلك مكتوب:

ليتَ شِعري عن الذين تَرَكْنا ... خَلْفَنا بالعراقِ هل يَذكُرونا
أم لعلَّ المَدَى تطاوَلَ حتى ... قَدُمَ العهدُ بعدَنا فنَسُونا؟

وذكر بعض أهل الأدب أنه قرأ على شجرة دُلْب تظلل عيناً جارية بشِعْبِ بَوَّان:

متى تَبْغِني في شِعبِ بَوَّانَ تَلْقَني ... لدَى العينِ مشدودَ الرِّكابِ إلى الدُّلْبِ
وأعطِي وإخواني الفُتوَّة حقَّها ... بما شِئتَ من جِدٍّ وما شِئْتَ مِن لِعْبِ

وذكر لي بعض أهل فارس أن شعب بوَّان وادٍ عميق، والأشجار والعيون التي فيه إنما هي من جَلْهَتَيه[4]، وأسفل الوادي مضايق تجتمع فيها تلك المياه

---

(١) تقدَّم ذلك ص ١٩٧ . س.

(٢) يريد بطن الوادي. أي: وَسْطه. س.

(٣) في «الأمالي» و «زهر الآداب»: إلى شعْب بَوَّان. س.

(٤) الجَلْهَة: إحدى حافتَي الوادي، وهما بمنزلة الشَّطَّين. «المعجم الوسيط». س.

وتجري، وليس في أرض وطيئة البَتّة بحيث تُبْنى فيه مدينة ولا قرية كبيرة، وقد أجاد المتنبي في وصفه فقال:

مَغاني الشِّعبِ طِيباً في المغاني ... بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ[1]

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليَدِ واللسانِ[2]

ملاعبُ جِنَّةٍ لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بتُرجُمَانِ[3]

طَبَتْ فُرسانَنا والخيلَ حتى ... خشيتُ، وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ[4]

غَدَوْنَا تنفُضُ الأغصانُ فيها ... على أَعرافِها مثلَ الجُمانِ[5]

---

(١) المغاني: المنازل. والمَغْنَى: المكان الذي استغنى فيه أهله. طيباً: تمييز منصوب. يريد: منازل هذا المكان بين منازل الدنيا بمنزلة الربيع بين فصول السنة، يعني أنها تفضل سائر الأمكنة طيباً كما يفضل الربيع سائر الأزمنة. وشرح هذا البيت وبقية الأبيات من إضافة العبد سلمان مستفاداً من شروح «الديوان».

(٢) يريد نفسه أنه غريب الوجه لا يعرفه أحد هناك، وغريب اليد لا مِلك له، وغريب اللسان لأنه عربي وهم عجم.

(٣) الجِنَّةُ: الجِنُّ. يريد أن الشِّعب لطيبه وطرب أهله ملاعب، وأهله لشجاعتهم جنة، لكن لغتهم غريبة، حتى لو أن سليمان عليه السلام أتاهم لاحتاج مترجماً مع علمه باللغات.

(٤) طبَاه إليه: دعاهُ دعاءً لطيفاً واستماله إليه. والضمير في الفعل هنا (الفاعل) مستتر تقديره هي، يعود إلى المغاني. يريد أن هذه المغاني لطيبها دَعَت فرسانَنا وخيلنا إلى المَقام، حتى خشيتُ على خيلِنا أن تقف، فلا تبرح المغاني ميلاً إليها، وإن كانت كريمة لا يعتريها عيب الحِرَان، وهو وقوف الدابة حين يُطلب جريها.

(٥) الأعراف: جمع عُرْف، وهو عرف الفرس، أي الشعر الذي على ناصيته. يريد أن الشجر في هذه المغاني ينفُض على أعراف الخيل مثل الجمان بعد أن يسقط عليه في الليل الندى. فهذا الشعب كثير الشجر والماء.

فسِـرتُ وقـد حَجَبـن الحَـرَّ عنـي   وجِئنَ من الضياءِ بما كفاني[(١)]

وألقـى الشـرقُ منهـا فـي ثيـابـي   دنـانيـراً تَفِـرُّ مـن البَنَـانِ[(٢)]

لهـا ثَمَـرٌ تُشيـر إليـك منـه   بـأشـربـةٍ وقَفْـنَ بـلا أوانـي[(٣)]

وأمـواهٌ تَصِـلُّ بهـا حَصـاهـا   صَليلَ الحَلْي في أَيدي الغواني[(٤)]

ولـو كـانـت دمشـقَ ثَنَـى عِنـانـي   لَبِيـقُ الثَّـرْدِ صِيْنـيُّ الجفـانِ[(٥)]

يَلَنْجُـوجِـيُّ مـا رُفِعَـتْ لضَيـفٍ   بـه النيـران نَـدِّيُّ الـدُّخـانِ[(٦)]

تَحِـلُّ بـه علـى قلـبٍ شُجـاع   وتـرحَـل منه عـن قلـبٍ جَبـانِ[(٧)]

---

(١) في «الديوان»: الشمس بدلاً من (الحر). يريد أن هذه الأشجار لكثرتها حجبن الشمس عنه، وأعطينه من الضوء ما كفاه.

(٢) الشرق: الشمس. يريد هذه الأغصان تُلقي عليَّ الشمسُ من بينها، قطعاً شبيهةً بالدنانير، لكنها لا تثبت في الأصابع.

(٣) يريد أن هذه الأغصان ثمارُها رقيقة، كأنها أشربة واقفة بلا أواني، لأن ماءها يُرى من تحت قشرها، كما يَبِينُ الماء في الزجاج.

(٤) أمواه: جمع ماء. يريد أن لهذه المغاني مياه يصوّت حصاها من تحتها صوتاً، كصوت الحُلِيّ في أيدي النساء الحسان.

(٥) اللبيق: الحاذق الرفيق بما يعمله، وهو نعت لمحذوف، أي رجل هذه صفته. الثَّرْد: مصدر ثَرَد الخبز إذا فتَّه وبَلَّه بمَرَق. صينيّ: نسبة إلى الصين. الجِفَان: جمع جَفنة وهي القَصْعة (الوعاء الذي يؤكل فيه)، يريد لو كانت هذه المغاني دمشق أي لو كنتُ في غوطة دمشق مكان شعب بوّان لثَنَى عِنان فرسي إليه رجل جيد الثريد ذو قصاع صينية فاخرة.

(٦) يلنجوجي نسبة إلى اليلنجوج وهو العود الذي يتبخر به. والنَّدُّ: ضربٌ من النباتِ يُتبخَّر بعوده. يريد أن هذا الرجل الذي عناه وأشار إليه في البيت السابق وقوده الذي توقد به النيران للضيف من خشب اليلنجوج ودخانه طيب يشم منه رائحة النَّدِّ.

(٧) أي تحل به أيها الرجل على قلب شجاع جريء على الإطعام والقِرى غير بخيل، لأن البخل جبن وهو خوف الفقر، وترحل منه عن قلب جبان خائف فراقك.

منــازلُ لــم يــزلْ منهــا خَيــالٌ … يُشيِّعنــي إلــى النَّــوْبَنْــذَجــان[١]

إذا غَنَّــى الحَمَــامُ الــوُرْقُ فيهــا … أجــابَتْــه أغــانــيُّ القِيــانِ[٢]

ومَن بالشِّعبِ أحوجُ من حَمَامٍ … إذا غَنَّــى ونــاحَ إلــى البيــانِ[٣]

وقــد يتقــارَبُ الــوصفــانِ جــداً … ومــوصُــوفَــاهُمَــا متبــاعِــدانِ[٤]

يقــول بشعــب بَــوَّان حِصــانــي: … أعَــنْ هــذا يُســار إلــى الطِّعَــانِ

فقلــتُ إذا رأيــتُ أبــا شُجــاع … سَلَوتُ عن العبادِ وذا المكانِ»[٥]

الطاقة الأولى من الأشعار

ولم أخْشَ مهما مَسَّني ضُرُّ حادثٍ … فتلك يَدٌ جَسَّ الزمانُ بها نَبْضي

فإن عِشْتُ أدركتُ المَرَامَ وإن أمُتْ … فللّـه مِيـراثُ السمـواتِ والأرضِ

* * *

(١) النوبنذجان: بلد بفارس. وهو بالدال والذال.

(٢) الوُرْقُ: جمع ورقاء وهي الحمامة التي في لونها بياض إلى سواد. والقِيان: جمع قَيْنة وهي الأَمَة صانعة أو غير صانعة والماشطة. ثم غلب اللفظ على الأَمَة المُغَنِّيَة. يريد لطيب هذه المنازل اجتمعت فيها أصوات الحمام والقيان يجاوب بعضها بعضاً.

(٣) يريد أهل الشعب أحوج إلى البيان من حمامه في غنائه ونواحه، لأنهم أعاجم لا يفهم العربي كلامهم. وهذا اعتداد ممجوج.

(٤) يريد أن كلا أهل الشعب والحمام أعاجم، فتقارب وصفهما، لكن أهل الشعب إنس، والحمام طير فالموصوف متباعد. وفي هذا البيت ما في سابقه من الزهو، مع كونه بمفرده حكمة.

(٥) أبو شجاع عضد الدولة وهو ممدوحه في هذه القصيدة. يريد إذا رأيت أبا شجاع نسيت العباد والبلاد، ووجدت من طيب الإقامة عنده ما يسليني عن الناس بأسرهم، وعن هذا المكان الذي وصفت. وشرح الأبيات مستفاد من شروح «ديوان المتنبي» كما تقدَّم. س.

أُوصِيكَ أُوصِيكَ فاسْمَعْ ما أُقَرِّرُهُ ... فقد نَصَحْتُك خِلِّي نُصحَ مُعْتَذِرِ
لا تَـرْكَنَـنَّ إلـى مَـنْ لَسـتَ تَعـرِفُـهُ ... ومَنْ عَرَفتَ فكُنْ منهُ على حَذَرِ[1]

* * *

قال أبو نصر أحمد بن علي الزَّوْزَني :

ولا أقبَـلُ الـدُّنيـا جميعـاً بـذِلَّـةٍ ... ولا أَشتري عِزَّ المَراتِبِ بالذُّلِّ
وأعْشَـقُ كَحْـلاءَ المَـدامِـعِ خِلْقَـةً ... لئـلا تُـرَى فـي عَيْنها مِنَّـةُ الكُحْـلِ

* * *

قالتْ لنا سَوْدَةُ الأهدابِ والمُقَلِ ... ليس التكحُّل في العَيْنَينِ كالكَحَلِ .

* * *

حيـاتُـكَ أنفـاسٌ تُعَـدُّ فكُلَّمـا ... مَضَى نَفَسٌ منها انتَقَصْتَ به جُزْءاً

* * *

من أجمل ما قيل في الرد على المتعالين الظالمين :

لئن كانت الأيامُ أَعْلَتْ له يَداً ... يَطـولُ بهـا فـي ظُلْمِـهِ ويُجـاذِبُ
فمـا مِـن يَـدٍ إلاَّ يَـدُ اللهِ فَـوْقَهـا ... ولا غـالِـبٌ إلاَّ لَـهُ اللهُ غـالِـبُ

* * *

يترجِمُ طَرْفِي عن لِساني بعَبْرَةٍ ... فيُظهِرُ مِن وَجْدِي الذي كُنتُ أكتُمُ

* * *

---

(١) هذه الأبيات جميعاً من الأول إلى هنا، مكتوبة على الصفحة الثانية من «ديوان أبي إسحاق الغَزِّي» المتوفى سنة ٥٢٤ . المكتوبِ بخط عبد الرحمن الطبيب العلواني سنة ٩٩٤، المحفوظ في مكتبة الأوقاف العامة بالموصل، بمكتبة الدكتور محمد صديق الجليلي، برقم ١٣ .

وإنـي لمُفْـنٍ دَمْـعَ عَيْنـيَ بـالبُكـا ... حِذارَ الذي قد كانَ أو هُوَ كائنُ(١)

* * *

قصُّوا عليَّ حديثَ مَنْ قتَلَ الهَوَى ... إنَّ التـأسِّـيَ رَوْحُ كُـلِّ حَـزيـنِ

* * *

إنَّ التشـاغُـلَ بـالـدَّفَـاتِـر والمَحَا ... بِـرِ والكِتـابـةِ والـدِّراسَـهْ

أصـلُ التعبُّـدِ والتـزهُّـدِ ... والـرِّئـاسَـةِ والكِيـاسَـهْ

* * *

إذا بَـدأتَ بـالإحسـانِ تَمِّـمْ ... ومـا الإحسـانُ إلاَّ بـالتَّمَـامِ(٢)

* * *

نهـايـةُ آمَـالـي لِقـاؤكَ مَـرَّةً ... فيا ليتَ شِعري هل يُساعِدُني الدهرُ

* * *

---

(١) هذا البيت والذي قبله من مخطوط لابن الجوزي في مدينة مانشستر في بريطانيا.
[والبيت الأخير منسوب لقيس بن ذُريح العُذْري زوج لُبنى بنتِ الحُبَاب الكَعْبِيَّة. س].

(٢) هذا البيت والذي يليه من ظهر كتاب «الطوالع» للبيضاوي، في مكتبة مراد ملا بإصطنبول برقم ٣٢١.

[ويشبهه قول ابن أبي حاتم:

إذا قلـتُ فـي شـيء (نعـمْ) فـأتِمَّـهُ ... فـإنَّ (نعـمْ) دَيْـنٌ علـى الحُـرِّ واجـبُ

من «مختار العقد الفريد»، ص ٥٥، وفي الباب قول البحتري ــ وقد أجاد ــ :

وجُـودُكَ كلّـه حسـنٌ ولكـنْ ... أجـلُّ الجـودِ حُسْـنُ الابتـداءِ

وقال أبو تمام:

إنَّ ابتـداءَ العُـرْف مجـدٌ سـابـقٌ ... والمجـدُ كـلُّ المجـدِ فـي استتمـامِـهِ

هـذا الهـلالُ يـروق أبصـار الـورى ... حُسنـاً وليـس كحسنِـهِ لتمـامِـهِ

من «المنتحل» المنسوب للثعالبي، ص ٦٩].

ويَـومٌ لا أراك كـألـفِ شَهْـرٍ وشَهْـرٌ لا أَراك كـألْـفِ عـامِ

* * *

من ألطف ما قيل في قهوة البُنّ:

أنـا المَعْشُـوقَـةُ السَّمْـرَا وأُجْلَـى فـي الفَنَـاجِيـنِ
وعُـودُ الهِنْـدِ لـي طِيـبٌ وذِكْـري شَـاعَ فـي الصِّيـنِ
لَـدَى العُبَّـادِ لـي قـدْرٌ كـذا عِنـدَ السَّـلاطِيـنِ

* * *

هَـوَايَ وَرَائـي والمَسِيـرُ خِـلافُـهُ فوَجْهِي إلى بَلْخٍ وقَلْبي إلى الكَرْخِ

* * *

كيف الوصولُ إلى سُعادَ ودُوْنَها قُلَـلُ الجِبَـالِ ودَوْنَهُـنَّ حُتُـوفُ!
الـرِّجـلُ حَـافِيَـةٌ ومـا لِـيَ مَـرْكَـبٌ والكَفُّ صِفرٌ والطَّرِيقُ مَخُوفُ!

* * *

سَرَى نَعْشُهُ فَوْقَ الرِّقَابِ وطالما سَرَى جُودُهُ فَوْقَ الرِّكابِ ونائلُهْ
يَمُـرُّ علـى الـوَادِي فَتُثْنِـي رِمَـالُـهُ عليهِ، وبالنَّادي فتُثْني أرَامِلُهْ[١]

* * *

رأيتُ أخَا الدُّنْيا وإن كان ثَاوِياً أخَا سَفَرٍ يُسْرَى به وهُوَ لا يدري!

الطاقة الثانية الجديدة

إنَّ السـلام وإن أهـداه حـامِلُـهُ وزاده رَوْنقـاً منـه وتحسينـا

---

(١) انظر حول نسبة هذين البيتين الاستدراك في آخر «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»، ص ٣٥١ ـ ٣٥٣. س.

لا يَبلُغ العُشرَ من قولٍ تُبَلِّغُهُ سَمْعَ الأحبةِ أفواهُ المُحبينا[١]

* * *

خليليَّ خليليْ دون ريبٍ وربما ألان امرؤ قولاً فظُنَّ خليلا!

* * *

كتابٌ لو تأمله ضريرٌ لأصبح وهو ذو بصرٍ صحيحِ

* * *

بلادٌ بها حَلَّ الشبابُ بمَفْرِقي وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جلدي ترابُها

* * *

ومن مطلع قصيدة لبشار بن بُرْد قوله:

بَكِّرا صاحِبَيَّ قبل الهجيرِ إنَّ ذاك النجاحَ في التبكير

* * *

«للمتنبي الكِنْدِي أبي الطيب من آخر قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

وقيَّدتُ نفسي في ذُرَاك محبةً ومن وَجَد الإحسانَ قيداً تقيَّدا

* * *

أخوك الذي إن قُمتَ بالسيفِ عامداً لتضربَه لم يَستغشَّك في الوُدِّ
ولو جئتَ تبغي كَفَّهُ لِتُبينَها لبادَرَ إشفاقاً عليك من الرَّدِّ
يَرى أنه في الوُدِّ وانٍ مُقصِّرٌ على أنه قد زادَ فيه عن الجهدِ

* * *

(١) هذان البيتان مما كُتِبَ على وجه كتاب «العفو والاعتذار» لأبي الحسن محمد بن عمران العبدي البصري، المعروف بالرَّقَّام صاحب ابن دريد، المحفوظ في مكتبة برلين برقم ٥٤١٦.

وليس صديقاً من إذا قلتَ لفظةً ... تـوهَّـمَ فـي أثنـاءِ مَـوْقِعِهـا أمْـرا

ولكنـه مـن لـو قَطعـتَ بَنَـانَـهُ ... تـوهَّمـهُ نفعـاً لمصلحـةٍ أخـرى

* * *

لابن الرومي:

لِمَا تُؤذِنُ الدنيا به من صُروفِها ... يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُوضَعُ

وإلاَّ فمـا يُبكيـهِ منهـا وإنهـا ... لأرْوَحُ ممـا كـان فيـه وأوسَـعُ

إذا أبصَـرَ الـدنيـا استهـلَّ كـأنـه ... يَرى ما سيَلْقَى من أذاها ويَسمعُ

وفي رواية:

لِما تؤذِنُ الدنيا به من صروفها ... يكونُ بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ

وإلاَّ فمـا يُبكيـه منهـا وإنَّـهُ ... لأفسَـحُ ممـا كـان فيـه وأرغَـدُ

إذا أَبصـر الـدنيـا استهـلَّ كـأنـه ... بما سوف يَلقى من أذاها يُهدَّدُ»[(١)]

* * *

وفي عنق الحسناءِ يُستحسَنُ العِقدُ

* * *

«وأتعبُ الناس ما بين الورى رجل ... يسـالـمُ النـاسَ والـدنيـا تُحـارِبُـه

* * *

ويـأبـى الحُـرُّ عـن ظمـأ وروداً ... إذا ازدحمـت علـى البئـر الـدلاءُ

* * *

(١) كل هذا منقول من شواهد «الكشاف» لمحب الدين أفندي التركي رحمه الله تعالى.

فـلا تجعـل عيـوب النـاس شغـلاً إليك فأنت أكثرُهُم عيوبا»[١]

* * *

ومما رأيتُه مكتوباً على ظهر بعض الكتب المخطوطة دون نسبة إلى قائلِه:

وَهَـتْ عَـزَمـاتُـك عنـد المَشِيبِ ومـا كـان مـن حَقِّهـا أن تَهِـي!
وأنكـرتَ نفسَـك لمَّـا كَبِـرْتَ فـلا هِـيَ أنـتَ ولا أنـتَ هـي!
وإن ذُكِـرَتْ شَهَـوَاتُ النُّفُـوس فمـا تَشتَهِـي غيـرَ أن تَشْتَهِـي!

* * *

ولمـا دعـوتُ الصبـرَ بعـدَك والبُكـا أجاب البُكا طوعاً ولم يُجبِ الصبرُ[٢]

* * *

مما رأيته على وجه كتاب مخطوط دون تسمية القائل:

عجبـتُ لأهـلِ العلـمِ كيـف تغـافلـوا عن الدينِ واستغشَوا ثيابَ المهالِكِ
يطـوفـون حـول الظـالميـنَ كـأنَّمَـا يطوفونَ حولَ البيتِ وقتَ المناسكِ

رأيته بحلب ٢٧ من رجب سنة ١٤١٦

* * *

ومما رأيته مكتوباً على وجه كتاب مخطوط، ما كُتب على وجه كتاب «الاقتراح في مَعَاني الاصطلاح» للإمام ابن دقيق العيد، في مخطوطة دمشق، ما يلي:

العَيْلُولة تُفْقِر، وهي نومُ أولِ النهار.

---

(١) هذه المفردات من شعر الشيخ أحمد الصابوني الحموي المتوفى سنة ١٣٣٤، كما في ترجمته في «الأعلام للزركلي» ١ : ٩٠.

(٢) منسوب لعبيد الله بن عائشة. وهو عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي. س.

والغَيْلُولة تُسْقِم، وهي نومُ آخِرِ النهار.

والقَيْلُولة تُغْنِي، وهي نومُ وسَطِ النهار.

* * *

ومما رأيته مكتوباً على وجه كتاب مخطوط [طبع عن مكتبة العبيكان بالرياض]، كتاب «الانتصار في المسائل الكبار» لمحفوظ بن أحمد الكَلْوَذَاني إمام السادة الحنابلة في عصره، بقلم بعض العلماء:

«من أدب الجدل: جاء رجل إلى بعض الأئمة الحكماء، فقال: أريد أن أناظرك، فقال: بعد أن تشترط على نفسك عَشْرَ خِصال:

أحدُها: لا تغضب. **والثانية**: لا تَتعَب. **والثالثةُ**: لا تَعْجَب. **والرابعةُ**: لا تتحكَّم. **والخامسةُ**: لا تَضْحَك. **والسادسةُ**: لا تجْعَل الدَّعْوَى دَلِيلَك. **والسابعةُ**: إذا أخَذْنا في الأخبار كان غَرَضُنا التصادُقَ. **والثامنةُ**: إذا أخذنا بما في العُقُول انْقَدْنا للتعارُف. **والتاسعةُ**: أن يجعلَ كلُّ واحدٍ منا الحقَّ ضالَّته، لا الغلبةَ غايتَهُ. **والعاشرةُ**: أن لا تُقبلَ على غيري وأنا أكلِّمُك، والسلام». انتهى. وهي آداب غايةٌ في بابها.

* * *

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب

المحققات والمؤلفات للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة رحمه الله تعالى وغفر له :

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي، صدرت الطبعة الثامنة.

٢ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، في علوم الحديث للكنوي، الطبعة السادسة.

٣ ـ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام اللكنوي أيضاً، الطبعة الثالثة.

٤ ـ رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي، الطبعة الثامنة مزيدة من التحقيق والتعليق والمقابلة بالنُّسخ الخطية، طبعت ببيروت ١٤١٥، وصدرت الطبعة الحادية عشرة مصحَّحة ومنقَّحة ومدقَّقة.

٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري، الطبعة السادسة.

٦ ـ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للفقيه المالكي الإمام شهاب الدين أبي العباس القَرَافي، تصدر الطبعة الثالثة منقحة ومصححة.

٧ ـ فتحُ بابِ العِنَايةِ بشرح كتابِ النُّقَايةِ في الفقه الحنفي للإمام علي القاري الجزء الأول: كتاب الطهارة، صدرت الطبعة الثانية.

٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام ابن قيم الجوزية، صدرت الطبعة السادسة.

٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً، الطبعة السادسة.

١٠ ـ فقه أهل العراق وحديثهم للإمام المحقق محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، وقد صدرت الطبعة الثالثة مضافة إلى مقدمة نصب الراية، الطبعة المحققة.

١١ ـ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث وناقد، وقد أدرجت هذه الرسالة ضمن حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث، وصدرت طبعتها المستقلة الثانية.

١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخزرجي، خيرُ كتب الرجال المختصرة، بتقدمة واسعة وترجمةٍ لمحشِّيه للأستاذ أبو غدة، الطبعة الخامسة.

١٣ ـ صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة، نفدت الطبعة السابعة وصدرت الطبعة الثامنة.

١٤ ـ قواعد في علوم الحديث للعلامة ظَفَر أحمد العثماني التهانوي، الطبعة الثامنة.

١٥ ـ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات، بقلم الأستاذ أبو غدة أيضاً، الطبعة الثانية، وهي رَدٌّ على أباطيل وافتراءات ناصر الألباني وصاحبه سابقاً زهير الشاويش ومؤازِرِيهما.

١٦ ـ قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي، الطبعة السابعة.

١٧ ـ المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الطبعة السابعة.

١٨ ـ ذكرُ من يُعتمَدُ قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي، الطبعة السابعة.

١٩ ـ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج للأستاذ أبو غدة، الطبعة الرابعة، مزيدة من التحقيق والتعليق والتراجم والفوائد العلمية عن سابق الطبعات، ببيروت ١٤١٥ . وصدرت الطبعة السادسة مصححة ومنقحة في بيروت ١٤٢٩ .

٢٠ ـ قيمة الزمن عند العلماء، بقلم الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة عشرة ١٤٣٠ .

٢١ ـ قصيدة «عُنوانُ الحِكَم» لأبي الفتح البُسْتي، بتعليق الأستاذ أبو غدة أيضاً، الطبعة الرابعة .

٢٢ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث، للحافظ الذهبي، صدرت الطبعة الثامنة منقَّحة .

٢٣ ـ لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، صدرت الطبعة الرابعة موشاة ومحشاة ومزيدة جدًا عن الطبعة الثالثة .

٢٤ ـ تراجمُ سِتَّةٍ من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، بقلم الأستاذ أبو غدة .

٢٥ ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للحافظ ابن عبد البر، يصدر لأول مرة في طبعة محققة مقابلاً على ثلاث نسخ خطية . صدرت الطبعة الثانية .

٢٦ ـ سنن النسائي، اعتنى به ورقَّمه وصَنَع فهارسه الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة .

٢٧ ـ الترقيم وعلاماته في اللغة العربية لأحمد زكي باشا، الطبعة الثانية مزيدة مِنَ التعليق، ١٤١٥ .

٢٨ ـ سِبَاحة الفِكْر في الجهر بالذكر للإمام اللكنوي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة، الطبعة الثالثة.

٢٩ ـ قفو الأثر في صفو علوم الأثر لابن الحنبلي، الحنفي الحلبي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.

٣٠ ـ بُلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب للحافظ المرتضى الزبيدي، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.

٣١ ـ جواب الحافظ عبد العظيم المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل، اعتنى به الأستاذ أبو غدة.

٣٢ ـ أُمراءُ المؤمنين في الحديث، رسالة لطيفة فيها مباحث هامة، تأليف الأستاذ أبو غدة. الطبعة الثانية.

٣٣ ـ تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار صلَّى الله عليه وسلَّم للإمام اللكنوي. ومعها:

٣٤ ـ نخبة الأنظار على تحفة الأخيار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً.

٣٥ ـ التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للإمام المحقق الشيخ طاهر الجزائري، صدرت الطبعة الرابعة.

٣٦ ـ توجيه النظر إلى أصول الأثر للإمام طاهر الجزائري أيضاً حققه الأستاذ أبو غدة.

٣٧ ـ صفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة.

٣٨ ـ الإسناد من الدين. رسالة تُبَيِّن فضل الإسناد وأهميته والعلوم التي يتعين فيها، له أيضاً.

٣٩ ـ السنة النبوية وبيانُ مدلولها الشرعي، والتعريف بحال سنن الدارقطني للأستاذ أبو غدة أيضاً.

٤٠ ـ تحقيقُ اسمَيْ الصحيحين واسم جامع الترمذي للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة أيضاً.

٤١ ـ منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلم ما يقع وما لم يقع، له أيضاً.

٤٢ ـ من أدب الإسلام، رسالة توجيهية سلوكية تتصل بحياة المسلم أوثق اتصال له أيضاً. صدرت الطبعة الأولى من القطع المعتاد، وصدرت الطبعة السابعة من القطع الصغير.

٤٣ ـ ظَفَر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجُرجاني للكنوي من أوسع كتب المصطلح. ومعه:

٤٤ ـ أخطاء الدكتور تقي الدين النَّدْوي في تحقيق كتاب ظَفَر الأماني للكنوي، للأستاذ أبو غدة.

٤٥ ــ تصحيح الكتب وصُنعُ الفهارس المُعْجَمة وسبقُ المسلمين الإفرنجَ فيها للعلامة أحمد شاكر.
٤٦ ــ تحفة النُّسّاك في فضل السواك للعلامة الفقيه عبد الغني الغُنَيمي الميداني الدمشقي.
٤٧ ــ كشف الالتباس عما أورده الإمام البخاري على بعض الناس للعلامة الغُنَيمي أيضاً.
٤٨ ــ رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة الإسلامية التي يُنشَّأُ عليها الصغار.
بعناية الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة، صدرت الطبعة الخامسة منقحة.
٤٩ ــ التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز للعلامة المحدث الفقيه محمد زاهد الكوثري.
٥٠ ــ كتاب الكسب للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي. الطبعة الثانية.
٥١ ــ الحث على التجارة والصناعة والعمل للإمام أبي بكر أحمد بن محمد الخلّال الحنبلي.
٥٢ ــ رسالة الحلالُ والحرامُ وبعضُ قواعدهما في المعاملات المالية للشيخ ابن تيمية. الطبعة الثانية.
٥٣ ــ رسالة الأُلفة بين المسلمين من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. ومعها:
٥٤ ــ رسالة الإمامة للإمام ابن حزم في جواز الاقتداء بالمخالف
في الفروع. صدرت الطبعة الثانية مصحَّحة ومنقحة.
٥٥ ــ رسالة الإمام أبي داود السجستاني لأهل مكة في وصف كتابه السنن.
٥٦ ــ رسالة الحافظ الإمام أبي بكر الحازمي في شروط كتب الأئمة الخمسة.
٥٧ ــ رسالة الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في شروط كتب الأئمة الستة.
وهذه الرسائل مطبوعة باسم: ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث. الطبعة الثانية.
٥٨ ــ الرسول المعلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة. صدرت الطبعة الرابعة مصححة ومنقحة.
٥٩ ــ نماذج من رسائلِ الأئمة السلف وأدبهم العلمي وأخبارِهم في أدب
الخلاف، له أيضاً. صدرت الطبعة الثانية مصححة ومنقحة.
٦٠ ــ مكانة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الحديث. كتابٌ نفيس للغاية فريدٌ في بابه،
تأليف العلامة المحدث الناقد الفقيه الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني، صدرت الطبعة الخامسة.
٦١ ــ الإمامُ ابن ماجه وكتابُه السنن. أولُ كتابٍ جامع في موضوعه للعلامة النعماني أيضاً.
٦٢ ــ التحفة المرغوبة في أفضلية الدعاء بعد المكتوبة للعلامة المحدِّث
الفقيه محمد هاشم التَّتَّوي السِّندي. صدرت الطبعة الثانية منقحة.
٦٣ ــ المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلامة المحدِّث
الفقيه أحمد بن محمد بن الصديق الغُمَاري الحَسَني المغربي. صدرت الطبعة الثانية منقحة.
٦٤ ــ سنية رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة
للعلامة المحدِّث الفقيه السيد محمد الأهدل اليمني: صدرت الطبعة الثانية منقحة.
٦٥ ــ خطبة الحاجة ليست سنة في مستهل الكتب والمؤلفات كما يقول الشيخ الألباني،
رسالة مبتكرة محرَّرة بقلم الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة، الطبعة الثانية.
٦٦ ــ مقدمة التمهيد، لابن عبد البرّ. بعناية الشيخ أبو غدة.

٦٧ ـ رسالة في وصل البلاغات الأربعة في الموطأ، لابن الصلاح.
٦٨ ـ ما لا يسع المحدث جهله، للميَّانشي. بعناية الشيخ أبو غدة.
٦٩ ـ التسوية بين حدثنا وأخبرنا، للطحاوي. بعناية الشيخ أبو غدة.
٧٠ ـ رسالة في جواز حذف قال في أثناء الإسناد، لابن بَنِّيس الفاسي.
٧١ ـ لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة محقَّقة ومفهرسة، بعناية الشيخ أبو غدة.

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً مما أتمه الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدة رحمه الله تحقيقاً وتعليقاً بعناية ابنه سلمان:

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام اللكنوي، الطبعة التاسعة مزيدة ومنقحة.
٢ ـ مبادىء علم الحديث، للعلامة المحدث الفقيه شبِّير أحمد العثماني.

